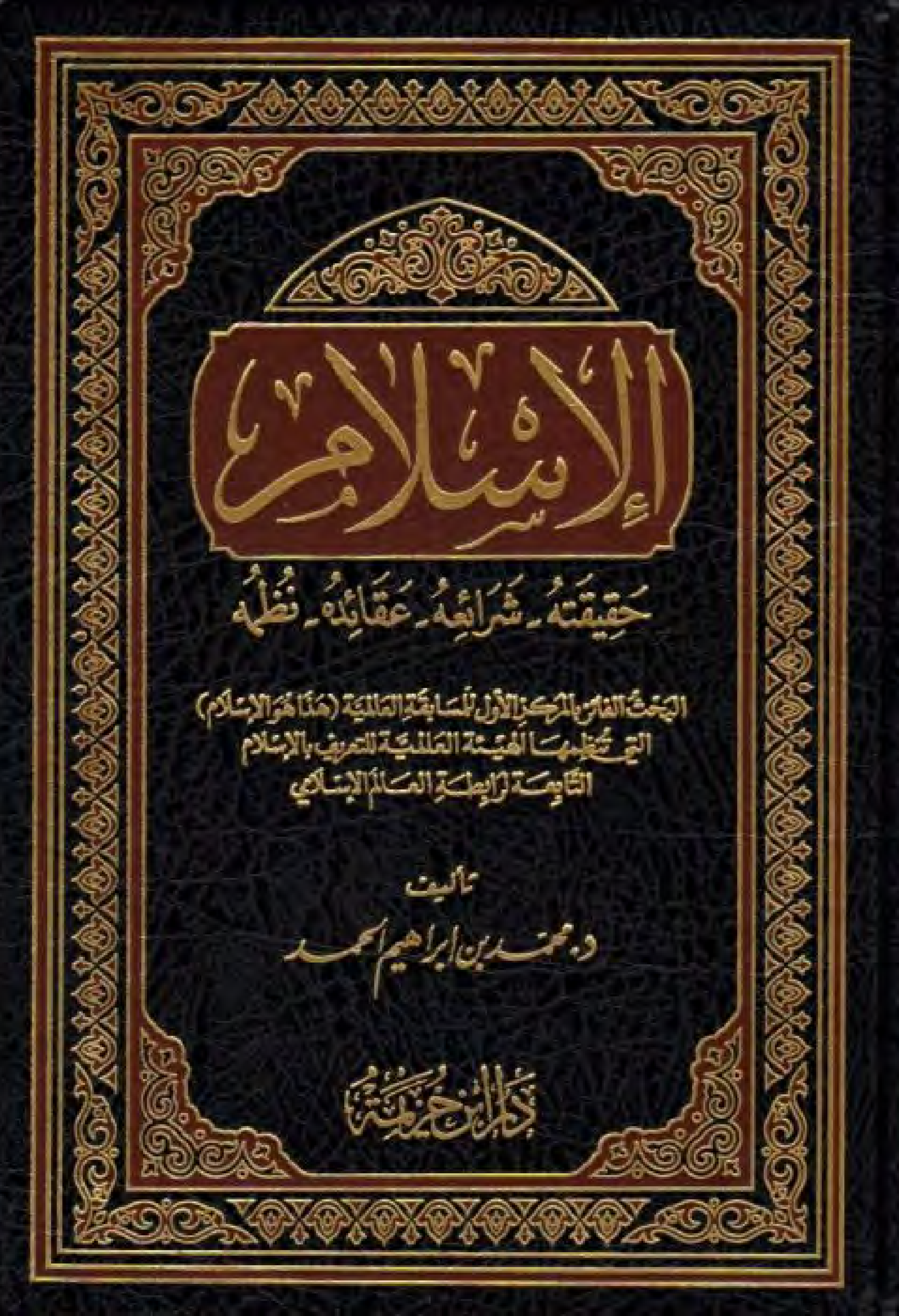

الإسلام
حقيقته - شرائعه - عقائده - نظمه
البحث الفائز بالمركز الأول للمسابقة العالمية (هذا هو الإسلام)
التي تنظمها الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام
التابعة لرابطة العالم الإسلامي
تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد
دار ابن خزيمة

تقريظ

تقريظ الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام التابعة لرابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن حاجة البشرية إلى الإسلام ماسَّة، بل إن ضرورتها إليه مُلِحَّة؛ فالنفوس لا تطيب، ولا تسعد إلا بتوجهها إلى إلهها وفاطرها، ولا تستقيم أحوال الأفراد والمجتمعات والدول إلا بسيرها على شرع خالقها الذي هو أعلم بمصالحها.

فلا غرو ـ إذاً ـ أن نرى المجتمعات غير المسلمة التي نالت من زهرة الدنيا ما نالت؛ من حيث الرفاهيةُ، والحرية، والعَبُّ من الشهوات دون حسيب أو رادع ـ تعيش حالة من القلق، والضياع، والمادية البحتة التي تسيطر على كثير من أحوالها.

كيف لا؟ وهي لم تصل إلى المنهج الرباني الذي يزكي نفوسها، ويجيب عن أسئلتها الحائرة؟.

لذا كان من الواجب على أمة الإسلام الأمة الشاهدة القوامة أن تضطلع بمسؤوليتها تجاه البشرية جمعاء؛ فتسعى سعيها لنشر هداية الإسلام، وتبيان محاسنه، وشموليته، وعدله؛ لكي تقوم حجة الله البالغة، ويُهدى من شاء الله هدايته.

ولقد قام أهل الإسلام في القديم والحديث بعمل جبار في ذلك السبيل؛ غير أن الأمر ـ في هذه الأزمان ـ أعظم، والحاجة أَمَسُّ إلى مضاعفةِ الجهد، وإلباسِ الدعوة أثواباً تلائم حال العصر وأهله، وتواجه ذلك الزيف والدجل الذي يمارسه الإعلام المضلل الحاقد، وتبرئ ساحة الإسلام من تبعات بعض المنتسبين إليه وهم بعيدون عن هدايتهم، وتقف أمامَ كلِّ ما يصد عن تعريف الناس بالإسلام الذي أتم الله به على البشرية النعمة، ورضيه ديناً خاتماً عاماً إلى قيام الساعة.

ومن هذا المنطلق كان من أهم مهمات الهيئة العالمية للتعريف بالإسلام التابعة لرابطة العالم الإسلامي ـ أن تسهم في ذلك الميدان، وكان من إسهاماتها فيه أن رأت بعد مداولات، ومشاورات، وبعد جولات في كثير من بقاع العالم ـ أن الحاجة تدعو إلى إعداد محتوى يعرِّف بالإسلام، ويبرز محاسنه.

وقد اجتمع لها من جرَّاء ذلك محاور كثيرة تحتاج إلى صياغة جديدة تلائم روح العصر ـ كما مر ـ وذلك وَفْقَ منهج علمي محدد؛ بعيداً عن التفريط أو الإفراط، أو كما يقول الباحث: (بعيداً عن لغة التعالي والاستفزاز، ولغة التبعية والانهزام) فنشأت فكرة إطلاق المسابقة البحثية التي جاءت حاملة مسمى (هذا هو الإسلام) وعُممت على الجامعات في العالم الإسلامي؛ رغبة في أن يشارك فيها أكبر عدد ممكن، وكُوِّن لها مجموعة من المحكِّمين من أهل الاختصاص من أساتذة الجامعات المشهود لهم بسعة العلم، ورجاحة العقل، والخبرة، وطول الباع في التحكيم.

وبعد ذلك توالت البحوث تلو البحوث التي بذل فيها أصحابها جهداً طيباً مباركاً.

ولكن اليد الطولى، والقِدح المعلى كان لفارس السباق الأول، وخرِّيته المبجل الشيخ الأديب الحبيب الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد الذي فاق أقرانه بلا منازع؛ فنال المركز الأول بالانفراد، وحصل على التقدير اللائق في كافة لجان التحكيم؛ لما اتصف به بحثه من الشمول، والاستيعاب، وحسن العرض، والمناقشة، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، والحرص على التوثيق العلمي، فخرج بهذه الحلة البديعة التي نأمل أن تكون رافداً من روافد التعريف بالإسلام، وزاداً يعين الدعاة على ما هم بصدده من الدعوة إلى الله.

أسأل الله أن يبارك في هذا العمل، وأن ييسر ترجمته إلى كافة لغات العالم.

كما أسأله ـ عز وجل ـ أن يجزي الباحث وزملاءه الباحثين، ولجنة التحكيم الموقرة خير الجزاء، وأن يجعلنا جميعاً مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كنا.

كتبه:

حبيب بن محمد الحارثي

الأمين العام المكلف للهيئة العالمية للتعريف بالإسلام

المدينة المنورة

١٤٣٤/١٢/١هـ

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد

فإن الإسلام خاتم الأديان، وأشملها، وأعمها، فلقد أكمله الله -عز وجل- وأتم به على عباده النعمة، ورضيه لهم ديناً.

وإن الحديث عن الإسلام لذو شجون؛ فهو يبدأ ولا ينتهي؛ إذ في الإسلام حُكْمُ كلِّ شيء، وتفصيل كلِّ شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨ .

فلم يغادر الإسلام صغيرة ولا كبيرة من قضايا الاعتقاد، أو العمل، أو التشريع، أو الآداب إلا وأحاط به إجمالاً أو تفصيلاً سواء كان ذلك في شأن الأمة بعامة، أو في شأن الإنسان في خاصة نفسه.

ولم يفارق رسول الإسلام محمد ﷺ هذه الدنيا إلا وقد بيَّن للأمة جميع ما تحتاج إليه من أمر دينها؛ فبلغ رسالة ربه، وأقام الحجة على الناس من بعده.

وهذا البحث الذي بين يديك يسعى جاهداً لإعطاء صورة عامة عن دين الإسلام.

وأنَّى لكاتب -ولو ألقت إليه البلاغة بأَعِنَّتِهَا- أن يقوم بذلك الجهد كما ينبغي؛ لأن الموضوع -كما مر- متشعب طويل.

والمشكلة في ذلك لا تكمن في قلة توافر المادة العلمية، أو التاريخية، أو نحوها.

وإنما تكمن في كثرة المحاور التي أُريدَ أن يدور حولها البحث؛ لتكون في كتاب تغلب عليه صبغة الوضوح والإيجاز.

ولا ريب أن ذلك المطلب صعبُ المرتقى، بعيدُ المنال.

ثم إن هناك صعوبةً أخرى ، وهي كيفية إبراز دين الإسلام بصورته المشرقة التي ينبغي أن يعرفها كلُّ محبٍّ للحقيقة ، والتي تكشف ما ينطوي عليه ذلك الدين من الخير العظيم للبشرية جمعاء؛ فذلك مما يحتاج إلى مزيد عناية ودقة.

ولقد حرصت على تحقيق تلك الأمنية العظيمة ، وحاولت جهدي أن أسيطر على البحث ، فصار يتغلب علي ، ويزداد توسعاً؛ إذ إن كل محور من مَحاوره ، بل كل جزئية من أجزاء تلك المحاور جديرة بالدراسة والتحليل؛ لتخرج في أبحاث خاصة.

ولهذا صرت أختصر كثيراً؛ لأجل أن آتي على جميع المحاور مع محاولة الإيجاز ، ومراعاة حال العصر.

ومهما يك من شيء فهذا جهد المقل ، وهو ما سيتضح من بيان خطة البحث ، والعملِ الذي سرت عليه في غضونه.

خطة البحث: اشتملت خطة البحث على: مقدمة ، وثمانية أبواب ، وخاتمة وذلك كما يلي:

الباب الأول: حقيقة الدين الإسلامي ، ومصادر تشريعه ، وأركانه.

الباب الثاني: أركان الإيمان.

الباب الثالث: محمدﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

الباب الرابع: مسائل في علم الغيب.

الباب الخامس: مسائل في الذنوب والتوبة والدعاء.

الباب السادس: النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأسري في الإسلام.

الباب السابع: موقف الإسلام من بعض القضايا المعاصرة.

الباب الثامن: الدلائل على حقيقة الإسلام.

فهذه هي أبواب البحث ، وتحت كلِّ بابٍ عددٌ من الفصول ، وتحت كلِّ فصلٍ عددٌ من المباحث ، وربما احتوت الفصول أو المباحث على تمهيد بحسب الحاجة والسياق.

الخاتمة: وفيها خلاصة موجزة لما جاء في البحث.

عمل الباحث: لقد راعى الباحث في هذا البحث أموراً عديدة منها:

١ـ كان حرصه شديداً على أن تكون محاور البحث مستقلةً عن بعض، وأن تكون في الوقت نفسه مترابطة؛ فتكون مستقلة من جهة صلاحها لأن تُفْرد، وتكون مترابطة من جهة أن البحث يكمِّل بعضه بعضاً، ويؤيد بعضه بعضاً؛ لأن الإسلام دين محكم مترابط لا ينفك بعضه عن بعض.

٢ـ حرص على أن تكون لغة البحث هادئةً تراعي العقلية المسلمة وغير المسلمة، خصوصاً العقلية الغربية، وأن تكون لغته بعيدة عن الانهزام، أو الاستفزاز؛ فذلك أدعى للقبول.

ويتسنى ذلك بالتأكد من صحة المعلومة، والحرص على بيان الحق بدليله.

ويتسنى ـأيضاًـ بالجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ فالأصالة تعطي البحث قوة، والمعاصرة تعين على فهم أحوال المخاطبين، وتنزيل الكلام على تلك الأحوال.

٣ـ روعي في البحثِ الحرصُ على إظهاره في حلة قشيبة، ومعرض حسن، وذلك من خلال أمور منها:

أـ مراعاة قواعد البحث من عزو، وتخريج، وما جرى مجرى ذلك.

بـ الحرص على سلامة اللغة، ومراعاة قواعد الإملاء، وعلامات الترقيم.

جـ مراعاة أسلوب البحث، والحرص على أن يكون حالاً بين حالين: بين السوقي القريب، والوحشي الغريب.

دـ الرجوع إلى المصادر الأصيلة الموثوقة سواء كانت قديمة أو حديثة.

هـ ملاحظة مادة التشويق، وذلك من خلال وضع العناصر، والتنويع في الاستشهاد والنقل.

وـ الحرص على أن يكون البحث متسماً بالروح والمائية بعيداً عن الجفاء، والجفاف، وعنف الممارسة الأكاديمية.

إلى غير ذلك مما يعين على فهم المقصود، وطرد الملل، وإمكانية تجزئة البحث، أو استلال أبحاث منه.

٤ـ كثير من محاور البحث متقاربة متداخلة يصعب فصل بعضها عن بعض، لذا حرصت على أن يُبحث كلٌّ محور على حدة، وأن يكمل البحثُ بعضُه بعضاً.

٥ـ روعي في البحث أن يكون ملائماً لأن يُقَرَّر ويُدَرَّس عبر مادة الثقافة الإسلامية؛ فيكون رافداً يسد بعضَ الحاجة في هذا الباب.

فهذه هي خلاصة مشكلة البحث، وخطته، وما سيسير عليه ـبإذن اللهـ فإلى تفاصيله، والله المستعان، وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

د. محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: ص.ب: ٤٦٠
١٤٣٣/٥/١٥هـ
جامعة القصيم ـكلية الشريعة والدراسات الإسلاميةـ
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
WWW.TOISLAM.NET
ALHAMAD@TOISLAM.NET
@M__ALHAMAD

الباب الأول

حقيقةُ الدينِ الإسلاميِّ، ومصادرُ تشريعِه، وأركانُه

وتحته:

الباب الأول: حقيقةُ الدينِ الإسلاميِّ، ومصادرُ تشريعِه، وأركانُه

مدخل: في قصة البشرية

تبدأ قصة البشرية منذ أن خلق الله أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ حيث خلقه الله بيده الكريمة من طين، ونفخ فيه من روحه، وعَلَّمَهُ أسماءَ الأشياءِ كلها من الطيور، والدواب، وغير ذلك، وأَمرَ الملائكة أن يسجدوا لآدم؛ زيادة في التكريم والتشريف، فسجدوا كلُّهم إلا إبليس كان من الجن، فأبى واستكبر، فأهبطه الله من ملكوت السموات، وأخرجه ذليلاً مدحوراً، وقضى عليه باللعنة، والشقاء والنار.

وبعد ذلك سأل إبليسُ ربَّه أن يُنظِره إلى يوم القيامة، فقال الله ـتعالىـ: ﴿**إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ**﴾ (الأعراف: ١٥)، فقال إبليس: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**﴾ (ص: ٨٢، ٨٣)، وقال: ﴿**فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ**﴾ (الأعراف: ١٦، ١٧)، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿**ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الأعراف: ١٨)[1].

فأخرجه الله من الجنة، وأعطاه القدرة على الوسوسة والإغواء، وأمهله إلى يوم القيامة، ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، وليجعله الله مَحَكًّا يتميز به الخبيث من الطيب.

---

١ ـ انظر دعوة التوحيد د. محمد خليل هراس ص ٨٩ـ٩١ .

ثم بعد ذلك خلق الله من آدم زوجَه حواء؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، وأمرهما أن يسكنا دار النعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأخبرهما ـ عز وجل ـ بعداوة إبليسَ لهما، ونهاهما عن الأكل من شجرة من أشجار الجنة؛ ابتلاءً وامتحاناً، فوسوس لهما الشيطان، وزيَّن لهما الأكل من تلك الشجرة، وأقسم لهما أنه لهما من الناصحين، وقال: «إن أكلتما من هذه الشجرة كنتما من الخالدين».

فلم يزل بهما حتى أغواهما، فأكلا من الشجرة، وعصيا ربَّهما؛ فندما على ما فعلا أشد الندم، وتابا إلى ربِّهما، فتاب عليهما، واجتباهما، لكنه أهبطهما من الجنة دار النعيم إلى الدنيا دار النصب والتعب، وسكن آدم الأرض، ورزقه الله الذرية التي تكاثرت، وتشعبت إلى يومنا الحاضر، ثم توفاه الله، وأدخله الجنة.

ومنذ أن أهبط اللهُ آدمَ وزوجَه إلى الأرضِ والعداوةُ قائمةٌ مستمرة بين بني آدم من جهة، وبين إبليس وذريته من جهة، ومنذ ذلك الحين وإبليس وذريته في صراع دائم مع بني آدم؛ لصدهم عن الهدى، وحرمانهم من الخير، وتزيين الشر لهم، وإبعادهم عما يرضي الله؛ حرصاً على شقائهم في الدنيا، ودخولهم النار في الآخرة.

ولكن الله ـعز وجلـ لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم الرسل الذين يبيِّنون لهم عبادة ربهم، وينيرون لهم دروب الحياة، ويوصلونهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، فأخبر ـسبحانهـ الجن والإنس أنه إذا أتاكم مني كتاب، أو رسول يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من مرضاتي فاتَّبعوه؛ لأن من اتبع هدى الله، وآمن بكتبه ورسله، وما جاء في الكتب، وما أمرت به الرسل فإنه لا يخاف، ولا يضل، ولا يشقى، بل تحصل له السعادة في الدنيا والآخرة[1].

وهكذا بدأت قصة البشرية، فعاش آدم ومِنْ بعده ذريته عشرةَ قرونٍ وهم

---

١ ـ انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية لابن كثير ١/١٦١ـ٢٣٦، ودعوة التوحيد ص ٨٩ـ٩٢.

على طاعة الله، وتوحيده، ثم حصل الشرك، وعُبِد غير الله مع الله؛ فبعث الله أول رسله وهو نوح -عليه السلام- يدعو الناس إلى عبادة الله، ونبذ الشرك.

ثم تتابع الأنبياء والرسل من بعده على اختلافٍ بينهم في الأزمنة، والأمكنة، وبعض الشرائع، وتفاصيلها مع الاتفاق في الأصل وهو: الدعوة إلى الإسلام، وعبادة الله وحده، ونبذ ما يُعبد من دونه.

إلى أن جاء إبراهيم - عليه السلام - فدعا قومه إلى ترك عبادة الأصنام، وإفراد الله بالعبادة، ثم كانت النبوة في ذريته من بعده في إسماعيل وإسحاق، ثم كانت في ذرية إسحاق.

ومن أعظم الأنبياء من ذرية إسحاق: يعقوب، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى - عليهم السلام -.

ولم يكن بعد عيسى نبي من بني إسرائيل.

وبعد ذلك انتقلت النبوة إلى فرعِ إسماعيل؛ فكان أن اصطفى الله - عز وجل - محمداً ﷺ ليكون خاتماً للأنبياء والمرسلين، ولتكون رسالتُه هي الخاتمةَ، وكتابُه الذي أنزل إليه وهو القرآن هو رسالة الله الأخيرة للبشرية.

ولهذا جاءت رسالته شاملة، كاملة، عامة للإنس والجن، العرب وغير العرب، صالحة لكل زمان ومكان، وأمة وحال؛ فلا خير إلا دلَّت عليه، ولا شر إلا حذَّرت منه، ولا يقبل الله من أحد ديناً سوى ما جاء به محمد ﷺ.[1]

---

١ - انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٥٨-٧١.

الفصل الأول

حقيقة الدين الإسلامي

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإسلام

المبحث الثاني: الإسلام دين الفطرة

المبحث الثالث: الله -جل جلاله- وعموم قدرته -عز وجل-

المبحث الرابع: البر وآثاره العميقة

المبحث الخامس: الأخلاق في الإسلام

المبحث الأول: مفهوم الإسلام

أولاً: مفهوم الإسلام في اللغة: يُطْلَق لفظُ الإسلامِ في اللغة على معان كثيرة، وتكاد هذه المعاني تدور حول: الانقياد، والاستسلام، والطاعة، والإخلاص، وإظهار الخضوع، والقبول.[١]

ثانياً: إطلاقات الإسلام في القرآن الكريم: يطلق لفظ الإسلام في القرآن الكريم عدة إطلاقات، وهي نفس الإطلاقات التي ترد في اللغة، فمن تلك الإطلاقات الواردة في القرآن الكريم ما يلي:

أـ الإسلام بمعنى الإخلاص: قال الله ـتعالى ـ: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ البقرة:١٣١.

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ لقمان :٢٢.

وقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿ **فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ** ﴾ آل عمران:٢٠.

بـ الإسلام بمعنى الإقرار: ومنه قوله ـتعالى ـ: ﴿ **وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ آل عمران:٨٣.[٢]

جـ الإسلام بمعنى التوحيد: قاله ابن الجوزي رحمه الله واستشهد بقول الله ـتعالى ـ: ﴿ **يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟** ﴾ المائدة:٤٤.[٣]

د. الإسلام بمعنى الاستسلام: قاله ابن الجوزي، واستشهد بقوله ـتعالى ـ: ﴿ **وَلَهُۥٓ**

---

١ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ١٢/٢٩٣ـ٢٩٤.

٢ ـ انظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة د. سليمان القرعاوي ص ٣٦٧ـ٣٧٠ .

٣ ـ انظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لابن الجوزي ١/٥١.

أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ آل عمران: ٨٣.[١]

وهناك أقوال أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

ثالثاً: معنى الإسلام في الاصطلاح العام: هو استسلام العبد، وخضوعه لله، والتزام ما أتى به نبي من الأنبياء، وإظهار ذلك.

أو هو: استسلام العبد لله ظاهراً وباطناً بفعل أوامره، واجتناب نواهيه بحسب ما جاء عن الله ـ عز وجل ـ على ألسنة رسله ـ عليهم السلام ـ.[٢]

رابعاً: الإسلام الخاص: هو الاستسلام، والانقياد لله، والالتزام بما جاء به النبي محمد ﷺ.[٣]

وهذا هو الدين الخاتم الذي ختم الله به جميع الأديان، والذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩.

وقال ـسبحانه ـ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران: ٨٥.

وقال النبي ﷺ: « **والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار** »[٤].

---

١ ـ انظر نزهة الأعين النواظر ١/٥١.

٢ ـ انظر لسان العرب ١٢/٢٩٣، وفتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن عثيمين ص٩٤.

٣ ـ انظر التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٧٣ .

٤ ـ صحيح مسلم (١٥٣).

المبحث الثاني: الإسلام دين الفطرة

الفطرة في اللغة: هي الخِلْقة [١]، قال ابن منظور رحمه الله: «وفَطَر الله الخلق يفطرهم: خلقهم، وبدأهم.

والفطرة: الابتداء، والاختراع» [٢].

وقال: «الفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به.

وقد فطره يَفْطُرُه بالضم فَطْراً: أي خلقه» [٣].

فهذا هو معنى الفطرة في اللغة.

أما في الشرع: فهي الإسلام على القول الراجح كما رجح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـرحمهما الله تعالىـ [٤].

فالفطرة من أعظم البواعث على التدين، وأدلة الشرع نصَّت على أن الإنسان نفسه مفطور على الإقرار بالخالق، والعبودية له.

قال ابن القيم رحمه الله: «وذكروا عن عكرمة، ومجاهد، والحسن، وإبراهيم، والضحاك، وقتادة في قوله ـعز وجلـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الروم:٣٠) قالوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: دين الإسلام ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾: قالوا: لدين الله» [٥].

فكل مخلوق قد فُطر على الإيمان بخالقه، وأنه ـ عز وجل ـ رب كل شيء

١ـ انظر لسان العرب لابن منظور ٥/٥٦.

٢ـ لسان العرب ٥/٥٦.

٣ـ لسان العرب ٥/٥٦.

٤ـ انظر شفاء العليل لابن القيم، ص٥٧٢ـ ٥٧٥، وانظر درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٣٧١.

٥ـ شفاء العليل ص ٥٧٢ـ٥٧٣، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٧٦.

وخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم.

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه[1].

قال النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**».

وفي رواية: «**إلا على هذه الملة**» وفي رواية «**إلا على الملة**»[2].

وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله -تعالى- في الحديث القدسي: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[3].

ثم إن الإنسان مفطور على اللجوء إلى ربه -تبارك وتعالى- عند الشدائد، فإذا ما وقع الإنسان -أي إنسان- حتى الكافر الملحد في شدة، أو أحدق به خطر - فإن الخيالاتِ والأوهامَ تتطاير من ذهنه، ويبقى ما فُطِر عليه؛ ليصيح بأعلى صوته، ومن قرارة نفسه، وعميق قلبه، منادياً ربه؛ لِيُفَرِّجَ كربته وهمه، ويلجأ إليه وحده دون سواه.

وصدق الله -تعالى- إذ يقول: ﴿ **فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

وليس المراد بأنه يولد على الفطرة أنه يولد عالماً بأمور الإسلام؛ فالله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ **وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا** ﴾ (النحل: ٧٨).

وليس المراد -أيضاً- أنه يولد ساذَجاً لا يعرف شركاً ولا توحيداً؛ لأن

---

١ - انظر رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن عثيمين ص١١، ودراسات في الأديان اليهودية والنصرانية د. سعود الخلف ص٢٧.

٢ - رواه البخاري ٩٧/٢، ومسلم (١٢٥٨).

٣- مسلم (٢٨٦٥).

الرسولﷺ قال: «**إلا ويولد على الملة**» وفي رواية: «**على هذه الملة**».

بل المراد أن كل مولود يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية، فلو خُلِّي وعدمَ المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية، والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه [١].

ولذلك قال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

ولم يقل يسلمانه؛ لأنه باقٍ على الأصل، فاعتناق غير الإسلام يعد خروجاً عن الأصل والقاعدةِ بأسباب خارجة.

فكل مولود ـ إذاً ـ على وجه الأرض يولد على الفطرة، وهي دين الإسلام؛ فالمولود يولد مقرًّا بخالقه، محبًّا له، متوجهاً إليه.

فإذا بقي على هذه الفطرة فهو مسلم على الأصل، ولا يحتاج إلى تجديد الدخول في الإسلام إذا بلغ وعقل.

أما إذا نشأ بين أبوين غير مسلمين، واعتنق دينهما الباطل، أو كان معتنقاً أي دين غير الإسلام كان واجباً عليه أن يتخلى عن دينه السابق، ويدخل في دين الإسلام؛ فيشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم يبدأ بتعلم ما يقيم به شعائر دينه من إقامة الصلاة ونحو ذلك.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مبيناً معنى كون الناس مفطورين على الدين الحنيف: «ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف: أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين وجعل تعاليمه مناسبة لِخِلْقَتِهِم غير مجافية لها، غير نائين عنه، ولا منكرين له مثل إثبات الوحدانية لله؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل، والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسانُ وتفكيرَه، ولم يُلَقَّن

---

١ ـ انظر شفاء العليل ص٥٧٨ـ٥٧٩.

اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكون الإسلام هو الفطرة، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه.

أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية، وهذا ما أفاده قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يوسف: ٤٠ .

فالإسلام عام خالد مناسب لجميع العصور، وصالح بجميع الأمم، ولا يستتب ذلك إلا إذا بُنِيت أحكامه على أصول الفطرة الإنسانية؛ ليكون صالحاً للناس كافة، وللعصور عامة، وقد اقتضى وصف الفطرة أن يكون الإسلام سمحاً يسراً؛ لأن السماحة واليسر مبتغى الفطرة»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً معنى وصف الإسلام بأنه فطرة الله، قال: «فَوَصْفُ الإسلام بأنه فطرة الله معناه أن أصل الاعتقاد فيه جارٍ على مقتضى الفطرة العقلية.

وأما تشريعاته وتفاريعه فهي: إما أمور فطرية ـأيضاًـ أي جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته.

وقوانين المعاملات فيه هي راجعة إلى ما تشهد به الفطرة؛ لأن طلب المصالح من الفطرة»[2].

وهكذا يتبين أن الإسلام هو الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، وأن الإنسان مفطورٌ على الإقرار بالخالق، والعبودية له؛ فهذا هو التدين، وذلك باعثه؛ فهذا مقتضى ما دلَّت عليه النصوص صراحة.

كما دلَّت النصوص ـأيضاًـ على: أن هذه الفطرة والإقرارَ بالخالق إلهاً وربًّا قابلة للتأثر، والتغير، والانحراف بفعل مؤثرات خارجية، وأن هذه المؤثراتِ التي

١ـ تفسير التحرير والتنوير ٩/٢١ .

١ـ تفسير التحرير والتنوير ٩/٢١ .

تؤدي إلى انحراف الفطرة عن وجهتها الصحيحة على ضوء هذه الأدلة ثلاثة:

١. **الشياطين:** وهي المؤثر الأصلي والأول على هذا الأمر، كما دل على ذلك حديث عياض بن حمار رضي الله عنه المتقدم.

والشياطين شامل لشياطين الجن والإنس ممن يسعون لصرف الناس عن فطرتهم، وإقبالهم على ربهم.

٢. **الأبوان:** كما في الحديث السابق، في قوله ﷺ: «فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه».

وهذا المؤثر من أقوى المؤثرات؛ لشدة التصاق الأولاد بآبائهم، وقوة تأثير الآباء عليهم.

وقد يقوم المجتمع، والإعلام بدور الأبوين أو أشد من جهة صرف الناس عن مقتضى الفطرة.

٣. **الغفلة:** وهي من أشد المؤثرات الصارفة عن الفطرة؛ فالغفلة بمباهج الدنيا، والاشتغال بنعيمها قد يُنسي الإنسان ربه، ويصرفه عن فطرته التي فَطَرَه الله عليها.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ**﴾ الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

فهذه الآية تبين أن الغفلة من أعظم أسباب الانصراف عن الفطرة[1].

ولسائل أن يسأل فيقول: ما فائدة الفطرة طالما أنها على تلك الحال من التأثر

١- انظر دراسات في الأديان ص ٢٨-٣٠.

بهذه المؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى انحرافها، ولا يكاد الإنسان ينفك عن واحد من هذه المؤثرات والصوارف، أو كلها؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن حكمة الله اقتضت جعل الفطرة بهذه الحال ليتحقق الغرض من ابتلاء الإنسان بالخير والشر ومن ثم جزاؤه على عمله، إذ لو كانت الفطرة قوية لا تتأثر بشيء لما وقع الكفر والانحراف في بني آدم، بل صاروا غير قابلين للكفر فلا يتحقق الإبتلاء، ولله الحكمة البالغة.

ومع ذلك فإن لهذه الفطرة فوائد عديدة منها:

أولاً: أن هذه الفطرة غرزت في النفس البشرية التدين والتعبد لله ـ تعالى ـ.

فإذا لم يهتد الإنسان إلى الله عز وجل فإنه يُعبد نفسه لأي معبود آخر ليشبع في ذلك نهمته إلى التدين، وذلك كمن استبد به الجوع فإنه إذا لم يجد الطعام الطيب الذي يناسبه فإنه يتناول كل ما يمكن أكله ولو كان خبيثاً ليسد به جوعته.

وهذا ما يفسر لنا وجود التدين عند عموم البشر وقد يكون الدين والمعبود في كثير من الأحيان باطلاً.

ثانياً: أن هذه الفطرة جعلت في جبلة الإنسان قبول العبودية والانسجام مع لوازمها، وهذا من الأمور المهمة للإنسان، لأن كل ما لا يتفق مع الفطرة فإن النفس تنفر منه ولا تستجيب لمتطلباته.

ثالثاً: أن هذه الفطرة مرجحة للحق، فإذا تعرف الإنسان على دينين حق وباطل، فإن الفطرة تميز بينهما وتميل إلى الحق بل يقع ذلك في قرارة النفس ويتيقن القلب منه، فإما أن يعلن ذلك ويلتزم به، أو لا يستجيب له بسبب هوى، أو خوف، أو إلف وتقليد ونحو ذلك من الصوارف عن الحق، كما قال ـعز وجلـ عن فرعون وقومه: ﴿**وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ**﴾ النمل آيه (١٤).

رابعاً: أن هذه الفطرة تهب للمهتدي يقينا بالحق الذي هو عليه وإن لم يكن عنده من الأدلة النظرية ما يهبه هذا اليقين، وهذا يفسر لنا -والله أعلم- عدم ترك المسلم لدينه رغبة عنه وما ذلك إلا لتناسبه مع فطرته، فيعطيه ذلك يقيناً بأنه الحق، وكذلك من اهتدى إلى الإسلام من ذوي الأديان الأخرى الباطلة، فإنه يتمسك به تمسك الغريق بحبل النجاة، وما ذلك إلا لتيقنه من أن هذا الدين هو الحق، لتناسبه وانسجامه مع الفطرة. والله أعلم[1].

١ـ انظر دراسات في الأديان ص ٣٠ـ٣١ .

المبحث الثالث: الله – جل جلاله – وقدرته – عز وجل –

تمهيد:

الحديث في هذا المبحث سيتناول شيئاً من التعريف بالله -جل جلاله- وبعموم قدرته -عز وجل-.

أما الحديث عن إثبات وجود الله -عز وجل- وأدلة وحدانيته فسيكون عند الحديث عن الركن الأول من أركان الإيمان، ألا هو الإيمان بالله حيث سيكون هناك تفصيل في أدلة الوحدانية.

أما هذا المبحث فسيدور حول العلم بالله -جل جلاله- وعموم قدرته -تبارك وتعالى-.

المطلب الأول: الله -جل جلاله-

ٱللَّهُ: هو رب كل شيء ومليكه، الخالق وحده، المدبر للكون كله، العالم بكل شيء، المحيي، المميت، الرزاق، القادر، المتصف بكل كمال، المتنزه من كل نقص وعيب، المستحق للعبادة وحده.

قال الله ـ عز وجل ـ معرفاً عباده بنفسه: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ الحشر.

وقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ**

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ البقرة: ٢٥٥.

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الحج: ٦٢.

وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ الإخلاص.

ولله -عز وجل- **أسماء كثيرة** سمى بها نفسه، وقد ورد في الآيات السابقة شيء منها، والقرآن الكريم والسنة المطهرة حافلان بذكر أسماء الله -عز وجل-.

وكل اسم من تلك الأسماء يتضمن صفة يتصف بها الله -تبارك وتعالى-[1].

هذا وإن أشهر تلك الأسماء، وأعظمها، وأجلها هو اسم (**ٱللَّه**).

ولهذا الاسم خصائص كثيرة منها ما يلي:

١- **أنه اسم الله الأعظم**: حيث ذكر ذلك جماعة من أهل العلم، وبينوا أن الله - هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي به الرب أجاب، وإذا سئل به أعطى.

٢- **أن هذا الاسم هو الأصل لجميع أسماء الله الحسنى،** وسائر الأسماء مضافة إليه، ويوصف بها، قال الله -تعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الأعراف: ١٨٠.

وقال -تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ طه: ٨.

وقال -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الحشر: ٢٢-٢٤.

---

١ - انظر بدائع الفوائد لابن القيم ١/١٥٩-١٧٠، والقواعد المثلى للشيخ محمد بن عثيمين ص ٣٧-٣٨.

ويقال: الرحمن الرحيم الخالق الرزاق العزيز الحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن الرحيم، أو من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

٣ـ أن هذا الاسم مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي هي صفات الجلال والكمال والعظمة؛ فهو الاسم الذي ترجع سائر أسماء الله الحسنى إليه، وتدور معانيها عليه.

٤ـ أنه الاسم الذي اقترنت به عامة الأذكار المأثورة، فالتهليل، والتكبير، والتحميد، والتسبيح، والحوقلة، والحسبلة، والاسترجاع، والبسملة، وغيرها من الأذكار مقترنة بهذا الاسم غير منفكة عنه، فإذا كَبَّر المسلم ذكر هذا الاسم، وإذا حمد ذكره، وإذا هلل ذكره، وهكذا في عامَّة الأذكار.

٥ـ أنه أكثر أسماء الله الحسنى وروداً في القرآن الكريم، فقد ورد هذا الاسم في القرآن أكثر من ألفين ومائتي مرة، وهذا ما لم يقع لاسم آخر، وقد افتتح الله ـجل وعلاـ به ثلاثاً وثلاثين آية[1].

وأما معنى هذا الاسم فأصله «الإله» وهو بمعنى المعبود، و«الإله» اسم من أسماء الله الحسنى، ورد في القرآن الكريم، قال الله ـتعالىـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣ .

وقال ـتعالىـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣١ .

وقال ـتعالىـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الأنبياء: ١٠٨ .

هذا وإن أجمع وأحسن ما قيل في معنى «الله» ما ورد عن ابن عباس ـرضي الله عنهماـ أنه قال: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» رواه ابن جرير في

---

(١) انظر تفسير ابن جرير٢/١٢١، وتيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالوهاب ص٣٠ .

تفسيره[١].

فقد جمع رضي الله عنه في هذا التفسير بين أمرين:

الأول: الوصف المتعلق بالله من هذا الاسم الكريم، وهو الألوهية التي هي وصفه الدالُّ عليها لفظ «الله» كما دلَّ على العلم -الذي هو وصفه- لفظ «العليم» وكما دل على العزة -التي هي وصفه- لفظ «العزيز» وكما دل على الحكمة -التي هي وصفه- لفظ «الحكيم» وكما دل على الرحمة -التي هي وصفه- لفظ «الرحيم» وغيرها من الأسماء الدالة على ما قام بالذات من مدلول صفاتها.

فكذلك الله هو ذو الألوهية، و الألوهية التي هي وصفه هي الوصف العظيم الذي استحق أن يكون به إلهاً، بل استحق أن لا يشاركه في هذ الوصف العظيم مشارك بوجه من الوجوه.

وأوصاف الألوهية هي جميع أوصاف الكمال وأوصاف الجلال والعظمة والجمال، وأوصاف الرحمة والبر والكرم والامتنان؛ فإن هذه الصفات هي التي يستحق أن يُؤْلَه ويُعبد لأجلها؛ فيؤله لأن له أوصافَ العظمة والكبرياء، ويؤله لأنه المتفرد بالقيومية والربوبية والملك والسلطان، ويؤله لأنه المتفرد بالرحمة وإيصال النعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه، ويؤله لأنه المحيط بكل شيء علماً وحكماً وحكمةً وإحساناً ورحمةً وقدرةً وعزةً وقهراً، ويؤله لأنه المتفرد بالغنى المطلق التام من جميع الوجوه، كما أن ما سواه مفتقر إليه على الدوام من جميع الوجوه، مفتقر إليه في إيجاده وتدبيره، مفتقر إليه في إمداده ورزقه، مفتقر إليه في حاجاته كلها، مفتقر إليه في أعظم الحاجات وأشد الضرورات، وهي افتقاره إلى عبادته وحده والتأله له وحده، فالألوهية تتضمن جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا.

الثاني: الوصف المتعلق بالعبد من هذا الاسم، وهو العبودية، فالعباد يعبدونه

---

(١) نقله في: تيسير العزيز الحميد ص٣٠.

ويألهونه، قال الله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الزخرف: ٨٤.

أي: يأله أهل السماء وأهل الأرض طوعاً وكرهاً، فكلهم خاضعون لعظمته، منقادون لإرادته ومشيئته، عانون لعزته وقيُّوميَّته.

وعباد الرحمن يألهونه ويعبدونه، ويبذلون له مقدورهم من التأله القلبي والروحي والقولي والفعلي بحسب مقاماتهم ومراتبهم، وقد جمع الله هذين المعنيين في عدة مواضع من القرآن، مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ طه: ١٤.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مريم: ٦٥[١].

هذا وسيرد مزيد بيان للعلم بالله -جل جلاله- عند الحديث عن أركان الإسلام، وأركان الإيمان.

المطلب الثاني: قدرة الله -عز وجل-

القدرة صفة من صفات الله الثابتة له -عز وجل- وهي القدرة التامة الكاملة -على ما سيأتي بيانه-.

ومن أسمائه -تبارك وتعالى- القدير، والقادر، والمقتدر.

وجميع هذه الأسماء وردت في القرآن، وأكثرها وروداً «القدير» ثم «القادر» ثم «المقتدر» قال -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٨٤.

وقال -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ فاطر: ٤٤.

وقال -تعالى-: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن

---

(١) انظر فقه الأسماء الحسنى د. عبدالرزاق البدر ص ٧٧-٧٨.

تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ الأنعام: ٦٥ .

وقال ـتعالى ـ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ الكهف: ٤٥ .

وجميعها تدل على ثبوت القدرة صفة لله، وأنه ـسبحانه ـ كامل القدرة؛ فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دَبَّرها، وبقدرته سوَّاها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون.

وبقدرته يقلب القلوب ويصرِّفها على ما يشاء ويريد، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً، والبرَّ بَرّاً، والفاجر فاجراً.

ولكمال قدرته لا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء أن يُعلِّمه إياه، ولكمال قدرته خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسه من لغوب، لا يعجزه أحدٌ من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، الذي سَلِمَتْ قدرتُه من اللُّغوب والتعب والإعياء والعجز عما يريد.

ولكمال قدرته كلُّ شيء طَوْعَ أمره وتحت تدبيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن[١].

ومن أصول الإيمان العظيمة الإيمان بالقدر، قال الله ـتعالى ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩ .

وقال ـتعالى ـ: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ الأحزاب: ٣٨ .

وقال ـتعالى ـ: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢ .

وروى مسلم في «صحيحه»[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾

---

(١) انظر فقه الأسماء الحسنى ص٢١٧ .

(٢) رقم (٢٦٥٦) .

يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ القمر: ٤٧-٤٩.

ومَن لا يؤمن بالقدر لا يؤمن بالله -عز وجل- قال الإمام أحمد رحمه الله: «القدر قدرة الله»[(١)].

فإنكار القدر إنكار لقدرة الله -عز وجل- وجحد صفاته -سبحانه- أو شيء منها يتنافى مع الإيمان به -سبحانه-؛ إذ من أصول الإيمان به الإيمان بأقداره.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله -عز وجل- وآمن بالقدر فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحّد الله -تعالى- وكذّب القدر نقض التوحيد»[(٢)].

وقال عوفٌ سمعت الحسن يقول: «من كذَّب بالقدر فقد كذَّب بالإسلام، إن الله -تبارك وتعالى- قدَّر أقداراً، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر»[(٣)].

والإيمان بالقدر من أجلّ أوصاف أهل العلم به، روى ابن جرير في «تفسيره» عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ فاطر: ٢٨.

قال: الذين يقولون: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

هذا وسيرد مزيد بيان لصفة القدر، وآثارها الحميدة عند الحديث عن الركن السادس من أركان الإيمان، وهو (الإيمان بالقدر).

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (٣/٢٥٤) وابن القيم في «شفاء العليل» ص٢٨.

(٢) رواه الفريابي في «القدر» (٢٠٥) واللفظ له، وابن بطة في «الإبانة» (١٦٢٤) واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٢٢٤) وغيرهم.

(٣) رواه ابن بطة في «الإبانة» (١٦٧٦) واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٢٥٥).

المبحث الرابع: البر وآثاره العميقة

أولاً: مفهوم البر: البر من الألفاظ الشرعية العظيمة التي ترد كثيراً في القرآن والسنة.

وهو لفظ يحمل في طياته معاني جامعة، وآثاراً عميقة تدور حول كل خير وفلاح ديني أو دنيوي.

ولهذا تنوعت عبارات العلماء وأقوالهم في تفسير معنى البر، فقال بعضهم: البر: الصلاح.

وقال بعضهم: الخير.

وقال الزجاج: قال بعضهم: كل ما تُقُرِّب به إلى الله -عز وجل- من عمل الخير.

وقال أبو منصور: البر: خير الدنيا والآخرة؛ فخير الدنيا: ما ييسره الله للعبد من الهدى والنعمة والخيرات.

وخير الآخرة: الفوز بالنعيم الدائم في الجنة.[1]

ومن أحسن من عرَّف البرَّ الشيخُ عبدُالرحمنِ السعديُّ رحمه الله حيث قال: «البر اسم جامع يدخل فيه العقائدُ الإيمانية، وأعمالُ القلوب، وأعمال الجوارح، ويدخل فيه جميع المأمورات، وترك المنهيات»[2].

وهذا التعريف الجامع يغني عن كثير من الكلام في مفهوم البر.

ثانياً: ورود البر في القرآن الكريم: ورد لفظ البر في القرآن الكريم كثيراً؛ وجاء على تصاريف مختلفة، وفي سياقات متنوعة، فمن ذلك:

١ـ أنه جاء بمعنى الصلة: قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ﴾ البقرة: ٢٢٤.

١ـ انظر لسان العرب ٥١/٤، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص٢١٥.

٢ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي المجموعة الخامسة ٥٢٩/١.

وقوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ الممتحنة:٨.

٢ـ أنه جاء بمعنى الطاعة: وذلك كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ مريم:١٤.

وقوله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ مريم:٣٢.

٣ـ أنه جاء بمعنى فعل الطاعات: وذلك كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة:٢.

فالبر إذا جُمِعَ بينه وبين التقوى صار البرُّ اسماً لفعل الطاعات، والتقوى اسماً لترك المناهي.

٤ـ أنه جاء بمعنى التقوى: فعند الإطلاق يأتي البر بمعنى التقوى، كما في قوله ـتعالىـ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢.

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ البقرة:١٧٧.

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ البقرة:٤٤.[١]

ثالثاً: البر في السنة النبوية: ورد ذكر البر في السنة النبوية كثيراً، ومعاني البر في السنة هي نفس معانيه الآنفة الذكر، وربما فُسِّرَ البر في السنة بمعانٍ أخرى غير ما ذكر؛ حيث فُسِّر بحسن الخلق، وفُسِّر بطمأنينة النفس، وفسر بغير ذلك.

ومما ورد في هذا الشأن ما جاء في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**».[٢]

١ـ انظر الوجوه والنظائر لهارون بن موسى ص٤٢٩، والوجوه والنظائر للدامغاني ص٦٧، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي ٩٥/١، والوجوه والنظائر للقرعاوي ٢١٥ـ٢١٧، والمجموعة الكاملة للسعدي المجموعة الخامسة ٥٢٩/١.

٢ـ مسلم (٢٥٥٣).

وعن وابصة بن معبد، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» قلت: نعم.

قال: «**استفت قلبك؛ البرُّ ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(١).

قال ابن رجب رحمه الله في شرح الحديثين السابقين: «وإنما اختلف تفسيره للبر؛ لأن البر يطلق باعتبارين مُعَيَّنَيْن:

أحدهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خُصَّ بالإحسان إلى الوالدين: فيقال: برُّ الوالدين، ويطلق كثيراً على الإحسان إلى الخلق عموماً، وقد صنف ابنُ المبارك كتاباً سماه «كتاب البرِّ والصلة»، وكذلك في «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي»: كتاب «البر والصلة»، ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عموماً، ويقدَّم فيه برُّ الوالدين على غيرهما.

وفي حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أنَّه قال: يا رسول الله مَنْ أبرُّ؟ قالَ: «**أمك**»، قالَ: ثُمَّ من؟ قال: «**ثم أباك**»، قال: ثم من؟ قالَ: «**ثُمَّ الأقرب فالأقرب**»(٢).

ومن هذا المعنى: قول النَّبيِّ ﷺ: «**الحجُّ المبرور ليس لهُ جزاءٌ إلاَّ الجنَّة**»(٣). وفي المسند(٤): أنَّه ﷺ سُئِلَ عن برِّ الحجِّ، فقال: «**إطعامُ الطَّعام، وإفشاءُ السلام**»، وفي روايةٍ أخرى: «**وطيبُ الكلام**»(٥).

١- رواه أحمد ٢٢٨/٤، والدارمي ٢٤٥/٢-٢٤٦، وأبو يعلى (١٥٨٦ و ١٥٨٧) وحسنه النووي في الأربعين (٢٧).

(٢) أخرجه أحمد ٣/٥ و٥، والبخاري في الأدب المفرد (٣) وأبو داود (٥١٣٩) والترمذي (١٨٩٧) وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) و (٤٣٧).

(٤) المسند ٣٢٥/٣ و٣٣٤.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٣٢٥)، والحاكم ٤٨٣/١.

وكان ابنُ عمر ـرضي الله عنهماـ يقول: البرُّ شيءٌ هيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ[١].

وإذا قرن البرُّ بالتَّقوى، كما في قوله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ المائدة: ٢.

فقد يكون المرادُ بالبرِّ معاملةَ الخلق بالإحسّان، وبالتَّقوى: معاملة الحقِّ بفعل طاعته، واجتناب محرَّماته.

وقد يكونُ أُريد بالبرِّ: فعل الواجبات، وبالتقوى: اجتناب المحرَّمات، وقوله ـتعالىـ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ المائدة: ٢.

قد يُراد بالإثم: المعاصي، وبالعدوان: ظُلم الخلق، وقد يُراد بالإثم: ما هو محرَّم في نفسه كالزِّنى، والسرقة، وشُرب الخمر، وبالعُدوان: تجاوز ما أذن فيه إلى ما نُهي عنه ممَّا جنسُه مأذونٌ فيه، كقتل مَن أُبيح قتلُه لِقِصاصٍ، ومن لا يُباح، وأخذُ زيادة على الواجب من الناس في الزكاة ونحوها، ومجاوزة الجلد في الذي أمر به في الحدود ونحو ذلك»[٢].

ثم بين ابن رجب رحمه الله المعنى الثاني فقال: «والمعنى الثاني من معنى البرِّ: أنْ يُراد به فعلُ جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، كقوله ـتعالىـ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٧.

وقد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ سئل عن الإيمان، فتلا هذه الآية[٣].

---

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق: ٢٣ – ٢٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ٢/٩٧ـ٩٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥٣٩).

فالبرُّ بهذا المعنى يدخل فيه جميعُ الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبُّه الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزّكاة، والوفاء بالعهد، والصَّبرِ على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى الطَّاعات، كالصَّبر عِند لقاءِ العدوِّ»[١].

ويواصل ابن رجب بيانه لمعنى البر فيقول: «وقد يكون جوابُ النَّبيِّ ﷺ في حديث النوَّاس شاملاً لهذه الخصال كلِّها ؛ لأنَّ حُسنَ الخُلق قد يُراد به التخلُّقُ بأخلاق الشريعة، والتأدُّبُ بآداب الله التي أدَّبَ بها عبادَه في كتابه، كما قال ـتعالىـ لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤ .

وقالت عائشة : «**كان خُلُقُه ﷺ القرآن**»[٢].

يعني : أنَّه يتأدَّب بآدابه ، فيفعل أوامرَه ويجتنب نواهيه ، فصار العملُ بالقرآن له خُلقا كالجبلَّة والطَّبيعة لا يُفارقُه ، وهذا أحسنُ الأخلاق وأشرفُها وأجملُها[٣] .

وقد قيل : إنَّ الدِّين كلَّه خُلُقٌ . وأما في حديث وابصة ، فقال: «**البرُّ ما اطمأنَّ إليه القلبُ، واطمأنت إليه النفس**»[٤].

وفي رواية: «**ما انشرح إليه الصَّدرُ**»[٥].

وفسر الحلالَ بنحوِ ذلك كما في حديث أبي ثعلبة وغيره، وهذا يدلُّ على أنَّ الله فطرَ عبادَه على معرفةِ الحق، والسكون إليه وقبوله، وركَّز في الطباع محبةَ ذلك ، والنفور عن ضدِّه»[٦] .

وهكذا يتبين لنا شيء من معاني البر وآثاره العميقة.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٩٩/٢ .

(٢) أحمد (٩١/٦ ، ١٦٣ ، ٢١٦)، النسائي في الكبرى (٤١٢/٦).

(٣) انظر : حاشية السندي على سنن النسائي ٢٠٠/٣ .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) جامع العلوم والحكم ٩٩/٢ .

المبحث الخامس: الأخلاق في الإسلام

للأخلاق منزلة سامية في دين الإسلام، وفيما يلي ذكر لبعض المسائل في هذا الشأن.

أولاً: تعريف كلمة الأخلاق: الأخلاق جمع خُلُق، والخُلُقُ، والخُلْقُ: الطبيعة والسجية، وتجمع على أخلاق.

قال ابن منظور: «وفي التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤ .

والجمع أخلاق لا يُكَسَّر[١] على غير ذلك، والخُلْقُ والخُلُقُ السجية»[٢].

وقال: «الخُلق بضم اللام وسكونها، وهو الدين، والطبع، والسجية»[٣].

وقال الجاحظ: «الخلق: هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار.

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلاّ بالرياضة والاجتهاد»[٤].

ثانياً: تعريف حسن الخلق: حسن الخلق مركب من كلمتين، كلمة حسن، وكلمة الخلق، أما كلمة الخلق فقد مضى تعريفها، وأما كلمة حسن فقد قال: ابن منظور: «الحسن ضد القبح ونقيضه»[٥].

وقال عن الأزهري: «الحسن نعت لما حسن»[٦].

وقال عن الجوهري: «والجمع محاسن على غير قياس كأنه جمع محسن»[٧].

---

١ ـ لايكسر: أي لا يجمع جمع تكسير.

٢ ـ لسان العرب ١٠/٨٦ـ٨٧ وانظر معجم مقاييس اللغة ٢/٢١٣ ـ ٢١٤.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ١٢.

٥ ـ لسان العرب ١٣/١١٤.

٦ـ لسان العرب ١٣/١١٤.

٧ ـ لسان العرب ١٣/١١٤.

وقال: «والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ»[١].

فهذا هو معنى كلمة حسن.

أما حسن الخلق باعتبار تركيبه فقد عُرِّف بتعريفات عديدة متقاربة، ويمكن أن يُعَرَّف، فيقال: حسن الخلق: هو التحلي بالفضائل والمكارم كطلاقة الوجه، ولين الجانب، وطيب الكلام، وكرم النفس، وكف الأذى، وبذل الندى، وسلامة الصدر، والحلم، والصبر، والعفو، والشجاعة، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق مع البعد عما يضاد ما ذُكر.

فهذا من أيسر ما يوضحُ معنى حسن الخلق، وسيتبين فيما يلي أمور توضح حسن الخلق بصورة أجلى.

ثالثاً: معنى الخلق الحسن: قال النبيﷺ: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له.

وتعطي من حرمك من التعليم، والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عرض.

وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب»[٣].

رابعاً: معنى الخلق العظيم: قال الله ـ عز وجل ـ في وصف نبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

فسبحانه ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه، انظر إلى عظيم فضله، وعميم لطفه؛

---

١ ـ لسان العرب ١١٦/١٣.

٢ ـ رواه أحمد ١٥٩/١، وصححه الألباني ٥١٩).

٣ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن ابن قاسم وابنه محمد ٦٥٨/١٠.

كيف أعطى ثم أثنى؟!([1])

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما الخلق العظيم الذي وَصَفَ اللهُ به محمداً ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد، وغيره.

وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان خلقه القرآن»([2]).

وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله ـ تعالى ـ بطيب نفس، وانشراح صدر»([3]).

وقال ابن القيم رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «قال ابن عباس ومجاهد: لعلى دين عظيم، لا دين أحبَّ إليَّ، ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام.

وقال الحسن: هو آداب القرآن.

وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله.

والمعنى أنك على الخلق الذي آثرك الله به في القرآن»([4]).

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «**والخلق العظيم**: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان؛ لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ فهو حُسْنُ معامَلَتِهِ الناسَ على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة؛ فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن»([5]).

وقال: «**اعلم أن جماع الخلق العظيم** الذي هو أعلى الخلق الحسن: هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجود، والحياء، والشجاعة، وحسن السمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

---

١ ـ انظر إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، ٢/٣٥٧ـ٣٥٨.

٢ـ رواه مسلم (٧٤٦) من حديث هشام بن حكيم أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله ﷺ.

٣ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٦٥٨.

٤ـ مدارج السالكين ٢/٢٨٩.

٥ـ تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٦٤.

والأخلاق كامنة في النفس، ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومَنْ لِنَظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله، وفي سياسته أُمَّتَهُ، وفيما خُصَّ به من فصاحة كلامه، وجوامع كلمه»[1].

خامساً: فضائل حسن الخلق: لقد جاءت الشريعة الإسلامية بما يبيِّن أن لحسن الخلق فضائل عظيمة تنتظم خيري الدنيا، والآخرة، ومن ذلك ما يلي:

١ـ أنه امتثال لأمر الله ـعز وجل ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ الأعراف:.١٩٩

٢ـ أنه طاعة للرسول ﷺ فلقد أمر بحسن الخلق بأحاديث كثيرة، ومنه الحديث الذي بين أيدينا حديث معاذ رضي الله عنه، وفيه: «**وخالق الناس بخلق حسن**».

٣ـ أنه اقتداء بالنبي ﷺ: والله ـعز وجل ـ يقول: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ الأحزاب:.٢١

٤ـ رفعة الدرجات: قال النبي ﷺ: «**إن العبد لَيَبْلُغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[2].

٥ـ أنه أعظم ما يدخل الجنة: قال النبي ﷺ: «**أعظم ما يدخل الجنة: تقوى الله، وحسن الخلق**»[3].

١ـ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٦٥/٢٩.

٢ـ أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) والحاكم عن عائشة، وقال الحاكم: إسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٥).

٣ ـ أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦)، وابن حبان (٤٧٦)، والحاكم ٣٢٤/٤ وكلهم عن أبي هريرة، وقال الترمذي: «الحديث صحيح غريب».
وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

٦ـ القرب من مجلس النبيﷺ يوم القيامة: قالﷺ: «**إن من أَحَبِّكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»[١].

٧ـ نيل محبة الله ـعز وجلـ: فعن أسامة بن شريكرضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبيﷺ كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا مُتَكَلِّم إذا جاءه أناسٌ فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله؟ قال: «**أحسنهم أخلاقاً**»[٢].

٨ـ حسن الخلق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة: فعن أبي الدرداءرضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق**»[٣]

٩ـ زيادة الأعمار، وعمارة الديار: قال ﷺ: «**حسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار**»[٤].

١٠ـ كسب القلوب، وتيسير الأمور، والسلامة من شر الخلق

١١ـ حسن الخلق مدعاة للذكر الحسن، وزيادة العلم.

١٢ـحسن الخلق سبب لراحة البال، وطيب العيش، والسلامة من مضار العيش والعجلة[٥].

سادساً: هل يمكن اكتساب الأخلاق الحسنة أو لا يمكن؟: الجواب عن ذلك أن يقال: إن الأخلاق، والطباع ـكما أنها غريزية، فطرية، جِبِلِّيَّةـ هي كذلك اكتسابية تخلُّقيّة تتأتّى بالدُّرَبة، والمجاهدة، والأخذ بالأسباب.

قال الله ـتعالىـ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ**﴾ الرعد: ١١ .

١ـ أخرجه أحمد ٤/١٩٣ـ١٩٤ ، والترمذي (٢٠١٨) وقال حديث حسن غريب».

٢ـ أخرجه الطبراني في الكبير ١/١٨/ (٤٧١) وقال الهيثمي في المجمع ٨/٢٤: «رجاله رجال الصحيح».

٣ـ أخرجه أحمد ٦/٤٤٦ـ٤٤٨ ، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وقال حسن صحيح، وابن حبان (٤٨١) والخرائطي (٥٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٧٦).

٤ ـ رواه أحمد ٦/١٥٩ ، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٩)

٥ ـ انظر تفاصيل ذلك في كتاب: سوء الخلق ـ مظاهره ـأسبابه ـعلاجه ـ لمحمد الحمد ص ٦٠ـ٨١

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٩.

وقال النبي ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، إنما الحلم بالتحلُّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقَّه**»[١].

وقال ﷺ: «**وخالق الناس بخلق حسن**»[٢].

فهذه النصوص وغيرها كثير تدل على أن تغيير الطباع والأخلاق وارد ممكن؛ فليس متعذِّراً، ولا مستحيلاً، خلافاً لمن يرى أنها ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ بحجة أنها غرائز فطر عليها، وطباع جُبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يتصور فكاكه عنها.

ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا، والمواعظ، والتأديبات، ولكان الأمر بالتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل من التكليف بما لا يطاق، ولا يقول بهذا عاقل.

أما إذا جُبِل المرء على مكارم الأخلاق، ثم سقاها بماء المكرمات، وأدبها بآداب الشريعة الغراء، ونمَّاها بالممارسة، والمران ـ فذاك نور على نور، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[٣].

١ـ أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٢٧/٩، وقال الألباني في الصحيحة (٣٤٢): إسناده حسن، أو قريب من الحسن».

٢ـ مضى تخريجه

٣ـ انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٥٥/٣ـ٥٦، وجوامع الآداب للقاسمي ص٤.

الفصل الثاني
مصادر التشريع في الدين الإسلامي

وتحته:

تمهيد وأربعة مباحث:

المبحث الأول: ماهية القرآن الكريم ومصداقيته

المبحث الثاني: مفهوم السنة وأهميتها

المبحث الثالث: طرق حفظ السنة النبوية

المبحث الرابع: منزلة السنة من القرآن الكريم

تمهيد

الكتاب والسنة هما مصدر التشريع في الدين الإسلامي؛ فمنهما تُسْتَمد عقائد الإسلام، وشرائعه، وأحكامه، وآدابه، وما جرى مجرى ذلك.

وسيتم بيان ذلك في المباحث التالية بشيء من البسط، والإيضاح، وذلك من خلال بيان مفهوم الكتاب والسنة، وأدلة مصدريتهما، وما يدور في ذلك الفلك.

المبحث الأول: ما هية القرآن ومصداقيته

أولاً: ماهية القرآن الكريم

أـ تعريف القرآن لغة: يرى بعض علماء اللغة أن لفظ (القرآن) مصدر على وزن فُعْلان كالغفران، والشكران، والرجحان، مأخوذ من قرأ، قراءة، وقرآناً.

ويرى بعضهم أن القرآن اسمُ عَلَمٍ غير مشتق، ولم يؤخذ مِنْ: قَرأ، ولكنه اسم لكتاب الله، مثل سائر الكتب السماوية كالتوراة، والإنجيل.

وقال بعضهم: معنى القرآن: الجمع؛ وسمي قرآناً لأنه يجمع السور، فيضمها.[١]

بـ تعريف القرآن شرعاً: عرف العلماء القرآن بتعريفات كثيرة، ومن أجمع تلك التعريفات وأحسنها قولهم: «**القرآن كلام الله المعجز المنزل على النبي محمدﷺ المنقول تواتراً المتعبد به تلاوة**».[٢]

فمعنى كونه «كلام الله المعجز»: أي أنه ليس بكلام إنس، ولا جان، ولا ملائكة، ولا نبي أو رسول؛ فهو كلام الله ـ عز وجل ـ تكلم به حقيقة على ما يليق به ـعز وجلـ.

ويخرج بقولنا: «**المنزل على النبي محمدﷺ**»: باقي الكتب المنزلة على الرسل ـعليهم السلامـ من قَبْلِ محمد ﷺ كصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى ـ عليهم السلام ـ.

ومعنى «**تواتراً**»: أي ما قيل: إنه قرآن ولم يتواتر.

ويخرج بقولنا: «**المتعبد به تلاوةً**»: الحديث القدسي، فإنه غير متعبد بتلاوته،

---

١ ـ انظر لسان العرب لابن منظور ١/١٢٨ـ١٢٩، والبيان في علوم القرآن د. محمد بن علي الحسن، و د. سليمان القرعاوي ص٣.

٢ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص٣.

وإن كان منسوباً إلى الله ـ عز وجل ـ.[١]

جـ أسماء القرآن الكريم: سمى الله ـعز وجلـ القرآن الكريم بأسماءٍ كثيرة تزيد على خمسين اسماً، ومن أشهرها ما يلي:

الكتاب؛ لأنه يجمع أنواعاً من القصص، والآيات، والأحكام، والأخبار على أوجه مخصوصة.

والذِّكْر؛ وذلك لما فيه من المواعظ، والتحذير، وأخبار الأمم الماضية.

ولما فيه من الشرف، والعز لمن آمن به، وصدَّق بآياته؛ وذلك لأن القرآن يفرق بين الحق والباطل[٢].

ثانياً: مصداقية القرآن ومنزلته وسلامته من التحريف

القرآن آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها.

قال الله ـتعالىـ: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ (المائدة: ٤٨).

وقال ـتعالىـ: ﴿**وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**﴾ (يونس: ٣٧).

وقال: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف: ١١١).

قال أهل التفسير في قوله ـتعالىـ: ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾: مهيمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب، ومصدقاً لها؛ يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع

---

١ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص٣.

٢ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص ٥ـ٦.

فيها من تحريف، وتبديل، وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص:٥٢-٥٣).

ولا يقبل الله من أحد ديناً إلا ما جاء في هذا القرآن العظيم[١].

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في قوله -تعالى-: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: «أي مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة في المطالب الإلهية، والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب، فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا لو كان من عند الله لم يخالفه»[٢].

والقرآن الكريم رسالة الله الأخيرة للبشرية، بل هو عامٌّ للجن والإنس؛ بخلاف الكتب السماوية الأخرى التي كانت خاصة بأقوام معينين، وفترات معينة.

ثم إن القرآن محفوظ من الزيادة، والنقص، والتحريف؛ فلقد تكفل الله -سبحانه- بحفظه، قال -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، والذكر هو القرآن.

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: أي نحن نزلنا هذا القرآن، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ

١- انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة للشيخ حافظ الحكمي، ص٨١-٨٢؛ السؤال رقم ٨٠.

٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي ١/٤٩٠.

لَحَٰفِظُونَ﴾: أي عن كل ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقًّا[١].

والقرآن له أثر عظيم في القلوب؛ فما يسمعه أحد وهو مُلْقٍ سَمْعَهُ إلا يجد أن له تأثيراً عظيماً في نفسه، ولو لم يفهم معانيه أو دلالاته، حتى ولو لم يكن يعرف اللغة العربية.

وهذا سرٌّ من أسرار القرآن التي تبيِّن عظمته.

ثم إن القرآن له أبلغ الأثر في رُقي الأمم وفلاحها؛ فهو الذي أخرج الله به من أمة العرب أعلام الحكمة والهدى، وجعلهم خير أمة أُخرجت للناس، بعد أن كانوا يتخبطون في دياجير الجهالة.

ومن خصائص القرآن: أن عجائبه لا تنقضي، وأنه لا يَخْلَق من كثرة الرد؛ فكلما أكثر الإنسان من قراءته زادت حلاوته مرة بعد مرة.

ومن خصائصه: أن الله يسَّر تعلمه وحفظه؛ ولهذا فإن كثيراً من أطفال المسلمين يحفظونه كاملاً عن ظهر قلب.

ومن خصائصه: أنه مشتمل على أعدل الأحكام، وأعظمها، وأشرفها، وأشملها، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وأحاط بها إجمالاً وتفصيلاً، ويشهد بذلك كل منصف عاقل، حتى ولو لم يكن مسلماً[٢].

هذا وسيأتي مزيد بيان لمنزلة القرآن، وعظمته في المبحث التالي، وعند الحديث عن إعجاز القرآن الكريم.

١ـ انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٨٤/٤، وفتح القدير للشوكاني ١٣٩/٣.

٢ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص٩ـ٢٦.

المبحث الثاني: مفهوم السنة وأهميتها

المطلب الأول: مفهوم السنة النبوية

أولاً ـ السنة لغة: السنة في اللغة هي الطريقة والسيرة، قال لبيد بن ربيعة ﷺ في معلقته المشهورة:

من معشر سنت لهم أباؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها[١]

قال ابن منظور رحمه الله: «السنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة».[٢]

ثانياً ـ السنة في الشرع: إذا أطلق لفظ السنة في الشرع فإنما يراد به ما أمر به الرسولﷺ ونهى عنه، وندب إليه قولاً، أو فعلاً.

ولهذا يقال في الأدلة الشرعية: الكتاب والسنة؛ أي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ومع هذا فإن معنى السنة يختلف في اصطلاح علماء الشريعة حسب اختلاف تخصصاتهم.

والذي يعنينا في هذا المقام هو معنى السنة في اصطلاح المُحدِّثين، ومن حيثُ كونُها المصدرَ الثانيَ للتشريع.[٣]

وبناءً على ذلك فإنه يمكن تعريف السنة بأنها:

كلُّ ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقيِّة أو خُلُقية، أو سيرة سواء كانت قبل البعثة، أو بعدها.[٤]

---

١ ـ ديوان لبيد بن ربيعة ص١٧٩.

٢ ـ لسان العرب ١٣/٢٢٥.

٣ ـ انظر المختصر في علوم الحديث د. محمد عجاج الخطيب ص١٥..

٤ ـ انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د. مصطفي السباعي ص٥٩، والمختصر من علوم الحديث ص١٦.

والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث.

فالمراد بما أُثِرَ عن النبي ﷺ: «**من قول**»: أحاديثه التي قالها في المناسبات المختلفة، وما بيَّنه من أحكام الإسلام، وعقائده، وآدابه.

كقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**».[1]

«**أو فعل**»: ما نقله إلينا الصحابة ـرضوان الله عليهمـ مثل وضوئه، وصلاته، ونسكه، وصيامه، ونحو ذلك.

«**أو تقرير**»: هو كل ما أقره الرسول ﷺ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه، وعدم إنكار، أو بموافقته، واستحسانه؛ فيعد ما صدر عنهم بهذا الإقرار والموافقة عليه صادراً عن الرسول ﷺ.

مثال ذلك: سكوته ﷺ عن لعب الحبشة في الحراب في المسجد، وعدم إنكاره عليهم.[2]

وقولهم: «**أو صفة خَلْقية**» يتناول هيئة الرسول ﷺ كصفة وجهه الكريم المشرب بالحمرة، وكطوله، ولونه، وتبسمه ﷺ.

وقولهم: «**أو خُلُقية**»: يتناول جميع أخلاقه وشمائله.

وقولهم: «**قبل البعثة**»: يتناول جميع أحواله قبل البعثة النبوية.

وقولهم: «**أو بعدها**»: يتناول أحواله بعد البعثة؛ لأنه الإمام الهادي القدوة، الذي أخبرنا رسول الله ﷺ أنه أسوة لنا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾ الأحزاب: ٢١.[3]

---

١ ـ البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) بلفظ: «**إنما الأعمال بالنية...**».

٢ ـ البخاري (٤٩٣٨) ومسلم (٨٩٢).

٣ ـ انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص٥٩ـ٦٠، والمختصر الوجيز في علوم الحديث ص١٥ـ١٧.

المطلب الثاني: أهمية السنة ومنزلتها في التشريع الإسلامي

السنة النبوية هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، وهي من الذكر والوحي الذي تكفل له الله ـ عز وجل ـ بحفظه كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

وهذا الوعد والضمان يشمل حفظ القرآن، وحفظ السنة النبوية التي هي المفسرة للقرآن، وهي الحِكمة المنزلة ـ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ النساء: ١١٣.

قال ابن حزم رحمه الله: «الوحي ينقسم من الله إلى قسمين:

أحدهما: وحيٌ متلوٌّ مؤلفٌ تأليفاً معجز النظام وهو القرآن.

الثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء.

وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ وهو المبين عن الله ـ عز وجل ـ مراده منا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤»[1].

وليس معنى أن القرآن أو السنة محفوظان بحفظ الله أنه لا يوجد من يحاول الزيادة أو النقصان فيهما؛ فذلك يحصل كثيراً في القديم والحديث.

وإنما المقصود أن الله ـعز وجلـ يقيِّض من علماء هذه الأمة من ينفي الزيف والزيادة والنقصان من كتاب الله ـعز وجلـ وسنة نبيه ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موضحاً هذا المعنى: «فإن الدين محفوظ بحفظ الله له، ولما كانت ألفاظ القرآن محفوظة منقولة بالتواتر لم يطمع أحد في إبطال شيء منه، ولا زيادة شيء فيه، بخلاف الكتب التي قبله، قال ـتعالىـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

---

١ ـ أحكام الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/ ٤٤٠.

بخلاف كثير من الحديث طمع الشيطان في تحريف كثير منه، وتغيير ألفاظه بالزيادة والنقصان والكذب في متونه وإسناده؛ فأقام الله له من يحفظه ويحميه، وينفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأول الجاهلين، فبينوا ما أدخل أهل الكذب فيه، وأهل التحريف في معانيه»[١].

وقال ابن تيمية -أيضاً-: «فما في تفسير القرآن، أو نقل الحديث، أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم له من الأمة مَنْ يُبَيِّنه، ويذكر الدليل على غلط الغالط، وكذب الكاذب؛ فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة؛ إذ كانوا في آخر الأمم؛ فلا نبي بعدهم، ولا كتاب بعد كتابهم، وكانت الأمم قبلها إذا بدَّلوا وغيروا بعث الله نبيًّا يبين لهم، ويأمرهم، وينهاهم.

ولم يكن بعد محمدﷺ نبي، وقد ضمن الله أن يحفظ ما أنزله من الذكر، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ دينه من أهل العلم والقرآن»[٢].

فالقرآن - إذاً - هو المصدر الأول للإسلام -عقيدته وشريعته وأخلاقه- لأنه كلام الله تعالى المعجز، المنزل على الرسول ﷺ بواسطة الملك جبريل الأمين، المتواتر لفظه جملة وتفصيلاً، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف.

وكل ماجاء عن الرسول ﷺ - سوى القرآن الكريم - من بيان للعقيدة، وتفصيل لأحكام الشريعة، وتطبيق لما في القرآن الكريم هو السنة، أو الحديث النبوي هو بوحي من الله -تعالى- أو باجتهاد من الرسولﷺ والرسولﷺ لا يقر على اجتهادٍ خطأٍ.

---

١ - الرد على البكري لابن تيمية ١/١٧١.

٢ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/٩.

وعلى هذا فَمَرَدُّ السنة إلى الوحي؛ فالقرآن الكريم هو الوحي المتلو، المتعبد بتلاوته، والسنة وحي غير متلو، لا يتعبد بتلاوتها، فالسنة تُبَيِّن عن الله -عز وجل- مراده منا، مصداقاً لقوله -تعالى- مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤.

فالقرآن هو المصدر الأول، والسنة هي المصدر الثاني؛ فهما مصدران تشريعيان متلازمان، لا يمكن لمسلم أن يفهم الشريعة إلا بالرجوع إليهما معاً، ولا غنى لمجتهد أو عالم عن أحدهما[1].

المطلب الثالث: في أدلة حجية السنة

قد يقال: ما الدليل على وجوب العمل بما ثبت عن الرسول ﷺ وعلى أن السنة مصدر من مصارد التشريع؟.

والجواب أن يقال: إن هناك أدلةً تبين هذا وتوجبه، ومنها ما يلي:

أ- وجوب الإيمان بالرسول ﷺ: فمن لوازم الإيمان بالرسالة وجوب التصديق، وقبول كل ما يرد عن الرسول ﷺ في أمر الدين، فقد اجتبى الله -عز وجل- الرسل، واصطفاهم من عباده؛ ليبلغوا شريعته إليهم، قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ الأنعام: ١٢٤.

وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ النحل: ٣٥.

وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ النساء: ١٣٦.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ١٥٨- نصٌّ بيّن في وجوب العمل بما جاء،

---

١ - انظر أعلام الموقعين لابن القيم ٤٨/١، والمختصر الوجيز في علوم الحديث ص٢٩.

وفي اتباعه ﷺ.

وهذا واضح في قول الإمام الشافعي في الآية السابقة، قال: «فجعل كمالَ ابتداء الإيمان ـ الذي ما سواه تَبَعٌ له ـ الإيمان بالله، ثم برسوله»[١].

بـ القرآن الكريم: ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تجيب عن ذلك السؤال المطروح، وتنص على وجوب طاعة الرسول ﷺ منها، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ** ﴾ النساء: ٥٩.

والرد إلى الله هو الرد إلى الكتاب، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته.

وقوله ـعز وجلـ: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ** ﴾ الحشر: ٧.

وما أبلغ قوله ـسبحانه وتعالىـ في هذا الشأن: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا** ﴾ النساء: ٦٥.

جـ أدلة حجية السنة من الحديث: قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»[٢].

وقال ـعليه الصلاة والسلامـ: «**تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه**»[٣].

وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**»[٤].

---

١ ـ الرسالة، ص٧٥ فقرة ٢٣٩،

٢ ـ رواه البخاري (٩٥٧).

٣ ـ أخرجه مالك في الموطأ ٢/٨٩٩، والحاكم (٣١٨) واللفظ له.

٤ ـ أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

فهذه الأحاديث تدل على أن الرسول ﷺ قد أوتي الكتاب والسنة، وتُوْجِبُ التمسك بهما، والأخذ بما في السنة كما يؤخذ بما في الكتاب ويعمل به.

ومع هذا فقد حذر الرسول ﷺ من رَدَّ أمره، وذمَّ من يترك حديثه متذرعاً بالعمل بما في كتاب الله ـتعالى ـ والاعتماد على ما جاء فيه فحسب، فعن المقدام ابن معدي كرب أن الرسول ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري يقول: لا ندري ما هذا بيننا وبينكم كتاب، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[1].

د ـ الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب العمل بالسنة؛ استجابة لله، وللرسول الأمين، وأقاموا أحكامها كما أقاموا أحكام القرآن الكريم؛ لأنها مصدر تشريعي بما أرشد الله ـتعالى ـ إليه، وبينه في كتابه الكريم، وشهد الله ـتعالى ـ للرسول ﷺ بأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه، قال ـتعالى ـ: ﴿**قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾ الأنعام: ٥٠[2].

وحذَّر ـسبحانه ـ من مخالفة أمر النبيﷺ فقال ـعز وجل ـ: ﴿**فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ النور: ٦٣ .

وقال: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ النساء: ٦٥ .

وأمر الله بالتحاكم إليهﷺ ولزوم الرضا بحكمه، فقال ـعز وجل ـ: ﴿**فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾ النساء: ٥٩ .

وقد أجمع العلماء على أن هذا الرد والتحاكم بعده يكون إلى سنته؛ ففي هذه

---

١ ـ أخرجه أبو داود (٤٦٠٤ و ٤٦٠٥)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٨٤٨ و ٣٨٤٩): «صحيح».

٢ ـ انظر المختصر الوجيز في علوم الحديث ص٣٠ـ٣٣.

الآيات أعظم برهان على تحريم مخالفته، فانظر كيف حذر المخالفين له بالفتنة التي هي الشرك، أو الزيغ، وبالعذاب الأليم.

وانظر كيف أقسم على نفي الإيمان عنهم إذا لم يحكموه في كل نزاع يحدث بينهم، ويسلموا لقضائه، ولا يبقى في أنفسم حرج من قضائه.

وكفى بذلك وعيداً وتهديداً لمن ترك سنته بعد معرفة حكمها، تهاوناً، أو استخفافاً، أو نحو ذلك[١].

١ ـ انظر أخبار الآحاد في الحديث النبوي د. عبدالله بن جبرين ص ١٧ـ١٨.

المبحث الثالث: طرق حفظ السنة النبوية

تمهيد

مَرَّ بنا أن السنة النبوية من الوحي والذكر الذي تكفل الله ـ عز وجل ـ بحفظه.

ومن حِفْظِهِ ـ جل وعلا ـ للسنة أن أوزع المسلمين العناية بها؛ حيث قيَّض لها رجالاً عُنوا بالسنة غاية العناية، فمحَّصوها، وميزوا صحيحها من ضعيفها؛ فنقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل، ورجعوا إليها في جميع أمور دينهم، وعملوا بما فيها، وتمسكوا بها، وحافظوا عليها؛ ليحسنوا التأسي برسول الله ﷺ.[1]

ومما يتجلى به هذا المعنى ما سيرد في المطالب التالية:

المطلب الأول: ما جاء في احترام السنة وفضل الحديث والمُحَدِّثين

لما كانت السنة مصدراً تشريعيًّا، ومتلقاة عن الرسول ﷺ وكان الله قد أَمر المؤمنين بتعزيره وتوقيره، ومدح الذين يغضون أصواتهم عنده ـ فلا غرابة أن يكون لها من الحرمة مثل حُرْمَةِ من تُلُقِّيَتْ عنه، فذلك مما حمل العلماء على أن يبالغوا في احترام السنة وإعظامها، وإليك أمثلة من ذلك:

١ـ روى عمرو بن ميمون عن ابن مسعود أَنه حدَّث يوماً، فجرى على لسانه: «قال رسول الله ﷺ» ثم علاه كَرْبٌ، حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته، وفي رواية: وقد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه.

٢ـ وكان ابن سيرين إذا ذُكر عنده حديث رسول الله ﷺ وهو يضحك خشع.

٣ـ واشتهر عن الإمام مالك رحمه الله في ذلك أَكثر من غيره، فكان إذا أَراد الحديث اغتسل، وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، وتعمم، وجلس على منصة، خاشعاً، ولا يزال يُبَخَّر بالعود حتى يَفْرُغَ من الحديث، ويقول: أحب أن أعظم حديث رسول

---

١ ـ انظر المختصر الوجيز في علوم الحديث ص٣٣.

الله ﷺ.

وكان يكره أَن يحدِّث وهو قائم أو مستعجل، ذكر هذه الآثار القاضي عياض في كتابه الشفاء[١].

وما ذاك إلا تعظيماً لمن صدر عنه، وإجلالاً لتلك الألفاظ الشريفة التي هي أشرف الكلام، وأعلاه قدراً بعد كلام الله ـ عز وجل ـ[٢].

ولقد حث الله ـ تعالى ـ على تعلم العلم، ومدح العلماء، ونوَّه بذكرهم، حيث قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته على وحدانيته، وحصر خشيته فيهم، ونفي المساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون[٣].

وكذلك النبي ﷺ حث على العلم، وأخبر أن حملته هم ورثة الأنبياء، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم[٤]، ونحو ذلك كثير.

فَمَنْ تَحَمَّل هذا الحديث، واشتغل بتعلمه وتعليمه فله الحظ الأوفر من هذا المدح للعلماء، وكفى بهذا شرفاً للحديث وحملته؛ فَصَرْفُ العُمُر في تعلمه، ونشره أفضل من الاشتغال بنوافل القربات، وما ذاك إلا لما فيه من بيان القرآن، وإحياء سنة النبيﷺ والتأسي به في الدعوة والتبليغ، ولو لم يحصل لأهله من الفضل إلا كثرة الصلاة على النبي ﷺ التي ورد فيها الفضل الجزيل، كقولهﷺ: «**أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة**»[٥].

---

١ ـ انظر كتاب الشفاء ٤٣/٢.

٢ ـ انظر أخبار الآحاد ص١٩ .

٣ ـ كما في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ**﴾ آل عمران:١٨، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟**﴾ فاطر:٢٨، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ الزمر:٩.

٤ ـ كما في حديث صحيح رواه أحمد ٢٣٩/٤، وابو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٨٢٣) وغيرهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

٥ ـ أخرجه الترمذي (٤٨٤) وقال: «حسن غريب».

ثم فيه استحقاق دعوة النبي ﷺ كما في المسند والسنن عن زيد بن ثابت وغيره، عن النبي ﷺ قال: «**نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وأدَّاها كما سمعها**»[١].

ثم فيه امتثال أمره ﷺ بقوله: «**بلغوا عني ولو آية**»[٢].

المطلب الثاني: في اعتناء السلف بالحديث النبوي

لما عرف الصحابة -رضي الله عنهم- أهمية هذا العلم حرصوا على تلقيه عن نبيهم ﷺ فأكثروا ملازمته، وآثروا مجالسته على العمل في أموالهم، وأسباب ارتزاقهم، وربما أناب بعضهم مَنْ يحضر مجلسه، ويبلغه ما فاته من العلم، كما فعل عمر بن الخطاب مع جاره الأنصاري.[٣]

ولقد بلغ النبيﷺ المثل الأعلى في حسن تعليمهم، وإيصال المعنى إلى أفهامهم؛ فكان يستعمل ألواناً من وسائل الإيضاح والبيان، كالعرض والمناقشة وضرب الأمثلة، وتكرير الكلام ليفهم عنه؛ فكانوا يتلقون عنه في المجالس والنوادي وعلى المنابر، في السفر والحضر، فما قبضه الله إلا وقد علَّمهم كل شيء يحتاجون إليه كما شهد له بذلك بعض أعدائه من المشركين، كما روى مسلم عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قيل له: قد علمكم نبيكم كلَّ شيء؛ حتى الخراءة[٤][٥].

وبعد أن توفى اللهُ نبيَّه محمداًﷺ عرف أصحابه أن هذا العلم الذي تَلَقَّوه عنه أمانةً في أعناقهم، وأنه يلزمهم بيانه للناس؛ كي لا يلحقهم وعيد الذين قال الله فيهم: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ**﴾ البقرة: ١٥٩.

---

١ - في حديث زيد بن ثابت رواه أحمد ٤/٨٠، وابن ماجه (٢٣٠) والدارمي ١/٧٥، ورواه أبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٧٩٥) بمعناه، ورواه أحمد ٤/٨٠، والدارمي ١/٧٤، وابن ماجه (٣٠٥٦) عن جبير بن مطعم.

٢ - رواه البخاري (٣٤٦١) وأحمد ٢/١٥٩ عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

٣ - رواه البخاري (٨٩).

٤ - الخراءة: قضاء الحاجة.

٥ - صحيح مسلم (٢٦٢).

وهكذا عرف تلامذتهم منزلة هذا العلم من الدين الذي كُلِّفُوا به، مما حمل الجميع على بذل الجهد في التعلم والتعليم؛ فعمروا بهذا الحديث مجالسهم، وصار طَلَبُه جُلَّ مقاصدهم، وتحملوا في تحصيله المشاق، وقطعوا المراحل الكثيرة، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «كان يبلغني الحديث عن بعض الصحابة، فآتي إليه وهو قائل، وأجلس عند الباب، تسفي الريح في وجهي التراب حتى يستيقظ»[١].

واشتهر عن جابر رضي الله عنه أنه سافر إلى الشام؛ لأخذ حديث واحد من عبدالله ابن أنيس، كما رواه أحمد[٢].

وكذا أبو أيوب سافر إلى مصر من المدينة؛ ليروي حديثاً واحداً عن عقبة ابن عامر[٣].

وكانوا بعد سماعه يتذاكرونه، ويعرضه بعضهم على بعض؛ ليتأكد كل منهم صحة ما حفظه، وربما كرره الواحد زمناً طويلاً حتى يحفظه، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يجعل جزءاً من الليل لدراسة الحديث؛ ليبقى في ذاكرته. ذكره ابن جريج وغيره.[٤]

وقد خصهم الله بزيادة في الحفظ فاقوا بها مَنْ بعدهم بكثير، ورويت عنهم في ذلك روايات عجيبة[٥].

وربما استعان بعضهم على الحفظ بالكتابة حتى يحفظ.

وبالجملة فقد أُثر عن سلفنا من العناية بالحديث والاهتمام بشأنه ما حقق الله به حفظَ

---

١ ـ رواه الحاكم في المستدرك ١٠٢/١، ٥٣٨/٣، وصححه، ووافقه الذهبي.

٢ ـ كما في مسند أحمد ٤٩٥/٣ عن جابر قال: بلغني حديث عن رجل فاشتريت بعيراً، ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهراً إلخ.

٣ ـ انظر كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ١١٢/١، وقد ذكر آثاراً كثيرة في ذلك.

٤ ـ انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٩٩/٨ وغيرها.

٥ ـ كما في ترجمة أبي هريرة وقتادة والشعبي وغيرهم في تهذيب التهذيب وغيره.

هذه الشريعة، وحمايةَ مصادرها، فرحمهم الله وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.[١]

المطلب الثالث: في جهود علماء السنة في حفظ الحديث

في أواخر عصر الصحابة -رضي الله عنهم- ظهر من يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ رغم ما ورد عنه من الوعيد على ذلك والتحذير منه[٢]، وكان أغلب من اشتهر بوضع الحديث قوم من الملاحدة دخلوا في الدين تستراً، فأرادوا إفساد العقيدة، والتشكيك في الإسلام.

وآخرون ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ﴾ الروم:٣٢، قصدوا التعصب لولاتهم وقبائلهم وبلدانهم.

ونوع ثالث وهم القُصاص الذين أرادوا الشهرة بكثرة المرويات، وغرائب الحكايات التي تستثير النفوس وتحرك القلوب.

ولكن علماء الحديث عندما أحسوا بهذا الخطر قابلوه بما يبطله ويرده من حيث جاء؛ ليسلم الحديث النبوي من كل دغل وكدر، ويبقى معيناً صافياً لمن يرتاده.

وقد وضعوا لذلك قواعد، وابتكروا طرقاً كانت سبباً في الحفاظ على السنة، فصارت غضة طرية تتناقلها الأجيال كيوم قالها صاحب الرسالة -عليه أفضل الصلاة والسلام-.

فمما ابتكروه من طرق للحفاظ على الحديث النبوي ما يلي:

١. **التزام الأسانيد، وتسمية الرواة:** وهذا من خصائص هذه الأُمة، وبه يعرف مصدر الحديث، ومرتبة رجاله، فيحكم بقبوله أو رده، قال عبدالله بن المبارك: «الإسناد من الدين لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[٣].

وكان من نتيجة ذلك أن توقف الكثير عن الوضع؛ مخافة ظهور كذبه، مما يسقط به قَدْرُ الواضع عند من يعظمه.

---

١ ـ انظر أخبار الآحاد في الحديث النبوي د. عبدالله بن جبرين ص٢١ـ٢٢.

٢ ـ كقوله ﷺ: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» أخرجه البخاري (١٢٢٩) ومسلم (٣).

٣ ـ رواه مسلم في مقدمة صحيحه ١/٨٧.

٢. **تتبع أحوال الرواة:** والبحث عن مكانتهم في الحديث وأهليتهم لتحمله، وقد أقدموا على الكلام فيهم من باب النصيحة للأُمة؛ حيث إنهم تولَّوا نقل شيء من أمر الدين له حكم، وقد خصصوا هذا النوع من عموم النهي عن الغيبة؛ لما فيه من المصلحة العامة للأُمة.

٣. **التثبت في الرواية تحملاً وأداءًا:** فكان أحدهم لا يُقْدِمُ على ذكر الحديث إلا بعد إتقانه، ولا يحدثون به إلا من هو أهل لسماعه، ويتحاشون تحديث السفهاء وأهل الأهواء.

وقد نتج عن هذه الجهود ونحوها أن ميزوا الحديث النبوي، وأخرجوا الموضوع ـالمكذوبـ عن مسمى الحديث، وعرفوا الكذابين، وبينوا حالهم، وكشفوا عوارهم، مما جعلهم يتوارون أمام هؤلاء الجهابذة الأعلام، حتى لقد قال سفيان الثوري: «ما ستر الله أحداً يكذب في الحديث».

وقيل لابن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر: ٩، ذكره السخاوي عنهما في فتح المغيث وغيره.[1]

المطلب الرابع: في تدوين الحديث النبوي

لقد ورد النهي عن كتابة الحديث في آثار مرفوعة وموقوفة، كما ورد الإذن بها صريحة عن النبي ﷺ في بعض الأحيان ولبعض الأشخاص[2].

ومن الخطأ حَمْلُ النهي عن الكتابة على عدم حجية الأحاديث، كما توهم ذلك بعض الزنادقة، وكذا حَمْلُه على أن السبب الوحيد قلة أدوات الكتابة والكُتَّاب؛ فقد كان في الصحابة وأبنائهم الكثيرُ ممن يحسن الكتابة[3].

---

١ ـ انظر فتح المغيث ٣٠/١، وأخبار الآحاد في الحديث النبوي ص٢٢ـ٢٤.

٢ ـ كقوله ﷺ: «**لا تكتبوا عني غير القرآن**» رواه مسلم ١٢٩/١٨، والدارمي ١١٩/١، وغيرهما عن أبي سعيد، وأذن في الكتابة لعبدالله بن عمرو بن العاص كما في صحيح البخاري (١١٣) وكتب لعلي صحيفة كما عند البخاري (١١١).

٣ ـ كعلي، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو، وغيرهم. انظر فتح الباري ٢٢/٩.

وأصح ما حُمِلَ عليه النهي عن كتابة الحديث أن ذلك خاص بأول الإسلام؛ ليشتغلوا بحفظ القرآن، ويقبلوا على دراسته من الألواح والصحف، ويكون أخذهم للحديث بالممارسة والمجالسة.

أو أن النهي خاص بكتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة، مخافة الاشتباه على الجهلاء به، ويكون الإذن فيها لمن عرف منه عدم الاشتباه، كعبدالله بن عمرو، وعند الحاجة كأمره ﷺ بالكتابة لأبي شاة[١].

ولقد اشتهر أنه ﷺ كتب صحائف كثيرة لبعض المعاهدين وفي بعض المناسبات، وبعث كتباً إلى رؤساء الدول في عهده يدعوهم إلى الإسلام[٢]، وذلك دليل جواز الكتابة لجنس الحديث.

ثم إن الصحابة عرفوا العلة في النهي، فتوقف بعضهم كما استعمل الكتابة آخرون للحاجة.[٣]

ولما أن زال المحذور وتميز القرآن عن غيره، واشتدت الحاجة إلى الكتابة، ابتدئ في تدوين السنة، وذلك في أواخر القرن الأول بأمر عبدالعزيز بن مروان، ثم ابنه عمر[٤]، ثم اشتهرت الكتابة في القرن الثاني فكانوا يكتبون ويحدثون من كتبهم مع المحافظة عليها.

---

١ ـ وذلك في حجة الوداع لما طلب كتابة تلك الخطبة كما عند البخاري (١١٢) و (٢٤٣٤).

٢ ـ حيث كتب إلى هرقل عظيم الروم وإلى كسرى عظيم الفرس وإلى النجاشي ملك الحبشة وإلى المقوقس ملك مصر وغيرهم وقد ذكر تلك الكتب ابن القيم في زاد المعاد ٦٠/٣ وغيره.

٣ ـ روى ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٧٦/١ بأسانيده المنع من كتابة الحديث عن زيد بن ثابت وعلي ابن أبي طالب وأبي سعيد وعمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وابن عمر وأبي موسى وأبي هريرة ومن التابعين الشعبي والنخعي وقتادة وغيرهم.

ثم روى الرخصة في الكتابة أو استعمالها عن جابر وابن عمرو بن العاص وأنس وأبي أمامة وغيرهم وحصل عليه الاتفاق بعدهم.

٤ ـ روى ابن عبدالبر في العلم ٨٨/١ـ٩١ عن ابن شهاب أنه أول من دون الحديث بأمر عمر بن عبدالعزيز.

إلى أن وصلت هذه الأحاديث إلى علماء أجلاء كالبخاري ومسلم، وأهل السنن، فَدَوَّنوها في مؤلفاتهم تدويناً عامًّا أو خاصًّا، مع بيان صحيحها من ضعيفها ونحو ذلك.

وقد وصلت إلينا تلك الدواوين بحمد الله كما كتبوها، مَصُونَةً عن التغيير والتبديل، وبهذا تحقق ضمان الله بحفظ مصادر الشريعة، وقامت حجة الله على العباد، والحمد لله رب العالمين.[1]

وبهذا يتبين لنا أن دين الإسلام، وكتاب الإسلام، وسنة نبي الإسلام كل ذلك وصل إلينا محفوظاً تتعاوره الأيدي الأمينة، وتتعاهده بالحفظ، والرعاية.

---

١ ـ انظر أخبار الآحاد في الحديث النبوي ص٢٤ـ٢٥.

المبحث الرابع: منزلة السنة من القرآن الكريم

لما كان النبي محمد ﷺ هو الواسطةَ بين الله وعباده في تبليغ شرعه ودينه كانت الشريعة الإسلامية كلها متلقاةً عنه.

ولكن الشريعة ـ كما مر ـ تنقسم إلى وحي منزل متعبد بتلاوته وهو القرآن الكريم، وإلى بيان له، وتمثيل، وتقرير، وتشريع منه ليس له حكم القرآن في التعبد بتلاوته وهو السنة النبوية.

ولما كان في القرآن أحكام مجملة لا تُعْرف كيفيتها كان إيضاحها مما وُكِلَ إلى النبيﷺ .

قال الله ـتعالىـ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل: ٤٤.

وقال ـعز وجلـ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ النحل: ٦٤.

ولقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه غاية الامتثال، فقام بهذه المهمة الجليلة خير قيام، فَبَيَّن للناس بسنته ما نُزِّل إليهم[١].

وتوضيح ذلك: أنه لم يكن للأحكام في عهد الرسول ﷺ مصدر سوى الكتاب والسنة.

ففي كتاب الله ـتعالىـ الأصول العامة للأحكام الشرعية، دون التعرض إلى تفصيلها جميعها، والتفريع عليها إلا ما كان منها متفقاً مع الأصول العامة، ثابتاً بثبوتها لا يتغير بمرور الزمن، ولا يتطور باختلاف الناس في بيئاتهم وأعرافهم، كل هذا حتى يحقق القرآن الكريم الصلاح والفلاح لكل أمة مهما كانت بيئتها وزمنها؛ فتجد فيه ما يكفل حاجتها التشريعية في سبيل النهوض والتقدم، والوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة.

---

١ ـ انظر أخبار الآحاد في الحديث النبوي ص١٨.

وإلى جانب هذه الأصول في القرآن الكريم نجد العقائد والعبادات، وقصص الأمم الغابرة، والآداب العامة والأخلاق.

وقد جاءت السنة في الجملة موافقة للقرآن الكريم؛ تفسر مبهمه، وتُفَصِّل مُجمله، وتقيِّد مُطْلَقَه، وتُخَصِّص عامه، وتشرح أحكامه ومقاصده، كما جاءت بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم، قائمة على أصوله وقواعده، تحقق أهدافه ومقاصده؛ فكانت السنة تطبيقاً عمليًّا لما جاء به القرآن العظيم.

وقد تبين لنا فيما سبق أن السنة بمنزلة القرآن الكريم من حيث إنها وحي، ومن حيث إنها مصدر تشريعي يجب العمل بها.

وهي إنما تلي القرآن الكريم بالمرتبة من حيث الاعتبار؛ لأنها مُبَيِّنة له، والمُبَيِّن يُقَدَّمُ على المُبَيَّن، والأصل على الفرع، كما قال -تعالى-: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ النحل: ٤٤ .

وبالجملة فإن السنة مع القرآن الكريم على أربعة وجوه:

الأول: أنها مؤكدة لما جاء فيه، كأحاديث الأمر بالصلاة والزكاة والصيام والتزام الصدق واجتناب الكذب، وتحريم الربا، ونحوها..

الثاني: أنها مبينة للقرآن الكريم، ووجوه هذا البيان كما يلي:

١- **أنها تفصل مجمله:** فقد بينت السنة ما أُجْمل من عبادات وأحكام، فَبَيَّن الرسول ﷺ أوقاتَ الصلاةِ، وعددَ ركعاتها، وكيفيتَها، وأركانَها، وقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

كما بَيَّن ما أُجْمِل من مناسك الحج في القرآن الكريم، وفصَّل أحكامه، وقال: «**لتأخذوا مناسككم**»[2].

وكذلك بَيَّن ﷺ ماتجب فيه الزكاة، ومقدارها، وأنصبتها مما أجمله القرآن الكريم.

---

١ - رواه البخاري (٥٦٦٢ و ١٧٥٧).

٢ - رواه مسلم (١٢٩٧).

٢ـ تُخَصِّص عَامَّه: ومن هذا بيان الرسول ﷺ لقول الله ـعز وجلـ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ النساء: ١١ .

وهو حكم عام في وراثة الأولاد وآبائهم وأمهاتهم، يثبت في كل أصل مورث، وكل ولد وارث، فخصت السنة المورث بغير الأنبياء، بقوله ﷺ «**لا نورث ما تركناه صدقة**»[١].

٣ـ تُقَيِّد مطلق القرآن الكريم: ففي قوله سبحانه ـوتعالىـ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ المائدة: ٣٨ ـ لم يقيد موضع القطع بموضع خاص من اليد، وتطلق اليد على الذراع، كما تطلق على العضد، وعلى الساعد، وعلى الكف، فَقَيَّدت السنةُ القطعَ بأن يكون من الرسغ، عندما أُتِيَ رسول الله ﷺ بسارق، وثبت عليه الحد، فقطع يده من مفصل الكف[٢].

الثالث: أن السنة تأتي مُفَرِّعة على أصل تقرر في القرآن الكريم: ومثال هذا منع بيع الثمار قبل بُدُوِّ صلاحها، فبعد هجرته ﷺ إلى المدينة وجد المزارعين يتبايعون ثماراً قَبْلَ بُدُوِّ صلاحها، فلا يعرف المتبايعان كمية ما يباع وصلاحه، فإذا حان جني الثمار كانت المفاجآت غير الطيبة كثيراً ماتثير النزاع بين المتعاقدين، وذلك عندما يطرأ طارئ من برد شديد، أو مِراض شجري يقضي على الزهر، وينعدم معه الثمر، لذلك حرم رسول الله ﷺ هذا النوع من البيع مالم يَبْدُ صلاحُ الثمر[٣] فقال: «**أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه**»[٤] تفريعاً على الأصل العظيم في قوله ـتعالىـ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ النساء: ٢٩.

---

١ ـ رواه البخاري (٢٩٢٦) ومسلم (١٧٥٧) .
٢ ـ رواه البيهقي (٢٦٢٦) وانظر سبل السلام ٤/٢٧ـ٢٨ .
٣ ـ انظر فتح الباري لابن حجر ٥/٢٩٨ .
٤ ـ انظر فتح الباري ٥/٣٠٢ .

الرابع: أن السنة نصت على أحكام لم يَنُصَّ عليها القرآن الكريم: وليست بياناً له، ولا تطبيقاً مؤكداً لما ينص عليه، ومثال هذا: تحريم أكل لحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وإحداد المتوفى عنها زوجها زائداً على ما في القرآن الكريم من العدة وغير ذلك.

وكل هذا سنة يجب العمل به.

وعلى هذا جميع من يُعْتَدُّ به من الأمة الإسلامية في مختلف الأوطان والأزمان[1].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما سَنَّ رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سَنَّهُ، وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ**﴾ الشورى.

وقد سَنَّ رسولُ الله مع كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نَصُّ كتاب، وكلُّ ما سَنَّ فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العُنودِ عن اتباعه معصيتَه التي لم يَعْذُرْ بها خلقاً، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فما ثبت عنه من السنة فعلينا اتباعه، سواء قيل: إنه في القرآن ولم نَفْهَمْهُ نحن، أو قيل: ليس في القرآن»[3].

وقال -أيضاً-: «كل ما في الكتاب فالرسول ﷺ موافق له، وكذلك كلُّ ما سنه رسول الله ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه»[4].

ويقول -أيضاً-: «ليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون مفسراً في القرآن؛ فإن الرسول ﷺ هو الواسطة في أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه»[5].

وهكذا يتبين وجه كونِ السنةِ هي المصدرَ التشريعيَّ الثاني في الإسلام.

---

١ - انظر المختصر الوجيز من علوم الحديث ص٣٤-٣٨، وأخبار الآحاد ص١٨.

٢ - الرسالة للشافعي ص ٨٨-٨٩ والعنود: الطغيان، والعتو، والانحراف.

٣ - مجموع الفتاوى ١٦٣/٥.

٤ - مجموع الفتاوى ٤٠/٧.

٥ - مجموع الفتاوى ٤٠/٧.

الفصل الثالث

أركان الإسلام

وتحته:

تمهيد

المبحث الأول: الشهادتان

المبحث الثاني: الصلاة

المبحث الثالث: الزكاة

المبحث الرابع: الصوم

المبحث الخامس: الحج

تمهيد

أركان الإسلام أسسه التي يُبنى عليها، وهي خمسة أركان:

١. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ٢. إقام الصلاة ٣. إيتاء الزكاة ٤. صوم رمضان ٥. حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

وقد وردت هذه الأركان في حديث ابن عمر ـرضي الله عنهماـ عن النبيﷺ أنه قال: «بني الإسلام على خمسة: شهادة إلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج»[١].

فهذه هي أركان الإسلام على سبيل الإجمال، تلك الأركان التي تجعل من الأمة أمة إسلامية تقية تدين بدين الحق، وتعامل الخلق بالعدل والصدق؛ لأن ما سوى ذلك من شرائع الإسلام يصلح بصلاح هذه الأسس، والأمة تصلح بصلاح أمر دينها، ويفوتها من صلاح أحوالها بقدر ما فاتها من صلاح أمور دينها[٢].

وفيما يلي من مباحث بيان لتلك الأركان بشيء من البسط والإيضاح.

---

١ ـ رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

٢ ـ انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص١٠ .

المبحث الأول: الشهادتان

المقصود بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً عبدالله ورسوله؛ فهاتان الشهادتان هما الركن الأول من أركان الإسلام.

وفيما يلي بيان وإيضاح لهذا الركن العظيم من أركان الإسلام:

أولاً: معنى لا إله إلا الله

أما معناها الحق الذي لا يجوز العدول عنه فهو: **لا معبود حق إلا الله.**

وذلك لأن كلمة «إله» عند العرب على وزن فِعال بمعنى مفعول، كغِراس بمعنى مغروس، وفِراش بمعنى مفروش؛ فإله: على وزن فِعال بمعنى مفعول: أي مألوه، والتأله في لغة العرب معناه التنسك والتعبد، فمعنى مألوه: معبود.

إذاً فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وتُقَدَّر كلمة «حق» لأن المعبودات كثيرة، ولكن المعبود الحق هو الله وحده لا شريك له.

قال ـتعالى ـ: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ** ﴾ (الحج:٦٢)[1].

ثانياً: أركان: لا إله إلا الله

للشهادة ركنان:

١ـ نفي في قول: «لا إله». **٢ـ إثبات في قول: «إلا الله».**

فـ: (**لا إله**) نفت الألوهية عن كل ما سوى الله، و: (**إلا الله**) أثبتت الألوهية لله وحده لا شريك له.

وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب القصر، وهو أسلوب عربي معروف، وجملة القصر في قوة جملتين، إحداهما مثبتة، والأخرى منفية.

---

١ ـ انظر لسان العرب ٤٦٩/١٣.

وهذا الأسلوب من أقوى الأساليب التي يؤتى بها؛ لتمكين الكلام، وتقريره في الذهن؛ لدفع ما فيه من إنكار أو شكٍّ.

وطريقُ القصر في كلمة التوحيد: النفي والاستثناء[١].

ثالثاً: شروط لا إله إلا الله

شروطها سبعة؛ فأولها: العلم المنافي للجهل، والثاني: اليقين المنافي للشك، والثالث: الإخلاص المنافي للشرك، والرابع: الصدق المنافي للكذب، والخامس، المحبة المنافية لضدها، والسادس: الانقياد المنافي للامتناع، والسابع: القبول المنافي للرد[٢].

رابعاً: هل يكفي مجرد النطق بـ:لا إله إلا الله

كما مر بنا أن معنى الشهادة هو لا معبود حق إلا الله، فلا يعبد إلا الله، ولا يجوز أن يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة لغير الله؛ فمن قال هذه الكلمة عالماً بمعناها، عاملاً بمقتضاها؛ من نفي الشرك، وإثبات الوحدانية، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته والعمل به فهو المسلم حقًّا، ومن عمل بها من غير اعتقاد فهو المنافق، ومن عمل بخلافها من الشرك فهو المشرك الكافر وإن قالها بلسانه.

ومن هنا يتبين لنا أن مجرد النطق بهذه الكلمة العظيمة لا يكفي، بل لا بدَّ من العلم بها، والعمل بمقتضاها[٣].

خامساً: معنى (شهادة أن محمداً رسول الله)

معناها: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وأن يعظم أمره ونهيه فلا يقدم عليه قول أحد من الخلق كائناً من كان.[٤]

---

١ ـ انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبدالمتعال الصعيدي ٣/٢ .

٢ ـ انظر مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية للشيخ عبدالعزيز السلمان ص٩.

٣ ـ انظر تيسير العزيز الحميد ص٧٤ـ ٨٠ .

٤ ـ انظر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص١٠.

سادساً: الحكمة من قرن الشهادتين ببعض

والحكمة من قرن شهادة أن محمداً رسول الله بالشهادة لله بالتوحيد وجعلهما ركناً واحداً مع تعدد المشهود به؛ لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال؛ فلا يقبل إسلام ولا عمل إلا بالإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ.

ومعنى ذلك ألا يعبد إلا الله وحده، ولا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله محمدٍ ﷺ.

فبالإخلاص تتحقق شهادة أن لا إله إلا الله، وبالمتابعة تتحقق شهادة أن محمداً رسول الله؛ فلا تكفي ولا تغني إحداهما عن الأخرى.

وبهذا تتحقق الشهادة لله بالتوحيد، وللرسول بالرسالة.[1]

---

١ ـ انظر الشبهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص١١٣ ورسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص٩.

المبحث الثاني: الصلاة

أولاً: مفهوم الصلاة

أ. الصلاة في اللغة: تطلق على الدعاء، أو الدعاء بخير، وتطلق على الرحمة، والتسبيح، والركوع والسجود.

فالصلاة من الله رحمة، ومن المخلوقين: من الملائكة والإنس والجن: القيام، والسجود، والدعاء، والتسبيح.

والصلاة من الطير والهوام: التسبيح.

ولعل الدعاء هو أشهر وأَسْيَرُ معاني الصلاة في اللغة.

وتأتي الصلاة -أيضاً- بمعنى التعظيم، والتكريم.[١]

ب. الصلاة في الشرع: عبادة تتضمن أقوالاً وأفعالاً مخصوصة مفتتحة بتكبير الله، مختتمة بالتسليم.[٢]

ج. **وسميت بذلك؛** لاشتمالها على معاني الصلاة من الدعاء بالخير، والتسبيح، والتعظيم، والركوع، والسجود، ونحو ذلك.[٣]

د. ومعنى إقامة الصلاة: التعبد لله -تعالى- بفعلها على وجه الاستقامة، والتمام في أوقاتها، وهيئاتها.

وللصلاة فروض، وأركان، وشروط، ومكملات، ومنقصات، وأحكام يطول ذكرها، وهي مبثوثة في كثير من كتب أهل العلم[٤].

---

١ ـ انظر لسان العرب ١٤/٤٦٤ـ٤٦٦.

٢ ـ انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٨١، وتوضيح الأحكام من بلوغ المرام للشيخ عبدالله البسام ١/٤٦٩.

٣ ـ انظر توضيح الأحكام ١/٤٦٩.

٤ ـ انظر رسائل في العقيدة ص٩، وتيسير العزيز العلام شرح عمدة الأحكام للشيخ عبدالله البسام ١/١٠٠.

هـ. ثبوت الصلاة: الصلاة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، فهي مما عُلم من الدين بالضرورة[١].

ثانياً: منزلة الصلاة، وأهميتها

للصلوات الخمس منزلة عالية، وأهمية كبرى، ولها على سائر الشرائع الواجبة ميزات كبيرة كثيرة، ومما يوضح ذلك ما يلي:

١. أنها أعظم وأكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين.

٢. أنها فرضت في السماء، بينما غيرها فرض في الأرض.

٣. أنها فرضت من الله -تعالى- لرسولهﷺ بلا واسطة، بينما غيرها بواسطة المَلَكِ.

٤. أنها الغاية في العبودية، والتذلل، والقرب من الله -عز وجل-.

٥. أنها اشتملت على أكمل وجوه العبادة وأحسنها، وأجمعها؛ فهي تكبير الله، وتحميده، والثناء عليه، وتنزيهه، وتقديسه، وتلاوة كتابه، والصلاة والسلام على رسولهﷺ وعلى آله، ودعاء لجميع عباده الصالحين.

كما أنها مشتملة على قيام، وركوع، وسجود، وجلوس، وخفض، ورفع؛ فكل عضو من البدن، وكل مفصل فيه له حَظّه من هذه العبادة، ورأس ذلك كله القلب الحاضر.[٢]

٦. أنها قُرةٌ للعين، وفَرَحٌ للفؤاد، قال النبيﷺ: «**حبِّب إلى من دنياكم النساءُ والطيبُ، وجُعِلَت قرةُ عيني في الصلاة**»[٣].

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: «فأخبر أنه حُبِّب إليه من الدنيا شيئان: «**النساء والطيب**» ثم قال: «**وجعلت قرةُ عيني في الصلاة**».

وقرةُ العينِ فوقَ المحبة؛ فإنه ليس كلُّ محبوبٍ تَقَرُّ به العينُ، وإنما تقر بأعلى المحبوبات

---

١ ـ انظر تيسير العلام ١/١٠٠، وتوضيح الأحكام ١/٤٧٠.

٢ ـ انظر رسائل في العقيدة ص٩، وتيسير العزيز العلام شرح عمدة الأحكام للشيخ عبدالله البسام ١/١٠٠.

٣ ـ رواه أحمد في المسند (١٣٦٢٣) والنسائي (٣٩٤٩) والحاكم ٢/١٦٠ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

الذي يُحب لذاته، وليس ذلك إلا الله الذي لا إله إلا هو»[1].

إلى أن قال رحمه الله: «فالصلاةُ قرةُ عيون المحبين في هذه الدنيا؛ لما فيه من مناجاةِ مَنْ لا تَقَرُّ العيونُ، ولا تطمئن القلوب، ولا تسكن النفوس إلا إليه، والتنعم بذكرهِ، والتذلل والخضوع له، والقرب منه ولا سيما في حال السجود، وتلك الحالُ أقربُ ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول ﷺ: «**يا بلال! أرحنا بالصلاة**».

فَأَعْلَم بذلك أن راحته ﷺ في الصلاة، كما أخبر أن قرةَ عينه فيها، فأين هذا من قول القائل: نصلي ونستريح من الصلاة؟!

فالمحب راحتهُ، وقرةُ عينه في الصلاة، والغافلُ المعرضُ ليس له نصيب من ذلك، بل الصلاةُ كبيرةٌ شاقةٌ عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلَّص منها، وأحبُّ الصلاة إليه أعجلُها، وأسرعُها؛ فإنه ليس له قرةُ عينٍ فيها، ولا لقلبه راحةٌ بها، والعبدُ إذا قَرَّت عينُه بشيء، واستراح قلبُه به فأشق ما عليه مفارقَته، والمتكلِّف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشقُّ ما عليه الصلاة وأكرهُ ما إليه طولها مع تفرغه، وصحته، وعدم اشتغاله»[2].

---

١ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣١ـ٣٢.

٢ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٣٣ـ٣٤.

المبحث الثالث: الزكاة

أولاً مفهوم الزكاة، وحُكْمُها

أ. تعريف الزكاة لغة: الزكاة في اللغة تطلق على النماء، والريع، والزيادة، والطهر، والطيب، والتثمير، ونحو ذلك.[١]

ب. الزكاة في الشرع: هي حق واجب من مال خاص، لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص.[٢]

ج. معنى إيتائها: التعبد لله ـتعالى ـ ببذل القَدْر الواجب في الأموال الزكوية المستحقة.[٣]

د. سبب تسميتها بذلك المعنى اللغوي؛ فهي تنمي المال، وتطهره، وتطيِّبه.

هـ. حكم الزكاة: حكمها أنها واجبة شرعاً، قال الله ـتعالى ـ: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ المزمل: ٢٠ .

وقد أجمع المسلمون على أنها ركن من أركان الإسلام، ومستند الإجماع نصوص الكتاب والسنة.

ومن جحد وجوبها كفر، ومن منعها فسق.[٤]

ثانياً: أهمية الزكاة وثمراتها

الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، كما تظاهرت بذلك دلائل الكتاب والسنة.

ومن عظم شأنها أن الله ـعز وجل ـ قرنها في كتابه العزيز بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً.

---

١ ـ انظر لسان العرب ١٤/٣٥٨ـ٣٥٩.

٢ ـ انظر توضيح الأحكام ٣/٣٨١.

٣ ـ انظر رسائل العقيدة ص٩.

٤ ـ انظر توضيح الأحكام ٣/٢٨٢.

والزكاة من محاسن الإسلام الذي جاء بالتكافل، والتراحم، والتعاطف، والتعاون، وقطع دابر كل شر يهدد الفضيلة، والأمن، والرخاء، وغير ذلك من مقومات الحياة السعيدة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة؛ فقد جعلها الله طهرة لصاحبها من رذيلة البخل، وتنمية حسية ومعنوية، وإعانة من الأغنياء لإخوانهم المستحقين لها، وجمعاً للكلمة، وتأليفاً للقلوب، وسلامة من رذيلة الحسد، والكبر، الحسد من الفقراء للأغنياء، والكبر من الأغنياء على الفقراء.

وبمثل هذه الفريضة الكريمة الرشيدة يُعلم أن الإسلام دين التكافل الاجتماعي، يكفل للفقير العاجز عن العيش ما يعينه على حياته، وأنه -كذلك- دِيْنُ الحرية الذي أعطى للغني حرية التملك مقابل كدِّه وسعيه، وفرض عليه الزكاة؛ مواساةً لإخوانه، فهو الدين الوسط؛ فلا شيوعية مُؤمِّمةً حارمة تغلب جانب الجماعة على حساب الفرد.

ولا رأسمالية مُمْسِكة محتكرة شاحة تغلب الفرد على حساب الجماعة.[1]

ثالثاً: الآثار الاقتصادية للزكاة

الزكاة فريضة وعبادة، ولها آثار اقتصادية حميدة تعود على الفرد والجماعة، وقد مضى شيء من ذلك في الفقرة الماضية، ومما تمتاز بها الزكاة على الضرائب أن المكلفين بها يؤدونها بدافع ديني بخلاف الضرائب التي تعتمد على الدافع الرسمي الذي يعاني من تهرب الناس منه متى وجدوا غفلة من الرقيب.

ومن أهم الآثار الاقتصادية التي تترتب على الزكاة ما يلي:

١ـ أن الزكاة وسيلة من وسائل إعادة توزيع الدخل، والثروة في المجتمع: فتؤدي إلى مواساة الفقراء؛ فهي وسيلة العدل الاقتصادي، الذي أصبح محل اتفاق بين الاقتصاديين مع الاختلاف حول تعريفه ووسائله.

---

١ ـ انظر توضيح الأحكام ٢٨٢/٣.

٢ـ أنها أحد الدوافع نحو الاستثمار: أي إن من يملك أرصدة نقدية لا بدَّ له من استثمارها حرصاً عليها من التآكل، ومعروف أن الاستثمار في مختلف المشروعات يعود على الاقتصاد بالمصلحة، وتحرص الدول على تشجيعه بمختلف الوسائل.

٣ـ أنها وسيلة من وسائل الأمن المشجع على توفير البيئة المناسبة للانتعاش الاقتصادي؛ لأن الفقر أحد أسباب الجريمة، ولأن الزكاة تحارب الفقر؛ فهي وسيلة لمحاربة الجريمة بطريقة غير مباشرة.

٤ـ أنها وسيلة من وسائل تحسين أوضاع الفئات الفقيرة في المجتمع: أي أنها تُسهم في تحسين مستواهم المعيشي والصحي والتعليمي، وهذا يعني الإسهام في تأهيلهم؛ ليصبحوا قوة عمل مشاركة في التنمية الاقتصادية.

٥ـ أنها تُسهم في تخفيف العبء المالي الذي تتحمله ميزانية الدولة للإنفاق على أصناف من الإعانات التي تقدم للمحتاجين كالأيتام والعجزة وغيرهم ممن يحتاجون إلى رعاية اجتماعية.[١]

رابعاً: الأشياء التي تجب فيها الزكاة

تجب الزكاة في أربعة أصناف، وهي:

١. الأثمان: وتشمل الذهب والفضة، وما يلحق بهما من العملات المعاصرة المصنوعة من الورق، أو غيره.

٢. السائمة من بهيمة الأنعام: وهي البقر، والإبل، والغنم التي ترعى في البراري معظم السنة.

٣. الخارج من الأرض من الحبوب: كالقمح، والثمار: كالتمر، والمعدن: كالحديد.

٤. عروض التجارة: وهي ما أُعِدَّ للبيع والشراء بهدف الربح.[٢]

---

١ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام د. عمر المرزوقي وزملاؤه ص ١٤٧ـ١٤٨ .

٢ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ١٤٩ـ١٦٣ .

فهذه هي الأشياء التي تجب فيها الزكاة، ولكل واحدة منها تفصيلات يطول ذكرها في مقادير الأنصبة، وما يُخْرَجُ منها، وهي مثبوتة مبسوطة في كتب أهل العلم التي تُعنى بهذا الشأن.

خامساً: مصارف الزكاة

يقصد بمصارف الزكاة: الأوجه التي تصرف فيها، وقد وردت في قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٦٠ .

وإنما تفيد الحصر فدل على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلا على هذه الأصناف الثمانية المذكورة في الآية[١].

---

١ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ١٦٣.

المبحث الرابع: الصيام

أولاً: مفهوم الصيام، وفرضيته

أ. تعريف الصيام لغة: الصيام في اللغة يطلق على الإمساك والترك، يقال: أمسك عن الطعام، والشراب، والنكاح، والكلام، ويقال: تركه.(١)

ب. الصيام في الشرع: هو إمساك بنية عن أشياء مخصوصة، في زمن معين، من شخص معين.(٢)

أو يقال: هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية.(٣)

ج. معنى صوم رمضان: هو التعبد لله -تعالى- بالإمساك عن المفطرات نهار رمضان.(٤)

والمفطرات هي الأكل، والشرب، والجماع، وما في حكمها.

د. فرضية الصيام: فرض الصوم في شهر شعبان في السنة الثانية من الهجرة، فصام رسولﷺ تسع رمضانات إجماعاً.

وصيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام، وفروضه العظام، وقد دل عليه الكتاب، والسنة، والإجماع، قال الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣.

وقال رسول اللهﷺ: «**بني الإسلام على خمس**» وذكر منها: «**صوم رمضان**».(٥)

وأجمع المسلمون على أن من أنكر وجوبه كفر.(٦)

---

١ ـ انظر لسان العرب ٣٥٠/١٢.

٢ ـ انظر توضيح الأحكام ٤٣٩/٣.

٣ ـ انظر فقه السنة لسيد سابق ٣٨١/١.

٤ ـ انظر رسائل في العقيدة ص١٠.

٥ ـ رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

٦ ـ انظر توضيح الأحكام ٤٣٩/١.

ثانياً: فضائل صيام رمضان

لصيام رمضان فضائل عظيمة، ومن ذلك ما يلي:

١. أنه سبب لمغفرة ما تقدم من الذنوب: فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرةﷺ عن النبيﷺ قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر**».[١]

٢. أنه من أعظم أسباب التحلي بالتقوى: فالتقوى هي الحكمة الجامعة في الصيام، قال الله -تعالى-: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ البقرة: ١٨٣.

قال الشيخ عبدالرحمن السعديرحمه الله تفسير هذه الآية: «فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثالَ أمرِ الله ونهيِهِ؛ فمما اشتمل عليه من التقوى أن الصائمَ يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوهما، التي تميل إليها نفسُه؛ مُتَقَرِّباً إلى الله، راجياً بتركها ثوابه؛ فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يُدَرِّب نفسَه على مراقبة الله -تعالى- فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه؛ لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها: أن الصيام يضيِّق مجاريَ الشيطان؛ فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي.

ومنها: أن الصائم -في الغالب- تكثر طاعاتُه، والطاعاتُ من خصال التقوى.

ومنها: أن الغنيَّ إذا ذاق ألمَ الجوعِ أوجب له ذلك مواساةُ الفقراءِ والمعدمين، وهذا من خصال التقوى»[٢].

٣. أن الصيام وقاية، وستر من النار: فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرةﷺ أن رسول اللهﷺ قال: «**الصيام جنة**».[٣]

---

١ ـ رواه البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠).

٢ ـ تفسير السعدي ـتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ ص٨٦.

٣ ـ رواه البخاري (١٧٩٥) ومسلم (١١٥١).

قال ابن العربي رحمه الله: «وإنما كان الصوم جنة؛ لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات؛ فالحاصل أنه إذا كفَّ نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة».[١]

٤. أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك: فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ولَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».[٢]

ومعنى الخلوف: تَغَيُّرُ رَائحةِ فَمِ الصائم بسبب الصيام.

٥. أن الله -عز وجل- اختص الصيام بأنه له وهو يجزي به؛ فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كل عمل ابن آدم له: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله -عز وجل- إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته، وطعامه، وشرابه من أجلي**».[٣]

والسبب في ذلك أن الصيام سرٌّ بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه غيره -عز وجل-.

ثالثاً: من أسرار الصيام وحكمه

١- الصومُ درسٌ مفيدٌ في سياسة المرء لنفسه، وَتَحَكُّمِهِ في أهوائه، وضبطِه بالجد لنوازع الهزل، واللغو، والعبث.

٢- الصومُ ينمِّي في النفوس رعايةَ الأمانة، والإخلاصَ في العمل، وألا يُراعى فيه غيرُ وجهِ الله-تعالى-.

وهذه فضيلةٌ عظمى تقضي على رذائل المداهنة والرياء والنفاق.

٣- الصوم يربي في النفوس مكارمَ الأخلاقِ، ومحاسنَ الأعمالِ، فيبعثها إلى بر

---

١ - فتح الباري لابن حجر ٤/١٠٤١.

٢ - رواه البخاري (٥٥٨٣) ومسلم (١١٥١).

٣ - رواه البخاري (٧٠٥٤) ومسلم (١١٥١).

الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الأهل والجيران.

٤ـ أنه سبب للحصول على الصحة العامة بجميع معانيها، ففيه صحةٌ بدنيةٌ حسيةٌ، وفيه صحةٌ روحيةٌ معنويةٌ، وفيه صحةٌ فكريةٌ ذهنية.

فالصحة البدنية تأتي من كون الصيام يقضي على المواد المترسبة في البدن، ولا سيما أبدان أولي النَّعمة والنَّهْمة والتُّخمة وقليلي العمل والحركة؛ فقد قال الأطباء: إن الصيام يحفظ الرطوباتِ الطارئةَ، ويطهر الأمعاءَ من فساد السموم التي تحدثها البِطْنة، ويحول دون كثرةِ الشحوم التي لها خطرها على القلب، فهو كتضمير الخيل الذي يزيدها قوةً على الكر والفر.

وأما الصحةُ المعنويةُ فكما تقدم من أن الصوم من أعظم ما تصح به القلوب، وتزكو به الأرواح.

وأما الصحة الفكرية فتأتي من أثر الصيام الصحيح، حيث يحصل به حسنُ التفكير، وسلامةُ النظرةِ، والتدبرُ في أمر الله ونهيه وحكمته.

وبذلك يصح للصائم تفكيرُه، ويستنير بنور ربه، ويستجيب لنداءاته، ويحقق طاعته، فيخرج من صيامه بنفس جديدة، وفكر نيِّر، يسلم به من وصف البهيمية، ويصعد في مراتب السعادة والسيادة درجات.

هذه صورة عامة مجملة لبعض، وإشارات عابرة لبعض الحكم والآثار والأسرار التي ينطوي عليها الصيام.[1]

---

١ ـ انظر رمضان دروس وعبر تربية وأسرار لمحمد الحمد ص٢٤٩ـ٢٥٨ .

المبحث الخامس: الحج

أولاً: مفهوم الحج، ومشروعيته

أ. تعريف الحج لغة: الحج في اللغة هو القصد، يقال: حجه يحجه حجًّا: أي قصده، ورجل محجوج: أي مقصود.[١]

ب. الحج في الشرع: هو قصد البيت الحرام لأعمال مخصوصة في زمن مخصوص.[٢]

أي قصد مكة المكرمة في وقت الحج، وهي أشهره المعلومة: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة بنية أداء المناسك، وهي الإحرام من الميقات، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، وغيرها من المناسك.[٣]

ج. مشروعية الحج: الحج أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام.

وقد ثبت ذلك في الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

قال الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آل عمران: ٩٧.

وجاء في الصحيحين من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-: «بني الإسلام على خمس»[٤] وذكر منها الحج.

ولا يجب في العمر إلا مرة واحدة لمن استطاع، جاء في سنن أبي داود مرفوعاً من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: «**الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع**»[٥].

---

١ - انظر لسان العرب ٢٢٦/٢.

٢ - انظر حاشية ابن عابدين ٤٥٤/٢، وتوضيح الأحكام ٣/٤.

٣ - انظر: الحج د. عبدالله الطيار ص١٥.

٤ - سبق تخريجه.

٥ - رواه أبو داود (١٤٦٣).

ثانياً: منافع الحج

للحج أسرار بديعة، وحكم متنوعة، وبركات متعددة، ومنافع مشهودة سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الأمة؛ ويكفي في ذلك قول الله -عز وجل- في محكم التنزيل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ الحج.

فقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ جامع لكل خير دنيوي وأخروي.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله في الآية السابقة: «أي لينالوا ببيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وهذا أمر مشاهد كلٌّ يعرفه»[1].

---

١ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٥٣٦ .

الباب الثاني

أركان الإيمان

وتحته:

تمهيد

الدين الإسلامي عقيدة وشريعة، وقد مرَّ فيما سبق الإشارة إلى شيء من شرائعه، ومرَّ الحديث عن أركانه التي هي أساس لشرائعه.

أما العقيدة الإسلامية فهي تشمل الإيمان بكل ما جاء عن الله، وعن رسول الله ﷺ من الأخبار، والأحكام القطعية، والغيبيات، ونحو ذلك.

وأسس العقيدة هي أركان الإيمان الستة، وهي:

١ـ الإيمان بالله.

٢ـ الإيمان بالملائكة.

٣ـ الإيمان بالكتب.

٤ـ الإيمان بالرسل.

٥ـ الإيمان باليوم الآخر.

٦ـ الإيمان بالقدر خيره وشره.

وفيما يلي من فصول بيان لتلك الأركان بشيء من البسط والإيضاح.

الفصل الأول

الإيمان بالله ـ جلَّ جلاله ـ

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالله وثمراته وأدلته

المبحث الثاني: دلالة الشرع على الإيمان بالله

المبحث الثالث: دلالة العقل على الإيمان بالله

المبحث الرابع: دلالة الحس على الإيمان بالله

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالله، وثمراته، وأدلته

أولاً: مفهوم الإيمان بالله وما يتضمنه

الإيمان بالله هو الاعتقاد الجازم بوجود الله، وأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده، المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأن كل معبود سواه فهو باطل، وعبادته باطلة، وأنه -سبحانه- متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منزه عن كل نقص وعيب(١).

ومن خلال ما مضى يتبين أن الإيمان بالله يتضمن أموراً أربعة:

١- **الإيمان بوجود الله**: وذلك باعتقاد وجوده وجوداً كاملاً لم يسبق بعدم، ولا ينتهي بفناء.

٢- **الإيمان بربوبيته**: وذلك باعتقاد انفراده -عز وجل- بأفعاله، وأنه لا شريك له في خلقه، وملكه، وتدبيره، وغير ذلك من مقتضيات الربوبية.

٣- **الإيمان بأسمائه وصفاته**: وذلك باعتقاد أن له الأسماء الحسنى، والصفات العلى من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف.

٤- **الإيمان بألوهيته**: وذلك بإفراده -عز وجل- بأفعال العباد؛ فلا يُصْرَفُ أيُّ نوعٍ من أنواع العبادة لغيره -تبارك وتعالى-(٢).

ثانياً: ثمرات الإيمان بالله

الإيمان بالله يثمر ثمرات جليلة تعود على الأفراد والجماعة بخيري الدنيا والآخرة، فمن ثمراته: حصول الأمن التام، والاهتداء التام، والاستخلاف في الأرض، والتمكين والعزة.

١- انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة للشيخ حافظ الحكمي ص٥٠.

٢- انظر رسائل في العقيدة الإسلامية ص١١-١٧ .

ومن ثمراته: طيب الحياة، وحلول الخيرات، ونزول البركات، والهداية لكل خير، والسلامة من الخسارة، والفوز بولاية الله، ونصره، وتأييده.

ومن ثمراته: رفعة الدرجات، وتكفير السيئات، ودخول الجنان، والنجاة من النيران.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان، مترتب عليه.

والهلاك والنقصان إنما يكون بفقد الإيمان، أو نقصه[1].

ثالثاً: الأدلة على وحدانية الله -سبحانه وتعالى-

الأدلة على وحدانية الله كثيرة جدًّا، ويكفي منها شهادته -عز وجل- لنفسه حيث قال: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ آل عمران: ١٨ .

ولقد دلَّ على وحدانية الله، وعلى تفرده بالخلق والرزق، وأنه وحده المستحق للعبادة ـ **الفطرة، والشرع، والعقل، والحس**.

وهذه الأدلة بمجموعها تدل على وجود الله، وتدل على أنواع التوحيد الثلاثة؛ ذلك أن أنواع التوحيد الثلاثة وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات متلازمة، ومن أشرك في واحد منها فهو مشرك في البقية.

مثال ذلك: من دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فدعاؤه عبادةٌ صَرَفَهَا لغير الله، وهذا شرك في الألوهية.

وهذا الدعاء لغير الله متضمن لاعتقاد الداعي أن المدعو متصرف مع الله، وقادر على قضاء ذلك، وهذا شرك في الربوبية.

ثم إنه لم يدعُه إلا لاعتقاده أنه يسمعه، وهذا شرك في الأسماء والصفات؛ لاعتقاده أن للمدعو سمعاً محيطاً بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد، ومن

١ـ انظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لابن سعدي ص ١٣٠ـ١٣٤ .

هنا نجد أن الشرك في الألوهية مستلزم الشرك في الربوبية والأسماء والصفات[١].

هذا وسيرد تفصيل لأدلة الوحدانية في المباحث التالية، وذلك من خلال دلالة العقل، والحس.

أما الفطرة فقد سبق الحديث على دلالتها على الوحدانية، وذلك عند الحديث عن كون الإسلام دين الفطرة، وأن الفطرة المذكورة في القرآن هي دين الإسلام على الصحيح.

أما دلالة الشرع على الوحدانية والإيمان بالله فواضحة معلومة؛ فما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله، فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح العباد في دنياهم وأخراهم؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، وغيرها، وما جاءت به من الأخبار الكونية، والمغيبات التي شهد الواقع بصدقها ـ كل ذلك يدل على أنها من ربٍّ حكيمٍ عليمٍ مستحقٍ للعبادة وحده لا شريك له[٢].

والأدلة على ذلك لا تكاد تُحصى، وسيرد ذكر لذلك في كثير من تضاعيف هذا البحث.

---

١ ـ انظر أعلام السنة المنشورة، ص٧٧، السؤال رقم (٧٣).

٢ ـ انظر رسائل في العقيدة ص١١ـ١٢.

المبحث الثاني: دلالة العقل على الإيمان بالله

أما دلالة العقل على الإيمان بالله فلأن المخلوقاتِ جميعَها لا بدَّ لها من مُوجِد وخالق؛ إذ لا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسِها، ولا يمكن أن توجَدَ صدفة؛ فهذه المخلوقات لا يمكن أن تُوجِد نفسها بنفسها؛ لأن الشيء لا يخلق نفسه؛ لأنه قبل وجوده معدوم، فكيف يكون خالقاً؟

كذلك لا يمكن أن توجد صدفة؛ لأن كل حادث لا بدَّ له من مُحدِثٍ، ولأن وجودها على هذا النظام المتسق البديع المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات وبين الكائنات بعضها مع بعض ـ يمنع منعاً باتًّا أن يكون وجودُها صدفةً[1].

أضف إلى ذلك ما تجده من افتقار المخلوق الشديد؛ فالافتقار وصف ذاتي للمخلوق ملازم له؛ مما يدل على أنه لا بدَّ من وجود خالق، كامل، غني عما سواه، وهو رب العالمين.

وقد ذكر الله ـسبحانه وتعالىـ هذا الدليل العقلي والبرهان القاطع في سورة الطور، حيث قال: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ الطور:٣٥ .

يعني أنهم لم يُخلقوا من غير خالقٍ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم، فتعين أن يكون خالقهم هو الله ـتبارك وتعالىـ.

ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ قوله ـتعالىـ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ... الآية﴾ ـوكان يومئذٍ مشركاًـ قال: «كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي» رواه البخاري مُفَرَّقاً[2].

---

١ ـ انظر الرياض الناضرة لابن سعدي ص١٩٤، ورسائل في العقيدة، ص١١ـ ١٥.

٢ ـ انظر صحيح البخاري (٧٦٥ و٣٠٥٠ و٤٠٢٣ و٤٨٥٤) ورواه مسلم (٤٦٣).

ولهذا فإن الله -سبحانه وتعالى- يحثُّ كثيراً في كتابه على التعقل والتبصر ولا أدل على ذلك من كثرة الآيات التي تُخْتَمُ بمثل قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لأن الإنسان إذا تفكر تذكر، وعرف الحق، وإذا تذكر خاف واتقى وانقاد.

ولهذا نجد أن العقلاء الجادين الباحثين عن الحق - يصلون إليه، ويوفقون له.

ومما يؤكد ذلك أن كثيراً من كبار المفكرين الغربيين اهتدوا إلى الحق بسبب إجالتِهم أفكارَهم، وبحثهم عن الحق.

ومن نظر في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) - وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك ممن انتهت إليهم الرياسة في هذه الأمور - ومثله كتاب (كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك (الإنسان لا يقوم وحده) وترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) - يدرك أن العالِمَ الحقيقيَّ لا يكون إلا مؤمناً، وأن العاميَّ لا يكون إلا مؤمناً، وأن الإلحاد والكفر لا يكون إلا من أنصاف العلماء وأرباع العلماء؛ ممن تعلم قليلاً من العلم، وخسر بذلك الفطرة المؤمنة، ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان[1].

وبهذا يتبين لنا أن العقل يدل على وحدانية الله -عز وجل-.

أما إذا أنكر العقل ذلك فإن الخلل في العقل نفسه، وصدق من قال:

إذا ادعـى عقلـك إنكـاره ... فـأنكر العقـل ودعـواه

ومن قال:

يعـترض العقـل على خـالق ... مـن بعـض مخلوقاتـه العقـل

---

١ - انظر كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، أشرف على تحريره: جون كلوفرمونسيما، ترجمة د.الدمرداش عبدالمجيد سرحان، راجعه وعلق عليه. د. محمد جمال الدين الفندي، وانظر كتاب العلم يدعو للإيمان، تأليف: كريسي موريسون، ترجمة محمد صالح الفلكي، والكتابان من منشورات دار القلم، بيروت.

ومن هنا يتبين لنا بطلان قول من قال: إن هذا الكون نشأ بالصدفة، أو أن الطبيعة هي الخالق؛ إن هذه الدعاوى ليست إلا مكابرةً وعناداً لما هو متقرر بالمعقول والمنقول، فمن قال: إن هذا الكون نشأ عن طريق الصدفة يقال له: كيف نشأ هذا الكون الفسيح العظيم المتسق المتناسق عن طريق الصدفة؟!

وخذ هذا المثال الذي أورده العالم الأمريكي (كريسي موريسون) [1] يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة قال: «خذ عشر بنسات، كلاً منها على حدة، وضع عليها أرقاماً مسلسلة، من ١ إلى ١٠ ثم ضعها في جيبك وهزها هزًّا شديداً، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها، من ١ إلى ١٠.

إن فرصة سحب البنس رقم ١ هي بنسبة ١ إلى ١٠.

وفرصة سحب رقم ١ ورقم ٢ متتابعين، هي بنسبة ١ إلى ١٠٠، وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام ١و٢و٣ متتالية، هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠، وفرصة سحب ١و٢و٣و٤ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠,٠٠٠، وهكذا، حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول، من ١ إلى ١٠، وهي بنسبة ١ إلى ١٠ بلايين.

والغرض من هذا المثل البسيط، هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة!.

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟.

إن حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالاً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره.

إن ما في هذا الكون يحكي أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، لكن الإنسان

١ـ كريسي موريسون هو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، وزميل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني، انظر كتاب مقدمة المترجم لكتاب كريسي موريسون: العلم يدعو للإيمان ص١٢ـ١٣ .

ظلوم جهول ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (عبس) [١].

أما القول بأن الطبيعة هي الخالق فتلك فرية عظيمة لا دليل عليها، وتهافتها واضحٌ بيِّن لا يحتاج إلى أي رد، بل إن تصور ذلك كافٍ في الرد على أصحابه [٢].

ومن تلك الدعاوى نظرية (دارون) التي حاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الأحياء، وتزعم هذه النظرية أن أصل الإنسان حيوان صغير نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه، مما أدى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، وأخذت هذه الصفات المكتسبة تورَّث في الأبناء حتى تحول مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

هذا هو ملخص تلك النظرية، وعوارها وزيفها واضح بيِّن [٣].

وقد ثبت بطلانها حتى عند كثيرين ممن يقولون بها.

ومما يقال في ذلك: أنه على فرض صحتها فمن الذي أنشأ ذلك الحيوان الصغير؟ ومن الذي جعله يتطور حتى وصل إلى ما وصل إليه؟!

١ـ انظر العقيدة في الله ص٧٤ـ٧٥.

٢ـ انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق، ص٧٤ـ٩٨، وانظر إلى كتاب: العلم يتبرأ من نظرية دارون، لزياد أبو غنيمة.

٣ـ انظر العقيدة في الله ص(٧٩ـ٩٢) ففيه تفصيل الرد على تلك الدعوى، وانظر العلم يتبرأ من نظرية دارون.

المبحث الثالث: دلالة الحس على الإيمان بالله

فالحس يدل بوضوح على وحدانية الله -سبحانه وتعالى-.

والأدلة الحسية على ذلك كثيرة جدًّا، ومنها ما يلي:

أولاً: إجابة الدعوات

ويُعْنَى بها إجابة دعوات الملهوفين والمكروبين وغيرهم، ممن يدعون الله -سبحانه وتعالى- فيستجاب لهم، ويحصل مقصودهم.

والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تحصر، سواء كان ذلك في حق الأنبياء -عليهم السلام- أو في حق غيرهم.

ومن ذلك ما قاله الله -سبحانه وتعالى- عن نوح -عليه السلام-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۝١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ (القمر: ١٠-١٢).

وما قَصَّهُ الله -سبحانه- عن يونس -عليه السلام-: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فاستجاب الله دعاءه، ونجَّاه من بطن الحوت.

وقال عن أيوب -عليه السلام-: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص: ٤١-٤٣).

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «**إن أعرابيًّا دخل يوم الجمعة والنبيﷺ يخطب فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال، فادع لنا، فرفع النبيﷺ يديه، فدعا، فثار السحاب كأمثال الجبال، فلم ينزل عن منبره حتى**

رأيت المطر يتحادر على لحيته.

وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء، وغرق المال؛ فادع الله لنا، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت» [١].

وما زالت إجابة الداعين أمراً مشهوداً إلى هذا اليوم لمن أتى بشرائط الإجابة، وكثيراً ما نسمع أن الناس ذهبوا للاستسقاء وقبل أن يخرجوا من المسجد إذا هم يمطرون؛ فإجابة الدعاء دليل قاطع على وحدانية الله -عز وجل-.

ثانياً: صدق الرسل -عليهم السلام-

وهذا دليل حسي واضح، فالرسل -عليهم السلام- هم أكمل البشر، وقد بلَّغوا عن الله رسالاته، وقد اصطفاهم الله، واختارهم من بين الخلق، وأيَّدهم بالآيات البينات، ونصرهم، وجعل الغلبة لهم، والدولة على أعدائهم.

فالإنسان إزاء الأنبياء لا يملك إلا أن يقطع بصدقهم؛ إذ إن دعوى النبوة أعظم الدعاوى، ولا يدعيها إلا أصدق الناس أو أكذبهم؛ فالأنبياء هم أصدق الناس على الإطلاق؛ فظهور المعجزات على أيديهم، وتأييد الله لهم، وخذلانه لأعدائهم، وما جبلوا عليه من كريم الخلال، وحميد الخصال - كل ذلك يدل على صدقهم، وبالتالي نعلم أنهم مبعوثون من عند الله، وأنه -سبحانه- حق، وعبادته حق [٢].

ثالثاً: دلالة الأنفس

فلقد صور الله الإنسان على أحسن صورة، وخَلَقَهُ في أحسن تقويم؛ كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن: ٣).

١- انظر البخاري (١٠٣٣).

٢ - انظر دعوة التوحيد ص ١٩٩-٢٠٢، وص ١٢٥-٢٤٦ .

وكما قال -عز وجل- : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

ولو أن الإنسان أمعن النظر في نفسه وما فيها من عجائب صنع الله، ونظر ظاهره وما فيه من كمال خلقه، وأنه متميز عن سائر الحيوانات - لأدرك أن وراء ذلك ربًّا خالقاً حكيماً في خلقه، ولعلم أن هذا الخالق هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه[1].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تقرير هذا المعنى عند قوله -تعالى- : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: ٧): «وعلى كلٍّ فالنفس آيةٌ كبيرة من آيات الله التي يحق الإقسام بها؛ فإنها في غاية اللطف، والخفة، سريعة التنقل، والحركة، والتغير، والتأثر، والانفعالات النفسية من الهمة، والإرادة، والقصد، والحب.

وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثالٍ لا فائدة فيه، وتسويتُها على ما هي عليه آيةٌ من آيات الله العظيمة.

والمقصود أن نفس الإنسان من أعظم الأدلة على وجود الله وحده، ومن ثم تفرده بالعبادة»[2].

رابعاً: هداية المخلوقات

وهذا مشهد من مشاهد الحس الدالة على وحدانية الله -عز وجل- فلقد هدى الله الحيوان: ناطقه وبهيمه، وطيره ودوابه، وفصيحه وأعجمه إلى ما فيه صلاحُ معاشه وحاله.

ويدخل تحت قوله -تعالى-: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠) من العجائب والغرائب ما لا يحيط به إلا الله -عز وجل-.

فَمَن الذي هدى الإنسان ساعة ولادته إلى التقام ثدي أمه؟ ومن الذي أودع

١- انظر كتاب: الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، د.عبد الرزاق العباد البدر ص٧٠-٧٢.

٢- المرجع السابق ص٧٠-٧٢.

فيه معرفة عملية الرضاع؟ تلك العملية الشاقة التي تتطلب انقباضاتٍ متواليةً من عضلات الوجه، واللسان، والعنق، وحركاتٍ متواصلةً للفك الأسفل، والتنفس مع الأنف، كل ذلك يتم بهداية تامة، وبدون سبق علم أو تجربة، فمن الذي ألهمه ذلك؟ إنه ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه: ٥٠.

ثم إن هدايته بعد أن يكبر إلى السعي في مصالحه من الضرب في الأرض، والسير فيها، كل ذلك من الهداية التامة العامة للمخلوقات.

أما هداية الطير، والوحش، والدواب ـ فحدث ولا حرج، فلقد هداها الله إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان.

وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه (شفاء العليل) أموراً عجيبة من هذا القبيل.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها ـسبحانه وتعالىـ وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته؛ فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير، والتَّأتي لما تريده ـ ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته، ومعرفة حكمته، وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أن الله لم يَخْلُقْ عبثاً، ولم يَتْرك سدىً، وأن له حكمةً باهرةً، وآيةً ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً، يدل على أنه رب كلِّ شيءٍ ومليكُه، وأنه المتفرد بكل كمالٍ دون خلقهِ، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم[١].

خامساً: دلالة الآفاق

فالآفاق يراها كل أحدٍ؛ العالم والجاهل، المؤمن والكافر، فلو تأمل الإنسان بعين البصيرة والتدبر والتفكر ـ لأدرك عظمة مَنْ أنشأها، ولَدَعاه ذلك إلى عبادته وحده لا شريك له.

١ـ انظر شفاء العليل ص١٤٧ـ١٦٤.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله عند قوله -تعالى-: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت:٥٣): «وقد فعل -تعالى- فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، الخاذل لمن يشاء»[١].

وقال رحمه الله في موطن آخر -أيضاً-: «كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات ـ علم أنها خلقت للحق بالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين، ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وأنها مدبرات، مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالَم العلويَّ والسفلي كلَّهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا هو ولا رب سواه»[٢].

وقال رحمه الله في موطن آخر: «فهذا خبره -تعالى- عن أمور مُسْتَقْبَلَةٍ أنه يُري عباده من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس ما يدلهم على أن القرآن حق، والرسول حق، وما جاء به هو الحق»[٣].

وفي كل عصر من العصور يُطلع الله عباده على أمور عظيمة في هذا الكون الفسيح.

وفي العصور المتأخرة ظهر العديد من الاكتشافات والمخترعات والحقائق العلمية، ولا يزال الباحثون يكتشفون في كل يوم سرًّا من أسرار هذا الكون العظيم، مما جعلهم يقفون حائرين واجمين معترفين بالتقصير والعجز، وأن هناك عوالمَ أخرى مجهولةً، وأخرى لم تُكتشف بعد.

وخلاصة القول في هذا أن كل ما في الآفاق يدل دلالة قاطعة على وجود مدبر

---

١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في العقيدة ص٧٢ـ٧٣.

٢ـ المرجع السابق ص٧٢ـ٧٣.

٣ ـ المرجع السابق ص٧٢ـ٧٣

حكيم، رب عليم، مستحق للعبادة، ولكن:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة   فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

سادساً: عبودية الكائنات

فالله -سبحانه- قد خلق جميع الكائنات: إنسِها، وجنِّها، وملائكِها، وحيوانها، وجمادها، ونباتها، وغيرها من الكائنات؛ لعبادته -سبحانه- وفطرها على توحيده، والاعتراف بألوهيته، والإقرار بفقرها وحاجتها وخضوعها وصمودِها له -جل وعلا-.

فكل هذه الكائنات تقوم بعبادة الله -عز وجل- ولا يُخِلُّ بذلك إلا الإنسان المعاند الزائغ عن شرع الله -سبحانه وتعالى- المخالف لنظام هذا الكون المحكم البديع؛ الذي ما قام إلا على عبودية الله.

هذا وتختلف العبوديات من مخلوق إلى مخلوق.

فمن تلك العبوديات: عبودية الإنس، فهي أشرفها وأفضلها.

وأشرف ما فيها عبوديةُ الأنبياء لربهم، وقيامهم بالدعوة والجهاد وغير ذلك، ثم عبودية أتباعهم وأتباع أتباعهم.

ومن ذلك: عبودية الملائكة، والجن وهذا ليس بمستغرب.

أما الغريب حقًّا فهو عبودية الجمادات والحيوانات، التي يعتقد كثير من الناس أنها لا تعقل ولا تدرك، وليس لها أيُّ عبودية لله.

إن هذا الكون الواسع بما فيه من الكائنات كلّه يخضع لخالقه وبارئه، ويؤدي عبودية له -سبحانه وتعالى- فلقد ثبت لهذه الكائنات في الكتاب والسنة طاعاتٌ كثيرةٌ كالسجود، والتسبيح، والصلاة، والاستغفار، والإسلام، والإشفاق، وغيرها[1].

فعن سجود هذه الكائنات يقول الله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ (الحج: ١٨).

١- انظر عبودية الكائنات لرب العالمين، للشيخ فريد التوني، دار الضياء، ص٢٣٤-٢٤٥.

وليس بالضرورة أن يكون هذا السجود مثل سجود الآدميين من المسلمين؛ فسجود كلٍّ أحدٍ بحسبه.

وأما عن تسبيح الكائنات فذلك كما في قوله -تعالى-: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

فالكائنات كلها تسبح خالقها تسبيحاً لا نفقهه نحن البشر، وعدم معرفتنا به ليس دليلاً على نفيه؛ فلقد خص الله بعض خلقه بالاطلاع على تسبيح بعض الكائنات، وأفهمه تسبيحها كداود -عليه السلام-.

أما صلاتُها فقد قال الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ (النور: ٤١).

فكلها يصلي، ويسبح لله، وليس بالضرورة أن نفهم ذلك.

أما عن استغفارها ففي حديث أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء**»[1].

أما عن إسلامها لله -تعالى- فقد قال -عز وجل-: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣).

إلى غير ذلك من العبوديات المتنوعة التي لا يتسع المقام لذكرها[2].

ومن هنا يتبين لنا أن المخلوقاتِ مفتقرةٌ إلى الله -سبحانه وتعالى- «وأن فقرَها وحَاجَتَها إليه وصفٌ ذاتيٌّ لهذه الموجودات المخلوقة، كما أن الغنى وصف ذاتي للرب الخالق»[3].

---

١ - أخرجه ابن ماجه (٢٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٠٧٩/٢ رقم ٦٢٩٧.

٢ - انظر جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم، ١/١-٤٥.

٣- مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩/٢.

فصمود الكائنات كلها وفقرها إلى الله يدل دلالة واضحة على وحدانيته -سبحانه وتعالى-.

سابعاً: اختلاف الطعوم والألوان والروائح في النبات

وهذا دليل حسي على وحدانية الله؛ فالماء ينزل من السماء عديم اللون والطعم والرائحةِ، ينزل على الأرض الجرداء، ثم يَخْرُج -بإذن الله- من جَرَّاء ذلكَ نباتاتٌ مختلفة في اللون، والطعم، والرائحة، فبعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها مُزٌّ، وبعضها أخضرُ، وبعضها أصفرُ، وبعضها أسود.

بل إن النوع الواحد من بعض الثمار متنوع تنوعاً عجيباً؛ ومن ذلك على سبيل المثال (العنب) فمنه جنات معروشات وغير معروشات، ومنه الحلو، ومنه الحامض، ومنه الحامض الحلو، ومنه الأخضر، ومنه الأحمر، ومنه الأسود، ومنه الطويل، ومنه المدور إلى غير ذلك.

وقل مثل ذلك في النخل؛ فمنها ما يكون حلاوته بسراً أكثرَ من حلاوته رطباً والعكس، ومنه الأسود، ومنه الأصفر، ومنه الطويل، ومنه المدور، كل ذلك وهو يسقى بماء واحد.

فمن الذي فضَّل بعضها على بعض في الأكل؟ ومن الذي أودعها هذه المزايا من الألوان والأطعمة؟

إنه الله ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝﴾ (الأعلى).

ثامناً: اختلاف الألسن

فنحن نرى اختلاف الألسن واللغات من شعب إلى شعب، ومن إنسان إلى إنسان، فمن الذي علم الإنسان البيان؟ ومن الذي يعلم تلك اللغات جميعاً، ويحصي ما يقولون فلا تختلط عليه؟ إنه الله الواحد الأحد؛ فاختلاف الألسن آية عظيمة تدل على وحدانيته -سبحانه وتعالى-[1].

---

١ - انظر تفاصيل ما مضى في الجزء الأول من مفتاح دار السعادة لابن القيم.

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالملائكة وما يتعلق به

المبحث الثاني: في كون الملائكة أجساماً

المبحث الثالث: العلاقة بين الملائكة والبشر

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالملائكة وما يتعلق به

أولاً: تعريف الملائكة: أ- التعريف اللغوي: أصل هذه الكلمة أَلَكَ، أي أرسل، ومنه الألوك، وهي الرسالة، وهي المأْلَكَة.

فالملك في اللغة هو المرسل[١].

ب- التعريف الاصطلاحي للملائكة: الملائكة عالم غيبي مخلوقون من نور عابدون لله -تعالى- وليس لهم من خصائص الربوبية، ولا الألوهية شيء، أي أنهم لا يَخْلُقون، ولا يَرزُقون، ولا يجوز أن يعبدوا مع الله، أو من دون الله.

وقد منحهم الله -عز وجل- الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه.

والملائكة عددهم كثير، ولا يحصيهم إلا الله[٢].

ثانياً: ما يتضمن الإيمان بالملائكة: الإيمان بالملائكة يتضمن ما يلي:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان بما علمنا اسمه منهم باسمه كجبريل، ومن لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً، أي نؤمن بأن لله ملائكة كثيرين، ولا يلزم معرفة أسمائهم.

٣- الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة جبريل؛ فقد أخبر النبيﷺ أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح قد سدَّ الأُفق.

وقد يتحول الملك بأمر الله إلى هيئة رجل، كما حصل لجبريل حين أرسله الله إلى مريم أم المسيح -عليهما السلام-: ﴿ **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ (مريم:١٧).

وحين جاء إلى النبيﷺ وهو جالس بين أصحابه بصورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحدٌ من أصحاب

---

١ - انظر لسان العرب ١٠/٣٩٢-٣٩٥.

٢ - انظر رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين، ص١٩.

رسول الله ﷺ فجلس إلى رسول الله ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأماراتها، فأجابه النبي ﷺ ثم قال بعد أن ولَّى: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[١].

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم ولوط -عليهما السلام- على هيئة رجال.

٤- الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها، كتسبيح الله، وعبادته ليلاً ونهاراً دون ملل ولا فتور.

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة، كـ «جبريل» الأمين على وحي الله يرسله الله بالوحي إلى الأنبياء والرسل، ومثل «ميكائيل» الموكل بالقطر أي النبات، ومثل «مالك» الموكل بالنار، ومثل الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم، وغيرهم كثير[٢].

ثالثاً: ثمرات الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها:

١- العلم بعظمة الله -تعالى- وقوته، وسلطانه: فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

٢- شكر الله على عنايته ببني آدم حيث وكل بهم مِنْ هؤلاء الملائكة مَنْ يقومون بحفظهم، وكتابة أعمالهم، وغير ذلك من مصالحهم.

٣- التقرب إلى الله بحب الملائكة على ما قاموا به من مراضي الله[٣].

١- رواه مسلم (٨).

٢- انظر رسائل في العقيدة ص١٩-٢٠.

٣- انظر رسائل في العقيدة ص٢٠.

المبحث الثاني: في كون الملائكة أجساماً

لقد صرحت النصوص بأن الملائكة أجسام خلافاً لمن ضلوا في هذا الباب فأنكروا كونَ الملائكة أجساماً، وقالوا: إنهم عِبَارةٌ عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات.

وهذا تكذيب لكتاب الله -تعالى- وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين.

قال الله -تعالى-: ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ** ﴾ فاطر: ١ .

وقال في أهل الجنة: ﴿ **وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤** ﴾ الرعد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **إذا أحب الله العبد نادى جبريل أن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض** »[1].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « **إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول؛ فإذا جلس الإمام طووا الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر** »[2].

وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوى معنوية كما قال الزائغون، وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون[3].

---

١ ـ البخاري (٧٤٨٥) ومسلم (٢٦٣٧).

٢ ـ البخاري (٣٠٣٩).

٣ ـ انظر رسائل في العقيدة، ص٢٠ـ٢١.

المبحث الثالث: العلاقة بين الملائكة والبشر

أولاً: علاقة الملائكة بالبشر:

علاقة الملائكة ببني آدم علاقة وثيقة، ومن مظاهر تلك العلاقة ما يلي:

١ـ **قيامهم على الآدمي عند خلقه:** فعن ابن مسعود ﵁ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثمّ يكون علقة مثل ذلك، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح**»[1].

٢ـ **حفظهم لابن آدم:** قال الله ـتعالى ـ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ١٠ـ١١).

٣ـ **أنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه:** وقد أعلمنا الله أن جبريل يختص بهذه المهمة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (البقرة:٩٧).

وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ الشعراء.

٤ـ **تحريك بواعث الخير في نفوس العباد:** فقد وكَّل الله بكل إنسان قريناً من الملائكة، وقريناً من الجنّ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينُه من الجن، وقرينه من الملائكة**».

قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[2].

ولعلّ هذا القرين من الملائكة غيرُ الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله، قيَّضه الله له؛

---

١ ـ رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

٢ ـ مسلم (٢٨١٤).

ليهديه، ويرشده.

وقرين الإنسان من الملائكة وقرينه من الجنّ يتعاوران الإنسان، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه، فعن ابن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأمّا لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأمّا لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنّه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾**» (البقرة: ٢٦٨)[1][2].

٥ـ **تسجيل أعمال بني آدم**: فهناك ملائكة موكلون بحفظ أعمال بني آدم من خير وشرّ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** الإنفطار.

وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين، لا يفارقانه، يحصيان عليه أعماله وأقواله: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾** ق.

ومعنى قعيد: أي مترصد.

ورقيب عتيد: أي مراقب مُعِدٌّ لذلك لا يترك كلمة تفلت.

٦ـ **نزع أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم**: فقد اختص الله بعض ملائكته بنزع

---

١ ـ أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي (١١٠٥١)، وصححه الألباني في صحيح موارد الظمآن(٣٨).

٢ ـ قال ابن كثير، بعد إيراده لهذا الحديث: «هكذا رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً، عن هناد بن السري.

وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد به، وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، يعني سلام بن سليم لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه كذا قال» انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٨٠.

أرواح العباد عندما تنتهي آجالهم التي قدرها الله لهم، قال -تعالى-: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١).

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك، قال الله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ الأنعام.

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعاً شديداً عنيفاً بلا رفق ولا هوادة، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ (الأنعام:٩٣).

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠).

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ (محمد:٢٧).

أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعاً رفيقاً.

٧- إقبالهم على المؤمنين: وذلك بمحبتهم، وتسديدهم، والصلاة عليهم كصلاتهم على معلم الخير، والذين ينتظرون صلاة الجماعة، والذين يصلون في الصف الأول، والذين يسدون الفرج بين الصفوف، والذين يتسحرون، والذين يصلون على النبي ﷺ والذين يعودون المرضى.

ومن إقبالهم على المؤمنين تأمينهم على دعائهم، واستغفارهم لهم، وشهودهم مجالس العلم وحِلَق الذّكر، وتسجيل الذين يحضرون الجمعة، وتَنَزُّلُهم عند من يُقرأ القرآن، ومقاتلتهم مع المؤمنين في الحروب إلى غير ذلك من الأعمال.[1]

٨- بغضهم للكافرين: فالملائكة لا يحبون الكفرة الظالمين، بل يعادونهم ويحاربونهم، ويزلزلون قلوبهم، ويلعنونهم.

---

١ ـ انظر عالم الملائكة الأبرار، د. عمر الأشقر ص٥٩ـ٧٦.

ثانياً: المفاضلة بين الملائكة وصالح البشر:

هذه المسألة وقع الخلاف فيها قديماً، وكثرت فيها الأقوال، وتحقيق القول وخلاصته في هذه المسألة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من أن **صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية** وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزُّلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحياهم الرحمن، وخصهم بمزيد قربه، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم.

والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزهون عمّا يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب.

ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر.

قال ابن القيم: وبهذا التفصيل يتبين سرّ التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالَح كلٌّ منهم على حقه.

والله أعلم بالصواب[1].

---

١ ـ انظر مجموع الفتاوى ٣٥٠/١١، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٣٦٨/٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٨، وكتاب السيوطي الحبائك في أخبار الملائك وفيه مبحث طويل في ذلك من ص٢٠٣ـ٢٥١، وانظر عالم الملائكة الأبرار ص٩٦.

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالكتب وما يتعلق به

المبحث الثاني: مواضع الاتفاق والاختلاف بين الكتب السماوية

المبحث الثالث: القرآن والتوراة والإنجيل

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالكتب وما يتعلق به

أولاً: تعريف الكتب لغةً وشرعاً

الكتب في اللغة: جمع كتاب بمعنى مكتوب، مثل فراش بمعنى مفروش، وإله بمعنى مألوه، وغراس بمعنى مغروس.

ومادة (كتب) تدور حول الجمع والضم، وسمي الكاتب كاتباً؛ لأنه يجمع الحروف، ويضم بعضها إلى بعض.

ومنه الكتيبة من الجيش سميت كتيبةً؛ لاجتماعها، وانضمام بعضها إلى بعض، ومنه تسمية الخياط كاتباً؛ لأنه يجمع أطراف الثوب إلى بعض، كما في مقامات الحريري حيث قال ملغزاً:

وكاتبين وما خطت أناملهم حرفاً ولا قرأوا ما خُطَّ في الكتب

ويَقْصدُ بهم الخياطين[1].

أما في الشرع: «فالمراد بها الكتب التي أنزلها الله ـتعالىـ على رسله؛ رحمة للخلق، وهداية لهم؛ ليصلوا بها إلى سعادة الدنيا والآخرة»[2].

ثانياً: ما يتضمن الإيمان بالكتب

١ ـ الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقًّا.

٢ـ الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نُزِّل على محمدﷺ والتوراة التي أُنزلت على موسىﷺ والإنجيل الذي نزل على عيسى ـعليه الصلاة والسلامـ والزبور الذي أوتيه داود ـعليه السلامـ.

وأما ما لم نعلمه من الكتب المنزلة فنؤمن به إجمالاً.

---

١ ـ مقامات الحريري، ص٢٨٦، وانظر لسان العرب ١/٦٩٨ـ٧٠٣.

٢ ـ رسائل في العقيدة، ص٢٣.

٣ـ تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل، أو يحرف من الكتب السابقة.

٤ـ العمل بما لم ينسخ منها، والرضا، والتسليم به، سواء فهمنا حكمته أو لم نفهمها.

وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم، قال الله ـتعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

أي حاكماً عليه، وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح وأقره القرآن[١].

ثالثاً: أهمية الإيمان بالكتب

للإيمان بالكتب أهمية عُظمى تتجلى في أمور منها ما يلي:

١ـ الإيمان بالكتب أصل من أصول العقيدة، وركن من أركان الإيمان، ولا يصح إيمان أحد إلا إذا آمن بالكتب التي أنزلها الله على رسله ـعليهم السلام ـ.

٢ـ أن الله ـعز وجل ـ أثنى على الرسل الذين يبلغون عن الله رسالاته؛ فقال ـعز وجل ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

كما أخبر ـسبحانه ـ أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بما أنزل من عند الله من كتب، قال ـتعالى ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

٣ـ أن الله أمر المؤمنين بأن يؤمنوا بما أنزله كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

١ـ انظر رسائل في العقيدة ص٢٣.

﴿أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦).

٤ـ **أن الله أهلك الأمم بسبب تكذيبهم برسالاته،** كما أخبر الله عن صالح بقوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٧٩).

٥ـ **أن من أنكر شيئاً مما أنزل الله فهو كافر** كما قال ـتعالى ـ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء:١٣٦.

رابعاً: ثمرات الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يثمر ثمراتٍ جليلةً منها:

١ـ العلم بعناية الله؛ حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به.

٢ـ العلم بحكمة الله؛ حيث شرع لكل قوم ما يناسبهم، ويلائم أحوالهم.

٣ـ الاستغناء بالوحي عن أفكار البشر التي تخطئ، وتصيب، ويعتريها الهوى، والذهول.

٤ـ السير على طريقٍ مستقيمةٍ واضحةٍ لا اضطراب فيها ولا اعوجاج.

٥ـ الفرح بذلك الخير العظيم ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

٦ـ شكر الله على هذه النعمة العظيمة.

٧ـ التحرر من التخبط الفكري والعقدي[١].

خامساً: أدلة الإيمان بالكتب

لقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على الإيمان بالكتب، فمن ذلك قوله ـتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ

١ـ انظر: رسائل في العقيدة، ص٢٣.

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ (النساء: ١٣٦).

وقوله -تعالى-: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ (الشورى: ١٥).

وقال -عليه الصلاة والسلام- كما في حديث جبريل المشهور عندما سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**» الحديث[1].

سادساً: الغاية من إنزال الكتب

أنزلت الكتب السماوية كلُّها لغايةٍ واحدةٍ، وهدف واحد وهو أن يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له، ولتكون منهج حياة للبشر الذين يعيشون في هذه الأرض، تقودهم بما فيها من هداية إلى كل خير، ولتكون روحاً ونوراً تحيي نفوسهم، وتكشف ظلماتها، وتنير لهم دروب الحياة كلها[2].

سابعاً: ما يضاد الإيمان بالكتب

يضاد الإيمان بالكتب تكذيبها، والكفر بها، وتحريفها.

كما يضادها: الإعراضُ عن القرآن، وادعاء نسخه، والتحاكم إلى غيره، وادعاء نقصه، ومضاهاته، ومعارضته.

١- رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨).

٢- انظر الرسل والرسالات، د. عمر الأشقر، ص٢٣٥.

المبحث الثاني: مواضع الاتفاق والاختلاف بين الكتب السماوية

المطلب الأول: مواضع الاتفاق بين الكتب السماوية

تتفق الكتب السماوية في أمور عديدة منها:

١ـ **وحدة المصدر:** فمصدرها واحد؛ فهي منزلة من عند الله ـتعالى ـ.

٢ـ **وحدة الغاية:** فالكتب السماوية غايتها واحدة، فهي كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى دين الإسلام؛ فالإسلام هو دين جميع الرسل؛ فالغاية ـإذاًـ هي الدعوة إلى دين الإسلام، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له.

٣ـ **مسائل العقيدة:** فالكتب اشتملت على الإيمان بالغيب، ومسائل العقيدة، كالإيمان بالرسل، والبعث والنشور، والإيمان باليوم الآخر إلى غير ذلك.

فمسائل العقيدة من باب الأخبار التي لا تنسخ[1].

٤ـ **القواعد العامة:** فالكتب السماوية تقرر القواعد العامة، التي لابد أن تعيها البشرية؛ كقاعدة الثواب والعقاب، وهي أن الإنسان يحاسب بعمله، فيعاقب بذنوبه وأوزاره، ولا يؤاخذ بجريرة غيره، ويثاب بسعيه، وليس له سعي غيره.

ومن ذلك الحثُّ على تزكية النفس، وبيان أن الفلاح الحقيقي لا يتحقق إلا بتزكية النفس بالطاعة لله، والعبودية له، وإيثار الآجل على العاجل.

ومن تلك القواعد أن الذي يستحق وراثة الأرض هم عباد الله الصالحون، والعاقبة للتقوى وللمتقين.

٥ـ **العدل والقسط:** فجميع الأنبياء ـعليهم السلامـ حملوا ميزان العدل والقسط.

٦ـ **محاربة الفساد والانحراف:** وهذا ما اتفقت عليه الرسالات؛ سواء كان الفساد عقدياً أو خلقياً، أو انحرافاً عن الفطرة، أو عدواناً على البشر، أو تطفيفاً في الكيل والميزان، أو غير ذلك.

---

١ ـ انظر دعوة التوحيد ص ١٩٩ـ٢٠٢، وص ٢١٨ـ٢٢٠.

٧ـ **الدعوة إلى مكارم الأخلاق**: فالكتب كلها دعت إلى مكارم الأخلاق، كالعفو عن المسيء، وكالصبر على الأذى، وكالقول الحسن، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وإكرام الضيف، والتواضع، والعطف على المساكين، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق.

٨ـ **كثير من العبادات**: فكثير من العبادات التي نقوم بها كانت معروفة عند الرسل وأتباعهم، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج[١].

المطلب الثاني: مواضع الاختلاف بين الكتب السماوية

تختلف الكتب السماوية في الشرائع، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى ـعليهما السلامـ في بعض الأمور، وشريعة محمدﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى ـعليهما السلامـ في أمور.

قال ـتعالىـ: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ** ﴾ (المائدة: ٤٨).

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافاً كلياً؛ فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية، وقد مر بنا شيء من ذلك، فالاختلاف بينها إنما يكون في التفاصيل.

فعدد الصلوات، وأركانها، وشروطها، ومقادير الزكاة، ومواضع النسك، ونحو ذلكـقد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يُحِل الله أمراً في شريعة لحكمة، ويحرمه في شريعة أخرى؛ لحكمة يعلمهاـعز وجلـولا يلزم أن نعلمها، ومن الأمثلة على ذلك مايلي:

١ـ **الصوم**: فقد كان الصائم يفطر في غروب الشمس، ويباح له الطعام، والشراب، والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني، فخفف الله عن هذه الأمة، وأحله من الغروب إلى الفجر، سواء نام أو لم ينم، قال ـتعالىـ: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ**

١ـ انظر الرسل والرسالات ص٢٣٥ـ٢٤٩.

لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧).

٢ـ ستر العورة حال الاغتسال: لم يكن واجباً عند بني إسرائيل، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده**»[١].

٣ـ الأمور المحرمة: فمما أحله الله لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم الله هذا بعد ذلك.

وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة.

وقد حرَّم الله مثل هذا على بني إسرائيل في التوراة.

وكذلك الجمع بين الأختين كان سائغاً، وقد فعله يعقوب فتزوج بابنتي خاله: ليَّا، وراحيل؛ وهما أختان، ثم حُرِّمَ عليهم في التوراة.

ومما حرَّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام، قال ـتعالىـ: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

ثم جاء عيسى ـعليه السلامـ فأحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم.

وجاءت الشريعة الخاتمة، لتكون القاعدة: إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

ومما تميزت به الشريعة الخاتمة أنها عامة لجميع الناس إلى قيام الساعة، بخلاف الشرائع الأخرى، فهي خاصة بقوم دون قوم، أو فترة دون فترة[٢].

١ـ البخاري (٢٧٨) مسلم (٣٣٩).

٢ـ انظر الرسل والرسالات ص٢٥٠.

المبحث الثالث: القرآن والتوراة والإنجيل

القرآن والتوراة والإنجيل هي أعظم الكتب السماوية.

أولاً: القرآن الكريم

القرآن آخر الكتب السماوية وهو خاتمها، وهو أطولها، وأشملها، وهو الحاكم عليها.

هذا وقد مرَّ الحديث عن القرآن الكريم عند الكلام على مصادر التشريع الإسلامي.

وسيأتي الكلام عليه -أيضاً- عند الحديث عن الإعجاز في القرآن في الباب الثامن، وهو: الدلائل على حقيقة الإسلام.

ثانياً: التوراة

١- معنى كلمة التوراة: التوراة كلمة عبرانية تعني الشريعة، أو الناموس، أو الهدي[1].

والتوراة -في الأصل- وعند المسلمين اسم للكتاب المنزل على موسى -عليه السلام-.

والتوراة كتاب عظيم اشتمل على النور والهداية كما قال -تعالى-: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ** ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقال -تعالى-: ﴿ **ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥٤).

١- انظر دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية د. سعود الخلف ص٧٤.

وكثيراً ما يَقْرِنُ الله -عز وجل- في القرآن بين التوراة والقرآن؛ وذلك لأنهما أفضل كتابين أنزلَهما الله على خلقه.

هذه باختصار هي حقيقة التوراة التي أنزلت على موسى -عليه السلام-(١).

٢- التوراة الموجودة اليوم:

أما التوراة الموجودة اليوم وفي اصطلاح اليهود فهي ما يطلق على الشريعة المكتوبة التي يعتقد اليهود أن موسى -عليه السلام- كتبها بيده.

ويسمونها: (بنتاتوك) نسبة إلى: (بنتا) وهي كلمة يونانية تعني خمسة أسفار، وهذه الأسفار هي:

الأول: سفر التكوين: ويتحدث هذا السفر عن خلق العالم، وظهور الإنسان، وطوفان نوح، وولادة إبراهيم إلى موت يوسف -عليه الصلاة والسلام-.

الثاني: سفر الخروج: ويتحدث عن حياة بني إسرائيل في مصر، منذ موت يوسف -عليه السلام- إلى حين خروجهم من مصر إلى أرض كنعان مع موسى ويوشع بن نون، وما حدث لهم بعد الخروج.

الثالث: سفر اللاويين: نسبة إلى لاوي بن يعقوب، وفي هذا السفر حديث عن الطهارة، والنجاسة، وتقديم الذبائح، والنذر، وتعظيم هارون وبنيه.

الرابع: سفر العدد: وهو يحصي قبائل بني إسرائيل منذ يعقوب، وأفرادَهم ومواشيهم.

الخامس: سفر التثنية: ويعني تكرير الشريعة، وإعادة الأوامر والنواهي عليهم مرة أخرى.

وينتهي هذا السِّفر بموت موسى -عليه السلام-(٢).

١- انظر تفسير التحرير والتنوير ١٤٨/٣.

٢- انظر مقارنة بين القرآن والتوراة لمحمد الصوياني، ودراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص٧٤-٧٥.

وقد يطلق النصارى اسم التوراة على جميع أسفار العهد القديم[١].

أما الكتب الملحقة بالتوراة فهي أربعة وثلاثون سفراً حسب النسخة البروتستانتية فيكون مجموعها مع التوراة تسعة وثلاثين سفراً، وهي التي تسمى العهد القديم لدى النصارى ويمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

أولاً: الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى ـعليه السلام ـ.

ثانياً: الأسفار التاريخية وهي ثلاثة عشر سفراً: ١ ـ يشوع. ٢ ـ القضاة. ٣ ـ راعوث. ٤ ـ صموئيل الأول. ٥ ـ صموئيل الثاني. ٦ ـ الملوك الأول. ٧ ـ الملوك الثاني. ٨ ـ أخبار الأيام الأول. ٩ ـ أخبار الأيام الثاني. ١٠ ـ عزرا. ١١ ـ نحميا. ١٢ ـ إستير. ١٣ ـ يونان ـيونس عليه السلام ـ.

وهذه الأسفار تحكي قصة بني إسرائيل من بعد موسى ـعليه السلام ـ إلى ما بعد العودة من السبي البابلي إلى فلسطين، وإقامتهم للهيكل مرة أخرى بعد تدميره، ماعدا سفري أخبار الأيام الأول والثاني؛ فإنها تعيد قصة بني إسرائيل وتبتدئ بذكر مواليد آدم على سبيل الاختصار إلى السنة الأولى لِملك الفرس قورش.

وكذلك سفر يونان (يونس ـعليه السلام ـ) يحكي قصته مع أهل نينوى[٢] الذين أرسل إليهم.

ثالثاً: أسفار الأنبياء وهي خمسة عشر سفراً: ١ ـ أشعيا. ٢ ـ إرميا. ٣ ـ حزقيال. ٤ ـ دانيال. ٥ ـ هوشع. ٦ ـ يوئيل. ٧ ـ عاموس. ٨ ـ عوبديا. ٩ ـ ميخا. ١٠ ـ ناحوم. ١١ ـ حبقوق. ١٢ ـ صفنيا. ١٣ ـ حجى. ١٤ ـ زكريا. ١٥ ـ ملاخى[٣].

---

١ ـ انظر قاموس الكتاب المقدس ص٤٦٧، ودراسات في الأديان ص٧٥.

٢ ـ نينوى المدينة التي بعث فيها يونس ـعليه السلام ـ، وتقع قبالة الموصل على دجلة، وكانت عاصمة الآشوريين. انظر معجم البلدان (٥/٣٣٩)، وقاموس الكتاب المقدس ص٩٩٠، ودراسات في الأديان ص٧٦.

٣ ـ هذا الترتيب حسب ورودها في النسخة البروتستانتية، انظر دراسات في الأديان ص٧٦.

وهذه الأسفار يغلب عليها طابع الرؤى، والتنبؤات بما سيكون من حال بني إسرائيل، وحال الناس معهم، وفيها تهديدات لبني إسرائيل، ووعود بالعودة والنصر.

والذين نسبت إليهم هذه الأسفار هم ممن كانوا زمن السبي إلى بابل وبعده.

رابعاً: أسفار الحكمة والشعر (الأسفار الأدبية) وهي خمسة أسفار: ١ـ أيوب. ٢ـ الأمثال. ٣ـ الجامعة. ٤ـ نشيد الإنشاد. ٥ـ مراثي إرميا.

خامساً: سفر الابتهالات والأدعية سفر واحد، وهو سفر المزامير المنسوب إلى داود ـعليه السلامـ [١].

هذه أسفار النسخة العبرانية المعتمدة لدى اليهود والبروتستانت من النصارى.

أما النصارى الكاثوليك، والأرثوذكس فيعتمدون النسخة اليونانية، وهي تزيد على العبرانية بسبعة أسفار هي: سفر طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول والمكابيين الثاني [٢].

٣ـ التلمود: هو أحد مصادر اليهود، ويعني تعليم ديانة اليهود، وآدابها.

ويتكون من جزئين: **أ. متن:** ويسمى (المشناة) بمعنى المعرفة، أو الشريعة المكررة.

١ـ يقول الدكتور سعود الخلف ـحفظه اللهـ بعد إيراده أسماء هذه الأسفار: «يلاحظ أن أهل الكتاب يحزبون كتابهم إلى أسفار وإصحاحات وفقرات، فكل سفر يحوي عدداً من الإصحاحات، فهو يشبه من هذا الوجه الأجزاء في تحزيب القرآن الكريم، وكل إصحاح يحوي لديهم العديد من الفقرات، فهو يشبه في ذلك السور في تجزئة القرآن الكريم، أما الفقرات فتختلف في الطول والقصر، وهي تشبه من هذا الوجه الآيات في القرآن الكريم والترتيب المذكور هو بالنظر إليها من ناحية موضوعاتها، وإلا فاليهود يرتبونها هكذا: **أولاً:** أسفار موسى الخمسة.

ثانياً: الأنبياء المتقدمون وهي أسفار يشوع، والقضاة، وصموئيل الأول، والثاني، والملوك الأول والثاني، ثم الأنبياء المتأخرون وهم، إشعياء، وأرميا، وحزقيال، والأنبياء الاثنا عشر الصغار وهم هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونس، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجاي، زكريا، ملاخي.

ثالثاً: الكتب ويغلب عليها الطابع الأدبي وهو المزامير، الأمثال، أيوب، نشيد الأناشيد، والجامعة، وراعوث، والمراثي، واستير، ودانيال، عزرا، نحميا، الأخبار الأول والثاني» ودراسات في الأديان ص٧٧ .

٢ـ انظر دراسات في الأديان ص ٧٦ـ٧٧ .

ب. **شرح**: ويسمى (جماراً) ومعناه الإكمال.

وكان التلمود هو القانون أو الشريعة الشفهية التي كان يتناقلها الحاخامات الفريسيون من اليهود سراً جيلاً بعد جيل.

ثم إنهم لخوفهم عليها من الضياع دوَّنوها، وكان ذلك في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وأطلق عليها اسم (المشناة).

ثم شرحت هذه المشناة، وسمي الشرح (جماراً).

وألفت هذه الشروح في فترة طويلة، امتدت من القرن الثاني بعد الميلاد إلى أواخر القرن السادس بعد الميلاد.

وتعاقب على الشرح حاخامات بابل، وحاخامات فلسطين، ثم سمي المتن وهو المشناة مع الشرح وهي جمارا: التلمود.

وما كان عليه تعليقات وشروح حاخامات بابل سمي: «تلمود بابل».

وماكان عليه شروح حاخامات فلسطين سمي: «تلمود فلسطين».

والتلمود يقدسه، ويعظمه اليهود الفرنسيون، وباقي الفرق تنكره[1].

وله أثرٌ كبيرٌ في نفسية اليهود.

٤ـ تحريف التوراة:

كل عاقل منصف ـفضلاً عن المسلم المؤمنـ يعلم براءة التوراة التي أنزلها الله على موسى ـعليه السلامـ من أكثر ما هو موجود في الكتب الموجودة في أيدي اليهود، وذلك لأمور عديدة منها:

أـ ما حصل للتوراة من الضياع والنسخ والتحريف والتدمير، فلقد حُرِّف فيها، وبُدِّل، وضاعت، وتعرضت لسبع تدميرات، منذ عهد سليمان ـ عليه السلام ـ (٩٤٥) قبل الميلاد إلى أن حصل التدمير السابع عام ٦١٣م مما يدل على ضياعها

١ـ انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود د. رو هلنج ترجمة يوسف نصر الله ص ٤٧ـ٥٠، ودراسات في الأديان ١٢٠ـ١٢١.

وانقطاع سندها.

ب- ما تشتمل عليه من عقائد باطلة لا تَمُتُّ إلى ما جاء به المرسلون بأدنى صلة.

ج- اشتمالها على تنقص الرب -جل وعلا- وتشبيهه بالمخلوقين، ومن ذلك قولهم: «إن الله تصارع مع يعقوب ليلة كاملة فصرعه يعقوب».

ومن ذلك قولهم: «إن الله ندم على خلق البشر لما رأى من معاصيهم، وأنه بكى حتى رمد فعادته الملائكة».

تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

د- اشتمالها على سب الأنبياء والطعن فيهم، ومن ذلك قولهم: «إن نبي الله هارون صنع عجلاً، وعبده مع بني إسرائيل».

وقولهم: «إن لوطاً شرب خمراً حتى سكر، ثم قام على ابنتيه فزنى بهما الواحدة تلو الأخرى».

وقولهم: «إن سليمان -عليه السلام- ارتد في آخر عمره، وعَبَدَ الأصنام، وبنى لها المعابد، إلى غير ذلك من تلك المخازي التي ينزه عنها الأنبياء -عليهم

هـ- اشتمالها على المغالطات والمستحيلات والمتناقضات[٢].

و- أن المعركة التي قامت بين التوراة وحقائق العلم الحديث أثبتت ما في التوراة من الأخطاء العلمية.

ومن تلك الكتب التي تكلمت على هذا الموضوع كتابان هما: **(أصل الإنسان)** و**(التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)** لعالم فرنسي اسمه **(موريس بوكاي)** حيث أثبت وجود أخطاء علمية في التوراة والإنجيل، وأثبت في الوقت نفسه عدم تعارض القرآن مع العلم الحديث وحقائقه، بل سجل شهادات تفوق سبق القرآنُ فيها

١- انظر الرسل والرسالات، ١٠٤-١٠٥، ودراسات في الأديان ٩٤-١٢٤.

٢- انظر البحث الصريح في أيُّما هو الدين الصحيح للشيخ زيادة بن يحيى الراسي -وكان من علماء النصارى الذين أسلموا- ص ٢٣٩-٣٠٩ حيث ذكر في هذه الصفحات ثلاثين صورة من صور الشك والتناقض في التوراة والإنجيل.

العلمَ بألف وأربعمائة عام[1].

ثالثاً: الإنجيل

١ـ الإنجيل في الأصل: الإنجيل كلمة يونانية تعني الخبر الطيب ـالبشارةـ[2].

والإنجيل عند المسلمين: هو الكتاب العظيم الذي أنزله الله على عيسى ـعليه السلامـ متمماً للتوراة، ومؤيداً لها، وموافقاً لها في أكثر الأمور الشرعية، يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ويدعو إلى عبادة الله وحده دون من سواه.

هذا هو الإنجيل الذي أنزل على عيسى ـعليه السلامـ.

وبعد رفع عيسى ـعليه السلامـ دخل التحريف الإنجيل فَغُيِّر فيه، وبدِّل، وزيد فيه، ونقص[3].

٢ـ الإنجيل بعد عيسى ـعليه السلامـ:

الكتاب المقدس لدى النصارى يشمل التوراة، والكتب الملحقة بها، والأناجيل، ورسائل الرسل.

وتسمى التوراةُ، والكتب الملحقة بها العهدَ القديم، وتسمى الأناجيلُ، ورسائلُ الرسلِ العهدَ الجديد.

والنصارى يقدِّسون كلاً من العهد القديم والعهد الجديد، ويضمونهما معاً في كتاب واحد يطلقون عليه اسم: الكتاب المقدس.

والعهد القديم بالنسبة للنصارى منسوخ حكماً؛ فلا يعملون بشيء من تشريعاته؛ حيث ألغى العمل به بولس، غير أنهم يعتقدون قداسة العهد القديم، ويستفيدون منه معارفهم الدينية، مثل المعلومات المتعلقة بخلق السماوات والأرض، وخلق آدم، وقصص الأنبياء، كما يقتبسون منه كثيراً من الأدعية في صلواتهم، وخاصة المزامير،

١ـ انظر مقارنة التوراة والقرآن لمحمد الصويان ص٣٥، والتوراة والإنجيل والقرآن والعلم (لموريس بوكاي) ترجمة الشيخ حسن خالد.

٢ـ انظر قاموس الكتاب المقدس ص١٢٠، ودراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص١٩٧.

٣ـ انظر دراسات في الأديان ص١٩٧.

التي تتضمن كثيراً من الأدعية والابتهالات[١].

فالعهد الجديد -إذاً- هو الذي يشتمل على أناجيلهم، والرسائل الملحقة بها، وتتضمن حسب المدوّن فيها: دعوة المسيح -عليه السلام-، وتاريخه، وشيئاً من دعوة أوائل النصارى، وتاريخهم، ورسائل دينية أخرى، وهي على الترتيب١. إنجيل متى.٢. إنجيل مرقص.٣. إنجيل لوقا. ٤. إنجيل يوحنا. ٥. أعمال الرسل. ٦. رسالة بولس إلى أهل روميه. ٧. رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس. ٨. رسالة بولس الثانية إلى كورنثوس. ٩. رسالة بولس إلى غلاطيه. ١٠. رسالة بولس إلى أفسس. ١١. رسالة بولس إلى أهل فيلبي. ١٢. رسالة بولس إلى أهل كولوسي. ١٣. رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي. ١٤. رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي. ١٥. رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس. ١٦. رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس. ١٧. رسالة بولس إلى تيطس. ١٨. رسالة بولس إلى فليمون. ١٩. الرسالة إلى العبرانيين. ٢٠. رسالة يعقوب. ٢١. رسالة بطرس الأولى. ٢٢. رسالة بطرس الثانية. ٢٣. رسالة يوحنا الأولى. ٢٤. رسالة يوحنا الثانية. ٢٥. رسالة يوحنا الثالثة. ٢٦. رسالة يهوذا. ٢٧. رؤيا يوحنا اللاهوتي[٢].

٣- الأناجيل المعتبرة عند النصارى: أ. إنجيل متى: وهو أحد التلاميذ الاثني عشر، وقد دون الإنجيل باللغة العبرية أو بالسريانية.

وآخر نسخة عُثر عليها كانت باللغة اليونانية كما أن هناك خلافاً حول مَنْ دَوَّن الإنجيل ومَنْ ترجمه[٣].

٢- إنجيل مَرْقَص: وكاتبه يوحنا، ويلقب بمرقص، ولم يكن من الحواريين الاثني عشر الذين تتلمذوا للمسيح، واختصهم بالزلفى إليه.

١- انظر دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص١٩٥.

٢- انظر دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ص١٩٥-١٩٦ .

٣ - انظر محاضرات في النصرانية ص ٤٠.

وأصله من اليهود، وكانت أسرته بأورشليم في وقت ظهور المسيح، وهو من أوائل الذين أجابوا دعوته؛ فاختارهم من بين السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقادهم بعد رفعه[١].

وكان رجلاً نشيطاً في نشر النصرانية في أنطاكية، وشمال أفريقيا، ومصر، وروما، وقد قتل حوالي عام ٦٢م[٢].

٣ـ إنجيل لوقا: يقولون: إن لوقا ولد في أنطاكية ودرس الطب، ونجح في ممارسته، ولقد رافق بولس في أسفاره وأعماله[٣].

٤ـ إنجيل يوحنا: وهو حواريٌّ كان المسيح يحبه، وبعضهم يقول: إنه شخصية مجهولة انفرد بالقول بالتثليث، وبألوهية المسيح في الوقت المبكر من تاريخ النصرانية[٤].

بيَّن كثير من العلماء المسلمين قديماً وحديثاً ومن علماء النصارى الذين دخلوا في

٤ـ مآخذ على الأناجيل الموجودة اليوم:

بيَّن كثير من العلماء المسلمين قديماً وحديثاً ومن علماء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، أو المتحررين منهم من ربقة التقليد ـ مآخذ كثيرة على هذه الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى، ووجهوا إليها انتقادات كثيرة، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم في كتابه: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

ومن العلماء المُحْدَثين الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه: إظهار الحق، والشيخ

---

١ ـ انظر محاضرات في النصرانية ص ٤٦.

٢ ـ انظر الموسوعة ص ٥٠١.

٣ ـ انظر محاضرات في النصرانية ص ٤٧.

٤ ـ انظر الموسوعة ص٥٠١.

محمد أبو زهرة في كتابه: محاضرات في النصرانية، ومن علماء النصارى الذين أسلموا الشيخ زيادة بن يحيى الراسي في كتابه البحث الصريح في إيِّما هو الدين الصحيح، والشيخ إبراهيم خليل أحمد كما في كتابه: محاضرات في مقارنة الأديان.

وفيما يلي إجمال لبعض المآخذ على الأناجيل الموجودة بأيدي النصارى اليوم:

أـ أن أوائل النصارى ـكما ذكره بولس في رسائله- يرون أن الله أنزل كتاباً على المسيح سماه الإنجيل، ودعى المسيحُ ـعليه السلام- إلى الإيمان به.

ولكن النصارى لا يعرفون شيئاً عن مصير ذلك الكتاب.

ب- أن هذه الأناجيل التي بأيدي النصارى لم يُمْلِها عيسى ـعليه السلام- ولم تنزل عليه وحياً، ولكنها كتبت بعده.

ج- ما وقع في الأناجيل من تلاعب النساخ، وتبديلهم، وتحريفهم.

د- ما تشتمل عليه تلك الأناجيل من المتناقضات، والاختلافات، وقد أحصى الشيخ رحمة الله الهندي ـفي آخر كتابه إظهار الحق- أكثر من مائة اختلاف بين هذه الأناجيل[1].

هـ- أن النصارى لا يعرفون بالضبط تاريخ إعطاء هذه الكتب صفة الإلزام والقداسة.

وإنما يرون أنه خلال القرن الرابع الميلادي أخذت كتبهم صفة القداسة تدريجياً.

و ـ انقطاع السند في نسبتها لكتابها؛ فالنصارى لا يملكون السند لكتبهم، ولا يعرفون مصدرها الحقيقي؛ فهي لا تعدو أن تكون كتباً وجدوها منحولة إلى أولئك الذين نسبت إليهم، فنسبوها إليهم، واعتقدوا صحة ذلك بدون دليل.

وهذا أمر لا يعطي النفس البشرية القناعة المناسبة لما تُراد له هذه الكتب في الأصل من تجنب سخط الله، وبلوغ رضوانه.

ز ـ اشتمالها على تنقص الرب ـجل وعلا- وعلى نسبة القبائح للأنبياء ـعليهم السلام-.

ح ـ اشتمالها على العقائد الباطلة المخالفة للنقل والعقل.

ط ـ تعارضها مع الحقائق العلمية، كما أثبت ذلك عدد من العلماء؛ منهم موريس

١ـ انظر محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص٩٨١ .

بوكاي وقد مرَّ الكلام عليه قريباً[١].

ي- أن تلك الأناجيل -وبغض النظر عن كونها محرفة- تخلو من أي تصور محدد لنظام سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو علمي[٢].

وبالجملة فإن الأناجيل الموجودة اليوم ليست هي الإنجيلَ الذي أُنزل على عيسى -عليه السلام- وإنما هي خليط من ديانات ووثنيات هندية، ويونانية، ومصرية قديمة.

وهي -كذلك- صورة لما صنعه بولس شاؤل الذي غيَّر دين النصارى.

ولا يعني أن تلك الأناجيل تخلو من بعض الحق، ومن كلمات للمسيح، وإن كان ذلك لا يثبت في ميزان النقد العلمي، وإنما يُقال ذلك لأن ما في القرآن يؤيده، ويصدقه[٣].

رابعاً: هل يجوز لأحد اتباع التوراة أو الإنجيل بعد نزول القرآن؟

لا يجوز لأحد ذلك؛ للاعتبارات السابقة، ولأنها -وعلى فرض صحتها- كانت خاصة لأمة معينة، ولفترة محددة، ولأنها نسخت بالقرآن الكريم.

ومن هنا يتبين بطلان وعدم جواز العمل بهذه الكتب إلا ما أقره القرآن، ويتبين لنا ضلال اليهود والنصارى وبطلان مزاعمهم، كيف وقد قال النبيﷺ: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[٤].

١- انظر مقارنة التوراة والقرآن ص٣٥.

٢- انظر مقالاً للدكتور محمد الشاهد مجلة البيان عدد (٢٢) ص٨٦.

٣- انظر تفصيل ذلك في كتاب البحث الصريح ص ٢٣٩-٣٠٩، ودراسات في الأديان ص ٢١٠-٢١٤.

٤- رواه مسلم (١٥٣).

الفصل الرابع

الإيمان بالرسل

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم النبوة والرسالة.

المبحث الثاني: حقيقة الأنبياء والرسل، وعصمتهم، وثمرات الإيمان بهم.

المبحث الثالث: عقيدة ختم النبوة، وما يتعلق بها.

المبحث الأول: مفهوم النبوة والرسالة

أولاً: تعريف النبوة والرسالة في اللغة

أ ـ تعريف النبوة في اللغة: النبوة في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات؛ فهي إما مأخوذة من النبأ وهو: الخبر الذي له خطب وشأن؛ فتكون النبوة بمعنى الإخبار.

وإما أن تكون مأخوذة من النباوة، أو النَّبْوَة وكلاهما يدل على الارتفاع؛ فتكون بمعنى الرفعة والعلو.

وإما أن تكون مأخوذة من النَّبي، وهو بمعنى الطريق؛ فتكون النبوة بمعنى الطريق إلى الله ـعز وجل ـ.[1]

والحقيقة أن النبوة الشرعية تشمل كل هذه المعاني؛ إذ النبوة إخبار عن الله ـعز وجل ـ وهي رفعة لصاحبها؛ لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله ـسبحانه ـ.

ومع ذلك فإن أولى هذه المعاني بلفظ النبوة والنبيِّ هو اشتقاقها من النبأ؛ لأن النبي مُنَبَّأٌ من الله، وهو كذلك ينبئ الناس عن الله، وتتحقق نبوته بمجرد ذلك، وبهذا التحقق تثبت له أوصاف العلو والارتفاع، وكونه طريقاً إلى معرفة الله ـعز وجل ـ.

ونرى مصداق ذلك ما يتردد في القرآن من إطلاق النبأ على الخبر، فمثلاً يقول الله ـسبحانه وتعالى ـ: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩).

ويقول حكاية عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ التحريم: ٣.

وغير ذلك عشرات الآيات كلها تَذْكُر الإنباء بمعنى الإخبار.

ولعل ذلك يؤكد لنا أن النبوة مشتقة من النبأ، وهو الإخبار؛ فيكون معنى

---

١ ـ انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/٣٨٤ـ٣٨٥، ولسان العرب ١/١٦٢ـ١٦٤.

النبي: هو المُخْبَرُ من الله، أو المُخْبِرُ عن الله -جلَّ وعلا-.[١]

بـ- تعريف الرسالة في اللغة: أصل هذه المادة: الراء والسين واللام (رسل).

والرسول مأخوذ من الإرسال، وهو التوجيه، أو من التتابع؛ أخذاً من قولهم رسل اللبن: إذا تتابع دره؛ فالرسول -إذاً- إما أن يكون مأخوذاً من كونه يوجِّه الناس، أو من كون الوحي يتتابع عليه[٢].

فهذا هو المعنى اللغوي للنبي الرسول.

ثانياً: تعريف النبوة والرسالة في الشرع

يمكن تعريف النبوة والرسالة في الشرع بأن يقال: هي صفةٌ تَحْدُثُ في الشخص بعد أن يصطفيه الله -عز وجل- فيخبره بخبر السماء، ويأمره بتبليغه.

فالنبوة والرسالة تتحقق بمجرد اصطفاء الله للشخص بالوحي بغض النظر عما يدور من الخلاف حول الفرق بين النبي والرسول، والنسبة بينهما[٣] على ما سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

ثالثاً: الفرق بين النبي والرسول

للعلماء في تحديد الفرق بين النبي والرسول، وتحديد مسمى كل منهما كلام كثير لا يسلم من نقد، لكن الأمر الراجح عند كثير من أهل العلم أن هناك فرقاً بين مسمى النبي، ومسمى الرسول، وإن اختلفوا في تحديد المراد بكل منهما.

وأيضاً فإن النبوة أعم من الرسالة؛ فكل رسول نبي، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

والذي يظهر -والله أعلم- أن **النبي**: هو من نَبَّأَه الله بشرع سابق ينذر به أهل ذلك الشرع، وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معينة، أو الوصايا والمواعظ

---

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية د. أحمد بن سعد الغامدي ص١٤ـ١٥.

٢ ـ انظر لسان العرب ١/٢٨٣ـ٢٨٤.

٣ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص١٥ـ١٦.

وذلك كأنبياء بني إسرائيل؛ إذ كانوا على شريعة التوراة، ولم يأتِ أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتوراة، فتكون منزلته حينئذ بمنزلة المجدد لتعاليم الرسل السابقين.

أما الرسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامره، سواء كان هذا الشرع جديداً في نفسه، أو بالنسبة لمن بعث إليهم، وربما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله[1].

رابعاً: دلائل النبوة

النبوة من أعظم الدعاوى، ولا يدَّعيها إلا أكذب الناس، أو أصدقهم.

والنبوة تثبت بدلائل كثيرة أعظمها الآيات التي تسمى بالمعجزات، وتثبت بالأعمال العظيمة، والأخلاق الفاضلة، والسير الحميدة.

فمن ادعى النبوة، وأيده الله بالمعجزات، واشتهر بالصدق، والأمانة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة الحميدة ـ فهو نبي موحى إليه، مؤيد من الله.

وإن كان بخلاف ذلك فهو كاذب دجال مدَّعٍ للنبوة، ولا بد أن يفضحه الله ـعز وجلـ.

هذا وسيأتي مزيد بيان لدلائل النبوة في الباب الثامن عند الحديث عن معجزات الرسولﷺ.

---

١ ـ انظر النبوات لابن تيمية ص٢٢٥ـ٢٢٧، وأصول الدين للبغدادي ص١٥٤، وعقيدة ختم النبوة ص١٥ـ١٦، ومحبة الرسولﷺ بين الاتباع والابتداع لعبدالرؤوف محمد عثمان ص١٥، والرسل والرسالات د. عمر الأشقر ص١٤ـ١٥.

المبحث الثاني: حقيقة الأنبياء والرسل، وعصمتهم، وثمرات الإيمان بهم

أولاً: حقيقة الأنبياء والرسل

الأنبياء والرسل بشر مخلوقون يوحى إليهم، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء.

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض، والنوم، والموت، والحاجة إلى الطعام والشراب، وغير ذلك.

وقد وصفهم الله -تعالى- بالعبودية له في أعلى مقاماتها، وفي سياق الثناء عليهم فقال -تعالى- في نوح -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ (الإسراء:٣).

وقال في محمدﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١ .

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ ص.

وقال في عيسى بن مريم -عليه السلام-: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الزخرف: ٥٩ .[١]

والرسالة اصطفاء من الله لا تأتي بالاكتساب، والمجاهدة.

والرسل خير البشر، وصفوتهم، وخلاصتهم.

ثانياً: عصمة الأنبياء والرسل

اتفقت الأمة على أن الأنبياء والرسل معصومون في تحمُّل الرسالة، وفيما يبلغون به عن ربهم -جل وعلا-.

فلا يُنْقِصُوْنَ شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ولا ينسون شيئاً من ذلك إلا ما كان قد

١- انظر رسائل في العقيدة الإسلامية ص٢٥-٢٦.

نسخ.

وقد تكفل الله لنبيه محمدﷺ بأن يقرئه فلا ينسى شيئاً مما أوحى إليه إلا شيئاً أراد الله أن ينسيه إياه، قال -عز وجل-: ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ الأعلى.

والرسل -كذلك- معصومون في التبليغ؛ فلا يكتمون شيئاً من الوحي، ذلك أن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل ذلك في حقهم، قال -تعالى-: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ** ﴾ الحاقة.

أما الأعراض الجِبِلِّيَّة البشرية فلا تنافي العصمة؛ فإبراهيم -عليه السلام- أوجس في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم، ولم يكن يعلم أنهم ملائكة.

وموسى -عليه السلام- غضب غضباً شديداً، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح وفي نسختها هدى - عندما عاد إلى قومه بعد أن تم ميقات ربه، فوجدهم يعبدون العجل.

ومن ذلك نسيان الرسولﷺ في غير البلاغ، وفي غير أمور التشريع؛ كما في حديث ذي اليدين عندما سها -عليه الصلاة والسلام- في الصلاة[1].

بل قد صرح -عليه الصلاة والسلام- بطروء النسيان عليه كعادة البشر فقال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[2].

والأنبياء قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء، وقد تقع منهم الصغائر، ولكنهم لا يقرون على ذلك، ويوفقون للأوبة وتدارك الخطأ؛ بمعنى أن الله -عز وجل- لا يقرهم على الذنب والخطأ، بل يوحي إليهم بالصواب، ويوفقهم

---

١ - انظر صحيح البخاري (١٢٢٨).

٢ - أخرجه البخاري (٣٩٢) ومسلم (٥٧٢).

للتوبة بعد الذنب؛ فتكون حالهم بعد ذلك أكمل منها قبلها.

أما القبائح وكبائر الذنوب فهم معصومون منها باتفاق الأمة.

فهذا هو خلاصة القول في مسألة عصمة الأنبياء، وهناك تفصيلات ليس هذا مجال بسطها[1].

ثالثاً: ما يتضمنه الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله -تعالى- فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بهم جميعاً كما قال الله -تعالى-: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل محمد وإبراهيم وموسى ونوح وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-.

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨).

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبار.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس قال الله -تعالى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء: ٦٥[2].

---

١ ـ انظر مجموع الفتاوى ١٠/٢٩٣ـ٣١٣ و ١٥/١٥٠، والرسل والرسالات ص٩٩ـ١١٦.

٢ ـ انظر رسائل في العقيدة الإسلامية ص٢٦.

رابعاً: ثمرات الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله -تعالى- وعنايته بعباده؛ حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليهدوهم إلى صراط الله -تعالى- ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره -تعالى- على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله -تعالى- ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده[1].

---

١ ـ انظر رسائل في العقيدة الإسلامية ص٢٧.

المبحث الثالث: عقيدة ختم النبوة، وما يتعلق بها

أولاً: مفهوم عقيدة ختم النبوة

المقصود بختم النبوة: انتهاء إنباءِ اللهِ الناسَ، وانقطاع وحي السماء[١].

ومعنى ذلك اعتقاد أن النبواتِ قد ختمت بنبوة النبي محمدﷺ وأن وحي السماء انقطع بموته -عليه الصلاة والسلام- وأن ذلك من صميم عقيدة المسلمين، وأن من ادعى خلاف ذلك فهو كافر بالله مكذب لنبيهﷺ.

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

وقد وردت الأدلة من القرآن الكريم على عقيدة ختم النبوة بصور عدة، منها:

أ- التصريح بالختم، قال -تعالى-: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

ففي هذه الآية الكريمة تصريح بخاتمية محمدﷺ للأنبياء قبله، فلا نبي بعده ولا رسول.

وهذا هو ما فهمه المفسرون لكتاب الله -تعالى- من عصر صدر الإسلام إلى يومنا هذا[٢].

ب- تقرير تلك العقيدة بطريق الاستلزام العقلي: وذلك في عدد من الآيات، كالآيات الدالة على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ كقوله -تعالى-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وكالآيات الدالة على تعهد الله -عز وجل- بحفظ كتابه.

وكالآيات التي تقرر حجية القرآن على كلِّ مَنْ بَلَغ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا

---

١ - انظر عقيدة ختم النبوة ص١٦.

٢ - انظر عقيدة ختم النبوة ص١٩-٢٤.

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام:١٩).

وكالآيات التي تطالب الناس بالإيمان بالرسل السابقين، والكتب السماوية السابقة فحسب، دون أن تطالبهم بالإيمان بغيرهم[١].

أما دلالة السنة فقد كان النبي ﷺ مهتماً بتقرير عقيدة ختم النبوة، وتأكيدها، بحيث إنه قد قررها بمختلف الأساليب البيانية، وفي سائر المناسبات الخاصة والعامة، ولم يترك شبهة يمكن أن تغبِّش صورتها إلا وأزالها حتى تركها واضحة جلية.

والمتتبع لأحاديث الرسولﷺ يرى أنها قد أَكَّدَت خَتميةَ النبوة بعبارات متنوعة يصل بعضها إلى حد التواتر.

وهي في جملتها متواترة تواتراً قطعياً لا يُبْقِي مجالاً للشك أو التردد في كون النبيﷺ خاتَمَ الأنبياء[٢].

قال النبيﷺ: «**وإنه سيكون من أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»[٣].

ثانياً: مفهوم المعجزة، والكرامة، والأحوال الشيطانية

المعجزة: أمر خارق للعادة يجريه الله على يد نبي من أنبيائه، تأييداً له، وتصديقاً.

وتسمى المعجزة: الآية.

ومعنى الأمر الخارق للعادة: هو ما يكون على خلاف مألوف الآدميين، وما كان خارجاً عن طاقتهم.

والكرامة: هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه؛ معونة له

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص١٩ـ٢٩.

٢ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص٣٠ـ٥٤.

٣ ـ أخرجه أحمد (٢٢٤٤٨) والحاكم ٤/٤٩٦.

على أمر ديني أو دنيوي.

وتكون على يد المؤمن الولي التقي المُتَّبِع للشرع.

وهي -في الحقيقة- معجزة لنبيه؛ لأنها لم تقع إلا بسبب اتباعه له.

والأحوال الشيطانية: أمور خارقة للعادة تجري على يد مُعْرِض عن الشرع، صادٍّ عن الحق؛ متلبس بالمعاصي؛ فذلك من الأحوال التي تَصُدُّ بها الشياطينُ الناسَ عن اتباع الحق، كدخولها في الأصنام، وتكليم عابديها، أو الحكم بينهم، أو قضاء بعض حوائجهم، وقد ترفع بعض الضُّلاَّل في الهواء ثم تعيده، أو تنقله من بلد بعيد وهكذا.

وهذه الثلاثة -المعجزة، والكرامة، والأحوال الشيطانية- تجتمع في كونها خارقةً للعادة، وتنفرد المعجزة بكونها واقعة على يد نبي؛ فيؤيده الله ويظهره، وتنفرد الكرامة بكونها على يد وليٍّ متبع، وتنفرد الأحوال الشيطانية بكونها واقعة على يدِ دَعيٍّ مخالف ضال[1].

ثالثاً: ادعاء النبوة

ظهرت في العصور الإسلامية الأولى وفي العصر الحديث حركات التنبؤ التي يدعي أصحابها أنهم أنبياء، وقامت تلك الحركات مدفوعة بأسباب كثيرة يأتي على رأسها: الجهل، والعصبية القبلية، والعصبية الشعوبية، والحقد اليهودي والصليبي.

ومن أشهر المتنبئين في عصر صدر الإسلام: الأسود العنسي، وطليحة بن خويلد، ومسيلمة، وسجاح التغلبية.

وأشهرهم في العصرين الأموي والعباسي: المختار بن عبيد، والحارث بن سعيد، وبيان بن سمعان، والمغيرة العجلي، وأبو الخطاب الأسدي، وعلي بن الفضل الحميري.

---

١ - انظر مذكرة في التوحيد للشيخ محمد بن قاسم ص١٦-١٧.

أما في العصر الحديث فقد ادعى النبوة كثيرون، وأشهر هؤلاء محمد بن علي الشيرازي زعيم الدعوة البابية، وحسين بن علي المازندراني زعيم الدعوة البهائية، وأحمد القادياني زعيم الدعوة القاديانية.

والحديث عن بطلان تلك الدعاوى يطول، والمجال لا يتسع لذلك، بل إن فسادها يغني عن إفسادها[١].

رابعاً: خصائص نبينا محمد ﷺ

اخْتُصَّ نبينا محمدٌﷺ بخصائص كثيرة، والمجال لا يتسع لإحصائها، ومنها على سبيل الإجمال ما يلي:

١ـ عموم رسالتهﷺ: يقول الله ـعز وجل ـ: ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف:١٥٨).

فهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالتهﷺ إلى الناس جميعاً، وهذه هي إحدى الخصائص التي انفرد بهاﷺ عن الأنبياء قبله؛ إذ كان النبي إنما بعث إلى قومه خاصة، ثم يبقى غيرهم محتاجاً إلى من يبلغه أمر الله ـعز وجل ـ.

ولئلا يُتَوَهَّمَ هذا في رسولنا ـعليه الصلاة والسلام ـ بيَّن الله ـسبحانه وتعالى ـ عموم رسالته إلى الناس جميعاً[٢].

وقال ـعليه الصلاة والسلام ـ: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة»[٣].

٢ـ أن الله ـعز وجل ـ تكفل بإظهار دينه على جميع الأديان: قال الله ـعز

---

١ ـ انظر عقيدة ختم النبوة ص١٧٠ـ٢٧١، وانظر رسائل في الأديان والفرق والمذاهب لمحمد الحمد ص٢٢٣ـ٣١٥.

٢ ـ عقيدة ختم النبوة ص٢٤.

٣ ـ أخرجه البخاري (٤٣٨).

وجل-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ التوبة : ٣٣ .

٣- أن الله -عز وجل- تكفل بحفظ الكتاب الذي أنزل على محمدﷺ : قال -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ .

٤- أن دينه -عليه الصلاة والسلام- كامل صالح لكل زمان ومكان وأمة: قال الله -عز وجل-: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ... ﴾ (المائدة:٣).

٥- أنه -عليه الصلاة والسلام- نصر بالرعب مسيرة شهر، وأحلت له الغنائم، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمته أدركته الصلاة فليصل، كما صح بذلك الحديث عنه ﷺ[1].

٦- ما أظهر الله على يديه من المعجزات الكثيرة المتنوعة.

٧- أنه أكثر الناس تابعاً يوم القيامة.

٨- أنه يشفع للخلائق الشفاعة الكبرى يوم القيامة إذا تخلى الأنبياء عن ذلك.

٩- أنه أول من يستفتح باب الجنة، وأن أمته أول الأمم دخولاً للجنة.

إلى غير ذلك مما اختص به -عليه الصلاة والسلام-.

هذا وسيأتي مزيد بيان عن النبيﷺ في الأبواب الآتية خصوصاً البابين الثالث والثامن.

١- أخرجه البخاري (٤٣٨).

الفصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان باليوم الآخر، وأهميته، وثمراته

المبحث الثاني: النفخ في الصور

المبحث الثالث: البعــث

المبحث الرابع: القيامة: الحساب والميزان، ونشر كتب الأعمال

المبحث الخامس: الحوض والصراط

المبحث الأول: مفهوم الإيمان باليوم الآخر، وأهميته، وثمراته

أولاً: مفهوم الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يشمل كل ما ورد في أخبار ذلك اليوم، وما يتعلق به؛ فيدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها، وبالموت وما بعده من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وبالنفخ بالصور، وخروج الخلائق من القبور، وبالجزاء، والحساب، وما في موقف القيامة من الأهوال، والأفزاع، وتفاصيل المحشر، ونشر الصحف، ووضع الموازين، وبالصراط، والقنطرة، والحوض، والشفاعة، وغيرها، وبالجنة ونعيمها، الذي أعلاه النظر إلى وجه الله ـ عز وجل ـ وبالنار وعذابها الذي أشده حجب أهلها عن ربهم ـ عز وجل ـ[١].

ثانياً: أهمية الإيمان باليوم الآخر

للإيمان باليوم الآخر أهمية عظمى، ومما يدل على ذلك ما يلي:

١ـ **أنه أحد أركان الإيمان الستة**: جاء في حديث جبريل المشهور قوله ﷺ عند ما سأله جبريل ـ عليه السلام ـ عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[٢].

٢ـ **كثرة وروده في نصوص الشرع**، وكثرة ارتباطه بالإيمان بالله ـ تعالى ـ.

٣ـ **كثرة الثناء على المؤمنين به، والذم للكافرين به**: قال الله ـ تعالى ـ في وصف المؤمنين: ﴿ **وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ النمل: ٣.

وقال في وصف الكافرين: ﴿ **وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ** ﴾ هود: ١٩.

٤ـ **كثرة أسماء اليوم الآخر**: فلليوم الآخر أسماء كثيرة، والسر في ذلك عظم

---

(١) انظر أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي ص ٦٥.

(٢) رواه مسلم (٨).

أمره، وكثرة هوله.

قال القرطبي رحمه الله: «كل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب.

ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر؛ فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها سماها الله ـ تعالى ـ في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة »[1].

ثالثاً: ثمرات الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يثمر ثمراتٍ جليلةً، وأخلاقاً جميلة، وعبوديات متنوعة، وآثاراً حميدة تعود على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك ما يلي:

١ـ أداء عبادة الله ـ عز وجل ـ: فالإيمان باليوم الآخر مما تعبدنا الله ـتعالىـ به. وكمال المخلوق في تحقيقه العبودية لربه.

٢ـ زيادة الإيمان: فالإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح إيمان بدونها، وكلما زادت معرفة العبد به ازداد إيمانه وقوي يقينُه، وعلت درجته.

٣ـ انبعاث الرجاء والخوف: فالإيمان باليوم الآخر يحمل على فعل الطاعات؛ رجاءً لثواب ذلك اليوم، ويحمل على ترك المعاصي؛ خوفاً من عقاب ذلك اليوم.

فإذا تمت معرفة الإنسان بتفاصيل ذلك، وما فيه من النعيم المقيم لأهل الطاعة، وما فيه من النكال والعذاب الأليم لأهل المعصية كان ذلك أعظم الدوافع لفعل الخير، واجتناب الشر.

٤ـ العلم بفضل الله، وعدله، وحكمته: حيث يجازي من يستحق العذاب بعدله، ويجازي من يستحق الثواب بفضله.

---

(١) التذكرة للقرطبي ص ٣٤٢ـ٤٤٢ .

وإنما يُعلم ذلك بمعرفة ما يكون في الآخرة من الجزاء والحساب.

٥ـ الاعتدال في حال السراء والضراء: فالمؤمن يلزم الاعتدال في هذه الأحوال؛ فلا تطغيه النعمة، ولا تقنطه المصيبة؛ فإن كانت السراء أعدَّ لها الشكر، وإن كانت الضراء أعد لها الصبر.

قال النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد غير المؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[١].

٦ـ قيام الأخلاق الجميلة: فالإيمان باليوم الآخر يورث للإنسان أخلاقاً جميلة؛ فيورثه ـ على سبيل المثال ـ خُلُق البذل، والإنفاق؛ لعلمه بأن ما يقدمه في هذه الدنيا سيجده عند الله في الآخرة خيراً وأبقى؛ فتراه يُؤْثِر أعمال البر بجانب من ماله ولو كان به خصاصة، وتراه ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر.

٧ـ تسلية المؤمن عما يفوته في هذه الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة: وبذلك لا ينزعج لحلول مكروه، أو فوات محبوب؛ لأنه يرجو العوض من الله ـعز وجلـ فيدعوه ذلك إلى السلو، والراحة، وترك التسخط[٢].

وبعد أن تبين شيء من مفهوم الإيمان باليوم الآخر، وأهميته، وثمراته ـ ينتقل الحديث إلى بيان ما يتعلق باليوم الآخر من أحوال القيامة بشيء من البسط.

---

(١) رواه مسلم (٩٩٩٢) من حديث صهيب.

(٢) انظر الإيمان باليوم الآخر محمد الحمد ص٩ـ١١.

المبحث الثاني: النفخ في الصور

أولاً: تعريف النفخ في الصور

أ ـ تعريف النفخ في اللغة: النفخ في اللغة معروف، يقال: نفخ بفمه ينفخ نفخاً إذا أخرج منه الريح، ومنه نفخ النار، والنفخ في الشراب، وغير ذلك[١].

ب ـ تعريف الصور: الصور في اللغة يطلق على عدة معان، ومنها القرن، وبه فسر المفسرون قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ**﴾ الكهف: ٩٩[٢].

ج ـ النافخ في الصور: هو إسرافيل أحد الملائكة الكرام الذين يحملون العرش.

د ـ تعريف النفخ في الصور في الشرع: هو نفخ إسرافيل في القرن الذي التقمه وَوُكِلَ إليه النفخ فيه وقت قيام الساعة[٣].

ثانياً: الأدلة على النفخ في الصور

دَلَّ على النفخ في الصور الكتاب والسنة والإجماع:

أ ـ الأدلة من القرآن على النفخ: قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ الزمر: ٦٨.

ب ـ الأدلة من السنة: جاء في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً**[٤] **ورفع ليتاً، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل**

---

(١) انظر لسان العرب ٣/٦٢ ـ٦٤.

(٢) انظر لسان العرب ٤/٤٧٤.

(٣) انظر القيامة الكبرى د. عمر الأشقر ص٣١ـ٣٦.

(٤) اللِّيت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

(شك الراوي) **فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون»**(١).

ثالثاً: عدد النفخات

عدد النفخات التي ينفخ فيها إسرافيل في الصور نفختان:

أ ـ نفخة الصعق: وهي النفخة التي ينفخ فيه فيفزع الناس، ويصعقون؛ ذلك أن الله ـ عز وجل ـ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل ـ عليه السلام ـ أن ينفخ في الصور فيصعق كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله، وتصبح الأرض صعيداً جرزاً، والجبال كثيباً مهيلاً، ويحدث كل ما أخبر الله في كتابه، لاسيما في سورة الانفطار والتكوير.

وتسمى هذه النفخة نفخة الصعق، ونفخة الفزع، وتسمى بالراجفة، وتسمى بالصيحة.

ب ـ نفخة البعث: وهي النفخة التي يقوم الناس فيها من الأجداث أحياءً لرب العالمين.

وتسمى هذه النفخة بالأخرى، وتسمى بالرادفة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النفخات ثلاث هي:

أ ـ نفخة الفزع بدون الصعق.

ب ـ نفخة الصعق.

ج ـ نفخة البعث والقيام لرب العالمين.

فمن فسر الفزع بالصعق فهما اثنتان عنده، ومن فسر الفزع بغير الصعق فهي ثلاث(٢).

---

(١) مسلم(٢٩٤).

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٤/٤٦٠، وشرح الواسطية للهراس ص ٢٠٥ـ٢٠٦، ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ١١٤ـ١١٥، وأعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي ص١٠٤ـ١٠٥، والقيامة الكبرى ص ٣٩ـ٤٢.

المبحث الثالث: البعث

أولاً تعريف البعث

أ ـ تعريف البعث في اللغة: هو الإرسال، والنشر، والتحريك، ونحو ذلك من المعاني[١].

ب ـ البعث في الشرع: هو المعاد الجسماني، وإحياء الأموات يوم القيامة؛ لحسابهم والقضاء بينهم[٢].

ثانياً: أدلة ثبوت البعث

الإيمان بالبعث دل عليه الكتاب والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة السليمة، وهو مقتضى الحكمة؛ حيث تقتضي أن يجعل الله لهذه الخليقة معاداً يجازيهم فيه على ما كلَّفهم به على ألسنة رسله[٣].

قال ـ تعالى ـ: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ المؤمنون: ١١٥.

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ المؤمنون.

وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلاً**» متفق عليه[٤].

والأدلة على البعث والنشور لا تكاد تحصى.

---

(١) انظر لسان العرب.

(٢) انظر لمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١١٥ والقيامة الكبرى ص٥١.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٤، ورسائل في العقيدة ص٢٩، وأعلام السنة المنثورة ص١٠١ـ١٠٣.

(٤) البخاري(٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠).

ثالثاً: أدلة إمكان البعث

أدلة إمكان البعث ثابتة بالكتاب والسنة والعقل والحس، وقد مر شيء من ذلك، وإليك البسط في هذه المسألة:

أ ـ دليل إمكان البعث في السمع: والمقصود بالسمع الأدلة من الكتاب والسنة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ التغابن: ٧.

فانظر كيف أكدت الآية بمؤكدات، حيث أكدت بقوله ـ عز وجل ـ (بَلَى) وبالقسم، وباللام، وبنون التوكيد.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا.

ب ـ دليل إمكان البعث بالحس[1]: أما إمكان البعث بالحس فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا، وفي سورة البقرة وحدها خمسة أمثلة على ذلك.

المثال الأول: قوم موسى ـ عليه السلام ـ حين قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ (البقرة: ٥٥) أماتهم الله ثم أحياهم.

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل زمن موسى ـ عليه السلام ـ فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، فيضربوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتله، ففعلوا فأحياه الله وأخبرهم بمن قتله.

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، وهم ألوف فأماتهم الله، ثم أحياهم.

المثال الرابع: في قصة الذي مر على قرية ميتة، فاستبعد أن يحييها الله ـ تعالى ـ فأماته الله مائة عامٍ ثم أحياه.

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حين سأل الله ـ تعالى ـ أن

---

(١) انظر رسائل في العقيدة ص٣٢ـ٣٣.

يريه كيف يحي الموتى، فأمره الله أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاءً على الجبال التي حوله، ثم يناديهن، فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعياً.

ج ـ دليل إمكان البعث بالعقل[1]: أما دلالة العقل على إمكان البعث فمن وجهين:

أحدهما: أن الله فاطر السموات والأرض ابتداءً، والقادر على ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ الروم: ٢٧.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ**﴾ الأنبياء: ١٠٤.

وقال آمراً بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ يس: ٧٩.

الثاني: إحياء الأرض الميتة: فالأرض تكون ميتة هامدة ليس فيها عود أخضر، فينزل عليها المطر، فتهتز خضراء حية فيها من كل زوج بهيج.

والقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأموات.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ **فصلت: ٣٩.**

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ**

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٤ـ٤٠٧، ورسائل في العقيدة ص٣٣، والقيامة الكبرى ص٧٣ـ٨٦.

ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ ق.

رابعاً: منزلة الإيمان بالبعث من الدين

الإيمان بالبعث داخل ضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب عموماً.

ولا يخفى أهمية ذلك، وعظيم منزلته من الدين ـ كما سبق ـ ومما يدل على منزلته ما ورد فيه من النصوص الكثيرة التي مضى شيء منها.

ومما يدل على أهميته ـ أيضاً ـ أن الله ـ عز وجل ـ أقسم على وقوعه، وأثنى على المؤمنين به، وأخبر أنه وعد صادق، وخبر لازم، وذمَّ المكذبين بوقوعه.

خامساً: حكم إنكار البعث

إنكار البعث كُفْرٌ بالله ـ عز وجل ـ ومنكر البعث كافر بالله ـ تبارك وتعالى ـ وبرسله وبكتبه، وباليوم الآخر.

قال الله ـتعالىـ: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ التغابن: ٧.

وعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: قال الله ـتعالىـ: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني الله كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٥).

المبحث الثالث: القيامة، والحساب، و الميزان، ونشر كتب الأعمال

المطلب الأول: القيامـة

١ ـ تعريف القيامة: القيامة اسم من أسماء اليوم الآخر.

قال القرطبي رحمه الله: «وهي في العربية مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب»(١).

٢ ـ سبب تسميتها: اختلف في تسميتها على أربعة أقوال:

الأول: لوجود هذه الأمور فيها.

الثاني: لقيام الخلق من قبورهم إليها.

الثالث: لقيام الناس لرب العالمين.

الرابع: لقيام الروح والملائكة صفاً(٢).

٣ ـ عظم ذلك اليوم: يوم القيامة يوم عظيمٌ أمره، شديدٌ هولُه، لا يلاقي العبد مثله، ومما يدل على ذلك ما يلي:

أ. أن الله ـ تعالى ـ وصفه بالعظم، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿**أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ المطففين.

ب. وصفه بالثقل﴿**إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ الإنسان: ٢٧.

ج. ما يكون فيه من الرعب والفزع؛ فالمرضع تذهل عما أرضعت، والحامل تضع حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

د. انقطاع علائق الأنساب في يوم القيامة.

---

(١) التذكرة ص٢٤٦.

(٢) انظر التذكرة ص٢٤٦.

هـ. أن الكفار مستعدون في ذلك اليوم لبذل كل شيء في سبيل الخلاص من العذاب.

و. أن ذلك اليوم طويل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ المعارج: ٤[١].

٤ ـ دنو الشمس من الخلائق: في ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق كمقدار ميل، ويلجمهم العرق؛ فمنهم من يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته، كل على قدر عمله[٢]، وهذا في الصحيحين وغيرهما[٣].

قال بعض السلف: «لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض، وذاب الصخر، وجفت الأنهار»[٤].

٥. الذين يظلهم الله في يوم القيامة: هناك أعمال كثيرة تنجي من أهوال يوم القيامة[٥].

أما الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فقد جاءوا في حديث السبعة عند البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل معلق قلبه في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»[٦].

---

(١) انظر القيامة الصغرى ص٩٥ ـ٩٩.

(٢) انظر التذكرة ص٢٧٢ ـ٢٧٧، ومجموع الفتاوى٣/١٤٥.

(٣) انظر البخاري(٦٥٣٢) ومسلم (٢٨٦٣).

(٤) انظر التذكرة ص٢٧٢.

(٥) انظر التذكرة ص٢٧٧ـ٢٧٨.

(٦) البخاري(٦٦٠و١٤٢٣و٦٤٧٩و٦٨٠٦) ومسلم(١٠٣١).

المطلب الثاني: الحساب

١ ـ تعريف الحساب في اللغة: الحساب لغة مأخوذ من مادة حسب؛ فالحاء والسين والباء أصل صحيح يدل على عدة معان، منها العد، والإحصاء[١].

٢ ـ الحساب في الشرع: هو إطلاعُ الله عِبادَه على أعمالهم يوم القيامة، وإنباؤهم بما قدموه من خير وشر[٢].

٣ ـ الأدلة على إثبات الحساب[٣]: الحساب ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع المسلمين.

أما الأدلة من الكتاب والسنة فكثيرة متواترة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم** ﴾ الغاشية.

وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول في بعض صلاته: «**اللهم حاسبني حساباً يسيراً**».

فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما الحساب اليسير؟.

قال: « **أن يُنظر في كتابه، فيتجاوز عنه** »[٤].

وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**من حوسب عذب**».

قالت عائشة، فقلت: «أوليس يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾ الانشقاق: ٨.

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة٢/٥٩، ولسان العرب١/٣١١.

(٢) انظر لمعة الاعتقاد ص١١٧، وشرح الواسطية للهراس ص٢٠٩.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤١١ـ٤١٢، ومجموع الفتاوى ٣/١٤٦ ولمعة الاعتقاد ص١١٧، ورسائل في العقيدة ص٣٠، وشرح الواسطية للهراس ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٤) أخرجه أحمد ٦/٤٨، وابن أبي عاصم في السنة(٨٨٥)، وقال الألباني في تخريج السنة ٢/٤٢٩: «إسناده صحيح».

قالت: فقال: « **إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك** »[(١)].

أما الإجماع فقد أجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

٤ ـ الحساب مقتضى الحكمة: وأما كون الحساب مقتضى الحكمة فإن الله ـ تعالى ـ أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به؛ فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان ذلك من العبث الذي ينزه الرب الحكيم عنه.

وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك بقوله: ﴿ **فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۢ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** ﴾ الأعراف[(٢)].

٥ ـ كيفية الحساب وصفته: دلت نصوص الشرع على كيفية الحساب، وصفته.

ويمكن إجمال ذلك أن يقال: إن الله ـ عز وجل ـ يوقف عباده بين يديه، فيقررهم بذنوبهم التي ارتكبوها، وبأعمالهم التي عملوها، وبأقوالهم التي قالوها، ويعرفهم بما كانوا عليه في الدنيا من كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، واستقامة وانحراف، وما يستحقونه على ما قدموه من مثوبة أو عقوبة.

والحساب شامل لما يقوله الرب لهم، وما يقولون له، وما يعتذرون به من معاذير، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وما يكون هناك من شهادة الشهود، ووزن الأعمال، وما جرى مجرى ذلك[(٣)].

٦ ـ أنواع الحساب: الحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه حساب التقرير والتكريم، ومنه حساب التوبيخ والتقريع، ومنه الفضل والصفح، ومنه المؤاخذة

---

(١) البخاري (١٠٣و٤٩٣٩و٦٥٣٦و٦٥٣٧)، ومسلم(٢٨٧٦).

(٢) انظر رسائل في العقيدة ص٣٠.

(٣) انظر القيامة الكبرى ص١٩٣.

والمجازاة، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين[١].

٧ ـ القواعد التي يحاسب العباد عليها: لو عذب الله ـ عز وجل ـ عباده جميعاً لم يكن ظالماً لهم؛ لأنهم عبيده، وملكه، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

ولكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يحاسبهم محاسبة عادلة تليق بحكمته، وعدله.

وقد بين لنا ـ عز وجل ـ في كثير من النصوص جملة من القواعد التي تقوم عليها المحاكمة.

ومن ذلك على سبيل الإيجاز ما يلي:

أ ـ العدل التام الذي لا يشوبه ظلم.

ب ـ لا يؤخذ أحد بجريرة غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ج ـ إطْلاعُ العباد على ما قدموه من أعمال.

د ـ مضاعفة الحسنات دون السيئات.

هـ ـ إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين[٢].

٨ ـ عموم الحساب، ومن لا حساب عليهم: الحساب عام لجميع الناس، إلا من استثناهم النبي ﷺ كما في حديث السبعين ألفاً.

حيث جاء في الصحيحين من حيث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «**عرضت علي الأمم**» إلى أن قال: «**فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قُدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب.**

قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يَسْترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

---

(١) انظر القيامة الكبرى ص١٩٣ .

(٢) انظر القيامة الكبرى ص٢٠٢ـ٢١٥.

قال: «**اللهم اجعله منهم**».

ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: «**سبقك بها عكاشة**»[(١)].

٩ ـ كيفية محاسبة الكفار: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم، وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويجزون بها»[(٢)].

١٠ ـ أول من يحاسب من الأمم: أول من يحاسب من الأمم أمة محمد ﷺ.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في الصحيحين: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق**»[(٣)].

وعن ابن عباس مرفوعاً: «**نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب**»[(٤)].

١١ ـ أول ما يحاسب عليه العبد: الصلاة؛ فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسدت سائر عمله؛ كما جاء عن النبي ﷺ[(٥)].

١٢ ـ أول ما يُقْضَى بين الناس: وأما أول ما يُقضى بين الناس فهو في الدماء؛ لقول النبي ﷺ: «**أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**» متفق عليه[(٦)].

---

(١) البخاري (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى ١٤٦/٣.

(٣) البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥، ٨٥٦).

(٤) أخرجه أحمد ٢٨٢/١ و٢/ ٢٧٤ و٣٤٢، وابن ماجه (٤٢٩٠) وقال البوصيري في الزوائد ٣١٧/٣: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٥) انظر سنن الترمذي (٤١٣)، وابن ماجه (١٤٢٦)، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٦) أخرجه البخاري (٦٨٦٤) ومسلم (١٦٧٨).

المطلب الثالث: الميزان

١ ـ تعريف الميزان: أ. الميزان في اللغة: أصله مِوْزان، وانقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها، وجمعه موازين.

والميزان اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو هو ما تقدر به الأشياء خفةً وثقلاً[١].

ب. الميزان في الشرع: هو ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد[٢].

٢ ـ أدلة إثبات الميزان: دل على الميزان الكتاب، والسنة، والإجماع.

أ. فمن أدلة الكتاب العزيز قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**﴾ الأنبياء: ٤٧.

ب. ومن أدلة السنة: قال النبي ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[٣].

ج. وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على ثبوت ذلك[٤].

٣ ـ هل الميزان حسي أو معنوي: الميزان الذي توزن به الأعمال حسي حقيقي، له كفتان، ولسان[٥].

قال شارح الطحاوية رحمه الله: «والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له

---

(١) انظر لسان العرب ١٣/٤٤٦.

(٢) انظر لمعة الاعتقاد ص١٢٠.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤).

(٤) انظر التذكرة ص٣٦٠ ـ ٣٧٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤١٧ـ٤١٩، ولمعة الاعتقاد ص١٢٠. ص١٢٠.

(٥) انظر لمعة الاعتقاد ص١١٩، والقيامة الكبرى ٢٤٩.

كفتان حسيتان، مشاهدتان»[١].

٤ ـ ما الذي يوزن في الميزان؟: الذي يوزن فيه أعمال العباد؛ فهي وإن كانت أعراضاً إلا أن الله ـ عز وجل ـ يقلبها أجساماً، فتوضع الحسنات في كفه، والسيئات في كفه، وهذا ظاهر النصوص الماضية.

وقيل: الذي يوزن صحائف العمل، وقيل: العامل نفسه[٢]؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**» قال: اقرؤوا: ﴿**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا**﴾ الكهف: ١٠٥[٣].

قال الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله: «وجمع بعض العلماء بين هذه النصوص بأن الجميع يوزن، أو أن الوزن حقيقة للصحائف، وحيث إنها تثقل وتخف بحسب الأعمال المكتوبة صار الوزن كأنه للأعمال.

وأما وزن صاحب العمل فالمراد به قدره، وحرمته.

وهذا جمع حسن والله أعلم»[٤].

قال شارح الطحاوية رحمه الله: «فثبت وزن الأعمال، والعامل، وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله ـ تعالى ـ أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات؛ فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبر الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان»[٥].
نقصان»[٥].

وقال ابن حجر رحمه الله: «قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٧، وانظر الأدلة على ذلك في شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٧ـ٤١٩.
(٢) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص٢٠٧، ولمعة الاعتقاد ص١٢١.
(٣) البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥).
(٤) لمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٢١.
(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٩.

وكفتان، ويميل بالأعمال»[١].

٥ ـ هل الميزان واحد أو متعدد؟: والجواب أن العلماء قد اختلفوا في ذلك؛ «فقال بعضهم: متعدد بحسب الأمم والأفراد، أو الأعمال؛ لأنه لم يرد في القران إلا مجموعاً.

وأما إفراده في الحديث فباعتبار الجنس.

وقال بعضهم: هو ميزان واحد؛ لأنه ورد في الحديث مفرداً، وأما جمعه في القرآن فباعتبار الموزون، وكلا الأمرين محتمل والله أعلم»[٢].

٦ ـ ما الحكمة من نصب الميزان؟: الحكمة: إظهار عدل الله ـ عز وجل[٣].

المطلب الرابع: نشر كتب الأعمال

١ ـ التعريف: أ. النشر في اللغة: هو فتح الكتاب، أو بث الشيء.

ب. وكتب الأعمال: هي الدواوين، والصحائف التي أحصيت فيها الأعمال.

ج. ومعنى نشر كتب الأعمال: إظهارها يوم القيامة، وتوزيعها؛ فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله وراء ظهره.

٢ ـ الأدلة على ذلك: لقد دل على نشر كتب الأعمال الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة[٤].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا** ﴾ الانشقاق.

---

(١) فتح الباري ٥٣٨/٣.

(٢) لمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٢١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٩.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٤٦/٣، ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٢-١٢٣، وشرح الواسطية للهراس ص٢٠٤-٢٠٦، وأعلام السنة المنثورة ص١٠٧-١١٠.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها سألت النبي ﷺ هل تذكرون أهليكم؟ قال: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان، حتى يَعْلم أيخِفُّ ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يجوز**»[1].

٣ ـ صفة أخذ الكتاب: المؤمن يأخذ كتابه بيمينه يؤتاه من أمامه، فيفرح ويستبشر ويقول: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ الحاقة: ١٩.

والكافر يأخذه بشماله ويؤتاه من وراء ظهره، فيدعو بالويل والثبور، ويقول: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ الحاقة.

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٥٥) والحاكم ٤/٥٧٨، وقال: «صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة»، ووافقه الذهبي.

المبحث الرابع: الحوض، والصراط

المطلب الأول: الحـوض

١ ـ **تعريف الحوض: أ. الحوض في اللغة:** هو مصدر الفعل حاض، أي جمع، والحوض: مجتمع الماء، وجمعه أحواض، وحياض[١].

ب. **والحوض في الشرع:** هو حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي ﷺ[٢].

٢ ـ **أدلة الحوض:** دل على الحوض الكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة.

أما الدليل من الكتاب فقوله ـعز وجلـ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر: ١.

أما من السنة فقد تواترت الأحاديث في ذلك.

قال شارح الطحاوية رحمه الله: «الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً»[٣].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قوله ﷺ: «**إني فرطكم على الحوض من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم**» متفق عليه[٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «**أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟.**

---

(١) المرجع السابق.

(٢) لمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٧.

(٤) البخاري (٦٥٨٣و٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠).

قال: هذا الكوثر» متفق عليه[١].

أما الإجماع فقد أجمع أهل السنة على ذلك[٢].

٣ ـ صفة الحوض: الذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم يُمَدُّ من شراب الجنة من نهر الكوثر.

ماؤه أشد بياضاً من اللبن والورِق، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب من ريح المسك، آنيته كنجوم السماء، وهو غاية في الاتساع، عرضه شهر، وطوله شهر وزواياه سواء، وكلما شُرِب منه فهو في زيادة واتساع، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر[٣].

إلى غير ذلك لما ورد في وصفه مما جاءت به الأحاديث[٤].

٤ ـ من أين يستمد الحوض آنيته: يستمدها من الجنة كما جاء موضحاً في الأحاديث، ومنها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! ما آنية الحوض؟.

قال: «**والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء، وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل**»[٥].

---

(١) البخاري(٤٩٦٤)، ومسلم(١٦٢).

(٢) انظر لمعة الاعتقادص١٢٤، وشرح الواسطية٢١٠ـ٢١١.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية٢٨٨، ومجموع الفتاوى١٤٦/٣، وشرح الواسطية٢١٠.

(٤) انظر على سبيل المثال صحيح البخاري(٦٥٨٣و٧٠٥٠و٧٠٥١و٦٥٩٣و٧٠٤٨و١٣٤٤) ومسلم (٢٢٩٠و٢٢٩٢و٢٢٩٣و٢٢٩٨و٢٢٩٩)

(٥) مسلم(٢٣٠٠).

وفي مسلم من حديث ثوبان ﷺ وسئل عن شرابه، فقال ﷺ: «**يَغُتُّ فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب، والآخر من ورق**»[(١)].

٥ ـ هل الحوض خاص بنبينا ﷺ؟: جاء في بعض الأحاديث أن لكل نبي حوضاً، ولكن حوض نبينا محمد ﷺ أكبرها، وأعظمها، وأحلاها، وأكثرها وارداً[(٢)].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قوله ﷺ: «**إن لكل نبي حوضاً، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة**»[(٣)].

٦ ـ هل الحوض موجود الآن؟: نعم هو موجود، والدليل قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، والله إني لأنظر إلى حوضي الآن**» الحديث[(٤)].

٧ ـ الواردون للحوض، والمردودون عنه: الواردون للحوض هم المؤمنون، الصادقون، المتبعون، والمردودون عنه هم المُحْدِثون، المبدِّلون الناكصون على أعقابهم.

قال رسول الله ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض، وَلأُنَازِعنَّ أقواماً، ثم لأُغْلَبَنَّ عليهم؛ فأقول: يارب! أصحابي، أصحابي، فيقال: إنكَ لا تدري ما أحدثوا بعدك**» متفق عليه[(٥)].

---

(١) مسلم (٢٣٠١).

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٨، ولمعة الاعتقاد ص١٢٥.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٨٩)، وقال في شرح الطحاوية ص٢٢٨: «حسن».

(٤) البخاري (١٣٤٤ و٣٥٩٦ و٤٠٤٢ و٦٤٢٦ و٦٥٩٠، ومسلم (٢٢٩٦).

(٥) البخاري (٦٥٧٥ و٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ: «**فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول: سحقاً، سحقاً لمن بدَّل بعدي**»[١].

وجاء في صحيح مسلم ـ أيضاً ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم**»[٢].

المطلب الثاني: الصراط

١ ـ **تعريفه: الصراط في اللغة**: هو الطريق المستقيم[٣].

والصراط في الشرع: هو الجسر الممدود على جهنم؛ ليعبر الناس عليه إلى الجنة[٤].

٢ ـ **أدلة ثبوته**: الصراط ثابت بالكتاب، والسنة، واتفاق أهل السنة[٥].

فمن الأدلة من الكتاب: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ مريم: ٧١.

فسرها جماعة من السلف بالمرور على الصراط، وفسرها جماعة منهم بالدخول في النار لكن ينجون منها[٤].

ومن الأدلة من السنة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري الطويل، وفيه: «**ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون:**

---

(١) مسلم(٢٢٩١).

(٢) مسلم(٢٢٩٤).

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٢٨٧.

(٤) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ص٢١٠، ولوامع الأنوار البهية ١٨٩/٢، ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٦.

(٣) انظر التخويف من النار لابن رجب ص٢٤٢-٢٥٣، ولوامع الأنوار البهية ٨٢/٢ ولمعة الاعتقاد ص١٢٦.

(٤) انظر التذكرة ص٣٨٧، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤١٦.

اللهم سلم سلم»[١].

٣ ـ **صفة الصراط**: جاءت صفة الصراط في أحاديث عديدة منها ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الطويل، وفيه: «قيل يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: «**دحْضٌ مَزَلَّة، فيه خطاطيف، وكلاليب، وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان**».

قال أبو سعيد: «بلغني أن الجسر أدقُّ من الشعرة، وأحدُّ من السيف»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة الطويل، وفيه: «**وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟**

قالوا نعم يا رسول الله.

قال: «**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم؛ فمنهم الموبق بقي بعمله، أو الـمُوَثق بعمله، ومنهم المُخَردل، المجازى، أو نحوه**»[٣].

٤ ـ **ورود الناس على الصراط**: ورودهم عليه يعني مرورهم عليه، وورودهم عليه على قدر أعمالهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر[٤] الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو

---

(١) البخاري (٤٥٨١و٤٩١٩) ومسلم (١٨٣).

(٢) المرجع السابق.

(٣) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

(٤) الجسر الذي بين الجنة والنار هو القنطرة أو الجسر الثاني ـ كما سيأتي ـ.

عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف خطفاً، ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مر على الصراط دخل الجنة»[(1)].

وكلام شيخ الإسلام رحمه الله مأخوذ من الأحاديث الصحيحة التي بينت صفة الورود على الصراط.

ومن تلك الأحاديث ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الطويل، وفيه «**فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب؛ فناجٍ مسلَّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم**»[(2)].

٥ ـ من أول من يعبر الصراط؟: أول من يعبره من الأنبياء محمد ﷺ.

ومن الأمم أمته ﷺ.

يقول النبي ﷺ: «**فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم**»[(3)].

٦ ـ هل يمر الكفار بالصراط؟: الذي دلت عليه الأحاديث أن الصراط إنما ينصب للمؤمنين، وفيهم المنافقون، وعصاة المؤمنين؛ فهؤلاء هم الذين ينصب لهم الصراط[(4)].

قال ابن رجب رحمه الله: «واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله لا يشرك به شيئا، ومشرك يعبد مع الله غيره؛ فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يَقَعون في النار قبل وضع الصراط»[(5)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤٦/٣ ـ١٤٧.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم(١٨٢).

(٤) انظر القيامة الكبرى ص٢٧٥.

(٥) التخويف من النار ص٢٣٢، وانظر القيامة الكبرى ص٢٧٥ـ٢٧٦.

٧ ـ **القنطرة:** وهي التي بين الجنة والنار، ويسميها بعض العلماء الصراط الثاني[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن تكلم على المرور بالصراط: «فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقْتَص لبعضهم من بعض؛ فإذا هذبوا، ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»[٢].

---

(١) انظر التذكرة ص٣٩٢-٣٩٤.

(٢) مجموع الفتاوى ١٤٧/٣.

المبحث الخامس: الجنة والنار

١ ـ تعريف الجنة: الجنة في اللغة: هي البستان الكثير الأشجار؛ فهي كل بستان ذي شجر كثير يستر بأشجاره الأرض[١].

والجنة في الشرع: هي دار النعيم التي أعدها الله في الآخرة للمؤمنين المتقين، المخلصين لله، المتبعين لرسله[٢].

٢ ـ لم سميت بذلك؟: قال الراغب الأصفهاني: «وسميت الجنة إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون.

وإما لستره نِعَمَها عنا المشارَ إليها بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[٣] السجدة: ١٧.

٣ ـ تعريف النار: النار في اللغة: تقال للَّهيب الذي يبدو للحاسَّة، وللحرارة المجردة، ولنار جهنم، ولنار الحرب[٤].

وفي الشرع: هي دار العذاب التي أعدها الله في الآخرة للكافرين الذين كفروا بالله، وعصوا رسله[٥].

٤ ـ الجنة درجات، والنار دركات: فأهل الجنة تتفاوت درجاتهم في النعيم بحسب أعمالهم الصالحة.

وأهل النار تتفاوت دركاتهم في العذاب بحسب أعمالهم السيئة[٦].

---

(١) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٩٦.

(٢) انظر لمعة الاعتقاد ص١٣١.

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٩٦.

(٤) انظر لمعة الاعتقاد ص١٣١.

(٥) انظر لمعة الاعتقاد ص١٣٣، والجنة والنار د.عمر الأشقر ص١٥٤-١٦٠.

(٦) انظر لمعة الاعتقاد ص١٣٣، والجنة والنار ص٢٥، وانظر تفاصيل ذلك في التذكرة ص٤٢٥-٦٠٢.

٥ ـ مَنْ أهل الجنة، ومَنْ أهل النار؟: أهل الجنة كل مؤمن تقي، وأهل النار كل كافر شقي.

قال الله ـ تعالى ـ في الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ آل عمران: ١٣٣.

وقال: ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ**﴾ الحديد: ٢١.

وقال في النار: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ**﴾ البقرة: ٢٤.

وقال: ﴿**فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ**﴾ هود: ١٠٦.

٦ ـ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن: قال الله ـ تعالى ـ في الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ آل عمران: ١٣٣ وقال في النار: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ**﴾ البقرة: ٢٤.

والإعداد: التهيئة.

وقال ﷺ حين صلى الكسوف: «**إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار؛ فلم أر كاليوم منظراً أفظع منها**» متفق عليه[(١)].

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «والجنة والنار مخلوقتان»[(٢)].

قال الشارح ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن»[(٣)].

٧ ـ الجنة والنار لا تفنيان: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا**﴾ البينة: ٨.

والآيات في تأبيد خلود الجنة كثيرة، وأما في النار فذكر في ثلاثة مواضع:

---

(١) البخاري(١٠٥٢) ومسلم(٩٠٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٢٠، وانظر تفصيل ذلك في شرح العقيدة الطحاوية ص٤٢٠ـ٤٢٢، ولمعة الاعتقاد ص١٣١.

(٣) كسابقه.

في النساء في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ النساء: ١٦٨ - ١٦٩.

وفي الأحزاب في قوله - تعالى -﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الأحزاب: ٦٤ - ٦٥.

وفي الجن في قوله - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الجن: ٢٣.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله في الجنة والنار: «ولا تفنيان ولا تبيدان»[١].

٨ - مكان الجنة: في أعلى عليين؛ لقوله -تعالى-: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ المطففين: ١٨.

وفي حديث البراء بن عازب المشهور في فتنة القبر، فيقول الله - عز وجل -: «**اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض**»[٢].

٩ - مكان النار: في أسفل سافلين؛ لقوله -تعالى-: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ المطففين: ٧ وفي حديث البراء رضي الله عنه: «فيقول **الله - تعالى -: اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى**»[٣][٤].

١٠ - ما معنى الإيمان بالجنة والنار؟: معناه التصديق الجازم بوجودهما، وأنهما مخلوقتان الآن، وأنهما باقيتان بإبقاء الله لهما، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٢٤، وانظر تفصيل ذلك ص٤٢٤-٤٣٢، ولمعة الاعتقاد ص١٣٢، وانظر - أيضاً - الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية دراسة وتحقيق د. محمد بن عبدالله السمهري.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر لمعة الاعتقاد ١٣٢-١٣٣.

ويدخل في ذلك الإيمان بكل ما احتوت عليه الجنة من النعيم، وما احتوت عليه النار من العذاب الأليم[1].

هذا بعض ما جاء في شأن اليوم الآخر وسيأتي مزيد بيان وتفصيل عن بعض ما يلحق به كالموت، وأشراط الساعة، والحياة البرزخية ونحو ذلك مما سيرد ذكره في الباب الرابع.

(١) انظر أعلام السنة المنشورة ص١١٥.

الفصل السادس

الإيمان بالقدر

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالقدر وأهميته وأدلته والواجب على الإنسان فيه

المبحث الثاني: ثمرات الإيمان بالقدر

المبحث الثالث: أقوال الناس في القدر، ومشيئة العبد وفعل الأسباب

المبحث الرابع: الاحتجاج بالقدر والتسيير والتخيير

المبحث الخامس: الحكمة والتعليل والهداية والإضلال

المبحث الأول: مفهوم الإيمان بالقدر وأهميته وأدلته والواجب على الإنسان فيه

أولاً: تعريف الإيمان بالقدر

هو الإيمان بعلم الله المحيط، وكتابته، ومشيئته وخلقه لكل شيء[١].

ثانياً: مراتب القدر وأركانه

من خلال ما مضى يتبين لنا أن القدر يقوم على مراتب أربع تسمى أركان القدر أو مراتبه.

وهذه الأركان هي المدخل لفهم باب القدر، ولا يصح الإيمان به إلا بتحقيقها كلها، وهي:

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملةً وتفصيلاً ماضياً ومستقبلاً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، أو بما يجري في الكون؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لوكان كيف يكون.

كما أنه يعلم خلقه قبل أن يخلقهم، ويعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم[٢].

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدًّا، قال الله -تعالى-: ﴿ **عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ** ﴾ سبأ: ٣.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

---

(١) انظر التعريفات للجرجاني ص١٧٧، ولوامع الأنوار للسفاريني ١/٣٤٨، ورسائل في العقيدة للشيخ محمد بن عثيمين ص٣٧، والإيمان بالقضاء والقدر لمحمد الحمد ص٣٥-٣٦.

(٢) انظر شفاء العليل لابن القيم ص٦١.

قال الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج: ٧٠.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[(١)].

وقال ﷺ: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وكتبت شقية أوسعيدة**»[(٢)].

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته -عز وجل-[(٣)].

قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ القصص: ٦٨.

وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ التكوير: ٢٩.

وقال النبي ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد يُصَرِّفه حيث يشاء**»[(٤)].

المرتبة الرابعة: الخلق: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة بذواتها وصفاتها، وحركاتها، وأفعالها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَد من العدم، كائن بعد أنْ لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدًّا، منها قول الله -تعالى-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ الأنعام: ١.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٦٣٢) ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) انظر شفاء العليل ص٦٦، وتفسير السعدي ٥٢/٦.

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٥).

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ الملك: ٢.

ومما يدخل في هذه المرتبة أفعال العباد؛ فهي داخلة في عموم خلقه -عز وجل- فهي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فِعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها.

قال الله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الرعد: ١٦.

هذه هي مراتب القدر التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها[١].

ثالثاً: أهمية الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر من أهم مباحث العقيدة، فهو ركن من أركان الإيمان، والإيمان به تمام التوحيد، وكتب السلف الصالح في العقيدة اهتمت به، وأطنبت في ذكره، والناس على اختلاف طبقاتهم يشغلهم موضوع القدر؛ لارتباطه بحياتهم اليومية وما فيها من تقلبات الأحوال من صحة ومرض، وفقر وغنى، وموت وحياة، وسعادة وشقاء، وما جرى مجرى ذلك[٢].

رابعاً: حكم الحديث عن القدر

الحديث عن القدر لا يُمنع بإطلاق، ولا يُفتح بإطلاق، بل إن الأمر فيه تفصيل، فإن كان الحديث عن القدر بالمنهج العلمي الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة، وكان الحديث عنه مراداً به الوصول إلى الحق - فإنه لا يمنع ولا يُنهى عنه، بل قد يجب.

وإن كان الحديث عنه خوضاً بالباطل، واعتماداً في فهمه على العقل المجرد أو كان للاعتراض أو التنازع أو التعنت فإنه لا يجوز البتة[٣].

---

(١) انظر الإيمان بالقضاء والقدر ص ٧٦.

(٢) انظر الإيمان بالقضاء والقدر ص ٧-٩.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٦٢، وشرح السنة للبربهاري ص٣٦، والقضاء والقدر في الإسلام د. فاروق الدسوقي ١/٣٦٨، والإيمان بالقضاء والقدر ص ١٩-٢٥.

خامساً: أقسام التقدير

ينقسم التقدير الإلهي باعتبار عمومه وخصوصه إلى أربعة أقسام.

١ـ **التقدير العام:** وهو تقدير الرب لجميع الكائنات بمعنى علمه بها وكتابته لها.

ويدل على هذا النوع أدلةٌ كثيرة، منها قوله ـتعالى ـ: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ الحج: ٧٠.

وقال النبي ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**». رواه مسلم[١].

٢ـ **التقدير العمري:** وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته أو سعادته.

وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد**». رواه البخاري ومسلم[٢].

٣ـ **التقدير السنوي:** وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله ـتعالى ـ: ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ الدخان: ٤.

وقوله ـعز وجل ـ: ﴿ **تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ** ﴾ القدر: ٥.

قيل في تفسرها: يكتب فيها ـأي في ليلة القدر ـ ما يحدث في السنة من موت، وحياة، وعز، وذل، ورزق، ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان، ويحج فلان[٣].

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).

(٢) البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٣٨/٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٤٠/٤، وفتح القدير للشوكاني ٥٧٢/٤، وأعلام السنة المنثورة للحكمي ص ١٢٩ـ١٣٣.

٤. **التقدير اليومي:** ويدل عليه قول الله -تعالى-: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ الرحمن: ٢٩.

قيل في تفسيرها: شأنه أن يُعِزَّ ويُذِلَّ، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويغني ويُفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي إلى غير ذلك[١].

سادساً: أدلة الإيمان بالقدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان - الكتاب، والسنة، والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أما أدلة القرآن الكريم: فكثيرة جدًّا وقد مر شيء من ذلك، ومن تلك الأدلة -زيادة على ما مضى- قوله -تعالى-: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ الأحزاب:٣٨، وقوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ**﴾ القمر: ٤٩.

وقوله: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ الحجر: ٢١.

وأما السنة: فكما قال ﷺ كما في حديث جبريل -عليه السلام-: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**». رواه مسلم[٢].

وروى مسلم -أيضاً- عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيْس، أو الكيس والعجز»[٣].

وقال ﷺ: «**وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل**» رواه مسلم[٤].

---

(١) انظر زاد المسير ١١٤/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٧٥/٤، وفتح القدير ١٣٦/٥.

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٥).

(٤) مسلم (٢٦٦٤).

أما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله، قال النووي رحمه الله: «وقد تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد من السلف والخلف ـ على إثبات قدر الله ـسبحانه وتعالىـ»[١].

وقال ابن حجر رحمه الله: «ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله ـتعالىـ»[٢].

أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً، ولم ينكره إلا الشواذ من المشركين من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح؛ ولهذا قال ـسبحانهـ عن المشركين ﴿**سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا**﴾ الأنعام: ١٤٨.

فهم أثبتوا المشيئة لله، ولكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بيَّن الله أن هذا هو شأنُ من كان قبلهم، فقال: ﴿**كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ الأنعام: ١٤٨.

وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف.

ولم يقل أحد منهم بنفيه إطلاقاً، كما صرح بذلك أحد كبار علماء العربية، وهو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله بقوله: «لا أعلم عربياً قدرياً، قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله، ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية والإسلام، وكلامهم كثير بيِّن»[٣].

أما أدلة العقل: فهي أن العقل الصحيح يقطع بأن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١/١٥٥.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١١/٢٨٧.

(٣) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٤/٧٠٥.

والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة؛ إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً مع بقائه وتطوره؟

فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا ما قد شاءه وقدَّره[١].

ومما يدل على هذا التقرير قوله -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ الطلاق ١٢.

ثم إن تفاصيل القدر لا ينكرها العقل، بل هي مما يتفق معه تمام الاتفاق.

أما دلالة الحس: فنحن نشاهد ونسمع، ونقرأ أن الناس تستقيم أمورهم بالإيمان بالقضاء والقدر، وسيمر بنا شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بالقدر، فالمؤمنون به حقًّا هم أسعد الناس وأصبرهم، وأشجعهم، وأكرمهم، وأكملهم، وأعقلهم.

ثم إن القدر «هو نظام التوحيد» كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- والتوحيد لا يستقيم إلا بالإيمان بالقضاء والقدر.

ثم إن فيما أخبرنا الله ورسوله ﷺ من أمور الغيب المستقبلية التي وقعت، كما جاء الخبر -دليلاً حسياً واضحاً على أن الإيمان بالقدر حق وصدق[٢].

سابعاً: الواجب على الإنسان في باب القدر

الواجب على الإنسان في هذا الباب أن يؤمن بقضاء الله، وقدره، وأن يؤمن بشرع الله، وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر، وطاعة الأمر[٣].

فإذا أحسن حَمِدَ الله، وإذا أساء استغفر الله، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره؛ فإن آدم -عليه السلام- لَمَّا أذنب تاب، فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصرَّ

---

(١) انظر الرياض الناضرة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص١٩٤.

(٢) انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة د. عبدالرزاق البدر ص ٧٢-٧٣.

(٣) انظر جوامع الرسائل لابن تيمية ٣٤١/٢، ودرءتعارض العقل والنقل ٤٠٥/٨.

واحتج بالقدر فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدمياً، ومن أصرَّ واحتجَّ بالقدر صار إبليسياً، فالسعداء يتبعون أباهم آدم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس[(١)].

وبالجملة فعلى الإنسان أن يؤمن بمراتب القدر الأربع السابقة؛ وأنه لا يقع شيء إلا وقد علمه الله، وكتبه، وشاءه، وخلقه، ويؤمن -أيضاً- بأن الله أمر بطاعته، ونهى عن معصيته، فيفعل الطاعة، ويترك المعصية، فإذا وفقه الله لفعل الطاعة وترك المعصية فليحمدِ الله، وليستمر على ذلك، وإن خُذِل ووُكل إلى نفسه فَفَعل المعصية، وترك الطاعة فعليه أن يستغفر ويتوب.

ثم إن على العبد -أيضاً- أن يسعى في مصالحه الدنيوية، ويسلك الطرق الصحيحة الموصلة إليها، فيضرب في الأرض، ويمشي في مناكبها، فإن أتت الأمور على ما يريد حمد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله، وعلم أن ذلك كله واقع بقدر الله -عز وجل- وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وإذا علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلق وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله، ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه.

ولا يلزم كل أحد أن يعلم تفاصيل الحديث عن الإيمان بالقدر، بل يكفي هذا الإيمان المجمل[(٢)].

وهو -ولله الحمد- مقتضى الأدلة الشرعية، والفطرية، والعقلية، والحسية، لا تناقض فيه، ولا لبس.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٦٤، وطريق الهجرتين لابن القيم ص ١٧٠.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨/٩٧، والتحفة المهديةفي شرح الرسالة التدمرية للشيخ فالح بن مهدي ٢/١٤٠، والإيمان بالقضاء والقدر ص ٦١-٦٣.

المبحث الثاني: ثمرات الإيمان بالقدر

ثمرات الإيمان بالقدر

الإيمان بالقضاء والقدر -على الوجه الصحيح- يثمر ثمراتٍ جليلة، وأخلاقاً جميلة، وعبودياتٍ متنوعة، يعود أثرها على الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١ـ التوكل: فالتوكل على الله هو لُبُّ العبادة، ولا يصح التوكل ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر على الوجه الصحيح.

والتوكل في لسان الشرع إنما يراد به توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده، فذلك سر التوكل وحقيقته[(١)].

٢ـ قوة الرجاء وإحسان الظن بالله: فالمؤمن بالقدر حَسَنُ الظن بالله، قويُّ الرجاء به؛ لعلمه بأن الله لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل والرحمة والحكمة[(٢)].

٣ـ الصبر وقوة الاحتمال: ولهذا تجد المؤمن بالقدر صبوراً متجلداً يتحمل المشاق، ويقوم بالأعباء.

فالذين لا يؤمنون بالقدر يجزعون لأتفه الأسباب، بل ربما أدى بهم الجزع إلى الجنون، والوسوسة، وتعاطي المخدرات، وقتل النفس.

ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقضاء والقدر.

ولو بحثنا عن أسباب انتحارهم لوجدناها تافهةً جدًّا، لا تستدعي سوى التغافل وغض الطرف عنها؛ فبعضهم ينتحر؛ لتخلي خطيبته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان، وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، أو الشخص الذي يعجبه، أو بسبب هزيمة الفريق الذي يميل إليه، وهكذا...

وقد يكون الانتحار جماعياً، والعجيب في الأمر أن أغلبية المنتحرين ليسوا من

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٢١٨، والفوائد لابن القيم ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/١٦٦-١٩٩.

طبقة الفقراء حتى يقال: انتَحَروا؛ لضيق المعيشة.

بل إنهم من الطبقة الغنية المغرقة في النعيم، بل ويقع الانتحار من المشاهير، بل ومن الأطباء النفسيين الذين يُظَنُّ أنهم يجلبون السعادة، ويحلون المشكلات! [١]

٤ـ محاربة اليأس: فالذي لا يؤمن بالقدر يصيبه اليأس ويدِبُّ إلى رُوْعِه القنوط؛ فإذا أصيب ببلية ظن أنها قاصمة ظهره، وإذا نزلت به نازلة حسب أنها ضربةُ لازب لن تبارحه.

أما المؤمن بالقدر فلا يعرف اليأس، ولا تراه إلا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالماً بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً.

٥ـ الكرم والسخاء: ذلك أن المؤمن بالقدر يعلم علم اليقين بأن الله هو الرزاق، وهو الذي قسم بين الخلق معيشتهم؛ فكل له نصيبه، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولن يفتقر أحد إلا بقدر الله ـعز وجلـ.

وهذا الإيمان يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه الخير، فيؤثرها بجانب من ماله ولو كان به خصاصة؛ ثقة بالله، واستجابة لأمره ـعز وجلـ بالإنفاق[٢].

٦ـ الشجاعة والإقدام، واطِّراح الخور والجبن: فالإيمان بالقدر يملأ قلب صاحبه شجاعةً وإقداماً، ويُفْرِغُه من كل خور وجبن؛ لأن المؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت قبل يومه، ولن يصيبه إلا ما كُتب له، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله له.

فلا يدرك هذه الأمور، ولا يجد حلاوتها، ولا يعلم ثمرتهاـ إلا من آمن بالله وقضائه وقدره؛ فالمؤمن بالقدر ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إن وقع لم يَطِرْ له قَلْبه شَعَاعاً، بل يحتمل ذلك بثبات

---

(١) انظر الجامع الصحيح في القدر للشيخ مقبل الوادعي ص ١١ـ١٢، وأفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الإجرام لمصطفى غزال ص ١٠٩ـ١١١، وكتاب: لماذا انتحر هؤلاء إعداد وتدقيق هاني الخيِّر، ففيه قصص لشخصيات سياسية، وعسكرية، وأدبية، واجتماعية، وفنية.

(٣) انظر الهداية الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص٨٤ـ٩٨.

وصبر؛ إنْ مرضَ لم يُضَاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حِدَّته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر.

بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت قابلها بشجاعة واعتدال.

وإنك لتجد عند خواصِّ المسلمين من العلماء العاملين والعباد القانتين المتبعين من سكون القلب وطمأنينة النفس ما لا يخطر ببال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ فلهم في ذلك الشأن القِدْحُ المعلى، والنصيب الأوفى.

بل إنك واجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار المفكرين والكتاب والأطباء من غير المسلمين؛ فكم من الأطباء من غير المسلمين ـعلى سبيل المثال ـ من يَعْجَبُ، ويَذْهَبُ به العجب كل مذهب إذا هو أشرف على علاج مريض مسلم، وتبين له أنه مصاب بداء خطير ـكالسرطان مثلاًـ فتراه يقدِّم رِجلاً ويؤخر أخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشيةً من شِدة تأثر المريض بسماع هذا الخبر.

وما إن يُعلِمهُ بمرضه، ويصارحه بعلته ـإلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة عجيبة.

لقد أدهش كثيراً من غير المسلمين إيمانُ المسلمين بالقضاء والقدر، فكتبوا في هذا الشأن معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهاداتهم بقوة عزائم المسلمين، وكبر نفوسهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة.

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله، وبقضائه وقدره[١].

وما منعهم من ذلك إلا إعراضهم عن ربهم، وبعدهم عن الدين الحق، ألا وهو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وختم به الأديان السماوية.

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٣٢، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١/٢٨٧، ودع القلق وابدأ الحياة لديل كارينجي ص ٢٩١ـ٢٩٥.

المبحث الثالث: مشيئة العبد وفعل الأسباب

أولاً: الإيمان بالقدر ومشيئة العبد

الإيمان بالقدر -على ما مرَّ- لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية، وأن يكون له قدرة عليها، فقد دل على ذلك الشرع والواقع.

أما الشرع: فالأدلة على ذلك كثيرة جدًّا ومنها قوله -تعالى-: ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ النبأ: ٣٩ وقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣.

أما الواقع: فكل إنسان يعلم أن له مشيئةً، وقدرة يفعل بها ويترك، ويفرق بين ما يقع بإرادته، كالمشي، وما يقع بغير إرادته كالارتعاش.

لكنَّ مشيئته، وقدرته واقعتان بمشيئة الله وقدرته، لقوله -تعالى-: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ التكوير[1].

ثانياً: فعل الأسباب والإيمان بالقدر

فعل الأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل إن مباشرتها من صحيح الإيمان بالقضاء والقدر.

ولهذا يجب على الإنسان -مع الإيمان بالقدر- الاجتهادُ في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله -تعالى- بأن ييسر له أسباب السعادة وأن يعينه عليها.

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بالأمر باتخاذ الأسباب المشروعة في مختلف شؤون الحياة؛ فقد أَمَرتْ بالعمل، والسعي في طلب الرزق، واتخاذ العدد لمواجهة الأعداء، والتزود للأسفار، وغير ذلك.

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٢/١٠٩-١١٢، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٤٥، ١٦٦-١٦٩.

وأمرت باتخاذ الأسباب الشرعية التي تؤدي إلى رضوانه، وجنته، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والدعاء، وغير ذلك.

وحياة الرسول ﷺ وأصحابه، بل حياة المسلمين جميعاً، والسائرين على نهجهم ـكلها شاهدة على أخذهم بالأسباب، والجد، والاجتهاد[1].

(١) انظر شفاء العليل ص ٥٠ـ٥٣، والرياض الناضرة للسعدي ص ١٢٥ـ١٢٦، والقضاء والقدر د. عمر الأشقر ص ٨٣ـ٨٤.

المبحث الرابع: الاحتجاج بالقدر والتسيير والتخيير

أولاً: الاحتجاج بالقدر على فعل المحرمات وترك الواجبات

الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على فعل المحرمات، وترك الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتِّفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كُلُّ أحدٍ أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس، وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر.

ونفسُ المحتجِّ بالقدر إذا اعتُدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يُقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بداية العقول»[1].

ومما يؤيد ما ذكر ويؤكده أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ثم يحتج على عدوله بالقدر.

فلِمَا ذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالاً يوضح ذلك: لو أراد إنسان السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان، أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟

لا شك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

ومما يمكن أن يردَّ به على المحتج بالقدر على ترك الواجبات، وفعل المعاصي ـبناء على مذهبهـ أن يقال له: لا تتزوج؛ فإن كان الله قد قضى لك بِوَلَد

١ ـ مجموع الفتاوى ١٧٩/٨، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٨٥٨/٢ـ٨٥٩.

فسيأتيك، وإلا فلن، ولا تأكل ولا تشرب؛ فإن قدَّر الله لك شبعاً ورياً فسيكون، وإلا فلن، وإذا هاجمك أسدٌ ضارٍ فلا تَفِرَّ منه؛ فإن قدَّر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار، وإذا مَرِضْت فلا تتداوَ؛ فإن قدَّر الله لك شِفاءً شُفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء، وهكذا...

فهل سيوافقنا على هذا القول أَوْ لا؟ إن وافقنا عَلِمْنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع[1].

ثانياً: الصورة الجائزة المسوِّغة للاحتجاج بالقدر

يسوغ الاحتجاج بالقدر عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربَّاً، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال ـتعالىـ: ﴿ **فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ** ﴾ غافر: ٥٥.

والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب.

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً قتل آخر عن طريق الخطأ، ثم لامَهُ مَنْ لامه، واحتج القاتل بالقدر، لكان احتاجه مقبولاً، ولا يمنع ذلك من أن يؤاخذ.

ولو قتل رجلٌ رجلاً عن طريق العمد، ثم قُرِّع القاتل ووُبِّخ على ذلك، ثم احتج بالقدر لم يكن الاحتجاج منه مقبولاً[2].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٣/٦٥ـ٧٨، ومجموع الفتاوى ٨/٢٦٢ـ٢٦٨، وإيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة للصنعاني ص٣٠٦، والإيمان بالقضاء والقدر ص ١٣٠ـ١٣٥.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨/٤٥٤، واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢/٨٥٧ـ٨٥٨.

ثالثاً: الإنسان بين التسيير والتخيير

هناك سؤال يرد كثيراً، وهو قولهم: هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر؟

فهذا السؤال يرد كثيراً، وهناك من يجيب على هذا السؤال بأن الإنسان مسير لا مخير، كما أن هناك من يجيب بأنه مخير لا مُسَيَّر.

والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال بهذا الإطلاق خطأ؛ ذلك أن الإجابة تحتاج إلى بعض التفصيل.

ووجه الخطأ في الإجابة: «بأن الإنسان مسير لا مخير» تكمن فيما يَرِدُ على هذه الإجابة من إشكال؛ فإذا قيل: إنه مسير بإطلاق قيل: كيف يحاسب وهو مسير؟ وكيف يكون مسيراً ونحن نرى أن له مشيئةً وقدرةً واختياراً؟ وما العمل بالنصوص التي تثبت له المشيئة، والقدرة، والاختيار؟

أما إذا أجيب بأنه «مخير لا مسير» فيقال: كيف يكون مُخَيَّراً ونحن نرى أنه قد ولد بغير اختياره؟ ويمرض بغير اختياره؟ ويموت بغير اختياره؟ إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن إرادته.

فإذا قيل: إنه مخير في أفعاله التي تقع بإرادته واختياره قيل: وأفعاله الاختيارية كذلك؛ فقد يريد أمراً، ويعزم على فعله، وهو قادر على ذلك فيفعله، وقد لا يفعله؛ فقد يعوقه ما يعوقه؛ إذاً فليس كل ما أراد فِعْلَه فَعَلَهُ؛ وهذا شيء مشاهد.

ومن هنا يتبين لنا وجه الخطأ في هذا الجواب؛ فلو كان الإنسان مُسَيَّراً بإطلاق لما كان له قدرةٌ ومشيئةٌ، ولو كان مخيراً بإطلاق لفعل كل ما شاءه؛ فمن قال بالتسيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب الجبرية الذين قالوا إنَّ العبد مُجْبَرٌ على فعله، وأنكروا أن يكون له قدرة ومشيئة وفعل.

ومن قال بالتخيير بإطلاق فهو ألصق بمذهب القدرية النفاة الذين قالوا: إن

الأمر أُنُفٌ، وإن العبد هو خالق فعله، وأنه مستقل بالإرادة والفعل[١].

فما الجواب -إذاً- عن هذا السؤال؟ وما المخرج من هذا الإشكال؟

الجواب: أن الحق وسط بين القولين، وهدى بين هاتين الضلالتين؛ فيقال -وبالله التوفيق-: إن الإنسان مخيَّر باعتبار، ومسيَّر باعتبار؛ فهو مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها، وقدرة يفعل بها؛ لقوله -تعالى-: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: ٢٩، وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ البلد: ١٠، وقوله: ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ البقرة: ٢٢٣، وقوله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ آل عمران: ١٣٣.

ولقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز...**» الحديث[٢].

وقوله في الحديث الذي رواه البخاري: «**صلوا قبل المغرب**» قال في الثالثة: «**لمن شاء**»[٣].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل في القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدَّره الله له؛ فلا يخرج في تخييره عن قدرة الله؛ لقوله -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ يونس: ٢٢، وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ القصص: ٦٨.

ولقوله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض**

---

(١) انظر الإيمان بالقضاء والقدر ص ١٨٤-١٨٨.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) البخاري (١١٨٣ و ٧٣٦٨).

بخمسين ألف سنة»[١].

إلى غير ذلك من الأدلة بهذا المعنى.

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين -كون الإنسان مخيراً باعتبار ومسيراً باعتبار- كما في قوله -تعالى-: ﴿**لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾ التكوير.

فأثبت -عز وجل- أن للعبد مشيئة، وبيَّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.

وكذلك الرسول ﷺ كما في قوله: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**»[٢].

قالوا: يا رسول الله: فَلِمَ نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «**لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له**».

فهذا الحديث دليل لما سبق، فهو يدل على أن الإنسان مخير؛ لقوله ﷺ «**اعملوا**» وعلى أنه لا يخرج في تخييره عن قدر الله؛ لقوله: «**فكل ميسر لما خلق له**».

هذا مقتضى أدلة الشرع والواقع في هذه المسألة[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٢ و ٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) انظر دفع إيهام الاضطراب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٨٦-٢٨٧، والإيمان بالقضاء والقدر ص١٨٤-١٨٨..

المبحث الخامس: مسألة الهداية والإضلال

مسألة الهداية والإضلال مسألة عظيمة يطول حولها الكلام، وخلاصة القول فيها أن يُقال: إن الهداية والإضلال والطاعة والمعصية بمشيئة الله، والإنسان سبب في وقوعها، ومسؤول عنها؛ فذلك من الأصول القطعية عند أهل السنةِ، والقاعدةُ التي يتفق عليها العقلاء أن القطعيات لا تتناقض في نفسها وإن بدت لنا متناقضة؛ لقصور إدراكنا؛ فحسبنا أن نقف عند هذه القطعيات، ونؤمن بها جميعاً، ولا نرد منها شيئاً ولو لم نحط بها علماً؛ لأن مسألة القضاء والقدر لها تعلق بصفات الله؛ فالقدر قدرة الله، وقدرة الله كعلمه وحكمته وإرادته وسائر صفاته من جهة كونها معلومة المعنى مجهولة الكيفية؛ فكما أننا نعجز عن الإحاطة بصفات الله فكذلك نعجز عن الإحاطة بسر القدر الإلهي، ومن أسراره أن أضل الله وهدى، وأسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وغير ذلك؛ لحكمة يعلمها ولا نعلمها، وهو العليم الحكيم.

ولا يضير المرء في إيمانه عجزه عن معنى الإحاطة بسر القدر؛ لأن ذلك ليس بمستطاع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ولكن الذي يضيره أن يبني على عجزه أحكاماً، ويتصرف على غير هدى، ويرد بعض الأصول القطعية، ويضرب النصوص بعضها ببعض.

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن للمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يلزم ـليكون تصرفه سليماًـ أن يُدرك غيرُه الحكمة في تصرفاته، وليس لأحد حق الاعتراض عليه في تصرفه إذا لم يعلم السر في أفعاله.

ولا نزاع بينهم أن البارع في علم من العلوم، أو فن من الفنون، أو صنعة من الصنائع أنه قد يعمل أعمالاً لا تدركها عقول الذين لم يقفوا على أسرار ذلك

العلم، أو الفن، أو الصنعة.

ولا يعني عدمُ إدراكهم لذلك القدحَ في ذلك العلم، أو الفن، أو الصنعة.

هذا بالنسبة للبشر القاصرين في علمهم وحكمتهم، فكيف بأحكم الحاكمين، وبمن وسع كل شيء رحمة وعلماً؟!

فإن حاولنا كشف ما طُوي عنا من أسرار القدر مما استأثر الله بعلمه كان ذلك تكلفاً بلا نتيجة، ومن حاول إدراك غير المستطاع فنتيجة محاولته أن يكون[1]:

كناطحٍ صخرةً يوماً لِيَفْلِقَها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ[2]

وبالجملة فالهداية والإضلال لله وحده؛ فالله أعلم حيث يجعل هدايته كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته.

ولا يعني ذلك تعطيل الأسباب؛ فالله -عز وجل- نصب أسباباً، وجعلها طريقاً للوصول إلى الهدى، وحذَّر من أسباب الإضلال، وبيَّن أنها موصلة للردى، ويبقى بعد ذلك أن نستحضر أن ذلك كله بيد الله -عز وجل- فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون عما يفعلون[3].

---

(١) انظر العقل والنقل عند ابن رشد د. محمد أمان ص ٥٦-٥٧.

(٢) ديوان الأعشى الكبير ص٦١.

(٣) انظر الاختلاف في اللفظ لابن تيمية ص٣٥، والإبانة لابن بطة ٣٩٠/١.

الباب الثالث

محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين

وتحته:

الفصل الأول: في بعثة النبي ﷺ وخلاصة سيرته

الفصل الثاني: في أخلاق النبي ﷺ وأسرار سيرته

الفصل الثالث: في بشارةِ عيسى وموسى -عليهما السلام- بمحمد ﷺ.

الفصل الأول

في بعثة النبي ﷺ وخلاصة سيرته

وتحته:

المبحث الأول: مهيئات النبوة

المبحث الثاني: نبذة عن نسب النبي ﷺ وحياته

المبحث الثالث: بدء الوحي

المبحث الأول: مهيئات النبوة

لقد هيأ الله -عز وجل- للنبي ﷺ مهيئات كثيرة كانت إرهاصاً لبعثته ونبوته، فمن ذلك ما يلي:

١- دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى -عليهما السلام- ورؤيا أمه آمنة: يقول النبيﷺ عن نفسه: «**إني عبدالله لَخَاتم النبيين، وإن آدم -عليه السلام- لُمْنجَدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت**»[1].

ومعنى الحديث: أن النبيﷺ يقول: أنا مصداق دعوة إبراهيم الخليل -عليه السلام- لأن إبراهيم لمَّا كان يرفع القواعد من الكعبة في مكة، ومعه ابنه إسماعيل كان يقول -كما أخبرنا الله عنه في القرآن-: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ (البقرة ١٢٧-١٢٩).

فاستجاب الله دعوة إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- فكان النبي الخاتم محمد -عليه الصلاة والسلام- من ذريتهما.

أما قوله: «**وبشرى عيسى**» فإن نبي الله عيسى -عليه السلام- قد بَشَّر بالنبي محمد ﷺ كما أخبر الله عنه في القرآن، فقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ**﴾ (الصف: ٦).

١- انظر المسند (١٧٢٨٠) ودلائل النبوة للبيهقي ١/٨٠-٨٢، والروض الأنف للسهيلي ١/٢٩٠.

فعيسى -عليه السلام- هو آخر نبي من أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ﷺ نبي؛ وقد بَشَّر بنبي يأتي من بعده اسمه أحمد، وأحمد من أسماء النبي محمد ﷺ.

أما «**رؤيا أمه**» فقد رأت رؤيا صادقة؛ ذلك أن أمه لما أخذها المخاض، فوضعته تَمَثَّل لعينيها ذلك النور الذي أضاءت له بصرى في أرض الشام[1].

٢- كون النبي ﷺ خرج في أمة العرب: تلك الأمة التي فُضِّلَت على غيرها من الأمم آنذاك، حتى استعدت لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام، بالرغم مما طرأ عليها من الأمية، وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيها غلبة البداوة من التفرق والانقسام.

ومع ذلك فقد كانت أمةُ العربِ متميزةً باستقلال الفكر، وسعة الحرية الشخصية.

وكانت أمة العرب -أيضاً- متميزة بالذكاء، وباستقلال الإرادة، وعزة النفس، وشدة البأس، وقوة الأبدان والقلوب.

وكانت أمة العرب أقرب إلى العدل بين الأفراد.

وقد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان، وبلاغة المقال مما جعلها مستعدة للتأثر والتأثير بالبراهين العقلية، والمعاني الخطابية، والشِعرية، وللتعبير عن جميع العلوم الإلهية والشرعية، والفنون العقلية، والكونية أيام كانت الأمم الأخرى تنفصم عرى وَحْدتها بالتعصبات الدينية والمذهبية، والعداوات العرقية.

وأعظم مزية امتاز بها العرب، أنهم كانوا أسلم الناس فطرةً، بالرغم من أن أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة.

والإصلاح الإسلامي مبني على تقديم إصلاح النفس باستقلال العقل،

١- انظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٨٠-٨٤، وخلاصة السيرة النبوية والدعوة الإسلامية للشيخ محمد رشيد ص١٣-١٤.

والإرادة، وتهذيب الأخلاق على إصلاح ما في الأرض من معدن، ونبات، وحيوان.

وبهذا كان الله -عز وجل- يُعِدُّ هذه الأمة للإصلاح العظيم الذي جاء به محمدﷺ[١].

٣- شرف النسب: فقد كان نسبه ﷺ أشرف الأنساب، وأصرحها، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣).

وجاء في صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٢].

أما اصطفاء الله لبني هاشم فقد كان لما امتازوا به من الفضائل والمكارم؛ فكانوا أصلح الناس عند الفتن، وخيرهم لمسكين ويتيم.

وإنما أطلق لقب هاشم على عمْرو بن عبد مناف؛ لأنه أول من هشم الثريد -وهو طعام لذيذ- للذين أصابهم القحط، وكان يَشْبَعُ منه كلَّ عامٍ أهلُ الموسم كافة، ومائدتُه منصوبةٌ لا ترفع في السراء ولا في الضراء.

وزاد على هاشم ولَدُه عبدالمطلب جدُّ الرسول ﷺ فكان يطعم الوحش، وطير السماء، وكان أول من تعبد بغار حراء، وروي أنه حرم الخمر على نفسه.

وبالجملة: فقد امتاز آل النبيﷺ على سائر قومه بالأخلاق العلية، والفواضل العملية، والفضائل النفسية، ثم اصطفى الله محمداًﷺ من بني هاشم؛ فكان خير ولد آدم، وسيدهم[٣].

١- انظر خلاصة السيرة النبوية ص٣-٧.

٢- مسلم (٢٢٧٦).

٣- انظر الفصول في سيرة الرسول لابن كثير ص٥-٧، وخلاصة السيرة النبوية ص١٠-١١

٤ـ بلوغه ﷺ الذروة في مكارم الأخلاق: فقد جبله الله ـعز وجلـ على كريم الخلال، وحميد الخصال، فكان قبل النبوة أرقى قومه، بل أرقى البشرية في زكاء نفسه، وسلامة فطرته، وحسن خلقه.

وكان يُعرف بالتزام الصدق، والأمانة، وعلو الآداب؛ فبذلك كان له المقام الأرفع قبل النبوة؛ حتى لقبوه بالأمين.

وعلى هذه الحال كانﷺ حتى بلغ أشده، واستوى، وكملت في جسده الطاهر، ونفسه الزكية جميع القوى، ولا طمع في مال، ولا سمعة، ولا تطلع إلى جاه ولا شهرة، حتى أتاه الوحي من رب العالمين ـكما سيأتي بيانه بعد قليلـ[١].

٥ـ كونهﷺ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب: فهذا من أعظم المهيئات والدلائل على صدق نبوته؛ فهذا الرجل الأمي الذي لم يقرأ كتاباً، ولم يكتب سطراً، ولم يقل شعراً، ولم يرتجل نثراً، الناشئُ في تلك الأمة الأمية ـ يأتي بدعوة عظيمة، وبشريعة سماوية عادلة، تستأصل الفوضى الاجتماعية، وتكفل لمعتنقيها السعادة الإنسانية الأبدية، وتعتقهم من رق العبودية لغير ربِّهم ـجل وعلاـ.

كل ذلك من مهيئات النبوة، ومن دلائل صدقها[٢].

٦ـ كونه نشأ في مكة المكرمة: تلك البلدة الطيبة التي اختارها الله لأول بيت قام في الأرض لتوحيد الله والعبادة الخالصة، والنسك السليم.

قال الله ـعز وجلـ: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (آل عمران: ٩٦)[٣].

١ـ انظر خلاصة السيرة ص١٧ـ١٩.

٢ـ انظر خلاصة السيرة ص٢٥.

٣ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي (١٢٦) ٥/١٩٠.

المبحث الثاني: نبذة عن نسب النبي ﷺ وحياته

نسبه: هو محمدُ بنُ عبدِالله بنِ عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وعدنان من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـعليهما السلامـ[١].

وأُم النبيﷺ هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وزهرة أخو جد النبيﷺ.

وقد تزوج بها عبدالله والد النبيﷺ وأقام معها في بيت أهلها ثلاثة أيام، فلم تلبث أن حملت بالنبيﷺ ولم تجد في حمله ثقلاً، ولا وحماً كما هو شأن المحصنات الصحيحات الأجسام[٢].

وقد رأت أمه رؤيا لما حملت به، وقد مَرَّ ذِكْرُ الرؤيا في كلام سابق.

ولادته: وقد ولدته أمه سَوِيّ الخلق، جميل الصورة، صحيح الجسم، وكانت ولادته عام الفيل الموافق للحادي والسبعين بعد الخمسمائة للميلاد[٣].

وقد تُوفي والده وهو حَمْلٌ في بطن أمه، فكفله جده عبدالمطلب، وأرضعته أمه ثلاثة أيام ثم عهد جده بإرضاعه إلى امرأة يقال لها حليمة السعدية.

رضاعته في بني سعد: وكان من عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم في

١ـ انظر جوامع السيرة لابن حزم ص٤ـ٦، والروض الأنف ١/٢٣ـ٣٨ ففيهما تفصيل النسب، وشرح الأسماء الواردة فيه، وحدائق الأنوار، ومطالع الأسرار لابن الدَّيبع ١/٩٤، وسبل الرشاد في هدي خير العباد ١/٢٣٥ـ٣٢٢، وخلاصة السيرة ص١١ـ١٢، ومحمد رسول الله لأحمد تيمور باشا ص٢٨، وموسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١/١٩٢.

٢ـ انظر خلاصة السيرة ص١٣ـ١٤، والسيرة النبوية الصحيحة د. أكرم العمري ١/٩٠ـ٩١.

٣ ـ انظر حدائق الأنوار لابن الدَّيبع الشافعي ١/٢٩، وخلاصة السيرة ص١٤، وفقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، خرَّج أحاديثه الشيخ الألباني ص٥٨ـ٦٣.

البوادي؛ حيث تتوافر أسباب النشأة البدنية السليمة[1].

ولقد رأت حليمة السعدية من أمر هذا الرضيع عجباً، ومن ذلك: أنها أتت مع زوجها إلى مكة على أتان هزيلة بطيئة السير، وفي طريق العودة من مكة، وهي تضع الرضيع في حجرها كانت الأتان تعدو عَدْواً سريعاً، وتُخَلِّف وراءها كل الدواب، مما جعل رفاق الطريق كلهم يتعجبون.

وتُحدِّث حليمة بأن ثديها لم يكن يُدِرُّ شيئاً من الحليب، وأن طفلها الرضيع كان دائم البكاء من شدة الجوع، فلما ألقمت الثدي رسول الله ﷺ دَرَّ غزيراً، فأصبحت ترضعه وترضع طفلها حتى يشبعا.

وتُحدِّث حليمة عن جدب أرض قومها ديار بني سعد، فلما حظيت بشرف رضاعة هذا الطفل أنتجت أرضها، وماشيتها، وتَبَدَّلت حالها من بؤس وفقر إلى هناء ويسر.

وبعد سنتين عادت به حليمة إلى أمه وجده في مكة، لكن حليمة أَلَحَّتْ على أمه أن توافق على بقائه عندها مرة ثانية؛ لِمَا رأت من بركته عليها، فوافقت أُمُّه آمنة، فعادت حليمة بالطفل مرة أخرى إلى ديارها والفرحة تملأ قلبها.

وبعد سنتين عادت به حليمة إلى أمه، وعمره آنذاك أربع سنوات، فحضنته أمه إلى أن توفيت، وكان له من العمر ست سنين، فكفله جده عبدالمطلب سنتين ثم توفي، وقبل وفاته أوصى به ابنه أبا طالب عمَّ النبي ﷺ فحاطه بعنايته كما يحوط أهله وولده[2].

إلا أنه كان لفقره يعيش عيش الشظف؛ فلم يتعود ﷺ نعيم الترف، ولعلَّ ذلك من عناية الله بهذا النبي الكريم.

وكان ﷺ قد أَلِفَ رعي الغنم مع إخوانه من الرضاع لما كان في بادية بني سعد،

١ـ انظر جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي ص٦ـ٧، والروض الأنف ١/٢٧٨ـ٢٨٦ و٢٩٧.

٢ـ انظر الروض الأنف ١/٣٠٠ـ٣٠١، وأعلام النبوة للماوردي ص٢٤٨ـ٢٤٩.

فصار يرعى الغنم لأهل مكة؛ فيكفي نفسه بما يأخذه على ذلك من الأجرة، ولا يرهق عمه بالنفقة.

سفره مع عمه إلى الشام، ولقاؤه بحيرا الراهب: ثم سافر مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، وله من العمر اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام، وهناك رآه (بحيرا) الراهب، وبشَّر به عمَّه أبا طالب، وحذَّره من عدوان اليهود عليه بعد أن رأى خاتم النبوة بين كتفيه.

سفره مُتَّجِراً بمال لخديجة: ثم إنه سافر مرة أخرى مُتَّجراً بمالٍ لخديجة بنت خويلد، فأعطته أفضل مما كانت تعطي غيره؛ إذ جاءت تلك التجارة بأرباح مضاعفة، بل جاءت بسعادة الدنيا والآخرة.

وكانت خديجة هذه أعقل وأكمل امرأة في قريش، حتى كانت تدعى في الجاهلية: الطاهرة؛ لِما لها من الصيانة، والعفَّة، والفضائل الظاهرة.

زواجه بخديجة: ولما حدَّثها غُلامها ميسرةُ بما رأى من النبيﷺ في رحلته معه إلى الشام من الأخلاق العالية، والفضائل السامية، وما قاله (بحيرا) الراهب لعمه أبي طالب في رحلته الأولى إلى الشام ـ تعلقت رغبتها به؛ وبأن تتخذه زوجاً لها، وكانت قد تزوجت من قبل، وتوفي عنها زوجها؛ فتمَّ ذلك الزواج الميمون، وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين سنة، وعمرها قريباً من أربعين سنة.

ولم يتزوج عليها طيلة حياتها، ولا أحب مثلها، وتوفيت بعد البعثة النبوية بعشر سنين، فكان كثيراً ما يذكرها، ويتصدق عنها، ويهدي لصاحباتها، وهي الزوجة التي رُزق منها جميع أولاده عدا إبراهيم؛ فإنه من سُرِّيَّتِهِ ماريا القبطية.

هذه بعض أَخباره وسيرته قبل النبوة، وبدء الوحي على سبيل الإجمال[1].

١ـ انظر سنن الترمذي (٣٦٢٠) ودلائل النبوة ١/٩٠ـ٩٢، والروض الأنف ١/٣١٣ـ٣١٨ و٣٢٢ـ٣٣٥، والخصائص الكبرى للسيوطي ١/٢٢٦، وخلاصة السيرة ص١٥ـ١٦، ومحمد رسول الله لأحمد تيمور باشا ص٣٥ـ٣٦، وفقه السيرة للغزالي ص٦٨ـ٦٩.

المبحث الثالث: بدء الوحي

بَلَغَ النبيﷺ أشُدَّه، وقَرُب من الأربعين، واكتملت قواه العقلية والبدنية، وكان أول ما بدأ به من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثْلَ فَلَق الصبح واضحة كما رآها في منامه.

اختلاؤه بغار حراء، ونزول الوحي عليه: ثم بعد ذلك حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بنفسه في غار حراء في مكة، فيتعبد الله الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بالطعام والشراب، حتى جاءه الحق، وهو على هذا الشأن بنزول القرآن عليه في شهر رمضان، وذلك بأن تَمَثَّل له المَلَكُ جبريل، ولقَّنَه عن ربِّه أول ما نزل من القرآن، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فقال: «**ما أنا بقارىء**» فقال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فقال: «**ما أنا بقارىء**» فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فقال: «**ما أنا بقارىء**» وكان جبريل بعد كل جواب من الأجوبة الثلاثة يضمه على صدره، ويعصره حتى يبلغ منه الجهد.

ولما تركه جبريل في المرة الثالثة ألقى عليه أول آيات أُنزلت من القرآن، وهي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ١ـ٥).

بهذه الآيات العظيمة التي تأمر بالعلم، وتبيِّن بداية خلق الإنسان ـ بدأ نزول الوحي على النبي ﷺ فرجع النبي إلى زوجته خديجة يرجف فؤاده، ولكنه حفظ رشاده، فقال: «**زملوني زملوني**» يعني: لفوني بالثياب، ففعلوا، حتى إذا ذهب عنه الروع، أخبر خديجة الخبر، وقال: «**لقد خشيت على نفسي**».

فقالت خديجة ـرضي الله عنهاـ: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتُقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وهكذا استدلت هذه المرأة العاقلة على أن من كان هذا شأنه في محبة الخير للناس فلن يخذله الله؛ فسنَّة الله تقتضي بأن الجزاء من جنس العمل.

ثم انطلقت بعد ذلك خديجة بالنبي ﷺ حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، ويكتب الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: اسمع من محمد ما يقول، فقال ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس[1] الذي أُنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً -أي شاباً- ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال له الرسول ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟**» قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومُك أَنْصُرْك نصراً مؤزراً، ثم توفي ورقة، وفتر الوحي[2].

واستمرت فترة الوحي ثلاث سنين، قوي فيها استعداد النبي، واشتدَّ شوقه وحنينه.

قال ﷺ: «**بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض؛ فجئثت[3] منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني**»[4].

وذكر أنه رعب منه، ولكن ذلك دون الرَّعبة الأولى، فرجع إلى أهله فتزَمَّلَ، وتَدَثَّرَ -أي: تغطى بالثياب-.

١- الناموس: صاحب سر المَلِك، قال بعضهم: هو صاحب سر الخير، والجاسوس: صاحب سر الشر. انظر الروض الأنف ١/٤٠٨.

٢- انظر صحيح البخاري (٤٩٥٣) ومسلم (١٦١) والروض الأنف ١/٣٩٦، وخلاصة السيرة ص١٩-٢٠.

٣ - جئثت منه: أي ذُعِرْت وخِفْت. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/٢٢٨.

٤- البخاري (٣٢٣٨) وانظر الروض الأنف ١/٤٢٠-٤٢٢.

ثم أنزل الله عليه قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر).

أي: يا أيها الذي تدثر بثيابه قم فأنذر الناس بالقرآن، وبلغهم دعوة الله، وطهر ثيابك وأعمالك من أدران الشرك، واهجر الأصنام، وتبرأ من أهلها.

تتابع الوحي، وقيامه بالدعوة: ثم حمي الوحي بعد ذلك، وتتابع، وبلَّغ ﷺ دعوة ربه، حيث أمره وأوحى إليه بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وإلى دين الإسلام الذي ارتضاه الله، وختم به الأديان؛ فقام النبي ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن[١].

فاستجاب له أول من استجاب: خديجة من النساء، وأبو بكر الصديق من الرجال، وعلي بن أبي طالب من الصبيان، ثم توالى دخول الناس في دين الله، فاشتدَّ عليه أذى المشركين، وأخرجوه من مكة، وآذوا أصحابه أشدَّ الأذى، فهاجر إلى المدينة، وتتابع عليه نزول الوحي، واستمر في دعوته، وجهاده، وفتوحاته، حتى عاد إلى مكة ظافراً فاتحاً.

وبعد ذلك أكمل الله له الدين، وأقرَّ عينه بعز الإسلام وظهور المسلمين، ثم توفاه الله وعمره ثلاث وستون سنة، أربعون منها قبل النبوة وثلاث وعشرون نبياً رسولاً[٢].

وبه ختم الله الرسالات السماوية، وأوجب طاعته على الجن والإنس؛ فمن أطاعه سعد في الدنيا، ودخل الجنة في الآخرة، ومن عصاه شقي في الدنيا، ودخل النار في الآخرة.

وبعدما توفاه الله -عز وجل- تابع أصحابه مسيرته، وبلَّغوا دعوته، وفتحوا

١- انظر خلاصة السيرة ص٢١.

٢- انظر جوامع السيرة ص٦-٧.

البلدان بالإسلام، ونشروا الدين الحق حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار.

ودينه ﷺ باقٍ إلى يوم القيامة.

فما القول في أميٍّ نشأ بين أميين، قام بذلك الإصلاح الذي تغيَّر به تاريخ البشر أجمعين: في الشرائع، والسياسات، وسائر أمور الدنيا والدين؟ وامتدَّ مع لغته في قرن واحد من الحجاز إلى آخر حدود أوربا وأفريقيا من الغرب، وإلى حدود الصين من جهة الشرق حتى خضعت له الأمم، ودانت له الدول، وأقبلت إليه الأرواح قبل الأشباح، وكانت تتبعه في كل فتوحه الحضارةُ، والمدنيةُ، والعدل والرحمة، والعلوم العقلية والكونية على أيدي تلك الأمة الحديثة العهد بالأمية، التي زكَّاها القرآن، وعلَّمها أن إصلاح الإنسان يتبعه إصلاح الأكوان؛ فهل يمكن أن يكون هذا إلا بوحي من لدن حكيم عليم، وتأييد سماوي من الإله العزيز القدير الرحيم؟[1]

١ـ انظر خلاصة السيرة ص٣٠ـ٣١.

الفصل الثاني

في أخلاق النبيﷺ وأسرار سيرته

وتحته:

المبحث الأول: في أخلاق النبي ﷺ

المبحث الثاني: الرحمة في السيرة النبوية

المبحث الثالث: في أسرار السيرة النبوية

المبحث الأول: في أخلاق النبي ﷺ

نبينا محمدﷺ هو خير البرية، وأزكى البشرية، وأعلاها رتبة، وأجلها قدراً، وأحسنها خلقاً، وأكرمها على الله -تبارك وتعالى-.

اختاره الله على علم، وأكرمه بالرسالة، وأيده بالوحي.

جبله على حميد الخلال، وفطره على كريم الخصال، ثم أدبه فأحسن تأديبه، فرباه فأحسن تربيته، فكان خلقه القرآن، كما قالت أم المؤمنين عائشة -رضي لله عنها- عن خلقه ﷺ لما سئلت عنه.

وهو -عليه الصلاة والسلام- هو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق؛ فإنه أُدِّب بالقرآن، وأدَّب الخلق به، ثم لما أكمل الله له خلقه أثنى عليه فقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ولقد كتب العلماء -رحمهم الله- في شمائل النبي ﷺ وأخلاقه، فتحدثوا عن حلمه، وعفوه، ورحمته، وشفقته، وحيائه، وشجاعته، وجوده، وكرمه، وصدقه، وبره، ووفائه، وأمانته، وإيثاره، وتواضعه، ولين جانبه، وكرم معشره، ونحو ذلك مما بلغ به الذروة في كل خلق كريم.

فمن تأسى به، وتخلق بخلقه كان في أعز جوار، وأمنع ذمار.

فبحسب متابعته تكون العزة، والكفاية، والنصرة كما أن بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة؛ فالله -سبحانه- علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته.

فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح، والعزة، والكفاية، والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذلة، والصغار، والخوف، والضلال، والخذلان، والشقاء في الدنيا

والآخرة[١].

فبسط شمائله الحميدة، ونشر أخلاقه الكريمة ـ من أمثل الطرق، وأقوم السبل لحسم الفساد، وكسر شوكة الباطل، بل إن ذلك مرقى العز، وسلم السعادة، وسبيل التأسي.

وفيما يلي من أسطر ذكر لبعض ما رقمته أقلام العلماء في أخلاق النبي ﷺ وذلك على سبيل الاختصار والاختزال، دون ذكر للأسانيد، أو إكثار من الإحالات؛ إذ المقام ليس مقام إطالة وإسهاب.

فمما قيل في أخلاقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما يلي:

كان ﷺ أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس.

وكان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه.

وكان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قُوْتَ عامه فقط، وكان ذلك أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويرضى ذلك في سبيل الله، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه، ثم يعود إلى قوت عامه، فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مَهْنة أهله، ويقطع اللحم معهن، وكان أشد الناس حياءً، لا يثبت بصره في وجه أحد.

وكان يجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن إجابة دعوة الأَمَةِ والمسكين.

يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ومرة يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال، وإن وجد تمراً

---

١ ـ انظر زاد المعاد لابن القيم ١/٣٧.

دون خبز أكله، وإن وجد شواءً أكله، وإن وجد خُبْزَ بُرٍّ أو شعيرٍ أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفي به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله.

وكان يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس.

وكان أشد الناس تواضعاً، وأسكنهم من غير كبر، وأبلغهم من غير تطويل، وأحسنهم بشراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا.

يلبس ما وجد، فمرة شملة، ومرة بُرْدَ حِبَرةٍ يمانياً، ومرة جبةَ صوفٍ، فما وجد من المباح لبس.

يركب ما أمكنه، مرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة بغلة شهباء، ومرة حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً.

يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقًّا، يضحك من غير قهقهة، يسابق أهله، ترفع الأصوات عليه فيصبر.

وكان لا يمضي له وقت في غير عمل لله ـ تعالى ـ أو فيما لا بد له منه في صلاح نفسه.

لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستوياً، قد جمع الله ـ تعالى ـ له السيرة الفاضلة، والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

نشأ في بلاد الجهل والصحاري في فقره، وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له، فعلمه الله ـ تعالى ـ جميع محاسن الأخلاق، والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة، والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الفضل،

وتركَ الفضول.

ما شتم أحداً من المؤمنين إلا جعلها له كفارة ورحمة، وما لعن امرأة قط، ولا خادماً بلعنة.

وما ضرب أحداً بيده قط، إلا أن يضرب بها في سبيل الله ـ تعالى ـ وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس من ذلك.

وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته.

ولم يكن فظاً ولا غليظاً، ولا صخاباً في الأسواق، وما كان يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.

وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام، ومن قادمه لحاجة صابره حتى يكون القادم هو المنصرف.

وما أخذ أحدٌ بيده، فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده، فشابكه، ثم شد قبضته عليها.

وكان أكثر جلوسه ينصب ساقيه جميعاً، ويمسك بيده عليهما شبه الحبْوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه؛ لأنه كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وما رؤي قط ماداً رجليه بين أصحابه؛ حتى لا يضيق بها على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه.

وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه.

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه، وكان يعطي كلَّ مَنْ جلس إليه نصيبه من وجهه، وسمعه، وحديثه، ولطيف محاسنه وتوجهه.

وكان مجلسه مجلس وقار، وحلم، وحياء، وخير، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحُرَمُ، ولا تثنى فلتاته.

ومعنى لا تؤبن فيه الحرم: أي لا تذكر فيه حرمات الناس بسوء، يقال أبَنه إذا ذكره بسوء، والمراد بالحرم هنا أعراض الناس، وما يحرِّمون تناوله منهم.

ومعنى لا تثنى فلتاته: لا تعاد، مأخوذٌ من التثنية وهي الإعادة، والفلتات جمع فلتة، وهي الزلة من القول والفعل إذا جرت على غير قصد بغتة؛ يعني أن أهل ذلك المجلس أهل حفظ للسر، وإعراض عن اللغو، فلو صدرت من أحد فلتة لم يتناقلها جلساؤه بالتسميع والتشنيع.

وهذا أدب عربي رفيع، وفي هذا المعنى قال ودَّاك بن ثميل من شعراء الحماسة:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... إذا نطق العوّارَ غربُ لسان

ومن آداب ذلك المجلس أن أصحابه لا يقاطعون الرسولﷺ إذا تكلم، وإذا سكت تكلموا، وإذا تحدثوا عنده لم يختلفوا، ولم يتخاصموا، وإن تخاصموا لم يطل وقت الخصام.

ومن أراد الكلام أنصتوا، واستمعوا له حتى يفرغ من كلامه.

وكان آخر من يتكلم عند النبيﷺ له نفس حظ أول المتكلمين من الإنصات والاهتمام.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يضحك مما يضحكون، ويعجب مما يعجبون إذا كان في حدود الأدب.

وكان يصبر على الغريب إذا جفاه في مقاله وسؤاله، حتى إن أصحابه قد لا يرضون ذلك، ولكنهم لا يتقدمون بين يديه -عليه الصلاة والسلام- ولا يتجاوزون ما علمهم من الصبر، والرحمة، وإعانة طالب الحاجة على طلبه.

ومن خلقه - عليه الصلاة والسلام - أخذه بمبدأ الحوار؛ فالناظر في السيرة -بعدل وإنصاف- يرى رأْيَ العينِ أنها حافلةٌ بالحوار في أرفع درجاته، وأعلى مقاماته،

وأروع آدابه، وأسمى طرائقه وأساليبه.

ولا غرو في ذلك؛ فالنبيﷺ هو خير الناس، وسيرته أرقى صورة للحياة البشرية.

ولقد مرت به -عليه الصلاة والسلام- أطوارٌ كثيرةٌ، وأحوالٌ شتى مِنْ سِلْمٍ وحرب، وعسر ويسر، وكان الرسول المجتبى، والسيد المطاع، والوالد الحاني، والزوجَ الوفيَّ، والمعلم القدوة، والصديق المخلص.

وهو الذي كان يعامل الصغير والكبير، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، والمحارب والمسالم، والرجل والمرأة، والقريب والبعيد؛ فكان في جميع تلك الأحوال والمعاملات يأخذ بالحوار أخذاً عملياً لا دعوى تقولها الألسنةُ دون أن تتخلل منها مسلك الروح، ودون أن يكون لها رصيد في الواقع.

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم؛ إكراماً لهم، واستمالة لقلوبهم، وكان يُكَنِّي من لم تكن له كنية، فكان يدعى بما كَنَّاه به، ويكني -أيضاً- النساء اللاتي لهن أولاد، واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى، ويكني الصبيان، فيستلين به قلوبهم.

وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وكان لا يشافه أحداً بما يكره.

هذه بعض أخلاقه وشمائله، رزقنا الله حسن اتباعه، والاتساء به، والاهتداء بهديه.[1]

---

١ - انظر تفاصيل ما ذكر في الشمائل المحمدية للترمذي ص ١٨٦- ٢٨٠، ٢٦٢- ٢٨٣ تحقيق محمد عفيف الزعبي، وانظر الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي ١/١٦١- ٣٥٨، وأخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ الأصبهاني تحقيق عصام الدين الصبابطي ص١٣- ٩٨، ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ٥٥١- ٦٥٦، وإحياء علوم الدين ٢/٣٥٧- ٣٨٧، وشمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه لابن كثير ١/٧٣- ١٥٢، والحوار في السيرة النبوية ص٢٣٨-٢٤٥.

المبحث الثاني: الرحمة في السيرة النبوية

قال الله -عز وجل- في وصف نبيه ﷺ وفي معرض الامتنان على الأمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران: ١٥٩ .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير هذه الآية: «واللين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات»[1].

وقال رحمه الله: «**أرسل محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة؛** فكان لينُه رحمةً من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها؛ فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمةٍ من الله أودعها الله فيه؛ إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله -تعالى- في أن يكون العرب هُمْ مُبَلِّغَ الشريعة للعالم.

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم.

وهم المتلقون الأولون للدين؛ فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم؛ ليتجنبوا بذلك المكابرةَ التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق.

وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب الشفا»[2].

---

١ ـ تفسير التحرير والتنوير، للعلامة محمد الطاهر بن عاشور، ١٤٥/٤.

٢ ـ تفسير التحرير والتنوير ١٤٥/٤.

وقال الله -عز وجل- مبيناً شمول الرحمة للعالمين بإرسال الرسول ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فجاءت هذه الآية مُؤكِّدةً للرحمة بأسلوب من أقوى أساليب التأكيد، ألا وهو أسلوب الحصر، وأداتُه هنا النفي والاستثناء؛ فدل ذلك على أن الرحمة عامة.

قال ابن القيم رحمه الله : «وأصح القولين في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له فالذين عُجِّل قَتْلُهم وموتُهم خيرٌ لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادةٌ في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء؛ فتعجيلُ موتِهم خيرٌ لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهدِ من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقنُ دمائهم وأموالِهم وأهلِهم واحترامُها، وجريانُ أحكامِ المسلمين عليهم من التوارث وغيرها.

وأما الأمم النائية عنه فإن الله -سبحانه- رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض؛ فأصاب كلَّ العالمين النفعُ برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكلِّ أحدٍ، لكنَّ المؤمنين قبلوا هذه الرحمة؛ فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها؛ فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة، لكن لم يقبلوها كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإن لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواءاً لهذا المرض»[1].

وقال الشيخ ابن عاشور رحمه الله في تفسير الآية: «فجاءت هذه الآية مشتملة على

---

١ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم ص٩.

وصف جامع لبعثة محمد ﷺ.

ومزيَّتُها على سائر الشرائع مزيةٌ تناسبُ عمومَها ودوامها، وذلك كونُها رحمةً للعالمين»[١].

إلى أن قال رحمه الله: «وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته»[٢].

---

١ ـ تفسير التحرير والتنوير ٧/١٦٤ـ١٦٥.

٢ ـ تفسير التحرير والتنوير ٧/١٦٦ـ١٦٧، وانظر تفصيل الحديث عن ذلك في كتاب الرحمة والعظمة في السيرة النبوية.

المبحث الثالث: في أسرار السيرة النبوية

السيرة النبوية الغراء مليئة بالعبر، حافلة بالأسرار، ومن ذلك ما يلي:

١ـ أن السيرة لا تُستنفد مهما كتب فيها، وقيل عنها: فسير العظماء ـعلى الجملةـ يقوم بأمرها، ويغني في شأنها أن تكتب مرة أو مرات، ثم تستنفد معانيها، ويصير الحديث فيها معاداً مكروراً تغني فيه أعمال الأسلاف عن محاولات الأخلاف.

أما سيرة نبينا محمدﷺ فلقد عُني المؤرخون والرواة بها منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا، وصدر فيها كثير من الكتب في عدة لغات، ومع ذلك لم تَخْلَق جِدَّتُها، بل إنها لتزداد ـعلى كثرة ما يكتب فيهاـ جِدَّة وَرُوَاءً.

ولهذا فإنك لا تكاد تبحث في موضوع من موضوعات العلم، أو الفكر، أو الأخلاق، أو السلوك، أو الاجتماع، أو السياسة أو البيان، أو اللغة، أو غير ذلك إلا وستجد في السيرة مادة عظيمة تغني الباحث، ويبقى بعده فضل لمن أراد المزيد؛ فالسيرة ينبوع ثرٌّ يغدق الخير، ويُعَمُّ به الناس على اختلاف المشارب والمنازع؛ فعلى الرغم من أن الموضوع الذي تعالجه السيرة النبوية ليس بالأمر الذي يقوم على التجارب، وليس هو بالفكرة التي يقيمها برهان، وينقضها برهان ـ كما هو الشأن في النظريات العلمية التي يطرأ عليها التجديد والتغيير على مر السنين ـ وإنما هو أمر عماده النقل والرواية من حيث المبدأ إلا أنه ميدان فسيح لاستنباط الأحكام، والأنظمة، وقواعد العلوم، ومحاسن الآداب، والأخلاق، وما جرى مجرى ذلك.[1]

٢ـ أن التجني على مقام النبوة يكون سبباً لبعث فضائل النبي ﷺ: فما أكثر ما تَجنَّى خصوم الإسلام على سيرة نبيه جهلاً أو جحوداً بالحق، فلم ينالوا منها

١ ـ انظر مقدمة كتاب: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ١/٣.

نيلاً، بل ربما دفع تجنِّيهم بعضَ الباحثين إلى العناية بها؛ تَلَمُّساً للإنصاف، وطلباً للمعرفة؛ فهدوا بذلك إلى الخير، أو شيء منه.

٣ـ أن الله ـعز وجلـ أوزع الناس العناية بالسيرة: فلعل من صلاة الله على نبيه أن أوزع الناس هذه العناية بسيرته سواء منهم من أقرَّ به، أو من أنكر نبوته؛ لأنه ﷺ نور، ومن عرف النور فقد شهد لنفسه بالاستبصار، ومن أنكره فقد شهد على نفسه بالعمى، والنور على الحالين نور.

٤ـ أن مصدرَ العناية بالسيرة ليس إرضاءَ حاجةِ العلم والدرس فحسب؛ فحاجات المؤمنين إلى هذا الينبوع من الحب والهدى أشد من حاجات العلماء إلى البحث والدرس، وكلٌّ من في قلبه نفحة إيمان يجد نفسه مهما فرّط في الدِّين مشدوداً إلى محمد، راغباً في أن تزداد هذه العلاقة وثاقة.

وحب رسول الله من حب الله، فليس محمد ـعلى شأنه الأَجَلِّـ إلا بشراً رسولاً[1].

٥ـ للسيرة النبوية أبلغ الأثر في تقويم السلوك، وتربية العواطف الشريفة؛ فإنها المرآة التي تنعكس منها تلك الصورة التي تعد ـبحقٍّـ أرقى صورة للحياة البشرية؛ حيث كان النبي محمد ـعليه الصلاة والسلامـ يرسم بأقواله، وأعماله، وسائر تصرفاته ـ القدوة العليا التي يجب أن تهدف إليها جهود البشر في سيرهم نحو الكمال المنشود[2].

٦ـ أنها معلومة للناس بجميع أطوارها، متجلية لهم دخائلها من كل مناحيها.

ولا ريب أن ذلك من أعظم أسرار عظمتها وخلودها؛ إذ لا يصح أن تكون سيرة أحد من الناس قدوة لغيره إلا أن تكون واضحة معلومة منزهة عن العيوب والمثالب.

ومن الجلي أن حياة رسول اللهﷺ كانت واضحة كل الوضوح في جميع

١ـ انظر إلى مقدمة الأستاذ محمد فتحي عبدالمنعم لكتاب محمد رسول الله للعلامة أحمد تيمور باشا ص١٤ـ١٦.

٢ـ انظر مقدمة الدكتور محمد خليل هراس على الخصائص الكبرى للسيوطي ١/٣ـ٤.

مراحلها، فمن زواج أبيه عبدالله بأمه آمنة إلى حين وفاتهﷺ.

فنحن نعرف الكثير من ولادته وطفولته، وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة إلى أن بعثه الله رسولاً كريماً.

ثم نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك، مما يجعل سيرته واضحة وضوح الشمس، وذلك مما حدا بعض النقاد الغربيين إلى القول: «إن محمداً -عليه الصلاة والسلام- هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس».[1]

ولقد ضبط العلماء سيرته -عليه الصلاة والسلام- وأتوا على دقائق قد لا تخطر بالبال.

ولو استعرض القارئ فهرس أحد الكتب التي اعتنت بسيرته وشمائله لوجد ذلك واضحاً جلياً[2].

ولهذا فإنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن ليتحرج من نقل ما يقوم به من أعمال حتى في داخل منزله؛ فترى -من جراء ذلك- كثرة الأحاديث التي ترويها أمهات المؤمنين عن النبي ﷺ.

ولم يكن ذلك إلا لأن سِرَّه كعلانيته، وظلمةَ ليلِه كضوء نهاره؛ فسيرته معلومة منذ ولادته إلى ساعة وفاته.

٧- أنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل أو عظيم مصلح: فقد وصلت إلينا سيرة النبي الأكرم -عليه الصلاة والسلام- من أصح الطرق العلمية، وأقواها ثبوتاً؛ فخذ مثلاً سيرة موسى وعيسى -عليهما السلام- فقد أُدخل في التوراة والإنجيل زيفٌ وتحريف.

وإذا نظرت في سير أصحاب الديانات الأخرى المزعومة كبوذا، وكونفوشيوس وجدتَ أن الروايات التي يتناقلها أتباعهم ليس لها أصل معتبر في نظر البحث

---

١ - انظر مقدمة كتاب: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ١/٤٠-٤١.

٢- انظر الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ص١٠٢-١٠٤.

العلمي، وإنما يتلقاها الكهان والرواة فيما بينهم، ويُدْخَلُ فيها الكثير من الأساطير والخرافات[١].

يقول د. القِسُّ شارك آندرسون سكوت: «ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتاب عن سيرة المسيح بكل صراحة؛ فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض.

والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً»[٢].

٨ـ أن هذه السيرة تحكي صورة إنسان لا أسطورة: فهي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة؛ فلم تخرجه عن بشريته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تُضْفِ عليه من الألوهية قليلاً ولا كثيراً.

وإذا نظرت إلى ما يقول النصارى في عيسى ـعليه السلامـ وجدت أنهم يضفون عليه من ادعاء الإلهية والربوبية ما يجعل سيرته أبعد من أن تكون مثالاً للإنسان في حياته الشخصية.

بينما يظل محمدٌ ـ عليه الصلاة والسلام ـ المثل الإنساني الحي لكل من أراد أن يعيش سعيداً كريماً في نفسه، وأسرته، ومجتمعه.

ثم إن تلك السيرة تحكي لنا سيرة الشاب الأمين الصادق، كما تحكي سيرة الرسول الداعية الصابر، وسيرة الإمام العادل، وسيرة الأب الحاني، والزوج الوفي، والمربي العظيم، والمرشد الحكيم، والصديق المُواتي الكريم، والمحارب القائد الشجاع.

فهي ـباختصارـ سيرة شاملة تجعله قدوة صالحة لكل داعية، وأب، وزوج، ومحارب، وسياسي، ورئيس دولة[٣].

١ـ انظر دروس وعبر من سيرة خير البشر ص ٢١.

٢ـ انظر دائرة المعارف البريطانية ١٧١٠/١٤.

٣ـ انظر دروس وعبر في سيرة خير البشر ص٢٢، والرحمة والعظمة في السيرة النبوية ص١١ـ١٥.

الفصل الثالث

بشارةُ موسى وعيسى -عليهما السلام - بمحمدﷺ

وأقوال المنصفين من غير المسلمين

وتحته:

تمهيد: في بشارات الأنبياء بمحمدﷺ

المبحث الأول: في بشارة موسى -عليه السلام- بمحمد ﷺ

المبحث الثاني: في بشارة عيسى -عليه السلام- بمحمد ﷺ

المبحث الثالث: من أقوال المنصفين من غير المسلمين في محمد ﷺ

الفصل الثالث: بشارةُ موسى وعيسى -عليهما السلام- بمحمدﷺ وأقوال المنصفين من غير المسلمين

تمهيد: في بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ

إن رسولاً عظيماً كمحمدﷺ في عموم بعثته، وخلود دينه، وشريعته - جدير بأن يُعْلِمَ الله -سبحانه- بمبعثه رُسُلَه وأنبياءه -عليهم السلام- ويصفه لهم ببعض نعوته، وعلاماته، ويعهد إليهم بأن يبشروا أقوامهم بظهوره، ويوصوهم بقبول دعوته، وحسن طاعته[1].

وهذا ما وقع حقًّا؛ قال الله -عز وجل- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ آل عمران ٨١ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قال علي بن أبي طالب، وابن عمه ابن عباس -رضي الله عنهما-: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداًﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه»[2].

هذ وإن أعظم بُشْرَى بنبوة محمدﷺ كانت على يد نبيين من أولي العزم من الرسل ألا وهما موسى وعيسى -عليهما السلام- وفي المبحثين التاليين شيء من أخبار تلك البشارتين:

١- انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين للشيخ محمد الخضر حسين ص ٥٤-٥٥ .

٢- انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٥٧ .

المبحث الأول: بشارة موسى بمحمد ـ عليهما السلام ـ

لقد جاء بني إسرائيل الخبر اليقين بالنبي الأمين، على يد نبي الله موسى منذ أمد بعيد، جاءهم الخبر اليقين ببعثته، وبصفاته، ونهج رسالته، وبخصائص ملته؛ فهو النبي الأمي الذي يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عن من يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم، فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به، وأتباع هذا النبي يتقون ربهم، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله.

جاء بني إسرائيل الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي، ويعظمونه، ويوقرونه، وينصرونه، ويؤيدونه، ويتبعون النور الذي أنزل معه هم المفلحون الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

قال الله في محكم تنزيله: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف[1].

فهذه الآية صريحة في أن المصطفىﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، والمراد بكتابته فيهما: ذِكْرُ مبعثه، ودعوته، وشيء من نعوته.

وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً، فقد نزلت الآية على مسمع من علماء الأمتين: اليهودية والنصرانية، فمنهم من يؤمن به ـعليه الصلاة والسلامـ ويخبر بما في كتبهم من

١ـ انظر الرسل والرسالات د. عمر الأشقر ص١٦٥ .

ذكره بصفته وعلاماته، ومنهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين رسول بهذه النعوت والعلامات، ولكنه يكابر في أن المراد منه المصطفى -صلوات الله عليه- ويقول: المقصود منه نبي آخر، وفي مثل هؤلاء نزل قوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ البقرة: ١٤٦.

وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل طائفةٌ من أهل البحث والعلم، وبينوا وجه انطباقها على حال النبيﷺ بحيث لا تأخذ الناظر شبهة في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته.

ولشدة موقع هذه البشارات في الدلالة على صدق نبوته -عليه الصلاة والسلام- ذكرها القرآن الكريم في دلائل النبوة، قال الله -تعالى-: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الشعراء: ١٩٧.

وإنما كان علم علماء بني إسرائيل من آيات صدقه؛ لأنهم يستندون في هذا العلم إلى ما في التوراة من نعوته وعلاماته، مع القطع بأن هذه النعوت والعلامات مطابقة لحاله -عليه الصلاة والسلام-[1].

وقد بقي بقية بشارة موسى -عليه السلام- في التوراة، ففي سفر التثنية الإصحاح (١٨) فقرة ١٨-١٩ قال الله لموسى: «أقيم لهم «أي لبني إسرائيل» نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

ودلالة هذه البشارة على رسولناﷺ بيّنة؛ ذلك أنه من بني إسماعيل وهم إخوة بني إسرائيل؛ فجدهم هو إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان، ثم هو أوسط العرب نسباً.

وقوله: مثلك أي صاحب شريعة مثل موسى، ومحمدﷺ هو الذي جعل كلامه في

١- انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ٥٥-٥٦.

فمه؛ حيث كان أمياً لا يقرأ من المصحف، ولكن الله يوحي إليه كلامه فيحفظه ويرتله، وهو الرسول المرسل إلى الناس كافة، وبنو إسرائيل مطالبون باتباعه، وترك شريعتهم لشريعته، ومن لم يفعل فإن الله معذبه «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه».

ومما يعرفنا أن هذه البشارة هي بقية البشارة العظيمة التي أوحى الله بها إلى موسى، وأخبرنا بها القرآن الكريم ـ أن هذه البشارة وردت في موقف معين عندما اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات الله فأخذتهم الرجفة، وذلك بسبب طلبهم رؤية الله ـ جل وعلا ـ فدعا موسى ربه وتوسل إليه، فبعثهم الله من بعد موتهم، قال الله بعد توسل موسى ودعائه: ﴿ **عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...** ﴾ الآيات.

وإذا رجعت إلى التوراة في سفر الخروج تجد أن هذه البشارة إنما أوحى الله بها بعد ذهابه لميقات الله، وتتحدث التوراة عن شيء قريب من الرجفة؛ حيث جاء في التوراة: «وكل الشعب سمع الأصوات وصوت البوق، ونظروا الشهب والجبل دخاناً ونظر كل القوم وتشردوا ووقفوا من بعد...» سفر الخروج الإصحاح (٢٠) من التوراة السامرية[١].

والتوراة التي بين أيدي الناس اليوم محرفة مغيرة يَدُلُّكَ على ذلك هذا الاختلافُ الذي نجده في أمور كثيرة بين نسخها وطبعاتها، فهناك ثلاث نسخ للتوراة: العبرانية، واليونانية، والسامرية، وكل قوم يدعون أن نسختهم هي الصحيحة، وهناك فروق واضحة بين طبعات التوراة وترجماتها.

وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارات، أو طمس معالمها.

ومع ذلك فقد بقي من هذه البشارات شيء كثير، ولا تخفى هذه البشارات على من يتأملها، ويعرضها على سيرة الرسولﷺ متجرداً من الهوى.

والكلام في إيراد هذه البشارات ـ وهي كثيرة ـ يطول[٢].

١ـ انظر الرسل والرسالات ص ١٦٥ـ١٦٦ .

٢ـ انظر الرسل والرسالات ص ١٦٨ـ١٧٣ ففيه ذكر لعدد من تلك البشارات، وانظر الباب الثامن ففيه ذكر وشرح لعدد من البشارات.

المبحث الثاني: بشارة عيسى بمحمد ـ عليهما السلام ـ

لقد بشر عيسى ـعليه السلامـ بمحمدﷺ، وأخبرنا الله ـعز وجلـ في كتابه العزيز بهذه البشارة، قال ـتعالىـ: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ الصف: ٦.

وأحمد من أسماء نبينا محمدﷺ كما ثبت في صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»[١].

وقد مر عند الحديث عن بشارة موسى بمحمد ـعليهما السلامـ ذكر لآية الأعراف، وهي تتضمن وجود وصف النبيﷺ مكتوباً في الإنجيل، كما هو مكتوب في التوراة.

ومما ورد ذكره في القرآن من هذا القبيل ما جاء في سورة الفتح، حيث ضرب الله ـعز وجلـ في التوراة والإنجيل مثلين لرسولناﷺ وأصحابه، فقال ـتعالىـ: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا**﴾ الفتح: ٢٩.

ومن البشارات الموجودة في الإنجيل ما جاء في إنجيل متى الإصحاح (١١) عدد (١٤)

١ـ البخاري (٤٦١٤) ومسلم (٢٣٥٤).

«وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع».

وقد أخبرنا الرسولﷺ أنه ليس بينه وبين عيسى نبي، فيكون إيلياء الذي بشر به عيسى هو محمداًﷺ، وإيليا بحساب الجُمَّل الذي أغرمت به اليهود يساوي محمداً.

وفي إنجيل يوحنا إصحاح (١٤) عدد (١٥) «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، وفي اللغات الأجنبية «فيعطيكم باركليتوس» ليمكث معكم إلى الأبد».

والمعنى الحرفي لكلمة «باركليتوس» اليونانية هو أحمد، وهو من أسماء الرسولﷺ.

وفي إصحاح يوحنا (١٥) عدد (٢٦) «ومتى جاء المعزى الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي» ويشهد لي لأن النبي محمدﷺ شهد للمسيح بالنبوة والرسالة، وروح الحق كناية عن الرسول محمدﷺ، والمعاني الواردة في هذه الترجمة الحديثة ليست دقيقة؛ لأن أصلها باليونانية وهي اللغة التي ترجمت منها هذه الأناجيل ـ مكتوبة «بيركليتوس» وفي التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م، سنة ١٨٣١م، سنة ١٨٤٤م، في لندن تجدها «فارقليط» وهي أقرب إلى العبارة اليونانية المشار إليها، أما ترجمتها في الطبعات الحديثة إلى المعزى فهو من التحريف الذي ذم الله أهل الكتاب به ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ النساء: ٤٦ ».

ويلاحظ أن هناك جملة ساقطة قبل الجملة الواردة في عدد (٢٦) من هذا الإصحاح سقطت من الطبعات الحديثة، لكنها ورادة صراحة في الطبعات القديمة للإنجيل، ونص هذه الجملة: «فلو قد جاء المنحمنا الذي يرسله الله إليكم» ومعنى المنحمنا الحرفي باللغة السريانية محمد[1].

١ـ انظر الرسل والرسالات ص ١٦٥ـ١٦٦، وانظر تفصيل البشارات في الكتب التي تحدثت حول هذا الشأن ككتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وكتاب النبوات وهما لابن تيمية، وكتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، وكتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي؛ ففيها ما يشفي ويكفي.

المبحث الثالث: في أقوال المنصفين من غير المسلمين في محمد ﷺ

كل عاقل منصف لا يسعه إلا الإعجاب بعظمة النبيﷺ والتصديق بما جاء به؛ ذلك أن الأمارات الكثيرة شاهدةٌ بعظمته، ناطقةٌ بصدقه.

ولا ريب أن شهادةَ المخالف لها مكانتها؛ فالفضل -كما قيل- ما شهدت به الأعداء.

وفيما يلي عدد من الشهادات التي أدلى بها جمع من الفلاسفة والمفكرين من غير المسلمين من النصارى وغيرهم.

١- **شهادة الفيلسوف الإنجليزي الشهير (توماس كارليل)** الحائز على جائزة نوبل للسلام، وهذه الشهادة تكاد تكون أشهر وأعظم شهادة نطق بها كاتب غربي، وتكاد تظن أن الذي كتبها مسلم خبير بأحوال النبيﷺ.

وفيما يلي مقتطفات مما قال كارليل في كتابه الأبطال مخاطباً قومه النصارى: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث في هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع مزوِّر.

وإن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟!

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل هذا القبول، فما الناس إلا بُلْهٌ مجانين، فوا أسفا! ما أسوأ هذا الزعم، وما أضعف أهله، وأحقهم بالرثاء والرحمة.

وبعد، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ألبتة

من أقوال أولئك السفهاء؛ فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان.

ولعل العالَم لم يرَ قط رأياً أكفر من هذا وأَلأَم، وهل رأيتم قط -معشر الإخوان- أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً، وينشره علناً؟

والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب؛ فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير، والجص، والتراب، وما شاكل ذلك - فما ذلك الذي يبنيه ببيت، وإنما هو تل من الأنفاق، وكثيب من أخلاط المواد.

نعم، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه، فينهدم؛ فكأنه لم يكن».

إلى أن قال: «وعلى ذلك، فلسنا نَعُدُّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائر.

وما الرسالة التي أدَّاها إلا حقٌّ صراحٌ، وما كلمته إلا قول صادق.

كلا «ما محمد بالكاذب» ولا المُلفِّق، وهذه حقيقة تدفع كل باطل، وتدحض حُجة القوم الكافرين.

ثم لا ننسى شيئاً آخر، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب -وعجيب وأيم الله أُمِّيَة العرب- ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء، أولئك الذين أشبِّههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور.

وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ، صادق العزم بعيداً، كريماً بَرًّا، رؤوفاً، تقياً، فاضلاً، حرًّا، رجلاً، شديد الجد، مخلصاً، وهو -مع ذلك- سهل الجانب،

ليِّن العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة، حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان -على العموم- تضيء وجهه ابتسامةٌ مشرقة من فؤاد صادق؛ لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأقواله».

إلى أن قال: «كان عادلاً، صادق النية، كان ذكي اللب، شهم الفؤاد، لوذعياً، كأنما بين جنبيه مصابيح كلِّ ليل بهيم، ممتلئاً نوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك.

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدين أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية، ومفاخر الجاه والسلطان.

كلا -وأيم الله- لقد كان في فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحكمة، وحِجىً - أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف لا، وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؛ فبينما ترى آخرين يرضون الاصطلاحات الكاذبة، ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمداً لم يرض أن يَتَلَفَّع بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمبتدع الأباطيل.

لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرُّ الوجود يسطع لعينيه -كما قلت- بأهواله، ومخاوفه، وروانقه، ومباهره، ولم يكن هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكان لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه: ها أنا ذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، فإذا تكلم هذا الرجل فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء، وكل قول جفاء».

إلى أن قال: «إذاً فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين أن محمداً كاذب، ونعد موافقتهم عاراً، وسبة، وسخافة، وحمقاً؛ فلنربأ بأنفسنا عنه».

إلى أن قال: «وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقًّا، وجدير أن يُصَدَّق به.

وإنما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به.

وهذا الشيء هو روح جميع الأديان، وروح تلبس أثواباً مختلفة، وأثواباً متعددة، وهي -في الحقيقة- شيء واحد.

وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً جارياً على قواعد الخالق، تابعاً لقوانينه، لا مجادلاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها.

لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها، وحق له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة، وما كان يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنها حطب ميت».

إلى أن قال: «أيزعم الأفَّاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال؟

كلا، ثم كلا، ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تَنُّور فِكْر يضور ويتأجج - ليكون قلب محتال ومشعوذ، لقد كانت حياته في نظره حقًّا، وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة».

إلى أن قال: «مثل هذه الأقوال، وهذه الأفعال ترينا في محمد أخ الإنسانية الرحيم، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق، وابن أمنا الأولى، وأبينا الأول.

وإنني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار رجلاً مستقل الرأي، لا يقول إلا عن نفسه، ولا يدّعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً، ولكنه لم يكن ذليلاً ضَرِعاً، يخاطب بقوله الحرِّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة، وللحياة الآخرة، وكان يعرف لنفسه قدرها.

ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قوة،

ولكنها كذلك لم تخل من دلائل رحمة وكرم وغفران، وكان محمد لا يعتذر من الأولى، ولا يفتخر بالثانية».

إلى أن قال: «وما كان محمد بعابث قط، ولا شابَ شيئاً من قوله شائبةُ لعبٍ ولهوٍ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح، ومسألة فناء وبقاء، ولم يكن منه بإزائها إلا الإخلاص الشديد، والجد المرير.

فأما التلاعب بالأقوال، والقضايا المنطقية، والعبث بالحقائق ـ فما كان من شأنه قط، وذلك عندي أفظع الجرائم؛ إذ ليس هو إلا رقدة القلب، ووسن العين عن الحق، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة.

وفي الإسلام خَلَّة أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر، وأصوب الرأي؛ فنفس المؤمن رابطة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء».

إلى أن قال: «وسع نوره الأنحاء، وعمَّ ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند، ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة، ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل، والمروءة، والبأس، والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة» اهـ.[1]

٢ـ وهذه شهادة قالها (الكونت هنري دي كاستري) وهو أحد وزراء فرنسا، وأحد حكام الجزائر السابقين في كتابه (الإسلام) الذي عرَّبه الأستاذ فتحي زغلول باشا رحمه الله يقول الوزير الفرنسي الكونت: «إن أمة العرب قبل النبي كانت وثنية على وجه العموم، وكان مذهب توحيد الإله يخطر في الأذهان رويداً رويداً، وكان

---

١ ـ انظر الإسلام في نظر أعلام الغرب للأستاذ حسين عبدالله باسلامة ص٨٩ـ٩٥، ومحمد رسول الله ـخلاصة سيرته ومقالات نادرة فيهاـ لمحمد الحمد ص٣٠ـ٣٥.

المشخصون لهذا الاعتقاد فريقاً يقال لهم الأحناف[١] بقوا على مذهب إبراهيم، وأما المسيحيون فكانوا فرقاً كثيرة كلها تعتقد بمذهب التكثير -تعدد الآلهة-.

وتلقى محمد مذهب أولئك الأحناف بحالة سطحية، لكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين تكيف هذا المذهب في وجدانه حتى صار اعتقاداً لم تصل إليه نفسٌ قبله إلا قليلاً، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي أحدث انقلاباً كلياً في النوع البشري.

ومن الخطأ أن نبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه في غير طريقة الأحناف؛ لأن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان -كما وصف نفسه مراراً- نبياً أمياً.

وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس؛ لأن حياة الشرقيين كلَّها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار؛ فثبت -إذن- مما تقدم أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه؛ إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضاً من الكتب المقدسة الأخرى لبقي الأمر مشكلاً كما كان عليه في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني، وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحاً وجسماً؟

ولقد نعلم أنه مرَّ بمتاعب كثيرة، وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يُخْبَر برسالته؛ فقد خلقه ذا نفس تمحضت للدين، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس؛ لكي يهرب من عبادة الأوثان، ولكي ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله -تعالى- اعتكف في جبل حراء، وأرخى عنان التفكير يجول في بحار التأملات عابداً مجتهداً.

---

١ - يقصد بهم: الحنفاء الذين بقوا على الفطرة والتوحيد.

ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل، وقوة الإدراك، لا بوضع المقدمات، وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقول مراراً، ويعيد تكراراً هذه الكلمات «الله أحد، الله أحد» كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده، وغاب عنا ـ معشر المسيحيين ـ مغزاها؛ لبعدنا عن فكرة التوحيد.

ولم يزل عقله مشتغلاً حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الإخلاص.

وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي الذي دل عليه، ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الإسلام «لا إله إلا الله» ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد، ورب صمد، منزه عن النقائص، وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام، ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقًّا هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو ذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته، وأمانته في نبوته».

ثم تكلم عن الوحي، ومعجزات القرآن في بلاغته ومعانيه واعتراف فصحاء العرب بإعجازه، وذكر منهم عتبة بن ربيعة، وذكر مسيلمة الكذاب، وأثبت بطلان ادعائه.

ثم قال: «ولو قال قائل: إن القرآن ليس كلام الله، بل كلام محمد ـ فلا بد لنا على الحالين من الاعتراف بأن تلك الآيات البينات لا تصدر عن مبتدع أبداً، خلافاً لرأي من ذهب إلى تكذيب نبوته، ولعل رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا إلى أن نرمي بالكذب نبياً هو في الحقيقة شخص مليء أمانة وصدقاً».

إلى أن قال: «إذاً ليس محمد من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايوس) ولا نسلم بإنكار هذه الحقيقة، وحينئذ لا

عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضيع خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبيﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين».

ثم قال: «ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل؛ فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمدﷺ ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً».

وقال بعد أن أطال البحث في تحليل ما تقدم، ورد على المتطرفين من المستشرقين فرياتهم على نبي الإسلامﷺ: «وبالجملة فإن الإسلام ما دخل بلداً إلا وصار ذا المقام الأول بين الديانات المسيحية من غير أن يتعرض لمحوها، وعلى هذا يتحقق أن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسالمة المسلمين، ولين جانبهم كان سبباً في سقوط الممالك الغربية».

إلى أن قال: «إن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية، والمسيحية، والوثنية في أفريقيا الشمالية، وفي قسم عظيم من آسيا؛ حتى إنه وجد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حباً في الإسلام كل هذا بغير إكراه».

هذه نبذة وجيزة من نظرية الكونت هنري دي كاستري الوزير الفرنساوي من كتابه (الإسلام) وهذا الكتاب يحتوي على مواضع شتى دحض بها مفتريات القسس، والمبشرين، وبعض المستشرقين المتطرفين الذين لا يقيمون للإنصاف وزناً، وكل ما أذاعوه من التشنيع على الإسلام، وكتابه ونبيه مع أنه قد صرح أنه مسيحي المذهب، ولكن الذي دفعه إلى ذلك هو:

أولاً: حرية الرأي، والإنصاف في القول الحق، وإن كان ذلك ضد مذهبه.

ثانياً: أراد أن يطلع الأمة الفرنساوية على حقيقة الدين الإسلامي؛ لتكون على بينة من أمرها، ولا تغتر بفريات المبشرين الذين يستنزفون أموال أمتهم باسم التبشير لدينهم دون جدوى ولا طائل تحته غير تضحية الأموال الضخمة في سبيل

شهوات القسس، وغطرستهم التي لا حد لها.[١]

٣ـ وهذه شهادة للأستاذ الموسيو (سيديو) الفرنساوي أحد أعلام الإفرنج، وأحد وزراء فرنسا السابقين في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) تعريب علي باشا مبارك رحمه الله في المقدمة بعد ذكره لفضل الأمة العربية فقال: «ثم أتى النبي ﷺ فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب، ووجَّه أفكارها إلى مقصد واحد؛ فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج ـالمار بأسبانيا، وبرتغالـ إلى نهر الكنج ـوهو أعظم أنهار الهندـ وانتشر نور العلوم والتمدن بالشرق والغرب، وأهل أوربا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة، وكأنهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل إليهم من أحاديث اليونان والرومان.

واجتهد العباسيون ببغداد، والأمويون بقرطبة، والفاطميون بالقاهرة في تقدم الفنون، ثم تمزقت ممالكهم، وفقدوا شوكتهم السياسية؛ فاقتصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر أرجاء ممالكهم، وكان لديهم من المعلومات، والصنائع، والاستكشافات ما استفاده منهم نصارى أسبانيا حين طردوهم منها، كما أن الأتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم».[٢]

٤ـ وقال الأستاذ المستشرق (دوزي): «لو صح ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذاب؛ فكيف نعلل انتصاره؟ وما بال فتوحات أتباعه تترى، ويتلو أحدها الآخر؟ وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد؟ وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟

ولقد كانوا يعتقدون أول أمرهم أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة؛ فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة التي كانت تحدث لأقل مناسبة، وانتظروا هذه المعجزة

---

١ ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب ص٢٥ـ٢٨.

٢ ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب ص٢٩.

التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم تلك المعجزات قد طال، وذهب صبرهم أدراج الرياح، وعبثاً حاولوا وقوع هذه المعجزة.

وأعجب من ذلك أن المعجزة -إن لم نقل معجزات- قد حدثت حقًّا في ذلك العصر، وكانت معجزات أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم، وأي معجزة أروع وأعجب من أن نرى شعباً كان إلى زمن قليل في غيابة من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثل لها، وهو يغزو الأرجاء الفسيحة، وينتصر على قطر بعد قطر؛ فَتَدِيْنُ له البلاد بالطاعة والولاء، وتقبل على دينه من كل حدب وصوب راضية غير مكرهة؟

ولو أننا عزونا إقبال المسيحيين على الإسلام إلى الفائدة الشخصية، أو الرغبة في التخلص من الذل والضعة ـ فنحن جديرون أن نقرر أن من الثابت المحقق أن كثيراً من المسيحيين دانوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان» اهـ.[1]

٥ـ وهذه مقولة لشاعر فرنسا (لامارتين):

يقول الأستاذ محمد كرد عليرحمه الله في كتابه المذكرات: «وآخر ما قرأناه في سيرة النبي العربي، وتحليل عمله العظيم، ما قاله شاعر فرنسا العظيم (لامارتين) قال: لم يقصد رجل قط مختاراً أو غير مختار إلى غاية أسمى؛ لأن تلك الغاية كانت فوق طاقة البشر، وهي القضاء على ما دخل من الخرافات بين الخالق والمخلوق؛ ليجعل الله للعبد والعبد لله، وأن يعدّل فكرة الألوهية المعقولة في الوثنية المادية المشوهة.

وما عهد قط رجل مثله قام في وقت قصير بثورة عظيمة مستديمة في العالم؛ لأن الإسلام بعد أقل من قرنين من انتشاره بالدعاة والقوة عم الأقطار العربية الثلاثة، ودعا إلى الله الواحد الأحد في فارس، وخراسان، وما وراء النهر، والهند الغربية، والشام، ومصر، والحبشة، وجميع الأقطار المعروفة من شمالي إفريقية، وعدة

---

١ ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب ص٤٠ـ٤١.

أجزاء من البحر المتوسط، وأسبانيا، وشطر من غاليا (فرنسا).

فإذا كانت عظمة الغاية، وقلة الوسائط، ووفرة النتيجة هي الأسباب الثلاثة التي تبين عن نبوغ المرء ـ فمن يجرؤ أن يُشَبِّهَ بمحمد رجلاً عظيماً من رجال التاريخ الحديث؛ فإن من اشتهر منهم لم يُجَيِّش إلا جيوشاً، ولم يسن إلا قوانين، ولم يؤسس إلا ممالك، فلم يُنْشِئوا فيما أنشأوا إلا دولاً عادية كان حظها أن تداعت أركانها بعدهم.

أما ذاك الرجل فأباد جيوشاً، ووضع شرائع، وأسس ممالك، وأَلَّف بين شعوب، وأقام دولاً، وضم شمل ملايين من البشر في ثلث العالم المعمور، وزاد على ذلك أن بدل أفكاراً، ومعتقداتٍ، وأرواحاً، وأتى بكتاب أصبح كل حرف من حروفه شريعة قومية روحية سرت إلى شعوب من جميع اللغات والعناصر، وطبع هذه الجنسية الإسلامية بطابع ثابت، وقضى على الأرباب المصنوعة، ودعا إلى الاعتقاد بالله الواحد الأحد.

ومن يكون أكثر عظمة إذا قيست العظمة البشرية بكل مظاهرها بعظمة محمد الحكيم الخطيب الداعية المشرع المحارب المبدع في أفكاره، ومؤسس التعاليم القائمة على العقل، وعلى عبادة لا صور فيها، ومنشئ عشرين مملكة أرضية، ومملكة روحية واحدة». [١]

هذا نزر يسير مما ورد في هذا السياق، والشهادات فيه لا تكاد تحصى كثرةً. [٢]

---

١ ـ المذكرات، محمد كرد علي ١٣١٥/٤ـ١٣١٦.

٢ ـ وإذا أردت المزيد من ذلك فارجع إلى كتاب: الإسلام في نظر أعلام الغرب، وكتاب: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، لأحمد علي الملا، ص١٠٣ـ١٠٦.

الباب الرابع

مسائل في علم الغيب

وتحته:

تمهيد

الإيمان بالغيب من أخص صفات المؤمنين؛ فهم يؤمنون بكل ما ورد من الأخبار التي جاءت بها الرسل، وبَلَّغت به عن الله ـ عز وجل ـ.

والأمور المدركة لا تحصر بالمادة وحدها؛ فالملاحدة لما آمنوا بالمادة وحدها حصروا الأمور المدركة في دائرة ضيقة؛ فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه نفوه وأنكروه.

ومن أجل ذلك أنكروا علوم الغيب، وما جاءت به الرسل، وما أُنزلت به الكتب.

وهذا الزعم باطل، شرعاً، وعقلاً، وتجربة؛ ذلك أن الأمور المدركة لا تقتصر على ما أثبته الحس فحسب؛ فهناك مدارك أخرى؛ فهناك الأخبار الصادقة، وأعلاها وأحقها خبر الله ورسله؛ ففي ذلك تبيان لكل شيء.

وإذا نسبت العلوم المدركة بالحس إلى ما جاءت به الرسل من العلوم ـ كانت كقطرة في بحر لجي.

ثم إن هناك أشياء يؤمن بها الناس وإن لم يشاهدوها كالروح مثلاً؛ فهي لا ترى ومع ذلك لو خرجت لأصبح الإنسان جماداً؛ فهل ينكر الروحَ أحدٌ بحجة أنها لا تدخل في المحسوس؟

وكذلك الكهرباء؛ فهل شاهدها أحد؛ إنما يشاهد الناس أثرها، أتكون الكهرباء أيسر أن نؤمن بها وأقرب إلى أن نصدق بها من أن نؤمن بالله الذي أبدعها ضمن ما أبدع من أسرار هذا الكون ؟

ثم إن الملاحدة ينقضون مبدأهم في حصر الإدراك بالمحسوس، والتجربة؛ فهم يثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل لهم تجارب ونظريات أخرى تنفي ما أثبتوه، وتثبت ما نفوه[1].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله ضمن ردوده على الملاحدة: «أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر بها الله ورسوله: لم أنكرتموها؟

فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب، فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك؛ فإن طرق العلم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم؛ فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم؛ فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم؛ فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة، وتخفق مرات؛ فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها، ويفترقون في مقدار الإدراك ـ فكيف تنفون بقية العوالم عوالم السماوات وعوالم الغيب؟ وما هو أعظم من ذلك من أوصاف الرب وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة»[2].

هذا وقد مر شيء من مسائل الإيمان بالغيب عند الحديث عن أركان الإيمان.

وفيما يلي شيء من ذلك من خلال الفصول التالية.

---

١ ـ انظر المذاهب المعاصرة د. عبدالرحمن عميرة ص ١٤٢.

٢ ـ الأدلة والقواطع والبراهين لابن سعدي ص ٣٢٢.

الفصل الأول

عالم الجن والشياطين

وتحته:

المبحث الأول: التعريف بعالم الجن

المبحث الثاني: موت الجن والغاية من خلقهم، ومساكنهم، وقدرتهم

المبحث الثالث: الشيطان وابن آدم

المبحث الرابع: العداوة بين الإنسان والشيطان

المبحث الخامس: الحكمة من خلق الشيطان

المبحث الأول: التعريف بعالم الجن والشياطين

أولاً: معنى كلمة الجن: قال ابن منظور رحمه الله: «جنَّ الشيء يجنه جَنًّا: ستره. وكل شيء ستر عنك فقد جُنَّ عنك».[1]

ومما يمكن أن يتضح به معنى الجن أن يقال: الجن عالم غير عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان.

وسموا جنّاً لاجتنانهم، أي: استتارهم، واختفائهم عن الأبصار: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧).[2]

ثانياً: أصل الجن: أخبرنا الله ـ جلّ وعلا ـ أن الجنّ قد خُلقوا من النار في قوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧)، وقال في سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: ١٥).

وقد قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن وغير واحد في قوله: ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: طرف اللهب، وفي رواية: من خالصه وأحسنه.[3]

وقال النووي في شرحه على مسلم: «المارج: اللهب المختلط بسواد النار»[4].

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقتْ الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[5][6].

---

١ ـ لسان العرب ٩٢/١٣، وانظر أحكام الجان لبدر الدين محمد بن عبدالله الشبلي ص١٩.
٢ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص١١.
٣ ـ البداية والنهاية: ٥٩/١.
٤ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢٣/١٨.
٥ ـ صحيح مسلم: (٢٩٩٦).
٦ ـ انظر أحكام الجان ص ٢٥-٢٩، وعالم الجن والشياطين ص١١.

ثالثاً: خَلْقُ الجن: خلق الجن متقدم على خلق الإنسان ؛ لقوله ـتعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٦ـ٢٧)، فقد نصّ في الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان.[١]

رابعاً: معنى الشيطان: قال ابن منظور رحمه الله : «قيل : الشيطان على وزن فيعال من شطن إذا بعد فيمن جعل النون أصلاً ، وقولهم الشياطين دليل على ذلك.

والشيطان معروف ، وكل عاتٍ متمرد من الجن ، والإنس ، والدواب شيطان» .[٢]

إلى أن قال : «وقيل : الشيطان فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق» .

وقال القاضي أبو يعلى رحمه الله : «الشياطين مردة الجن ، وأشرارهم ، وكذلك يقال : مارد وشيطان من الشياطين»[٣].

خامساً: الشيطان والجان: الشيطان الذي حدثنا الله عنه كثيراً في القرآن من عالم الجنّ ، كان يعبد الله في بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ، وعندما أمره ربُّهُ أن يسجد لآدم أبى السجودَ ، استكباراً وعلواً ، فطرده الله من رحمته.

والشيطان ـكما مرـ في لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد ، وقد أطلق على هذا المخلوق؛ لعتوّه وتمرده على ربّه.

وأطلق عليه لفظ (الطاغوت): ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦ .

وإنما سمي طاغوتاً؛ لتجاوزه حده ، وتمرده على ربه ، وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد.

وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله ، ولذا أسماه الله إبليس.

١ـ انظر عالم الجن والشياطين ص١٢.

٢ـ لسان العرب ١٣/٢٨٣.

٣ـ أحكام الجان ص٢١ .

والبَلَس في لغة العرب : من لا خير عنده ، وأُبلس : يئس وتحيّر .

ويذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل أن يعصي (عزازيل) والله أعلم بمدى صحة ذلك.[١]

سادساً: الشيطان مخلوق: فالذي يطلع على ما جاء في القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك، وليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون: إنه روح الشّر متمثلة في غرائز الإنسان الحيوانية التي تصرفه ـ إذا تمكنت من قلبه ـ عن المثل الروحية العليا.[٢]

سابعاً: أصل الشيطان: سبق القول بأن الشيطان من الجن، وقد نازع في هذه المسألة بعض المتقدمين والمتأخرين، وحجتهم في ذلك قوله ـتعالىـ: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ البقرة: ٣٤.

وأمثال هذه الآية التي يستثني الله فيها إبليس من الملائكة ، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة .

وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلاً قاطعاً ، لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً، بل هو كذلك حقًّا، للنصّ على أنّه من الجن في قوله ـتعالىـ : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ**﴾ الكهف: ٥٠ .

والذي عليه المحققون من أهل العلم أن إبليس من الجن، وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس، فقد قال النبيﷺ : «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**».[٣]

---

١ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص١٦.

٢ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص١٧.

٣ ـ أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

قال الحسن البصري: «لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين».[١]

والذي حققه ابن تيمية: «أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله، ولا باعتبار مثاله».[٢]

ثامناً: التكذيب بعالم الجن والشياطين والرد على من زعم ذلك: أنكرت طائفة من الناس وجود الجنّ إنكاراً كلياً، وزعم بعض المشركين: أن المراد بالجن أرواح الكواكب.

وزعمت طائفة من الفلاسفة: أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة، كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم.[٣]

وزعم فريق من الـمُحْدَثين: أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة.

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم، وعدم العلم ليس دليلاً، وقبيح بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم علمه بوجوده، وهذا مما نعاه الله على الكفرة: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ يونس: ٣٩.

وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن يكابر فيها، أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك؟ وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها، حتى إذا اخترعنا (الراديو)، واستطاع التقاط ما لا نسمع بآذاننا صدقنا بذلك ؟!

وهل كان أحد سيصدق قبل مئات السنين أنك تستطيع محادثة إنسان عبر الصوت والصورة وأنت في أقصى الدنيا، وهو في أقصاها من الناحية الأخرى؟

فالقول الحق -إذاً- أن الجن عالم ثالث غير الملائكة والبشر، وأنهم مخلوقات عاقلة

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ٧٩/١.

٢ ـ انظر مجموع الفتاوى ٣١٦/٤، وانظر عالم الجن والشياطين ص١٧ـ١٨.

٣ ـ انظر مجموع الفتاوى ٢٨٠/٢٤، و ٣٤٦/٤.

واعية مدركة، ليسوا بأعراض ولا جراثيم، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون.[١]

ومن الأدلة على ذلك: التواتر، يقول ابن تيمية رحمه الله: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن.

أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كالجهمية والمعتزلة، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرّين بذلك.

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفاتٍ وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة؛ فلما كان أمر الجن متواتراً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة ـ فلا يمكن لطائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم».[٢]

وقال: «جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن، وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرهم من أولاد حام، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث، فجماهير الطوائف تقرّ بوجود الجن».[٣]

هذا وقد جاءَت نصوص كثيرة تقرر وجودهم كقوله ـتعالىـ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الجن: ١.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن: ٦.

وهي نصوص كثيرة تغني كثرتها وشهرتها عن ذكرها.[٤]

---

١ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص١٢ـ١٣.

٢ ـ مجموع الفتاوى ١٩/١٠.

٣ ـ انظر مجموع الفتاوى ١٩/١٣.

٤ ـ انظر أحكام الجان ص ١٧ـ١٩، وعالم الجن والشياطين ص١٢ـ١٥.

المبحث الثاني: موت الجن والغاية من خلقهم، ومساكنهم وقدرتهم

أولاً: موت الشياطين ومقدار أعمارهم: لا شك أن الجن - ومنهم الشياطين - يموتون؛ إذ هم داخلون في عموم قول الله -تعالى-: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ الرحمن: ٢٦-٢٨.

وقد جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**».[١]

أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس، أنه سيبقى حيّاً إلى أن تقوم الساعة كما في قوله -عز وجل- عنه: ﴿**قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ**﴾ الأعراف: ١٤-١٥.

أما غيره فلا ندري مقدار أعمارهم.[٢]

ثانياً: مساكن الجن: الجن يسكنون هذه الأرض التي نعيش فوقها، ويكثر تجمعهم في الخراب والفلوات، ومواضع النجاسات كالحمامات، والحشوش، والمزابل، والمقابر، ونحو هذه الأماكن، التي هي مأوى الشياطين[٣].

وقد جاءت الأحاديث ناهية عن الصلاة في الحمام؛ لأجل ما فيها من نجاسة، ولأنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة؛ لأنها ذريعة إلى الشرك.

ويكثر تجمعهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسدوا فيها كالأسواق، فقد أوصى سلمان الفارسي رضي الله عنه أحد أصحابه قائلاً: «لا تكونن -إن استطعت- أول من يدخل

---

١ - رواه مسلم (٢٤٥١).

٢ - انظر عالم الجن والشياطين ص٢٢.

٣ - انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص ٦١-٦٣، وأحكام الجان ص ٤٠-٤٣.

السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته».[١]

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس، وتطردها التسميةُ، وذكرُ الله، وقراءةُ القرآن، خاصة سورة البقرة، وآية الكرسي منها، وأخبر الرسولﷺ أن الشياطين تنتشر، وتكثر بحلول الظلام.

والشياطين تهرب من الأذان ولا تطيق سماع صوته، وفي رمضان تُصَفّد الشياطين.[٢]

ثالثاً: قدرة الجن: أعطى الله الجنّ قدرة لم يعطها للبشر، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم، فمن ذلك **سرعة الحركة والانتقال**؛ فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش مَلِكَةِ اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوسه.

قال الله ـعز وجل ـ عن ذلك: ﴿**قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي...**﴾ النمل: ٣٩ـ٤٠.[٣]

رابعاً: الغاية من خلق الجن: خلق الله الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها: ﴿**وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ**﴾ الذاريات: ٥٦.

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهٍ فمن أطاع رضي الله عنه، وأدخله الجنة، ومن عصى وتمرد فله النار، يدلّ على ذلك نصوص كثيرة.

ففي يوم القيامة يقول الله مخاطباً كَفَرَةَ الجن والإنس موبخاً مبكتاً: ﴿**يَٰمَعۡشَرَ**

---

١ ـ أخرجه مسلم (٢٤٥١).

٢ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٢٢ـ٢٣.

٣ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٢٥.

ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأنعام: ١٣٠.

ففي هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم.

والدليل على أنهم سيعذبون في النار قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ ﴾ الأعراف: ٣٨.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

وقال: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ السجدة: ١٣.

والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله -تعالى-: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦-٤٧.

والخطاب هنا للجن والإنس؛ لأن الحديث في مطلع السورة معهما، وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمني الجن بأنهم سيدخلون الجنة، ولولا أنهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به.[1]

---

١ - انظر أحكام الجان ص٥٣، وعالم الجن والشياطين ص٤١.

المبحث الثالث: الشيطان وابن آدم

للشيطان تسلط على بني آدم، ولهم علاقة ببعض البشر الذين يسلمون قيادهم للشيطان، فيطيعونه في معصية الله ـ عز وجل ـ.

وله مع بعضهم معارك، وصراعات، وفيما يلي مسائل في علاقة الشيطان مع ابن آدم.

أولاً: جريان الشيطان في ابن آدم مجرى الدم: جاء في الصحيحين عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**».[1]

وجاء في الصحيحين عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثمّ قمت فانقلبت، فقام معي لِيَقْلِبَني ـيردني ـ وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رِسْلِكما، إنها صفية بنت حيي**».

فقالا: سبحان الله يا رسول الله !! قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً**»، أو قال: «**شيئاً**».[2]

ثانياً: ضعف الشياطين وقُوَّتُهم: الشياطين يتسلطون على بني آدم لاغوائهم، وقد مكنهم الله بحكمته، وقدره الكوني من ذلك.

ومع هذا فإن سلطان الشياطين يقوى ويضعف بحسب قوة إيمان الإنسان وضعفه، ويقظته فإذا قوي إيمان الإنسان، ويقظته ضعف تسلط الشيطان عليه والعكس؛ فالشياطين فيهم جوانب قوة، وجوانب ضعف، قال ـتعالىـ: ﴿**إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ النساء: ٧٦.

---

١ ـ رواه البخاري (٧١٧١)، ومسلم (٢١٧٥).

٢ ـ رواه البخاري (٣١٠٧)، ومسلم (٢١٧٥).

ولم يعط الرَّب -سبحانه- الشيطان القدرة على إجبار الناس، وإكراههم على الضلال والكفر، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٦٥، وقال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ سبأ: ٢١.

ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط بها عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، وإنما من جهة التزيين، والإغواء.

والشيطان يدرك هذه الحقيقة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الحجر: ٣٩-٤٠.

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بإغوائه، ويتابعونه عن رضا وطواعية، قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الحجر: ٤٢.

وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ إبراهيم: ٢٢.

وفي آية أخرى يبين الله -عز وجل- أن سلطان الشيطان إنما هو على الذين يتولونه، قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ النحل: ١٠٠ [١].

والسلطان الذي أعطيه الشيطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم، بحيث يَؤُزُّهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه، كما قال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ مريم: ٨٣، ومعنى تؤزهم: تحركهم، وتهيجهم، وتزعجهم إزعاجاً شديداً.

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس لهم فيه حجّة وبرهان، وإنما استجابوا له

---

١ - انظر عالم الجن والشياطين ص٣٢.

بمجرد دعوته إياهم لما وافقت أهواءَهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته، فلما أعطوه أيديهم، واستأسروا له سُلّط عليهم عقوبةً لهم؛ فالله لا يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى يجعل له العبد سبيلاً بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذٍ له عليه تسلطاً وقهراً.

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم، وقد حدثنا الله في كتابه عن شخص آتاه الله آياته، فعلمها، وعرفها، ثمّ إنه ترك ذلك كله، فسلط الله عليه الشيطان، فأغواه، وأضله، وأصبح عبرة تروى، وقصة تتناقل قال ـعز وجل ـ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٥ـ١٧٦.

وواضح أن هذا مَثَلٌ لمن عرف الحق، وكفر به كالذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه، ثم هم يكفرون به.

وهذا الصنف ـالذي يؤتى الآيات ثم يكفرـ صنف خطر، به شَبَه من الشيطان؛ لأنّ الشيطان كفر بعد معرفته الحق[١].

ولكن إذا تمكن العبد في الإسلام، ورسخ الإيمان في قلبه، وكان وقّافاً عند حدود الله، فإنّ الشيطان يخاف منه، ويفرّ منه، كما قال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إن الشيطان ليخاف منك يا عمر**»[٢].

كما في صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال

١ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص ٣٢ـ٣٣.

٢ ـ أخرجه الترمذي (٢٩١٣).

لعمر بن الخطاب «**والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك**» .[١]

وليس ذلك خاصًّا بعمر؛ فإن مَن قوي إيمانه قهر شيطانه ، وأذله ، كما جاء عند الإمام أحمد : «**إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر**» .[٢]

قال ابن كثيرﷺ : «**لينضي شيطانه**» : أي يهزله ، ويجعله نضواً ، أي مهزولاً لكثرة إذلاله له ، وجعله أسيراً تحت قهره وتصرفه»[٣].

ويروى الحديث بالصاد : «**لينصي**» ومعنى «**لينصي شيطانه**» : لَيَأْخُذُ بناصيته ، فيغلبه ، ويقهره ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه.[٤]

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣٢٩٤).

٢ ـ أخرجه أحمد (٨٩٢٧).

٣ ـ البداية والنهاية ٧٣/١ .

٤ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٣١ـ٣٥.

المبحث الرابع: العداوة بين الإنسان والشيطان

أولاً: أسباب العداء وتاريخه: العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، يعود تاريخه إلى اليوم الذي صور الله فيه آدم، قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ففي صحيح مسلم عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لما صوّر الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك**».[1]

فلما نفخ الله في آدم الروح أمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء، فشمله الأمر، ولكنه تعاظم في نفسه واستكبر، وأبى السجود لآدم: ﴿ **قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ** ﴾ الأعراف: ١٢.

لقد فتح أبونا آدم عينيه فإذا به يجد أعظم تكريم؛ يجد الملائكة ساجدين له، ولكنّه يجد عدواً مبيناً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال.

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره، وحصل على وعد من الله بإبقائه حيّاً إلى يوم القيامة: ﴿ **قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ** ﴾ الأعراف.

وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بني آدم: ﴿ **قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ** ﴾ الأعراف.

وقوله هذا يصور مدى الجهد الذي يبذله لإضلال بني آدم، فهو يأتيه من كل طريق، عن اليمين وعن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف؛ أي من جميع الجهات.[2]

---

١ ـ مسلم (٢٦١١).

٢ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٥٣.

ثانياً: تحذير الله لنا من الشيطان: لقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان؛ لعظم فتنته، ومهارته في الإضلال، ودأبه وحرصه على ذلك، قال الله -عز وجل-: ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ** ﴾ الأعراف: ٢٧.

وقال: ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ** ﴾ فاطر: ٦، وقال: ﴿ **وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا** ﴾ النساء: ١١٩.

وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول؛ لأنه يرى أن طرده ولعنه وإخراجه من الجنة كان بسبب أبينا آدم، فلا بدّ أن ينتقم من آدم وذريته من بعده: ﴿ **قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا** ﴾ الإسراء: ٦٢.[1]

ثالثاً: غاية ما يسعى إليه الشيطان: أما غاية ما يسعى إليه الشيطان فهو أن يلقي الإنسان في الجحيم، ويتسبب في حرمانه من الجنة.

وإذا لم يستطع ذلك سعى إلى ما هو دون ذلك؛ فهو يسعى -في الأصل- إلى إيقاع العباد في الشرك والكفر، وإذا لم يستطع رضي منهم بأن يقعوا في الذنوب التي هي دون الشرك والكفر، وسعى في إيقاع العداوة بينهم، وصدهم عن طاعة الله، وإفساد طاعاتهم، وتخويفهم بالفقر، وأمرهم بكل ما هو قبيح إلى غير ذلك مما يأمر به الشيطان، ويسعى إليه؛ فإنْ هم أطاعوه في أمر سعى إلى أن يهبطوا أكثر مما وقعوا به؛ فلا يزال بهم حتى ينزلهم إلى أقصى ما يستطيع من دركات الحضيض.

رابعاً: جنود الشيطان: إبليس هو قائد المعركة مع بني الإنسان، وله جنود من الجن؛ فلكل إنسان قرين من الجن لا يفارقه كما في حديث عائشة عند مسلم: أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: «**ما لك يا عائشة؟ أغرت؟**» فقلت: وما لي لا يغار مثلي على

---

١ - انظر عالم الجن والشياطين ص٥٤.

مثلك ؟ فقال ﷺ : «**أقد جاءك شيطانك**» .

قلت : يا رسول الله ، أو معي شيطان؟ قال : «**نعم**» ، قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : «**نعم**» ، قلت : ومعك يا رسول الله؟ قال : «**نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[١] .

قيل في معنى قوله : «**فأسلم**» : قيل : أَسْلَمَ يعني الشيطان ، فيكون الفعل ماضياً.

وقيل : أَسْلَمُ : أي أَسْلَمُ من شره ، فيكون الفعل مضارعاً[٢] .

كما أن للشيطان جنوداً من الإنس ممن يسيرون على خطاه ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** ﴾ البقرة : ٢٥٧[٣] .

خامساً : أساليب الشيطان في إضلال الإنسان: الشيطان لا يأتي الإنسان مباشرة ، فيقول له : اترك هذه الأمور الطيبة ، وافعل تلك الأمور القبيحة؛ كي تشقى في دنياك وأخراك؛ لأنه لو فعل ذلك لما أطاعه أحد.

ولكنه يسلك طرقاً شتى يضل بها عباد الله كتزيين الباطل ، وتسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة ، وكدخوله من باب الإفراط والتفريط ، وكتثبيطه العبادَ عن العمل ، ورميهم بالتسويف والكسل ، وكوعده لهم بالوعود الكاذبة ، والأماني المعسولة؛ كي يوقعهم في الضلال : ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ النساء : ١٢٠.

ومن أساليب الشيطان في إغواء بني آدم أنه يتدرج في إضلالهم ، وينسيهم ما

---

١ ـ أخرجه مسلم (٢٨١٥).

٢ ـ انظر أحكام الجان ص٤١ .

٣ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٦٤ـ٦٥.

فيه خيرهم وصلاحهم، ويخوفهم أولياءه، ويدخل إلى النفوس من الباب الذي تحبه، ويتسلل إلى الإنسان من خلال مكامن الضعف التي تغلب عليه كالمرض، والشهوة، والغضب، واليأس، والجهل، والغفلة، والبخل، وحب النساء، وشدة الفرح، وشدة الحزن، ونحو ذلك.

سادساً: طريقة وصول الشيطان إلى قلب الإنسان: الطريقة هي الوسوسة، فالشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها، ولا نعرف كيفيتها، يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها، وهذا هو الذي يسمى بالوسوسة، وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه: ﴿**ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ**﴾ الناس: ٤ـ٥ .

فالشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقد ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**».[١]

والإنسان يشعر من نفسه بأثر هذه الوسوسة، التي تغويه، وتغريه بفعل المعصية، والغفلةِ عن عواقبها.

وبهذه الوسوسة أضل الشيطانُ آدمَ، وأغواه بالأكل من الشجرة، قال الله ـعز وجلـ: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ**﴾ طه: ١٢٠.[٢]

سابعاً: أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان: مع شدة عداوة الشيطان، وعظم كيده، وحرصه على إضلال بني آدم ـ فإنه يخسأ ويخنس، ويرجع ذليلاً صاغراً إذا أخذ المؤمن بالأسباب التي تقيه من الشيطان الرجيم، ومن تلك الأسباب

---

١ ـ البخاري (٣١٠٧)، ومسلم (٢١٧٤).

٢ ـ انظر عالم الجن والشياطين ص٦٧ـ٩١.

على سبيل الإجمال: أخذ الحذر والحيطة، والالتزام بما جاء بالكتاب والسنة، والاستعاذة الصادقة بالله -عز وجل- من شر الشيطان، والمحافظة على ذكر الله، ومعرفة أساليب الشيطان، والتزود بالعلم النافع، والمبادرة إلى التوبة والاستغفار إلى غير ذلك من الأسباب المعينة على دحر الشيطان.[1]

---

١ - انظر عالم الجن والشياطين ص١٢٧-١٤٩.

المبحث الخامس: الحكمة من خلق الشيطان

الله ـ عز وجل ـ خلق إبليس الذي هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا، في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات، وهو سبب لشقاوة العباد، وعَمَلِهم ما يغضب الله ـ عز وجل ـ وذلك لحكم عظيمة كثيرة، منها ما يلي:

١ـ أن يَظهر للعباد قدرةُ الرب ـ تعالى ـ على خلق المتضادات والمتقابلات: فخلق هذه الذات ـ إبليس ـ التي هي أخبث الذوات، وهي سبب كل شر، وخَلَق في مقابلها ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها، والتي هي مادة كل خير، فتبارك من خلق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والحر والبرد، والماء والنار، والداء والدواء، والموت والحياة، والحسن والقبيح، فالضد يظهر حسنه الضد، وهذا أدلُّ دليل على كمال قدرته، وعزته، وملكه، وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محل تصرفه، وتدبيره، وحكمته، فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه، وتدبير مملكته[١].

٢ـ أن يُكَمِّلَ الله لأوليائه مراتب العبودية: وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه، وإغاظته بالطاعة لله، والاستعاذة بالله منه، واللجوء إلى الله أن يعيذهم منه ومن كيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية، والأخروية ما لا يحصل بدونه.

ثم إن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا، ونحوها أحب أنواع العبودية لله، وهذه إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس، وتقديم محبته ـ عز وجل ـ على كل من سواه، فكان خلق إبليس سبباً لوجود هذه الأمور[٢].

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٠ـ١٩١.

(٢) انظر الحكمة والتعليل في أفعال العباد ص٢٠٥.

٣ـ حصول الابتلاء: ذلك أن إبليس خُلق ليكون محكًّا يمتحن به الخلق؛ ليتبين به الخبيث من الطيب؛ فإن الله ـ سبحانه ـ خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها الطيب والخبيث؛ فلا بد أن يظهر فيهم ما هو من مادتهم[١].

٤ـ ظهور آثار أسمائه ـ تعالى ـ ومقتضياتها، ومتعلقاتها: فمن أسمائه: الرافع، الخافض، المعز، المذل، الحكم، العدل[٢].

وهذه الأسماء تستدعي متعلقاتٍ يظهر فيها أحكامُها، فكان خلق إبليس سبباً لظهور آثار هذه الأسماء، فلو كان الخلق كلهم مطيعين، ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء.

٥ـ استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر: فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد؛ فَخُلق الشيطانُ مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل؛ فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيها؛ ليترتب عليه آثاره، وما في أولئك من الشر؛ ليترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له، مطابقاً لعلمه السابق[٣].

٦ـ ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعه: فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكفَّارة الظالمة ظهور كثير من الآيات والعجائب، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله على يد موسى، وغير ذلك من

---

(١) انظر الحكمة والتعليل ص٢٠٥، وعالم الجن والشياطين د. عمر الأشقر ص١٩٠.

(٢) انظر مدارج السالكين ١٩١/٢، وعالم الجن والشياطين ص١٩١.

(٣) انظر شفاء العليل ص٤٩٤ـ٤٩٥، ومدارج السالكين ١٩٢/٢ـ١٩٣.

الآيات؛ فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

أما كونه ـ سبحانه وتعالى ـ أنظر إبليس إلى يوم القيامة ـ فليس ذلك إكراماً له، بل إهانة له ليزداد إثماً، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، إضافة إلى ذلك فالله جعله محكًّا ليميز به الخبيث من الطيب ـ كما سبق ـ وما دام أن الخلق مستمر إلى يوم القيامة ـ فإن هذا يقتضي بقاءه ببقاء خلق البشر، والله أعلم[1].

(١) انظر مدارج السالكين ٢/١٩٣.

الفصل الثاني

الموت والبرزخ والقبر

وتحته:

المبحث الأول: الموت والبرزخ، والقبر وفتنته

المبحث الثاني: نعيم القبر وعذابه

المبحث الثالث: الرد على من أنكر عذاب القبر ونعيمه

المبحث الأول: الموت والبرزخ، والقبر وفتنته

أولاً: الموت

١ـ تعريف الموت: الموت ضد الحياة، ونقيضها.

قال القرطبي ﷺ في تعريفه: «قال العلماء: الموت ليس بعدمٍ مَحْض، ولا فناء صِرْف، وإنما هو انقطاعُ تعلُّق الروحِ بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتَبَدُّل حالٍ، وانتقال من دار إلى دار»[(١)].

٢ـ الموت يأتي فجأة: قال القرطبي ﷺ: «وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سنٌّ معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم؛ وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعدًّا لذلك»[(٢)].

ثانياً: البـرزخ

١ـ تعريفه في اللغة: البرزخ في كلام العرب هو الحاجز بين الشيئين.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ الفرقان: ٥٣: أي حاجزاً.

٢ـ البرزخ في الشرع: «هو الدار التي تعقب الموت إلى البعث.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠٠.

قال مجاهد: هو ما بين الموت والبعث.

وقيل للشعبي: مات فلان، قال: ليس هو في دار الدنيا، ولا في الآخرة»[(٣)].

وقال ابن القيم ﷺ: «البرزخ: هو ما بين الدنيا والآخرة، وهذا البرزخ يُشْرِف أهله فيه على الدنيا والآخرة»[(٤)].

---

(١) التذكرة ص ٤.

(٢) التذكرة ص ١٠.

(٣) التذكرة ص٢٠٠.

(٤) انظر الروح ص ١٢٨.

ثالثاً: القبر وفتنته

١ ـ **تعريفه**: القبر مدفن الإنسان، وجمعه قبور، والمقبُرة بفتح الباء وضمها موضع القبور، والمقبَر: موضع القبر[1].

٢ ـ **فتنة القبر**: الفتنة تطلق على عدة معان، منها الاختبار والامتحان، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ طه: ١٣١.

وتطلق على الشرك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ البقرة: ١٩٣.

وتطلق على الإحراق والتعذيب بالنار كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ البروج: ١٠.

وفتنة القبر: هي سؤال الملكين الميتَ بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه.

٣ ـ **صفة فتنة القبر**: إذا دفن الميت في قبره تُعادُ له الروح، فَيُسأل، ويقال له: مَنْ ربُّك، وما دينك، ومن نبيك؟

فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد.

ويضل الله الظالمين، فيقول الكافر: هاه، هاه لا أدري.

ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

وقد جاءت صفة فتنة القبر في عدة أحاديث منها ما جاء في حديث البراء ابن عازب ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يُلْحد له، فقال: «**أعوذ بالله من فتنة القبر**» ثلاث مرات. الحديث

وفيه عن العبد المؤمن «**فتعاد له روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول ديني**

---

(١) انظر لسان العرب ٥/٦٨.

الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول رسول الله، فيقولان له: ما عِلمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به، وصدقتُ، فينادي منادٍ من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة».

وفيه عن العبد الكافر «**ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك، فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه لا أدري؛ فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار؛ فيأتيه من حرها، وسمومها، ويضيق عليه في قبره، حتى تختلف أضلاعه**»[(١)].

٤ ـ **وصف الملكين وتسميتها**: جاء في بعض الأحاديث وصف الملكين الموكلين بفتنة القبر، وتسميتها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا قبر أحدكم ـ أو الإنسان ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير**»[(٢)].

٥ ـ **هل تفتن الأمم السابقة في قبورها أو أن ذلك خاص بهذه الأمة؟**: قال بعض العلماء: إن الأمم السابقة لا تفتن في قبورها؛ بحجة أنها رفضت الاستجابة لرسلها، فعوجلت بالعذاب وأن هذه الأمة قد أُمسك عنها العذاب، وبعث الرسول بالسيف فمن دخل الإسلام مخافة القتل ثم نافق عذب في قبره.

وهذا القول محل نظر، والصحيح أن الأمم السابقة تفتن في قبورها، وتعذب

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨٧/٤ ـ ٢٨٨، وأبوداود (٤٧٥٣)، والحاكم ٣٧/١ ـ ٤٠، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وصححه ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود ١٣٩/٧ ـ ١٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وقال حسن غريب، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤) قال الألباني: «وإسناده حسن، وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين بمنكر ونكير».

أو تنعم.

ومن الأدلة في ذلك ما جاء في عذاب آل فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ غافر: ٤٦.

وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرتِ أنكم تفتنون في القبور؟

قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «**إنما تفتن اليهود**».

قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ بعد: «**وهل شعرت أنه أوحي إليَّ: تفتنون في القبور**».

قالت عائشة: «فسمعت رسول الله ﷺ بعد ذلك يستعيذ من عذاب القبر»[1].

قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر الخلاف في هذه المسألة: «والظاهر ـ والله أعلم ـ أن كل نبي مع أمته كذلك، وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم، وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال، وإقامة الحجة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم»[2].

٦ ـ هل يفتن الكافر في قبره؟: الصحيح أنه يفتن، فالفتنة عامة للكافر وغيره، كما مر في الأحاديث الماضية من أن الكافر أو المنافق يقول إذا سُئل «هاه هاه لا أدري».

٧ ـ هل الأطفال يمتحنون في قبورهم؟: الجواب أن هذه المسألة قد اختلف فيها على قولين:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨٤).

(٢) الروح ص١٤٩، وانظر تفصيل الخلاف في ص ١٤٧ ـ١٤٩.

الأول: قول من قال: إنهم يسألون، وحجة أولئك أنه يُشْرَعُ الصلاةُ عليهم، وسؤالُ الله أن يقيهم عذابَ القبر وفتنة القبر.

الثاني: قَوْلُ مَنْ قال بأنهم لا يُسألونَ؛ لأن السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والْمُرْسِل، فيسأل: هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا.

أما الطفل الذي لا تمييز له بوجه ما ـ كيف يسأل؟[1]

والذي يظهر من كلام ابن تيمية، وابن القيم ـ رحمهما الله ـ أنهما يميلان إلى القول الأول.

وهذا ما سيتضح في الفقرة التالية.

٨ ـ **هل يفتن غير المكلف؟**: الجواب أن هذه المسالة قد اختلف فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في هذه الفتنة من حديث البراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبي هريرة وغيرهم ـرضي الله عنهمـ.

وهي عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم، وكذلك اختلف في غير المكلفين كالصبيان والمجانين؛ فقيل يفتنون وقيل لا يفتنون؛ لأن المحنة إنما تكون للمكلفين، وهذا قول القاضي وابن عقيل.

وعلى هذا فلا يلقنون بعد الموت.

وقيل يلقنون، ويفتنون ـ أيضاً ـ.

وهذا قول أبي حكيم، وأبي الحسن بن عبدوس، ونقله عن أصحابه، وهو مطابق لقول من يقول: إنهم يكلفون يوم القيامة كما هو قول أكثر أهل العلم، وأهل السنة من أهل الحديث والكلام، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري﵁

---

(١) انظر تفاصيل هذه المسالة في مجموع الفتاوى ٢٥٧/٤ و٢٧٧ ـ٢٨١، وكتاب الروح ص١٤٩ ـ١٥١.

عن أهل السنة، واختاره، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد»[١].

وقال في موضع آخر بعد كلام قريب من الكلام السابق بعد أن ذكر حجة القائلين بالقول بأنهم يفتنون: «ومن قال بالأول: يستدل بما في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى على صغير لم يعمل خطيئة قط فقال: «**اللهم قه عذاب القبر، وفتنة القبر**» وهذا يدل على أنه يفتن.

وأيضاً فهذا مبنيٌّ على أن أطفال الكفار الذين لم يكلفوا في الدنيا يكلفون في الآخرة، كما وردت بذلك أحاديث متعددة.

وهو القول الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة؛ فإن النصوص عن الأئمة كالإمام أحمد وغيره: الوقف في أطفال المشركين كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل عنهم فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**».

وثبت في صحيح البخاري أن منهم من يدخل الجنة.

وثبت في صحيح مسلم أن الغلام الذي قتله الخَضِر طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً.

فإن كان الأطفال وغيرهم منهم شقي وسعيد فإذا كان ذلك لامتحانهم في الدنيا لم يمنع امتحانهم في القبور.

لكن هذا مبني على أنه لا يُشهد لكل معين من أطفال المؤمنين بأنه في الجنة، وإن شُهد لهم مطلقاً، ولو شهد لهم مطلقا؛ فالطفل قد يكون منافقاً بين مؤمنين، والله أعلم»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه[٣] فليس المراد بعذاب القبر

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/٢٥٧ وانظر ٤/٢٧٧ ـ٢٨١.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/٢٨١.

(٣) يعني الحديث الذي مضى ذكره قبل قليل، حديث أبي هريرة أنه ﷺ صلى على صغير لم يعمل خطيئة قط، فقال: «**اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر**».

فيه عقوبة على الطفل على ترك طاعة ، أو فعل معصية؛ فإن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله.

بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذي يحصل للميت بسبب غيره ، وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله.

ومنه قوله ﷺ : «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله** » أي يتألم ، ويتوجع منه ، لا أنه يعاقب بذنب الحي : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الأنعام: ١٦٤ .

وهذا كقول النبي ﷺ : «**السفر قطعة من العذاب**» .

فالعذاب أعم من العقوبة.

ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل؛ فيتألم به؛ فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله ـ تعالى ـ له أن يقيه ذلك العذاب ، والله أعلم»[1].

---

(١) الروح ص١٥٠ـ١٥١.

المبحث الثاني: نعيم القبر وعذابه

أولاً تعريفه: هو اسم لما يحصل في البرزخ من النعيم أو العذاب، وهو نتيجة لفتنة القبر؛ فنعيم القبر للمؤمنين الصادقين، وعذابه للظالمين من المنافقين والكافرين.

ثانياً: تواتر الأخبار في نعيم القبر وعذابه:

يقول شارح الطحاوية: «لقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان أهلاً لذلك؛ فيجب اعتقاد ذلك، والإيمان به»[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومذهب سائر المسلمين، بل وسائر أهل الملل إثبات القيامة الكبرى، وقيام الناس من قبورهم والثواب والعقاب هناك، والثواب والعقاب في البرزخ ـ ما بين الموت إلى القيامة ـ هذا قول السلف قاطبة، وأهل السنة والجماعة، وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع»[2].

ثالثاً: نعيم القبر وعذابه في القران الكريم: نعيم القبر وعذابه في البرزخ مذكور في غير ما آية؛ حيث وردت إشارات في القرآن تدل على وقوعه.

وقد ترجم البخاري رحمه الله في كتاب الجنائز لعذاب القبر، فقال: «باب ما جاء في عذاب القبر».

ثم ساق في الترجمة قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الأنعام: ٩٣.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ التوبة: ١٠١.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٩.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/٢٦٢.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ غافر[1].

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان المنافقين قبل عذاب يوم القيامة.

العذاب الأول: ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده، وإما بأيدي المؤمنين.

والعذاب الثاني: عذاب القبر، قال الحسن البصري: «سنعذبهم مرتين: عذاب الدنيا وعذاب القبر»[2].

وقال الطبري: «والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع، أو السبي، أو القتل والإذلال، وغير ذلك»[3].

والآية الثالثة حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر؛ فإن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً، وهذا قبل يوم القيامة؛ لأنه ـ عز وجل ـ قال بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ غافر: ٤٦.

قال القرطبي: «الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر»[4].

وهناك آيات أخرى تشير إلى عذاب القبر ونعيمه غير ما ذكر[5].

---

(١) صحيح البخاري باب ٨٧ ص٢٦٦.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٢٣٣/١١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق

(٥) انظر تفصيل ذلك في كتاب الروح ص١٢١ـ١٣٤، وأهوال القبور، وأحوال أهلها إلى النشور لابن رجب الحنبلي ص٤١ـ٦٠، والقيامة الصغرى ص٤٨ـ٥١.

رابعاً: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه بلا كيفية:

فالشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكن قد يأتي بما تحار فيه العقول؛ فإن عودة الروح للجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا[١].

خامساً: هل عذاب القبر ونعيمه خاص بمن دفن في قبر، أو هو شامل؟

والجواب عن ذلك أن عذاب القبر ونعيمه شامل لمن دفن في قبر أو غيره؛ فكل من مات وهو مستحق للعذاب أو النعيم ناله نصيبه منه، سواء قبر أم لم يقبر، وسواء كان في فلاة، أو في مكان يحفظ فيه كالثلاجة، أو أنه قد أكلته السباع، أو احترق حتى صار رماداً ونسف بالهواء، أو صلب، أو غرق في البحر، أو غير ذلك؛ فالعذاب أو النعيم يصل إليه كما يصل إلى المقبور.

وإنما سمي عذاب القبر ونعيمه باعتبار الغالب والأصل[٢].

سادساً: هل عذاب القبر ونعيمه على البدن أو على الروح؟

الجواب أن عذاب القبر ونعيمه يكون على البدن والروح معاً.

قال ابن تيمية رحمه الله: «مذهب سلف الأمة، وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمةً أو معذبةً، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، فيحصل له معها النعيم والعذاب»[٣].

وقال: «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس، وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها، فيكون العذاب والنعيم عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون للروح منفردة عن البدن»[٤].

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٤/٢٨٤.

(٤) مجموع الفتاوى ٤/٢٨٢، وانظر تفصيل ذلك في ٤/٢٨٢ ـ٢٩٩، الروح ص٩٦ ـ٩٧.

سابعاً: هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟:

عذاب القبر على نوعين:

أحدهما: دائم، ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ غافر: ٤٦ .

وكذلك في حديث البراء بن عازب في قصة سؤال الكافر في قبره، وفيه «**ثم يفتح له باب إلى النار، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة**».

وقد مر الحديث عن ذلك قبل قليل

النوع الثاني: أنه إلى مدة ثم ينقطع: وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء، أو صدقة، أو ثواب حج يصله من بعض أقاربه، أو غيرهم[١].

ثامناً: أسباب عذاب القبر، وأسباب النجاة منه:

أما أسباب عذاب القبر فيمكن إجمالها بالجهل بالله، وإضاعة أمره، وارتكاب معاصيه.

وأما أسباب النجاة منه فبا العكس من ذلك[٢].

---

(١) انظر الروح ص١٥١ ـ١٥٤.

(٢) انظر الروح ص١٣٤.

المبحث الثالث: الرد على من أنكر عذاب القبر ونعيمه

أنكر بعض الزائغين من الملاحدة والزنادقة ومن نحا نحوهم عذاب القبر، وسعته، وضيقه، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يُجلس، ولا يقعد.

والجواب عن هذه المزاعم يسير -بحمد الله- فهي مزاعم باطلة مردودة بالشرع، والحس، والعقل، وإليك بعض الوجوه التي يرد بها على تلك المزاعم.

١- **أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالشرع**: ومن تلك النصوص -زيادة على ما مضى- ما جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبيﷺ مر على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان، وما يعذبان بكبير، بلى، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة؛ فدعا بجريدة رطبة، فشقها نصفين، وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[1].

٢- **أن أحوال البرزخ من أحوال الغيب التي لا يدركها الحس**: ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب، ولتساوى المؤمنون بالغيب، والجاحدون في التصديق بها.

٣- **أن الحس يدل على وقوع عذاب القبر**: فالنائم يرى في منامه أنه في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه، ويرى أنه في مكان ضيق موحش يتألم منه، وربما يستيقظ أحيانا مما رأى، وربما يرى أثراً للألم في بدنه، وهو مع ذلك في فراشه داخل حجرته على ما هو عليه.

والنوم أخو الموت، ولهذا سماه الله - تعالى - وفاة، قال الله -تعالى-: ﴿**ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا**

---

(١) رواه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الزمر: ٤٢.

٤ـ أن العقل لا ينكر وقوع عذاب القبر: وقد مر ما يدل على ذلك في الفقرة الماضية، ومن ذلك ـ أيضاً ـ أن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع، وربما رأى النبي ﷺ على صفته، ومن رآه على صفته فقد رآه حقًّا.

ومع ذلك فإن النائم في حجرته على فراشه بعيداً عما رأى.

فإذا كان هذا ممكناً في أحوال الدنيا أفلا يكون ممكنا في أحوال الآخرة؟.

٥ـ أن النعيم، والعذاب، وسعة القبر، وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره: ونظير ذلك ـكما مضى ـ أن النائم يرى في منامه أنه في مكان ضيق موحش، أو في مكان واسع بهيج، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير حاله، فهو في منامه وبين فراشه وغطائه.

٦ـ إن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله ـ تعالى ـ من إدراكه: فلا يُمْكِنهم أن يدركوا كل شيء؛ فكما أن أبصارهم وأسماعهم، وقواهم لها حد تقف عنده فكذلك عقولهم لها حد يجب أن تقف عنده، فالسموات السبع والأرض ومن فيهن، وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحاً حقيقياً يُسمعهُ الله مَن شاء مِن خلقه أحياناً.

فإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود فإنه لا يجوز لهم أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب ولم يدركوه[1].

---

(١) انظر الروح لابن القيم ص ١١١ـ١٣١، ورسائل في العقيدة ص ٣٣ـ٣٥، والإيمان باليوم الآخر ص ٥٠ـ٦٢.

الفصل الثالث

أشراط الساعة

وتحته:

تمهيد:

المبحث الأول: مفهوم أشراط الساعة

المبحث الثاني: ترتيب أشراط الساعة الكبرى وتتابعها

المبحث الثالث: أشراط الساعة الكبرى الدالة على قربها

المبحث الرابع: أشراط الساعة الدالة على حصولها

تمهيد

أولاً: قواعد عامة مجملة:

١ـ الساعة آتية لا ريب فيها، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ طه: ١٥.

٢ـ الساعة قريبة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ القمر: ١.

٣ـ لا يعلم وقت الساعة إلا الله قال ـ عز وجل ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الأعراف: ١٨٧.

٤ـ الساعة غيب، والإيمان بها من جملة الإيمان بالغيب.

٥ـ لا يجوز الاشتغال بتحديد زمن الساعة.

٦ـ للساعة أمارات تدل على قربها، ووقوعها.

ثانياً: الموقف الصحيح من أشراط الساعة:

أن نؤمن بما جاء من النصوص في شأنها، وألا نكلف أنفسنا في استدعائها وطلبها وتنزيلها على الواقع.

بل ندع تفسيرها للواقع؛ أي أن وقوعها على نحو ما جاء في نصوص الشرع هو الذي يفسرها؛ وبذلك نسلم من أن نرجم بالغيب، ونقْفُوَ ما ليس لنا به علم.

وفي ذلك نجاة وسلامة، واقتداء بالسلف الصالح الذين آمنوا بتلك النصوص، وأدوها إلينا بكل صدق وأمانة، ولم يقحموا الظنون في تعيينها، وترتيب بعضها على بعض بمجرد الرأي.

وبذلك نسلم من صنيع بعض الناس الذين ربطوا بين النصوص الواردة في أحوال آخر الزمان وأشراط الساعة وبين حال العالم في زماننا هذا، فرتبوا بعضها على بعض، وبنوا على ذلك أموراً نتج عنها فتن عظيمة، وانتهاك للحرمات.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن نؤمن بتلك النصوص، وندع تفسيرها للواقع[1].

---

(١) انظر المهدي حقيقة لا خرافة للشيخ محمد بن إسماعيل ص١٨١.

ثالثاً: الإيمان بأشراط الساعة لا يعني البطالة، وترك الأخذ بالأسباب:

لأن تلك الأشراط أمور قدرية كونية، ونحن مأمورون شرعاً وديناً بالتكاليف الشرعية من طاعة الله، والجهاد في سبيله، وطلب العلم، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في ذلك كله، وغير ذلك من الواجبات.

هذا هو المنهج الصحيح لا كما يتوهم بعض الجهلة والبطالين من أن ظهور تلك الأشراط كخروج المهدي، ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ سيكون بداية الكسل، والدعة.

بل إن النصوص تشير إلى أن ذلك بداية الفتوح، والجهاد، والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ[1].

---

(١) المرجع السابق.

المبحث الأول: مفهوم أشراط الساعة

إذا كان الله ـعز وجلـ أخفى وقت وقوع الساعة على عباده ـ فإنه قد أعلمهم بأمارات وعلامات تدل على قرب وقوعها.

وقد سمى الله ـ عز وجل ـ تلك الأمارات أشراط الساعة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ محمد: ١٨ .

وإليك هذه المسائل حول مفهوم هذه الأشراط.

أولاً: تعريف الأشراط: أصل الكلمة: مادة (شَرَطَ) والأشراط جمع.

قال ابن فارس رحمه الله: «الشين، والراء، والطاء أصلٌ يدل على عَلَمٍ، وعلامة، وما قارب ذلك»[١].

وقال ابن منظور رحمه الله: «الشَّرط بالتحريك: العلامة، والجمع أشراط»[٢].

ثانياً: تعريف كلمة الساعة:

١ـ الساعة في اللغة: أصل هذه الكلمة في اللغة مادة (سَوَع)[٣].

وكلمة الساعة تطلق في اللغة والعرف عدة إطلاقات، وتدور حول معنى الوقت أو جزء الوقت، أو الحاضر منه.

قال القرطبي رحمه الله: «والساعة كلمة يعبر عنها في العربية عن جزء من الزمان غير محدود.

وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً في يوم وليلة، واللذان هما أصل الأزمنة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٦٠/٣.

(٢) لسان العرب ٣٢٨/٧ .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ١١٦/٣.

وتقول العرب: أفعل كذا الساعة، وأنا الساعة في أمر كذا؛ تريد الوقت الذي أنت فيه، والذي يليه تقريباً.

وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بـ: الآن»[(١)].

٢ـ الساعة في الاصطلاح الشرعي: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة[(٢)].

ثالثاً: سبب تسمية الساعة بذلك: إما لقربها؛ فإن كل آتٍ قريب، أو لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تأتي بغتة في ساعة، أو لسعي الأرواح إلى الأجساد بسرعة في ذلك اليوم، أو لغير ذلك[(٣)].

رابعاً: تعريف أشراط الساعة: هي علاماتها، وأعلامها التي تسبقها، وتدل على قربها، وقيامها، ومجيء الساعة بعدها، وانتهاء الدنيا وانقضائها[(٤)].

خامساً: إطلاقات الساعة في الشرع: تطلق الساعة في الشرع على ثلاثة إطلاقات:

١ ـ الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان؛ فمن مات قامت قيامته؛ لدخوله في عالم الآخرة.

٢ ـ الساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن.

٣ ـ الساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء[(٥)].

سادساً ـ ما المراد بالساعة إذا أطلقت في القرآن: المراد بها القيامة الكبرى[(٦)].

سابعاً ـ أقسام أشراط الساعة: تنقسم إلى قسمين:

---

(١) التذكرة ص٢٤٥.

(٢) انظر أشراط الساعة للشيخ د. يوسف الوابل ص٧٣.

(٣) انظر التذكرة ص٢٤٥ ـ٢٤٦.

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة ٣/٣٦٠، والتذكرة ص٧٠٩، ولسان العرب ٧/٣٢٨، وفتح الباري١٣/٧٩.

(٥) انظر أشراط الساعة ص٧٤ ـ٧٥.

(٦) انظر أشراط الساعة ص٧٥.

١ ـ **أشراط صغرى**: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلماء، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان، ونحو ذلك.

وقد يكون بعضها مصاحبا للأشراط الكبرى.

٢ ـ **أشراط كبرى**: وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها[(١)].

ثامناً ـ الحكمة في تقديم أشراط الساعة ودلالة الناس عليها: قال القرطبي رحمه الله: «والحكمة في تقديم الأشراط، ودلالة الناس عليها تنبيه الناس من رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم؛ فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها، والله أعلم»[(٢)].

---

(١) انظر التذكرة ص٧٠٩ ـ ٧١٠، وأشراط الساعة ص٧٧.

(٢) التذكرة ص٧٠٩.

المبحث الثاني: ترتيب أشراط الساعة الكبرى وتتابعها

أولاً: ترتيب أشراط الساعة الكبرى:

لقد جاءت الأحاديث التي نصت على أشراط الساعة الكبرى مجموعة غير مرتبة؛ إذ كان ترتيبها في الذكر لا يقتضي ترتيبها في الوقوع؛ فقد جاء العطف فيها بالواو، وذلك لا يقتضي الترتيب.

ومن النصوص ما خالف ترتيب الأشراط فيها ترتيبها في نص آخر[١].

وهذه جملة من الأحاديث التي تعرضت لذكر الأشراط الكبرى جملة، أو ذكر بعضها.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبيﷺ علينا، ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات**».

فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم[٢].

وروى مسلم هذا الحديث عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد بلفظ آخر، قال أسيد: كان النبي ﷺ في غرفة، ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا فقال: «**ما تذكرون؟**» قلنا الساعة، قال: «**إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان،**

---

(١) انظر التذكرة ص٧٣٩، وأشراط الساعة ص٢٣٩.

(٢) رواه مسلم (٢٩٠١).

والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس».

وفي رواية في العاشرة: نزول عيسى ابن مريم.

وفي رواية: وريح تلقي الناس في البحر[1].

وروى مسلم - أيضا - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا، طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة**»[2].

وفي لفظ آخر: «**بادروا بالأعمال ستًّا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم**»[3].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله حديثاً لم أُنْسَهُ بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً**»[4].

والذي يمكن معرفته من خلال هذه الأحاديث هو ترتيب بعض الأشراط من خلال حدوث بعضها إثر بعض؛ لأن الترتيب جاء بلفظين مختلفين في ترتيب بعض الأشراط، وفي أداة العطف؛ حيث جاء مرة بـ:(أو)، ومرة بـ:(الواو) وهما لا يدلان على الترتيب[5].

ولهذا اختلف العلماء في ترتيب الأشراط، وقد جمع الحافظ ابن حجر رحمه الله بين

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٧).

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه مسلم (٢٩٤١).

(٥) انظر أشراط الساعة ص١٤٢.

أولية الدجال، وأولية خروج الشمس من مغربها، فقال: «الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ـ عليه السلام ـ.

وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة.

ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب».

ثم قال: «والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة؛ فتخرج الدابة؛ تميز المؤمن من الكافر؛ تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة.

وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس»(١).

وقال الطيبي رحمه الله: «الآيات أمارات للساعة، إما على قربها، وإما على حصولها.

فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف.

ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس»(٢).

وهذا تقسيم حسن دقيق، وسيكون الحديث عن أشراط الساعة الكبرى في المبحث الآتي حسب هذا الترتيب الذي ذكره الطيبي.

ثانياً: تتابع ظهور الأشراط الكبرى:

بغض النظر عن ترتيب الأشراط الكبرى؛ فإنها إذا ظهر منها أول علامة تتابعت الآيات كتتابع الخرز في النظام، يتبع بعضها بعضاً، ولا يكاد يفصل بينها فاصل(٣).

روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خروج**

---

(١) فتح الباري ٣٥٣/١١.

(٢) فتح الباري ٣٥٢/١١.

(٣) انظر القيامة الصغرى ص٢١٧ ـ٢١٨، وأشراط الساعة ص٢٤٥.

الآيات بعضها على إثر بعض، يتتابعْن كما تتابع الخرز في النظام»[١].

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الآيات خرزات منظومات في سلك؛ فإن يقطع السلك يتبعْ بعضها بعضاً**»[٢].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بهذه الآيات هي علامات الساعة الكبرى؛ فإن ظاهر هذه الأحاديث يدل على تقارب ظهورها تقارباً شديداً[٣].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة وهو عند أحمد»[٤].

---

(١) قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل، وداود الزهراني، وكلاهما ثقة» مجمع الزوائد ٣٣١/٧، وقال الألباني في صحيح الجامع (٣٢٢٢): «صحيح».

(٢) المسند (٧٠٤٠) تحقيق أحمد شاكر، وقال: «إسناده صحيح».

(٣) انظر أشراط الساعة ص٢٤٦.

(٤) فتح الباري ٧٧/١٣.

المبحث الثالث: أشراط الساعة الكبرى الدالة على قربها

المطلب الأول: ظهور المسيح الدجال

أولاً: تعريف المسيح الدجال: هو مسيح الضلالة الذي يخرج في آخر الزمان، والذي يفتن الناس بما يعطاه من الآيات والخوارق كإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات، ونحو ذلك.

ثانياً: صفة الدجال: الدجال رجل من بني آدم له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث؛ لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره؛ حتى إذا خرج عرفه المؤمنون؛ فلا يفتنون به، بل يكونون على بَيِّنة من أمره.

وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس؛ فلا يغترُّ بِهِ إلا الجاهل الذي غلبت عليه الشقوة.

ومن صفات الدجال: أنه رجل شاب، أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة، ـأي بارزةـ ولا جحراء ـ أي غائرة منجحرة ـ كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب.

ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

هذه بعض صفاته التي صرحت بها الأحاديث.[1]

ثالثاً: مكان خروجه: يخرج الدجال من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان.

١ـ انظر على سبيل المثال صحيح البخاري (١٨٨٢و٧١٣٢) ومسلم (٢٩٤٠و٢٩٤٢، ٢٩٤١، و٢٩٤٥، ٢٩٤٤و٢٩٤٧، ٢٩٤٦) وسنن أبي داوود ٤٤٣/١١.

رابعاً: سرعة انتقاله في الأرض: بعد أن يخرج الدجال يسير في الأرض فلا يدع بلداً إلا دخله إلا مكة والمدينة فلا يستطيع دخولهما؛ لأن الملائكة تحرسهما.

خامساً: دعاوى الدجال: الدجال يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية، والألوهية.

سادساً: ما يدعو إليه: الدجال يدعو إلى فتنة الناس، وصدهم عن دينهم، ويدعو إلى تصديقه، والإيمان بأنه الرب الإله، وذلك بسبب ما يعطاه من الآيات والخوارق.

سابعاً: عظم فتنته: فتنة الدجال أعظم الفتن، أو من أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة؛ وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتحير الألباب.

فقد ورد أن معه جنةً وناراً، وجنته ناره، وناره جنته، وأن معه أنهار الماء، وجبال الخبز، وأنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت.

وورد أن كنوز الأرض تتبعه، وأنه يقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث إذا استدبرته الريح، وأن الجماد والحيوان يستجيب له، وأنه يقتل شاباً ثم يحييه إلى غير ذلك من الخوارق التي جاءت بها الأحاديث الصحيحة.

ومن أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنة الدجال، ورسولناﷺ كان أشدهم؛ تحذيراً منه.

جاء في صحيح مسلم عن عمران بن حصينرضي الله عنه قال: «سمعت رسول اللهﷺ -يقول- **ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال**»[1].

وجاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه «**ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور**

١- رواه مسلم (٢٩٤٦).

الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر»[١].

ثامناً: مكثه في الأرض: يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وسائر أيامه كسائر أيامنا؛ فمجموع مكثه في الأرض بأيامنا هذه أربعة عشر شهراً، وأربعة عشر يوماً تقريباً.

جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال أن الصحابة قالوا: «يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ «**قال أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**»[٢].

تاسعاً: هلاك الدجال: يكون هلاك الدجال على يدي عيسى بن مريم -عليه السلام- كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

وذلك أن الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه وتعم فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين.

وعند ذلك ينزل عيسى -عليه السلام- على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عباد الله المؤمنون، فيسير بهم قاصداً المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهاً نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لدّ).

فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى -عليه السلام-: «**إن لي فيك ضربة لن تفوتني.**

فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبدالله! هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا شجر الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»[٣].

١- رواه البخاري (١٣١٧).

٢- رواه مسلم(٢٩٣٧).

٣- انظر صحيح مسلم(٢٩٣٧).

المطلب الثاني: نزول عيسى بن مريم ـعليه السلامـ آخر الزمان

مر بنا أن من أشراط الساعة الكبرى نزول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ والحديث في هذا الشأن سيتناول الجوانب التالية:

أولاًـ صفة عيسى ـعليه السلامـ: صفته التي جاءت بها الروايات أنه رجل مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أحمر، جعد الرأس، عريض الصدر، سبط الشعر، كأنما خرج من ديماس ـ أي حمام ـ له لِمَّةٌ قد رجَّلها تملأ ما بين منكبيه[(١)].

ثانياً ـ تواتر الأخبار في نزوله: يستخلص من النصوص الواردة في شأن عيسى ـعليه السلام ـ أنه نازل لا محالة، وأن النصوص بذلك متواترة؛ فالتكذيب بنزوله تكذيب للرسول ﷺ.

بل هو تكذيب للقرآن الكريم الذي دل على نزول عيسى ـ عليه السلام ـ[(٢)].

ولقد مضى شيء من الأدلة على نزوله، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ الزخرف: ٥٧ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ الزخرف: ٦١.

أي نزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة علامة على قرب الساعة.

ويدل على ذلك القراءة الأخرى ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ** ﴾: بفتح العين واللام.

«أي علامة وأمارة على قيام الساعة، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما من أئمة التفسير»[(٣)].

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٤٣٧و٣٤٣٨)، ومسلم (١٦٨).

(٢) انظر القيامة الصغرى ص٢٦٦ ـ٢٦٨، وأشراط الساعة للوابل ص٣٤٨ ـ٣٥٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٦/١٠٥، وانظر تفسير الطبري ٢٥/٩٠ ـ٩١.

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية «**وإنه لعلم للساعة**» قال: «هو خروج عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة»[١].

ومن السنة ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾ النساء: ١٥٩»[٢].

وهذا تفسير من أبي هريرة ﵁ لهذه الآية بأن المراد بها أن من أهل الكتاب من سيؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته، وذلك عند نزوله في آخر الزمان كما سبق بيانه[٣].

ثالثاً ـ صفة نزوله: بعد خروج الدجال، وإفساده في الأرض يبعث الله عيسى ـعليه السلام ـ فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام وعليه مهرودتان[٤]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمانٌ كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونـفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفـه.

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة

---

(١) المسند ٣٢٩/٤ تحقيق أحمد شاكر وقال: «إسناده صحيح».

(٢) البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم(٢٩٣٧، ١١٥).

(٣) انظر أشراط الساعة للوابل ٣٤٧.

(٤) مهرودتان: أي ثوبين مصبوغين بورس، ثم زعفران. انظر شرح النووي لمسلم ٦٧/١٨.

لقتال الدجال؛ فينزل وقت إقامة صلاة الفجر، ويصلي خلف أمير تلك الطائفة، بعد أن يقال له: تعال صل لنا، فيقول ـ عليه السلام ـ: «**لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تَكْرِمة الله هذه الأمة**»[١].

رابعاً ـ طيب العيش، وعموم الرخاء، وانتشار الأمن، وظهور البركات في عهده: فزمن عيسى ـ عليه السلام ـ زمن أمن وسلام ورخاء، وبركات.

حيث يرسل الله فيه المطر الغزير، وتُخرج الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال، وتزول الشحناء، والتباغض، والتحاسد.

جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل: «**ثم يرسل الله مطراً لا يُكَنُّ منه بيت مدر، ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة**[٢]**، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ودُرِّي بركتك، فيؤمئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها**[٣]**، ويبارك في الرِّسل**[٤] **حتى إن اللقحة**[٥] **من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ**[٦] **من الناس**»[٧].

وورد أحاديث في هذا النحو كثيرة، والمجال لا يتسع لبسطها[٨].

خامساً ـ مدة بقائه بعد نزوله: جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة؛ ففي رواية الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).

(٢) الزلفة، وروي الزلقة بالقاف: وكلها صحيحة، ومعناه أن الأرض تكون شبه المرآة لصفائها ونظافتها. انظر شرح النووي لمسلم ١٨/٦٩.

(٣) القِحف: مقعر قشرها.

(٤) الرِّسل: اللبن.

(٥) اللقحة: بكسر اللام، وفتحها، والكسر أشهر هي الناقة الحلوب.

(٦) الفخذ: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة.

(٧) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٨) انظر أشراط الساعة ٣٦١ـ٣٦٣.

عنهما ـ: «**فيبعث الله عيسى بن مريم، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال من خير أو إيمان إلا قبضته**»(١).

وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود: «فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون»(٢).

وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل إلا أن تُحْمَل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافاً إلى مكثه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور، والله أعلم(٣).

المطلب الثالث: خروج يأجوج ومأجوج

فمما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بخروج يأجوج ومأجوج؛ فذلك من أشراط الساعة، وعلاماتها الكبرى.

والحديث في هذا الشأن سيتناول الجوانب التالية:

أولاً ـ أصل يأجوج ومأجوج: أصلهم من البشر، ومن ذرية آدم وحواء(٤).

فعن عبدالله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «**أن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وأنهم لو أرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معايشهم، ولن يموت منهم أحد إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٠٦/٢، بهامشه منتخب الكنز، قال ابن حجر: «صحيح»، ٦/ ٤٩٣، وسنن وسنن أبي داوود ٤٥٦/١١ مع عون المعبود.

(٣) انظر النهاية ـ الفتن والملاحم لابن كثير ١٤٦/١.

(٤) انظر التذكرة ص ٧٨٢ـ٧٨٣.

(٥) منحة المعبود٢١٩/٢ وروى الحاكم طرفاً منه ٤٩٠/٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي».

ثانياً ـ صفتهم: أما صفتهم التي جاءت بها الأحاديث فهي أنهم يشبهون أبناء جنسهم من الترك الغتم[١]المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المَجَانُّ المُطرَقة على أشكال الترك وألوانهم[٢].

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم، ففي حديث النواس بن سمعان في صحيح مسلم أن الله ـ تعالى ـ يوحي إلى عيسى ـعليه السلام ـ بخروج يأجوج ومأجوج، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم، ويأمره بإبعاد المؤمنين من طريقهم ويقول: «**أحرز عبادي إلى الطور**»[٣].

ثالثاً ـ فسادهم: إذا خرج يأجوج ومأجوج حصل على أيديهم أذى كبير، وفتنة عظمى، وشر مستطير.

وهم جموع كثيرة حتى إنهم؛ لكثرتهم إذا مر أولهم على بحيرة طبرية عند خروجهم شربوا الماء الذي فيها جَميعَه؛ فإذا مر آخرهم قالوا قد كان في هذه البحيرة ماء[٤].

قال ابن العربي رحمه الله: «وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى ـ عليه السلام ـ وهما أمتان مُضرتان مفسدتان كافرتان»[٥].

هذا وسيتضح شيء من إفسادهم في الفقرات التالية:

رابعاً ـ هلاكهم: يكون هلاك يأجوج ومأجوج بعد أن يقتل عيسى الدجالَ حيث يُهلك الله يأجوج ومأجوج ببركة دعاء عيسى ـ عليه السلام ـ كما جاء في

---

(١) الغتم: العجم.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ٢٧١/٥ بهامشه منتخب الكنز.

(٣) مضى تخريجه .

(٤) انظر الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة ص٢٥٣ـ٢٥٤.

(٥) عارضة الأحوذي لابن العربي ٣٤/٩.

حديث النواس بن سمعان الطويل، وفيه: «**إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور.**

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء، ويُحْصَر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابهُ، فيرسل الله عليهم النغف[1] في رقابهم فيصبحون فرسى[2] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[3] ونتنهم؛ فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[4]، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله» رواه مسلم.

وزاد في رواية بعد قوله: «لقد كان بهذه ماء»: «**ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[5]، هو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بِنُشَّابهم[6] إلى السماء، فيرد الله عليهم نُشَّابهم مخضوبة دماً**»[7].

---

(١) النغف: جمع نغفة، وهي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) فرسى: أي هلكى، وهو جمع فريس يعني مفروس مثل قتيل وقتلى وصريع وصرعى، وأصله من فرس الذئب الشاة، وأفرسها أي قتلها؛ كأن تلك النغف فرستهم.

(٣) زهمهم: الزهم النتن.

(٤) البخت: إبل غلاظ الأعناق، عظام الأجسام. انظر التذكرة ص٧٧٢ ـ ٧٧٣.

(٥) جبل الخمر: الخمر: الشجر الملتف الذي يستر من فيه. انظر شرح النووي لمسلم ١٨/ ٧١.

(٦) النشاب: يطلق على النبل والسهام وواحدته: نشابة.

(٧) رواه مسلم (٢٩٣٧).

المبحث الرابع: أشراط الساعة الدالة على حصولها

المطلب الأول: الدخـان

فظهور الدخان في آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى التي دل عليها الكتاب والسنة[(١)].

أولاً: أدلة ظهوره من الكتاب: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الدخان: ١٠ـ١١.

وللعلماء في المراد بهذا الدخان قولان:

أحدهما: أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشاً من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له؛ فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان.

وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود ﷺ وتبعه جماعة من السلف[(٢)].

الثاني: أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجئ بعد، وسيقع قرب قيام الساعة، وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين[(٣)].

ثانياً ـ أدلة ظهوره من السنة: مضى ذكر بعض الأحاديث في ذلك، ومنها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان**»[(٤)] الحديث.

وجاء في حديث حذيفة في أشراط الساعة الكبرى: «**والدخان**»[(٥)].

---

(١) انظر أشراط الساعة ص٣٨٣ ـ٣٨٩.

(٢) انظر تفسير الطبري ١١١/٥٢ـ١١٣، تفسير القرطبي١٣١/١٦، وتفسير ابن كثير١٤٠/٤ ـ١٤٣.

(٣) انظر تفسير الطبري ١١٣/٥٢، وتفسير ابن كثير ١٤٠/٤ ـ١٤٣.

(٤) رواه مسلم(٢٩٤٧).

(٥) مضى تخريجه.

المطلب الثاني: طلوع الشمس من مغربها

فطلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرى، وهو ثابت بالكتاب والسنة.

أولاً: أدلة طلوع الشمس من مغربها: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا**﴾ الأنعام: ١٥٨.

فقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية طلوع الشمس من مغربها، وهو قول أكثر المفسرين[١].

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس آمنوا أجمعون؛ فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً**»[٢].

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها**» الحديث[٣].

ثانياً: العلة من كون الإيمان لا ينفع إذا طلعت الشمس من مغربها: قال القرطبي رحمه الله: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم؛ لإيقانهم بدنو القيامة في حال

---

(١) انظر تفسير الطبري ٩٦ ـ١٠٢، والتذكرة للقرطبي ص٧٩٢ ـ٧٩٣، وتفسير ابن كثير ١٨٤/٢ـ١٨٦.

(٢) البخاري (٤٦٣٥ و٤٦٣٦ و٦٥٠٦ و٧١٢١) ومسلم (١٥٧).

(٣) مسلم (٢٩٤٧).

من حضره الموت من انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت»[(١)].

المطلب الثالث: الدابة

ظهور دابة الأرض في آخر الزمان من أشراط الساعة الكبرى الثابتة بالكتاب والسنة.

أولاً: الأدلة من الكتاب: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ النمل: ٨٢.

فهذه الآية الكريمة صرحت بخروج الدابة، وأن ذلك يكون عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، فيخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم على ذلك.

قال القرطبي رحمه الله: «قال العلماء معنى ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أي وجب الوعيد عليهم؛ لتماديهم في العصيان والعقوق والطغيان، وإعراضهم عن آيات الله، وتركهم تدبرها، والنزول على حكمها، وانتهى بهم في المعاصي إلى ما لا ينجع معه موعظة، ولا يصرفهم عن غيهم تذكرة.

يقول ـ عز من قائل ـ فإذا صاروا كذلك: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي دابة تعقل، وتنطق.

وذلك ـ والله أعلم ـ ليقع لهم العلم بأنه آية من قبل الله ـ تعالى ـ ضرورة؛ فإن الدواب في العادة لا كلام لها ولا عقل»[(٢)].

ثانياً: الأدلة من السنة على ظهور الدابة: وأما الأدلة من السنة فكثيرة، وقد

---

(١) التذكرة للقرطبي ص٧٩٤.

(٢) التذكرة ص ٧٨٥.

مضى شيء منها، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[1].

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة ﷺ يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**تخرج الدابة، فَتَسِمِ الناس على خراطيمهم**[2]**، ثم يُغمرون فيكم، حتى يشتري الرجل البعير، فيقول: ممن اشتريته؟ فيقول من أحد المخطيين**»[3].

ثالثاً: مكان خروج الدابة: قيل: في مكة من أعظم المساجد، وقيل: لها ثلاث خرجات، فمرة تخرج في بعض البوادي، مرة في بعض القرى، ثم تظهر في المسجد الحرام.

وهناك أقوال أخرى غالبها يدور على أن خروجها من الحرم المكي[4].

رابعاً ـ عمل الدابة: إذا خرجت الدابة العظيمة فإنها تسم المؤمن والكافر.

فأما المؤمن؛ فإنها تجلو وجهه حتى يشرق، ويكون ذلك علامة إيمانه.

وأما الكافر فإنها تخطمه على أنفه؛ علامة على كفره[5].

المطلب الرابع: النار التي تحشر الناس

فمن أشراط الساعة الكبرى خروج النار العظيمة، وهي آخر أشراط الساعة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة.

---

(١) مسلم (١٥٨).

(٢) الخرطوم: الأنف، وقيل: مقدم الأنف.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٦/٥ بهامش منتخب الكنز، وقال الهيثمي في المجمع ٦/٨: «ورجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبد الرحمن بن عطية وهو ثقة» وقال الألباني في الصحيحة(٣٢٢): «صحيح».

(٤) انظر أشراط الساعة ص ٤١٣ـ٤١٥.

(٥) انظر أشراط الساعة ص ٤١٥ـ٤١٦.

أولاً ـ مكان خروج النار: جاءت الروايات بأن خروجها يكون من اليمن من قعرة عدن، وتخرج من بحر حضرموت كما جاء في روايات أخرى.

جاء في حديث حذيفة بن أسيد في صحيح مسلم في ذكر أشراط الساعة قوله ﷺ: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**».

وفي رواية لمسلم عن حذيفة ـ أيضا ـ: «**ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس**»[1].

ثانياً ـ كيفية حشرها: عند ظهور هذه النار العظيمة من اليمن تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاثة أفواج:

الأول: فوج راغبون، طاعمون، كاسون، راكبون.

الثاني: فوج يمشون تارة، ويركبون أخرى، يعتقبون على البعير الواحد.

الثالث: تحشرهم النار، فتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف أكلته النار.

وقد صحت بذلك الأحاديث[2].

ثالثاً ـ أرض المحشر: يحشر الناس إلى الشام في آخر الزمان، وهي أرض المحشر، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة[3].

رابعاً ـ هذا الحشر في الدنيا: وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور[4].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر النهاية، الفتن والملاحم ١/٢٣٠ ـ٢٣١، وأشراط الساعة ص ٤٢٠.

(٣) انظر أشراط الساعة ص٤٢٢.

(٤) انظر أشراط الساعة ص ٤٢٦ ـ٤٣٠.

الباب الخامس

مسائل في الذنوب والتوبة والدعاء

وتحته: تمهيد، وثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الذنوب، وما يتعلق بها

الفصل الثاني: التوبة مفهومها، وحِكَمها وأحكامها

الفصل الثالث: مسائل في الدعاء

تمهيد

لقد راعت الشريعة الإسلامية حال العباد، وما يعتريهم من الغفلة، والتقصير، والضعف البشري، فتقع منهم الذنوب التي هي من أعظم أسباب البلاء، والعقوبة في الدنيا والآخرة.

ومن هنا جاء الشرع المطهَّر في بيان مفهوم الذنوب، و أنواعها، وأضرارها، وعواقبها؛ لكي يَحْذرها العباد، و يسلموا من غوائلها.

كما جاءت الشريعة -أيضاً- بعلاج الذنوب صغيرها وكبيرها، وأعظم تلك العلاجات - التوبة إلى الله -عز وجل-.

ثم إن حاجة العباد إلى دعاء ربهم ماسَّة، بل إن ضرورتهم إليه مُلِحَّة؛ فالدعاء هو العبادة، وهو سبيل السعادة؛ فمن لزم دعاء ربه فتحت له أبواب الخيرات، وصرفت عنه الشرور والآفات.

والفصول الآتية بيان لمفهوم الذنوب وما يتعلق بها، ولمفهوم التوبة، وحِكَمها، وأحكامها، وللدعاء وما يتعلق به من مسائل؛ فإلى تلك الفصول.

الفصل الأول

مفهوم الذنوب، وما يتعلق بها

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الذنوب، وأصولها

المبحث الثاني: تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر

المبحث الثالث: نتائج الذنوب، وأضرارها، وآثارها

المبحث الأول: مفهوم الذنوب، وأصولها

أولاً: مفهوم الذنوب

الذنوب جمع ذنب، والذَّنب: الإثم، والجرم، والمعصية والجمع ذنوب، وذُنوبات جمع الجمع[١].

والذنب في الأصل الأخذ بذَنب الشيء، يقال: ذنَبتُه أصبت ذنَبَه، ويستعمل في كل فعل يُستَوخَم عقباه؛ ولهذا يسمى الذَّنب تبعةً؛ اعتباراً لما يحصل من عاقبته، وجمع الذنب ذنوب، قال -تعالى-: ﴿**فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ**﴾ آل عمران: ١١، وقال: ﴿**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ**﴾ العنكبوت: ٤٠، وقال: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ آل عمران: ١٣٥ إلى غير ذلك من الآيات[٢].

فالذنوب -إذاً- هي المعاصي، والمخالفات التي يخالف فيها العبد أمر ربه -جل وعلا-.

ثانياً: أصول الذنوب

هناك تقسيمات نافعة، تُعرف من خلالها أصول الذنوب، وما يمكن أن يدخل تحتها من آحاد الذنوب وأفرادها.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها - تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها -بعون الله وحسن توفيقه- فصلاً وجيزاً جامعاً فنقول:

أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور.

وهما الذنبان اللذان ابتلى الله -سبحانه- بهما أبوي الجن والإنس.

وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب.

١- اللسان ٣٨٩/١.

٢- معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ١٨٤.

وباعتبار مُتعلَّقه إلى حق الله، وحق خلقه، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقًّا للخلق لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم»[1].

ثم شرع رحمه الله بتقسيم هذه الذنوب إلى قسمة أخرى فقال:

«ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية، وشيطانية، وسَبُعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك»[2].

وفيما يلي تفصيل يسير لتلك **الأصول التي ترجع إليها الذنوب**.

١ـ الذنوب الملكية أو الربوبية: وهي أن يتعاطى الإنسان ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والفخر، والجبروت، والعلو في الأرض، ومحبة استعباد الخلق، ونحو ذلك.

ومن هذه الذنوب يتشعب جملة من الكبائر غفل عنها أكثر الخلق، ولم يعدوها ذنوباً، وهي المهلكات، العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي.

ويدخل في هذه الذنوب، الشرك بالله، والقول على الله بغير علم.

٢ـ الذنوب الشيطانية: وهي ما كان في صاحبها شَبَهٌ من الشيطان، ويدخل تحت ذلك الحسدُ، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بالفساد، وتحسين المعاصي، والنهي عن الطاعات وتهجينها، والابتداع في الدين، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

٣ـ الذنوب السبعية: ومنها يتشعب الغضب، وسفك الدماء، والحقد، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، والقتل.

٤ـ الذنوب البهيمية: ومنها يتشعب الشَّرَهُ، والكَلَبُ، والحرص على قضاء شهوة الفرج والبطن، ومنها يتولد الزنى واللواط، والسرقة، وأكل أموال اليتامى،

---

(١) (٢) الجواب الكافي لابن القيم ص ٣٠٣.

والبخل، والشح، والجبن، والهلع، والجزع، وجمع الحطام لأجل الشهوات، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية.

ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام؛ فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوحدانية[1].

١ـ انظر إحياء علوم الدين ٤/ ١٦ ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص ٢٧٦ـ٢٨٠ والجواب الكافي ص٣٠٤ـ٣٠٥.

المبحث الثاني: تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر

وهو أن يقال: إن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، قال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها؛ فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة.

وهذا ضعيف؛ إذ قال -تعالى-: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ النساء:٣١، وقال -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ النجم:٣٢.

وقالﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر**» وفي لفظ آخر: «**كفارات لما بينهن إلا الكبائر**»[(١)].

وقد قالﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[(٢)][(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائرَ وصغائر»[(٤)].

وقال رحمه الله: «والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها -بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره- كبائر؛ فالنظر إلى من عُصي أمرُه، وانتُهك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة»[(٥)].

١- رواه مسلم (٢٣٣).

٢- رواه البخاري (٦٦٥٦).

٣- إحياء علوم الدين ٤/١٧.

٤- الجواب الكافي ص٣٠٦.

٥- الجواب الكافي ص ٣٠٩.

وقال ـبعد أن ساق بعض ما أورده مَنْ قال: إن الذنوب كلها كبائرـ: «فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل؛ فما كان أشدَّ منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشدَّ موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات؛ فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله تعرف به حكمةَ أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحَرَّمه عليهم، وتفاوتَ مراتب الطاعات والمعاصي»[1].

هذا وإن الكلام في ماهية الكبائر والصغائر يطول، وخلاصته أن يقال: كل ذنب ترتب عليه حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة فهو كبيرة.

وما لم يترتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة[2].

١ـ الجواب الكافي ٣١٢.

٢ـ وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ١١/٦٥٠، وقال في ١١/٦٥٠: «إنه أمثل الأقوال في هذه المسألة»، وقال في ١١/٦٥٤: «وإنما قلنا: إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه...» ثم ذكر خمسة وجوه.

المبحث الثالث: نتائج الذنوب، وأضرارها وآثارها

للذنوب والمعاصي نتائج وخيمة، وأضرار عظيمة، وآثار مدمرة، وعقوبات متنوعة سواء في الدنيا أو في الآخرة، على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات.

فمن أضرارها حرمان العلم والرزق، والوحشةُ التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

ومنها تعسير الأمور، وسواد الوجه، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق بركته.

ومنها ظلمة القلب، وضيقه، وحزنه، وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه، واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعَرِّيه من زينته.

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها، وتقوي في القلب إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب بالكلية، فيستمرئ صاحبها المعصية، وينسلخ من استقباحها.

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وأن شؤمها لا يقتصر على العاصي، بل يعود على غيره من الناس والدواب.

ومنها أن المعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتدخل العبد تحت اللعنة، وتحرمه من دعوة الرسولﷺ ودعوة الملائكة، ودعوة المؤمنين.

كما أنها تطفئ نار الغيرة من القلب، وتذهب الحياء، وتضعف في القلب تعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله لعبده، وتَخْليته بينه وبين نفسه وشيطانه.

ومن أضرار المعاصي أنها تنزل الرعب في قلب العاصي، وتزيل أمنه، وتبدله به مخافة؛ فأخوف الناس أشدهم إساءة.

كذلك تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين، وتضعف سير قلبه إلى الله والدار الآخرة، وتصغر نفسه، وتُعمي قلبه، وتسقط منزلته، وتسلبه أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذل والصغار، وتجعله من السفلة بعد أن كان مُهيَّأً لأن يكون من العِلْية، وتجرئ عليه شياطين الجن والإنس، فيصير في أسرهم بعد أن كانوا يخافونه ويرهبونه.

ومنها وقوع العاصي في بئر الحسرات؛ فلا يزال في حسرة دائمة؛ فكلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعاف ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعُه وعرف عجزَه اشتدت حسرتُه وحزنُه؛ فيا لها ناراً قد عُذِّب بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

ومنها ضياع أعز الأشياء وأنفسها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض عنه، ولا يعود إليه أبداً.

وبالجملة فالآثار القبيحة للمعاصي أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً؛ فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصية الله[1].

---

(١) انظر كتاب الجواب الكافي لابن القيم ففيه تفصيل لتلك الأضرار، وانظر طريق الهجرتين ص ٤٥٠-٤٥٤.

الفصل الثاني

التوبة: مفهومها وحِكَمها وأحكامها

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم التوبة

المبحث الثاني: باب التوبة مفتوح

المبحث الثالث: فضائل التوبة وأسرارها

المبحث الأول: مفهوم التوبة

أولاً ـ تعريف التوبة في اللغة: التوبة في اللغة: تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم.

والتوبة تكون من الله على العبد، ومن العبد إلى الله؛ فإذا كانت من الله عُدِّيت بحرف الجر: على، وإذا كانت من العبد إلى الله عديت بحرف الجر: إلى.

قال الله ـتعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ١٧.

وقال ـعز وجل ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ النور: ٣١.

وقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ الفرقان: ٧١[١].

ثانياً ـ تعريف التوبة في الشرع:

يمكن أن تعرف التوبة بأنها: ترك الذنب علماً بقبحه، وندماً على فعله، وعزماً على ألا يعود إليه إذا قدر، وتداركاً لما يمكن تداركه من الأعمال، وأداءً لما ضيع من الفرائض؛ إخلاصاً لله، ورجاءً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغرغرة[٢]، وقبل طلوع الشمس من مغربها[٣].

فهذا التعريف يجمع شروط التوبة.

وهناك تعريفات أخرى أخصر من هذا التعريف؛ فقد عرَّفها الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: «فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي،

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٥٧/١، و لسان العرب لابن منظور ٢٣٣/١.

(٢) الغرغرة: هي حشرجة الروح في الصدر حال الاحتضار، وبداية سياق الموت.

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١٩٩/١ و١١٣، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٠٦/١١.

والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل»[١].

وعرَّفها في موضع آخر فقال: «حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب، وترك ما يكره؛ فهي رجوع من مكروه إلى محبوب؛ فالرجوع إلى المحبوب جزءُ مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر»[٢].

ثالثاً: من أي شيء تكون التوبة؟: التوبة تكون من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولا بد للتائب من معرفة ما يتاب منه ولو على سبيل الإجمال.

قال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك شيء إلا بعد معرفته.

وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً؛ فمعرفة الذنوب -إذاً- واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله -تعالى- في ترك أو فعل.

وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكننا نشير إلى مجامعها، وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته»[٣].

ثم شرع رحمه الله في بيان أقسام الذنوب[٤].

وعقد ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين فصلاً قال فيه: «فصل في أجناس ما يتاب منه».

ثم قال: «ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها.

وهي اثنا عشر جنساً مذكورة في كتاب الله-عز وجل-هي أجناس المحرمات:

الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بغير علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا

---

(١) مدارج السالكين ١/١٩٩.

(٢) مدارج السالكين ١/٣١٣.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/١٦.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٤/١٦-٢٢.

أتباع الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم-.

وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصُّن من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها». [(١)]

(١) مدارج السالكين ١/٣٤٤.

المبحث الثاني: باب التوبة مفتوح

لقد فتح الله -بجوده وكرمه- باب التوبة؛ حيث أمر بها، وحض عليها، ووعد بقبولها، سواء كانت من الكفار أو المشركين، أو المنافقين أو المرتدين، أو الطغاة، أو الملاحدة، أو الظالمين، أو العصاة المقصرين.

ومن خلال ما يلي يتبين لنا شيء من فضل الله-عز وجل-في فتح باب التوبة.

١- أن الله-عز وجل-أمر بالتوبة: قال-تعالى-: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الزمر: ٥٤.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي ارجعوا إلى الله، واستسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة»[١].

٢- أن الله وعد بقبول التوبة مهما عظمت الذنوب: قال -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ الشورى: ٢٥.

وقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء: ١١٠.

وقال-عز وجل-في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ النساء: ١٤٥-١٤٦.

وقال في شأن النصارى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة: ٧٣.

ثم قال -جلت قدرته- محرضاً لهم على التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٦١-٦٢.

وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المائدة: ٧٤.

وقال-تعالى- في حق أصحاب الأخدود الذين خدوا الأخاديد لتعذيب المؤمنين وتحريقهم بالنار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ البروج: ١٠.

قال الحسن البصري رحمه الله: «انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»(١).

٣- أن الله حذر من القنوط من رحمته: قال -تعالى-: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الزمر: ٥٣.

قال ابن كثير رحمه الله: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في هذه الآية: قال: قد دعا الله -تعالى- إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله -تعالى- لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المائدة: ٧٤.

ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء؛ من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النازعات: ٢٤، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ القصص: ٣٨.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله-عز وجل-»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في الآية السابقة-آية الزمر-: «المقصود بها النهي عن القنوط من رحمة الله-تعالى-وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٦٠.

لأحد أن يَقْنَط من رحمة الله، ولا أن يُقَنِّط الناس من رحمته؛ لذا قال بعض السلف: وإن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيّس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله.

والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له إما لكونه إذا تاب لا يقبل توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليه؛ فهو ييأس من توبة نفسه وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يغري كثيراً من الناس»[١].

٤ـ أن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل: قال النبي ﷺ: «**إن الله ـ عز وجل ـ يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيء النهار ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

٥ـ أن الله رتب الثواب الجزيل على التوبة: ووعد من تاب بالخير الكثير، وهذا ما سيتبين في المبحث الآتي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) التوبة والاستغفار لابن تيمية تحقيق محمد الحجاجي وعبد الله بدران ص ٢٧ـ٢٨ وانظر الاستقامة لابن تيمية ٢/١٩٠.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

المبحث الثالث: فضائل التوبة وأسرارها

للتوبة فضائل جمة، وأسرار بديعة، وفوائد متعددة، فمن ذلك مايلي[١]:

١ـ التوبة سبب للفلاح: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١.

قال أبو السعود رحمه الله: «تفوزون بذلك بسعادة الدارين»[٢].

٢ـ بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الزمر: ٥٣.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التحريم: ٨.

٣ـ بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات، وذلك فضل من الله، وتكرم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفرقان: ٧٠.

قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/٣٠٦ـ٣١٢، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٨٦ـ٢٩٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/١٧١.

ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الفتح: ١ ـ ٢[١].

٤ ـ أن الله يحب التوبة والتوابين: فعبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها؛ فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ البقرة: ٢٢٢.

٥ ـ أن الله يفرح بتوبة التائبين: فللتوبة عنده ـ عز وجل ـ منزلة ليست لغيرها من الطاعات؛ ولهذا يفرح ـ سبحانه ـ بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يُقَدَّر ـ كما مَثَّله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدَّوِيَّة المهلكة بعدما فقدها وأيس من أسباب الحياة ـ.

قال ﷺ: «**لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله.**

قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومةً، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً في حال التائب وقلبِه، ومزيدُه لا يُعبَّر عنه.

وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد؛ فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيباً لله؛ فإن الله يحب التوابين، ويحب العبد المفتن التواب»[٣].

---

(١) مدارج السالكين ١/٣١٠.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

(٣) مدارج السالكين ١/٣٠٦، وانظر كلامًا جميلاً في المدارج ١/٢٢٦ ـ ٢٣٠ حول معنى فرح الله ـ عز وجل ـ بتوبة التائب..

الفصل الثالث

مسائل في الدعاء

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الدعاء، وفضائله

المبحث الثاني: شروط الدعاء

المبحث الثالث: آداب الدعاء

المبحث الأول: مفهوم الدعاء، وفضائله

أولاً: مفهوم الدعاء

١ـ الدعاء في اللغة: الدعاء مصدر الفعل دعا، قال ابن منظور: «دعا الرجل دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانًا أي صِحْتُ به واستدعيته».[١]

٢ـ تعريف الدعاء في الشرع: أما في الشرع فقد عرف بعدة تعريفات منها:

أـ هو الرغبة إلى الله ـ عز وجل ـ .[٢]

بـ وقال الخطابي رحمه الله :«ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه ـ عز وجل ـ العنايةَ، واستمدادُه إياه المعونة.

وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول، والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله ـعز وجلـ وإضافة الجود والكرم إليه».[٣]

جـ وعرفه ابن القيم رحمه الله بقوله: «هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه».[٤]

دـ وعُرِّف بأنه: الابتهال إلى الله ـ تعالى ـ بالسؤال، والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه في تحقيق المطلوب، والنجاة من المرهوب.[٥]

---

(١) لسان العرب، ١٤/٢٥٨.

(٢) لسان العرب، ١٤/٢٥٧.

(٣) شأن الدعاء للخطابي ص٤.

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم، ٣/٢.

(٥) انظر الدعاء للشيخ عبدالله الخضري، ص١٠.

ثانياً: فضائل الدعاء

للدعاء فضائل عظيمة، وثمرات جليلة، وأسرار بديعة منها:

١- أن الدعاء طاعة لله وامتثال لأمره -عز وجل-: قال-تعالى-: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال: ﴿ **وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** ﴾ الأعراف: ٢٩.

فالداعي مطيع لله، مستجيب لأمره.

٢- السلامة من الكبر: قال-تعالى-: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر: ٦٠.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في هذه الآية: «والآية الكريمة دلت على أن الدعاء من العبادة؛ فإنه -سبحانه وتعالى- أمر عباده أن يدعوه، ثم قال: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى** ﴾.

فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرب -سبحانه- استكبار، ولا أقبح من هذا الاستكبار.

وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق له، ورازقه، وموجده من العدم، وخالق العالم أجمع، ورازقه، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه؟!

فلا شك أن هذا الاستكبار طرف من الجنون، وشعبة من كفران النعم»[1].

٣-الدعاء عبادة: للآية السابقة، وكما جاء عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»[2].

٤-الدعاء أكرم شيء على الله: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) تحفة الذاكرين للشوكاني ص٢٨.

(٢) رواه الترمذي(٢٩٦٩)، وقال: «**حسن صحيح**»، وأبو داود(١٤٧٩)، وابن ماجة(٣٨٢٨) الدعاء، وقال الألباني في صحيح الجامع(٣٤٠٧) «**صحيح**».

«**ليس شيء أكرم على الله -عز وجل- من الدعاء**»[(١)].

٥- **الدعاء محبوب لله -عز وجل-:** فعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «**سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يُسأل**»[(٢)].

٦-**الدعاء سبب لانشراح الصدر:** ففيه تفريج الهم، وزوال الغم، وتيسير الأمور.

٧-**الدعاء سبب لدفع غضب الله:** فمن لم يسألِ الله يغضبْ عليه؛ قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضبْ عليه**»[(٣)].

٨- **ثمرة الدعاء مضمونة -بإذن الله-:** فإذا أتى الداعي بشرائط الإجابة فإنه سيحصل على الخير، وسينال نصيبًا وافرًا من ثمرات الدعاء ولا بد.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو كف عنه من سوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»[(٤)].

ففي ذلك دليل على أن دعاء المسلم لا يهمل، بل يعطى ما سأله، إما معجلاً، وإما مؤجلاً، تفضلاً من الله-جل وعلا-.[(٥)]

قال ابن حجر رحمه الله: «كل داع يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة؛ فتارة تقع

---

(١) رواه أحمد ٣٦٢/٢، والبخاري في الأدب المفرد(٧١٢)، وابن ماجة(٣٨٢٩)، والترمذي (٣٣٧٠) الدعوات، وصححه الحاكم في المستدرك٤٩٠/١، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٥٤٩).

(٢) رواه الترمذي(٣٥٧١)، وضعفه، وانظر الضعيفة(٤٩٢).

(٣) أخرجه أحمد ٤٤٢/٢، والترمذي(٣٣٧٣)، وابن ماجة(٣٨٢٧) الدعاء، وصححه الحاكم(٤٩١/١)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٥١٢).

(٤) رواه أحمد ١٨/٣، والترمذي(٣٣٨١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٥٦٧٨).

(٥) انظر تحفة الذاكرين ص٣٣.

بعين ما دعا بِهِ، وتارة بعِوَضِهِ» .[١]

٩ـ الدعاء سبب لدفع البلاء قبل نزوله: قال ـعليه الصلاة والسلامـ :«**ولا يرد القدر إلا الدعاء**» [٢]

قال الشوكاني رحمه الله عن هذا الحديث: «فيه دليل على أنه ـسبحانهـ يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد، وقد وردت بهذا أحاديث كثيرة» .[٣]

وقال: «والحاصل أن الدعاء من قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد يقضي على عبده قضاءً مقيدًا بأن لا يدعوه، فإذا دعاه اندفع عنه» .[٤]

١٠ـ الدعاء سبب لرفع البلاء بعد نزوله: قال ﷺ : «**من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئًا يعطى ـ أحبَّ إليه من أن يسأل العافية، إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل؛ فعليكم عباد الله بالدعاء**» .[٥]

بالدعاء» .[٥]

ولهذا يجدر بالعبد إذا وجد من نفسه النشاط إلى الدعاء والإقبال عليه أن يستكثر منه؛ فإنه مجاب، وتقضى حاجته بفضل الله، ورحمته، فإنَّ فَتْحَ أبواب الرحمة دليل على إجابة الدعاء.[٦]

وقال ﷺ :«**لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن**

---

(١) فتح الباري ١١/٩٥.

(٢) أخرجه أحمد٥/٢٧٧، وابن ماجة(٩٠)، والترمذي(١٣٩) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٧٦٨٧)، وانظر الصحيحة(١٥٤).

(٣) تحفة الذاكرين ص٢٩.

(٤) تحفة الذاكرين ص٣٠.

(٥) أخرجه الترمذي(٣٥٤٨) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث، ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه» ، وقال الألباني في صحيح الجامع(٣٤٠٩): «حسن» ، وانظر: المشكاة(٢٢٣٤)

(٦) انظر تحفة الذاكرين ص٢٨.

الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة».[١]

ومعنى يعتلجان: أي يتصارعان، ويتدافعان.

١١ـ الدعاء يفتح للعبد باب المناجاة ولذائذها: فقد يقوم العبد لمناجاة ربه، وإنزال حاجاته ببابه ـ فَيُفْتَح على قلبه حال السؤال والدعاء من محبة الله، ومعرفته، والذل والخضوع له، والتملق بين يديه ـ ما ينسيه حاجته، ويكون ما فتح له من ذلك أحبَّ إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته، ويكون فرحه بها أعظمَ من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته تلك الحال.[٢]

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء ٢/٨٠٠(٣٣)، والأوسط (٢٥١٩)، والحاكم ٤٩٢/١، والبزار ـكما في كشف الأستار للهيثمي ـ ٢٩/٣(٢١٦٥) وقال الألباني في صحيح الجامع (٧٧٣٩): «حسن».

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم، ٢٢٩/٢.

المبحث الثاني: شروط الدعاء

للدعاء شروط عديدة لا بد من توفرها؛ كي يكون الدعاء مستجابًا مقبولاً عند الله، ومن تلك الشروط ما يلي:

١ـ أن يكون الداعي عالمًا بأن الله ـ وحده ـ هو القادر على إجابة دعائه: فلا يجلب له النفع إلا الله، ولا يكشف عنه السوء إلا هو، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ النمل: ٦٢.

وهذا هو التوحيد العلمي الاعتقادي ـ توحيد الربوبية ـ.

٢ـ ألا يدعو إلا الله: فلا يجوز له أن يسأل إلا الله، أو أن يدعو غيره معه؛ لأن هذا شرك بالله ـ عز وجل ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ الجن: ١٨.

وقال النبي ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»(١).

٣ـ تجنب الاستعجال: وذلك بألا يستعجل العبد الإجابة إذا دعا، وألا يستبطئ الإجابة إذا تأخرت؛ فإن الاستعجال من الآفات التي تمنع أثر الدعاء.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي**»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن الآفات التي تمنع أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر، ويدع الدعاء.

وهو بمنزلة من بذر بذرًا، أو غرس غرسًا، فجعل يتعاهده، ويسقيه، فلما

---

(١) رواه أحمد ٢٩٣/١، ٣٠٧، والترمذي(٢٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠) الدعوات، ومسلم(٢٧٣٥).

استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله».[١]

٤ـ الدعاء بالخير: فحتى يكون الدعاء مقبولاً عند الله ـ فلا بد أن يكون في الخير بعيدًا عن الإثم وقطيعة الرحم، قالﷺ: «**يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**».[٢]

٥ـ حسن الظن بالله ـ عز وجل ـ: فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**».[٣]

وعن جابررضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول قبل وفاته بثلاث:«**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ـ عز وجل ـ**».[٤]

وقالﷺ :«**يقول الله ـ عز وجل ـ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني**».[٥]

قال الإمام الشوكانيرحمه الله في قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي:«**أنا عند ظن عبدي بي**»: «فيه ترغيب من الله لعباده بتحسين ظنونهم، وأنه يعاملهم على حسابها؛ فمن ظن به خيرًا أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تَفَضُّلاته، ونثر عليه محاسن كراماته، وسوابغ عطياته.

ومن لم يكن في ظنه هكذا لم يكن الله ـ تعالى ـ له هكذا.

وهذا هو معنى كونه ـ سبحانه وتعالى ـ عند ظن عبده؛ فعلى العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين على تحصيل ذلك باستحضاره ما ورد

---

(١)الجواب الكافي ص١٠.

(٢) أخرجه مسلم(٢٧٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي(٣٤٧٩) والحاكم ٢٩٤/١، والطبراني في الدعاء(٦٢) وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٢٤٥).

(٤) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٥) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

من الأدلة الدالة على سعة رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ».[(١)]

٦ـ **حضور القلب:** فينبغي للداعي أن يكون حاضر القلب، متفهمًا لما يقول، مستشعرًا عظمة من يدعوه؛ إذ لا يليق بالعبد الذليل أن يخاطب ربه ومولاه بكلام لا يعيه هذا الداعي، وبِجُمَلٍ قد اعتاد تكرارها دون فهم لفحواها، أو أن تجري على لسانه ـ هكذا ـ على سبيل العادة.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاهٍ**».[(٢)]

---

(١) تحفة الذاكرين ص ١٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم ٤٩٤/١، والطبراني في الدعاء(٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٥).

المبحث الثالث: آداب الدعاء

هناك آداب يحسن توافرها: كي يكون الدعاء كاملاً، ومنها الثناءُ على الله قبل الدعـاء، والصلاة ُعلى النبيﷺ والإقرارُ بالذنب، والاعترافُ بالخطيئة، والتضرعُ، والخشوعُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والجزمُ في الدعاءِ، والعزمُ في المسألة، والإلحاحُ بالدعاء، والدعاءُ في كل الأحوال، والدعاءُ ثلاثاً، واستقبالُ القبلة، ورفعُ الأيدي، والسواكُ، والوضوءُ، واختيارُ الاسم المناسبِ أو الصفةِ المناسبةِ كأن يقول: يا رحمن ارحمني، برحمتك أستغيث.

ومن آداب الدعاء: خفضُ الصوتِ، وأن يتخير الداعي جوامعَ الدعاء، ومحاسنَ الكلامِ، وأن يتجنب التكلفَ، والسَجْعَ، وأن يبدأ الداعي بنفسه، وأن يدعو لإخوانه المسلمين.

ومن الأسباب ـ أيضاً ـ: الإخلاص لله حالَ الدعاء، وقُوةُ الرجاء، وشدةُ التحرّي، وانتظارُ الفَرَجِ، والتوبةُ، وردُّ المظالمِ، والسلامةُ من الغفلة، وكثرةُ الأعمالِ الصالحةِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكر، والتقربُ إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، وبِرُّ الوالدين، واغتنامُ الفُرصِ، وذلك بتحري أوقات الإجابة، واغتنامُ الأحوال، والأوضاع، والأماكن التي هي مظانُّ إجابة الدعاء.

هذه بعض آداب الدعاء على سبيل الإجمال، والأدلة على ذلك مبسوطة في الكتاب والسنة، والمجال لا يتسع للتفصيل؛ فالإتيان بشروط الدعاء وآدابه من أعظم الأسباب الجالبة لإجابة الدعاء[1].

---

١ ـ انظر ذلك مبسوطاً في كتاب الدعاء مفهومه ـ أحكامه ـ أخطاء تقع فيه لمحمد الحمد ص٣٧ـ٦٨.

الباب السادس

النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأسري في الإسلام

وتحته:

الفصل الأول: النظام السياسي في الإسلام

الفصل الثاني: النظام الاقتصادي في الإسلام

الفصل الثالث: النظام الاجتماعي في الإسلام

الفصل الرابع: نظام الأسرة في الإسلام

الفصل الأول

النظام السياسي في الإسلام

وتحته:

المبحث الأول: في مفهوم النظام السياسي في الإسلام

الوقوف على معنى النظام السياسي في الإسلام يحتاج إلى معرفة كلمة النظام والسياسة باعتبار إفرادهما، ثم باعتبار تركيبهما وإضافتهما إلى الإسلام، وهذا ما سيتبين من خلال ما يلي:

أولاً: معنى كلمة (النظام) في اللغة: النظام اسمُ مصدرِ الفعل نَظَم ينظم، والمصدر نظماً، واسم المصدر نظاماً.

ويطلق النظم على الجمع والضم، يقال: نظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك.

وكل شيء قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته.

والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره.

ونظام كل أمر: مِلاكه، والجمع أنظمة، وأناظيم، ونظم.

والانتظام: الاتساق.[1]

وقد أُطلقت لفظة النظام على الأحكام التي تنتظم في موضوع واحد هي ملاك هذا الموضوع؛ فكأنها حبات لؤلؤ نظمت بخيط واحد.[2]

ثانياً: معنى كلمة (السياسي) في اللغة: السياسي نسبة إلى السياسة، وهي مصدر الفعل ساس يسوس.

والسياسة والسَّوس: الرياسة، والطبيعة، والجبلة.

والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه.

يقال: ساسوهم سوساً، وإذا رأَّسوا أحداً قيل: سوَّسوه، وأساسوه، وساس الأمر سياسة: قام به، وسوَّسه القوم: جعلوه يسوسهم.

---

١ ـ انظر لسان العرب ١٢/٥٧٨ـ٥٧٩ .

٢ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام ـالنظرية السياسية نظام الحكمـ د. عبدالعزيز الخياط ص٢١ .

ويقال: سوَّس فلانٌ أمرَ بني فلان: أي كُلِّف سياستهم.[١]

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي**».[٢]

قال ابن الأثير رحمه الله: «تسوسهم الأنبياء: تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية».[٣]

ثالثاً: معنى النظام السياسي: تطلق كلمتي النظام السياسي باعتبار التركيب على عدة إطلاقات باعتبارات:

١. فتطلق على كل ما يتعلق بسياسة الدولة، ونظام الحكم فيها.

٢. وتطلق على جانب الحكم فيها على اعتبار أن نظام الحكم يشمل النظام السياسي، والنظام الإداري، والنظام المالي، والنظام القضائي.

٣. وتتناول ألواناً أخرى من النظم، والأحكام، والقوانين التي لا يمكن أن يُتَصَوَّر نظام الحكم إلا بها.[٤]

رابعاً: مفهوم النظام السياسي في الإسلام: لقد عني الإسلام بالسياسة ونظامها؛ بمعنى تدبير شؤون الأمة، ورعاية مصالحها لا بمعنى الختل، والتضليل، والخداع، والمناورة؛ فموضوع السياسة في الإسلام تدبير الأمة، وتصريفها على الوجه الأصلح الذي جاءت به الشريعة الإسلامية، وهو ما يعرف بالسياسة الشرعية؛ فهي مفهومٌ وممارسةٌ تربط بين السياسة وهي القيام على الأمر بما يصلحه، وبين الشرعية وهي تطبيق أحكام الشرع فيما ورد فيه نص، ومراعاةُ

---

١ ـ انظر لسان العرب ١٠٨/٦ .

٢ ـ البخاري (٣٤٥٥).

٣ ـ النهاية في غريب الحديث ٤٢١/٢ .

٤ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢١ .

مطلق المصلحة فيما لا نص فيه.

وبهذا المفهوم تُعَرَّف السياسة الشرعية بأنها: تدبير الشؤون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح، ودفع المضار مما لا يتعدى حدود الشريعة، وأصولها الكلية.

ولا ريب أن مفهوم علم النظام السياسي الإسلامي جزء من السياسة الشرعية، وهو معرفة نظام الحكم، وكيفية اختيار الحاكم، وحقوقه، وواجباته، وحقوق المحكوم، وواجباته، والعلاقة بين الحاكم، والمحكوم، والعلاقة بين الدول في حالتي السلم والحرب وفق الشريعة[1].

---

١ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢٢، والنظام السياسي في الإسلام د.سعود آل سعود وآخرون ص١٠ .

المبحث الثاني: خصائص النظام السياسي للشريعة الإسلامية

الإسلام دين الفطرة، ودين السلامِ، والأمانِ، وللشريعة الإسلامية خصائص تمتاز بها عن غيرها.

والنظام السياسي في الإسلام أحد مفردات منظومة دين الإسلام، وله خصائص خالدة تبرز دوره، وتميزه عن غيره من الأنظمة السياسية الأخرى.

ومن أهم تلك الخصائص ما يلي:

١. الربانية: وتتمثل الربانية في نظام الإسلام السياسي في ربانية المصدر، وربانية الوجهة.

أما ربانية المصدر فتتمثل في كونه من عند اللهِ، والله -عز وجل- أعلم بما يصلح عباده، قال -تعالى-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤.

ولهذه الخصيصة ثمار عديدة منها: العصمة من التناقض، والبراءة من التحيُّز والظلمِ، والميلِ لمصلحة طائفة من البشر، أو بلد دون آخر.

ومنها: التحرر من عبودية الإنسان في الوقت الذي انحرفت فيه الأنظمة السياسية الوضعية بتذليل الأتباع للمتبوعين، وانحرفت في جانب آخر من جوانب العبودية من جهة أن السادة قد يُحَرِّمون على أتباعهم ما يشاؤون، ويحللون لهم ما يشاؤون.

وأما ربانية الوجهة فتتمثل في ابتغاء الإنسانِ بعمله وجهَ الله -عز وجل- فالمسلم هو الذي تكون أعماله لله -سبحانه- كما قالَ -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الأنعام: ١٦٢ .

هكذا يعلق الإنسان المؤمن توجهه لله -سبحانه- في جميع أموره، ومن جملتها منهجه السياسي الذي يسير عليه.

والعمل بالنظام السياسي الإسلامي أمر يُتعبد الله به، فالسياسي المسلم الذي يسير على شرع الله مخلصاً في نيته لله ـ مأجور عند الله ـ عز وجل ـ على عمله، قال النبي ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم: «**الإمام العادل**»[1].

وفي مقابل ذلك فإن من أعرض في سياسته عن الحكم بما أنزل الله فإنه معرض للعقوبة من الله ـ سبحانه ـ قال النبي ﷺ: «**ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يُحِطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة**»[2].

٢. الشمول: قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨.

فالنظام السياسي في الإسلام لم يأت قاصراً على ما يهم الحاكم، أو على ما يهم المحكوم، بل جاء شاملاً لكل ما يحتاجه النظام من بيان لواجبات الحاكم وحقوقه، وواجبات المحكوم وحقوقه.

وجاء بما ينظم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الأمم والشعوب المسلمة وغير المسلمة.

ثم إنه شامل لحل جميع المشكلات؛ لاشتمال شريعة الإسلام وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع.

ومما يدل على ذلك الشمول، قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ٨٩.

قال ابن الجوزي رحمه الله: في تفسير هذه الآية: «لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم مثل بيان رسول الله ﷺ وإجماع المسلمين»[3].

---

١ ـ رواه البخاري (٦٦٠).

٢ ـ رواه البخاري (٧١٥٠).

٣ ـ زاد المسير ٤/٤٨٢.

٣. العالمية: فالنظام السياسي في الإسلام له صفة العالمية؛ لأنه منزل لجميع الناس على حدٍّ سواء صالح لكل زمان، ومكان، وأمة، وحال؛ فشريعته أحكم ما تساس به الأمة، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح، أو التنازع في الحقوق؛ **فعالمية الزمان** تعني أنه صالح إلى قيام الساعة، **وعالمية المكان** تعني أنه صالح لأي جزء من أجزاء المعمورة، ولجميع الناس على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم، وأحوالهم.

ولقد تظاهرت النصوص الشرعية في بيان ذلك، منها قول الله -عز وجل-: ﴿**قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ الأعراف: ١٥٨.

وقول النبي ﷺ مبيناً عن بعض ما اختصه الله به، قال: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**».[1]

ولا غرو في ذلك فالإسلام هو آخر الأديان، ولا دين بعده؛ فلا بد أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان، ولجميع الأمم، ولكافة الأحوال من حرب وسلم، وقوة وضعف، وغنى وفقر، ونحو ذلك.

٤. الوسطية: فالإسلام وسط في عقيدته، وشريعته بين الغلو والتقصير.

وهو كذلك وسط في أنظمته، ومن جملتها النظام السياسي؛ فلا هو نظام ديكتاتوري مُفْرِط، ولا نظام ديموقراطي مُفَرِّط.

ولقد وصف الله هذه الأمة بالوسطية، وقال: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ البقرة: ١٤٣.

والوسط: هو الخيار، والعدل، والأجود.

ومن أجلى مظاهر ملائمة النظام السياسي الإسلامي للمطالب البشرية تميزه بالتوازن والوسطية، فالثبات فيما يجب أن يبقى ويَخْلُد، والمرونة فيما ينبغي أن

---

١ - رواه البخاري (٣٢٣)، ومسلم (٨١٠).

يتغير ويتطور.

٥. الواقعية وملائمة الفطرة: فالنظام السياسي يتسم بهذه الخصيصة؛ فهو ممكن التطبيق، والتحقيق في الحياة الإنسانية؛ لأنه ليس بعيداً عن الحقائق وأمور الحياة، فهو ليس نظاماً مغرقاً في الخيال والمثالية التي ليس له حقيقة إلا في التصور الذهني فحسب.

وإنما هو نظام يُشَرِّعُ للناس كما هم في عالم الواقع؛ فهو يراعي طبيعة البشر، ولا يتعامل معهم تعاملاً جامداً مجرداً.

ومن هنا فالنظام السياسي الإسلامي يفوق في واقعيته النظم السياسية التي وضعها أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم من الفلاسفة الذي حلقوا في عالم الخيال، ولم يراعوا الواقع وطبيعة الناس؛ فجاءت تصوراتهم بعيدة عن الحقيقة والواقع؛ لأن النظم السياسية التي وضعوها قائمة على فروض عقلية مجردة، ولم تأت من النظر في واقع الحياة ومشكلاتها.

ومن أكبر مظاهر واقعية النظام السياسي في الإسلام أنه يتعامل مع هذه الحياة الواقعية بكل ما فيها من خير وشر، وما فيها من بشر من لحم ودم وأعصاب، وعقل ونفس وروح، يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ البقرة: ٢٨٦.

وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ

مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ آل عمران: ١٤ـ١٥ .

هذه بعض النصوص القرآنية التي تقرر طبيعة الإنسان وضعفها، وتضع حدود المنهج الإسلامي للحياة، وهي تدل على الواقعية في هذا المنهج وانطباقها على واقعية الفطرة الإنسانية وحدود طاقاتها الموهوبة لها، وحدود الاستعدادات المهيأة للعمل والنشاط؛ بحيث لا تكبت طاقة واحدة، ولا تكف عن العمل، لا تكلف النفس بما ليس من وسعها ولا من فطرتها التي فطرها الله ـ تعالى ـ عليها.[1]

---

١ ـ انظر تفصيل هذه الخصائص في كتاب النظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٨ـ٢٤، والنظام السياسي في الإسلام النظرة السياسية نظام الحكم د. عبدالعزيز الخياط ص٨٣ـ١١١ .

المبحث الثالث: الشريعة الإسلامية والأنظمة البشرية

مرَّ بنا في المبحث الماضي ذكرُ بعضِ الخصائص التي اختصت بها الشريعة الإسلامية ونظامها السياسي.

ويكفي في تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الأنظمة البشرية أن الشريعة الإسلامية جاءت من لدن رب البشر الذي خلقهم، ويعلم ما يصلحهم.

بخلاف الأنظمة البشرية التي يعتريها ما يعتريها من الهوى، والغفلة، والجهل، والنقص وما إلى ذلك.

والحديث عن تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها لا يحتاج إلى إطالة، وكثرة استدلال؛ إذ هو واضح لكل عاقل منصف، ولو استرسل الحديث في ذكر أوجه التفاضل والتميز للشريعة الإسلامية عن غيرها لطال الكلام، ولكن المقام لا يسمح بذلك.

وإنما سيكون ذكر لبعض المقارنة بين النموذج السياسي الإسلامي وغيره، وذلك من خلال ما يلي:

١. أن العلاقة في الإسلام بين الحاكم والمحكوم مباشرة، لا تعرف الوسيط، ولا يفصل بين الاثنين أية عقبة اجتماعية أو نظامية.

٢. العلاقة السياسية تنبع من مفهوم العلاقة الدينية، وتُحَدَّد بها؛ فعلاقة المسلم بكتاب الله وسنة رسوله وتعاليمها هي التي تحدد روابط العلاقة السياسية.

٣. أن تلك العلاقة مشتركة؛ فكل مسلم مطالب بالدعوة إلى الله، ونشر الإسلام بالوسائل المشروعة حسب استطاعته، والدولة تفعل ذلك.

٤. أن هذه العلاقة مطلقة غير مقيدة بفئة ولا طبقة، والتمييز بين الحاكم والمحكوم هو تمييز وظيفي.

٥. أن العلاقة السياسية في الإسلام ظلت تمتاز بالبساطة، فلم تعرف المثالية المجردة التي عرفها النموذج اليوناني، ولا التركيب النظامي الذي عرفه النموذجان: الروماني والكاثوليكي، ولا الاستيعاب المطلق الذي سيطر على النموذج القومي[1].

١ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص٢٧ـ٢٨ .

المبحث الرابع: النظام القضائي في الإسلام

أولاً: مفهوم القضاء: أ. تعريف القضاء في اللغة: القضاء في اللغة مصدر الفعل قضى يقضي قضاءً.

قال ابن فارس في مادة (قضى): «القاف والضاد، والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته».[١]

والقضاء هو الحكم، والصنع، والحتم، والبيان.

وأصله: القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه[٢].

ب. تعريف القضاء في الاصطلاح الشرعي: هو تبيُّن الحكم الشرعي، والإلزام به، وفصل الخصومات.[٣]

ثانياً: مكانة القضاء وأهميته: للقضاء مكانة عظيمة، وأهمية بالغة؛ فهو من ضروريات الحكم، ومن أعظم الأسس والقواعد التي تقوم عليها أي دولة؛ فمصلحة الأمة تقضي بوجوده، والعناية به.

ولو عُدِمَ القضاءُ لاختل الاجتماع، ولاضطربت الأمور، وضاعت الحقوق، وعمت الفوضى.

ولأهمية القضاء عُني الإسلام به أعظم عناية، وعَدَّه من أعظم الولايات،

---

١ ـ معجم مقاييس اللغة ٩٩/٥ .

٢ ـ انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٤٤١ـ٤٤٢، والمفردات لغريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٢٣، ولسان العرب ١٨٦/١٥، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ص١٧٠٨، وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن لغلام ثعلب ص٢٥٣ و ٣٠٦ و٥٧٦ .

٣ ـ انظر شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٤٦٢/٦، ومزيل الداء عن أصول القضاء للشيخ عبدالله بن مطلق الفهيد ص١١ .

ووضع لمن يتولاه شروطاً خاصة تضمن تحقيق أهداف سلطة القضاء.

ولقد أجمع الصحابة -رضي الله عنهم- على إقامة القضاء بين الناس، وباشروه في عهد الرسولﷺ ومن بعده.

بل لقد كانت السلطة القضائية في صدر الإسلام في يد الخلفاء.

يقول ابن خلدون رحمه الله: «كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرون القضاء بأنفسهم، ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم.

وأول من دفعه إلى غيره، وفوَّضه فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإنما كانوا يولون القضاء لغيرهم، وإن كان مما يتعلق بهم؛ لقيامهم بالسياسة العامة، وكثرة أشغالها»[١].

ولما للقضاء من شأن خطير وردت الأحاديث فيه ترغيباً وترهيباً، فقد رغَّب الرسولﷺ فيه؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة ومن أهمها تحقيق العدل.

وزهَّد فيه لمن لا يستطيع تحمل تبعاته، وتقدير عواقبه.

قال النبيﷺ: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة؛ قاضٍ قضى بغير حق وهو يعلم ذلك فذلك في النار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فذلك في الجنة**»[٢].

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ؛ فإذا جار تخلى عنه، وألزمه الشيطان**»[٣].

هذا وقد نوَّه العلماء بالقضاء، قال السرخسي رحمه الله: «في القضاء بالحق إظهار العدل، وبالعدل قامت السماوات والأرض، ورفعُ الظلم، وهو ما يدعو إليه

---

١ ـ انظر مقدمة ابن خلدون ٥٦٧/٢ .

٢ ـ أخرجه أبو داود (٣٥٧٣) والترمذي (١٣٢٢)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٠٥١): «**صحيح**».

٣ ـ أخرجه الترمذي (١٣٣٠)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٨٢٧): «**حسن**».

عقل كل عاقل، وإنصاف المظلوم من الظالم، وإيصال الحق إلى المستحق، وأمر بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر.

ولأجله بعث الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم- وبه اشتغل الخلفاء الراشدون -رضوان الله عليهم-» [١].

ولهذا تولى كثير من العلماء القضاء؛ فقاموا بالعدل، ونشروا لواءه.

وأحجم كثير منهم عن تولي القضاء؛ إكباراً لشأنه [٢].

ثالثاً: مقاصد القضاء: من خلال ما مضى تبين شيء من مقاصد القضاء، وفيما يلي إجمال لأهم تلك المقاصد:

١. الفصل في الخصومات بطريق الصلح، أو بالحكم القضائي الملزم.

٢. استيفاء الحقوق ممن هي عليه، ودفعها إلى مستحقيها.

٣. النظر في أموال اليتامى، والمجانين، والسفهاء، والحَجْر على من يُرى الحجر عليه؛ لِسَفَهٍ أو نحوه.

٤. مكافحة الفساد، ورد المفسدين بالحكم عليهم بالعقوبات الشرعية الزاجرة.

٥. إقامة العدل، ونصرة المظلوم، وإحلال النظام.

٦. تنفيذ الوصايا على شروط المُوْصِين حسب أحكام الشريعة.

٧. النظر في الأوقاف، وتنميتُها، وحفظُها، وصرفُ ريعها للمستحقين.

٨. تطبيق أحكام الشريعة فيما يتعلق بالزواج والطلاق، وما يستتبعهما من الولاية على من لا ولي لها، ونحو ذلك مما يسمى بالأحوال الشخصية.

٩. النظر في قضايا الدماء، من قصاص، وجراحات، ونحوها.

---

١ ـ المبسوط للسرخسي ١٦/ ١٦ .

٢ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز خياط ص ٢٤٨ـ٢٤٩ ، والنظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص ١٠٧ـ١٠٨ .

١٠. التأكد من أهلية الشهود، وإبدالهم بغيرهم إذا ثبت جرحهم.

فهذه مقاصد القضاء على سبيل الإجمال.[١]

رابعاً: شروط القضاء: القضاء منصب خطير -كما مر- ولذا اشترط العلماء فيمن يتولى القضاء شروطاً عديدة مستنبطة من الكتاب والسنة.

ومن أهم تلك الشروط: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، وأن يكون عدلاً، عفيفاً، ظاهر الأمانة، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية المستقاة من الكتاب والسنة، وأن يكون ذا علم بالإجماع والقياس، وأن يكون سليم الحواس من السمع والنطق، والبصر؛ ليدرك الأشياء، ويفهمها.

وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان، فيجب تولية الأمثل فالأمثل.

وأركان تلك الشروط التي يجب أن تتوافر في القاضي اثنان:

القوة والأمانة؛ لقوله -تعالى-: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ مريم: ١٢.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ص: ٢٦.

فالقاضي يحتاج إلى تنفيذ ما يحكم به؛ فإذا لم يكن صاحب قوة تعطلت الأحكام، وضاعت الحقوق.

والقضاء يحتاج إلى الأمانة أكثر من غيره؛ فإذا لم يكن القاضي أميناً ذا خشية لله استحل المحرم؛ فأعطى الحقوق غير مستحقيها، أو منعها مستحقيها؛ لمجرد هوى أو دنيا.[٢]

---

١ - انظر مزيل الداء عن أصول القضاء للشيخ عبدالله بن مطلق الفهيد ص٢٣-٢٦، والنظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢٥٦، والنظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١١١.

٢ - انظر مزيل الداء عن أصول القضاء للشيخ عبدالله بن مطلق الفهيد ص٢٩-٣٠، والنظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٠٩-١١١، والنظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢٥١-٢٥٦.

خامساً: آداب القاضي: ذكر العلماء آداباً يحسن بالقضاة أن يتحلوا بها؛ ليكون قضاؤهم تاماً كاملاً مؤدياً للغرض من غير جلب ضرر، أو مفسدة؛ فمن ذلك ما يلي:

١ـ أن يجمع القاضي بين الحزم والحلم؛ فيكون قوياً من غير عنف، ولَيِّناً من غير ضعف.

٢ـ أن يكون ذا أناة، وصبر وتثبت، وطول نفس.

٣ـ أن يكون ذا فطنة مستيقظة، بحيث لا يؤتى من غفلة، أو يخدع لِغِرَّة.

٤ـ أن يكون عفيفاً ورعاً زاهداً بعيداً عن المطامع.

٥ـ أن يكون صادق اللهجة، بعيداً عن المواربة.

٦ـ أن يكون ذا رأي ومشورة، واستخارة، وألا يكون غشوماً عسوفاً مستبداً.

٧ـ أن يكون بصيراً بالقضاء وآدابه، وبأحكام الحكام قبله؛ ليستفيد منها ما يتجدد من الوقائع.

٨ـ يستحب للقاضي إذا ولي بلداً أن يعرف عادات ذلك البلد، وأن يسأل عمن فيه من الفقهاء والفضلاء، والعدول؛ ليعرف من خلالهم أحوال البلد، ويستعين بهم في الإصلاح ونحو ذلك.

٩ـ أن يخرج للناس في أعدل أحواله غير غضبان، أو متكدر، أو جائعٍ، أو مهموم بأمر يشغله، وألا يستسلم لما يعرض له من أحوال خاصة كالرضا، والغضب، والاستحسان، والاستهجان.

١٠ـ أن يكون مستعيناً بالله، عظيم التوكل عليه، كثير السؤال والدعاء أن يوفقه الله للصواب، وأن يجنبه الخطأ والزلل.

١١ـ أن يصون نفسه عن مواطن الرِّيَب، وعن كل ما يسقط الهيبة والمروءة.

١٢ـ أن يجمع بين التواضع، وعزة النفس.

١٣ـ أن يعنى بملبسه ومجلسه بما يليق بحاله وزمانه دون تكلف أو تصنع.

١٤ـ اتخاذ الديوان، والمحاضر، والتدقيق في المدونات.

هذه بعض آداب القاضي التي يستحب للقاضي أن يتمثلها، ويأخذ بها، وهناك تفصيلات كثيرة يطول ذكرها.[1]

سادساً: أحوال الناس في القضاء: مر شيء من ذلك عند الحديث عن مكانة القضاء وأهميته، ويمكن إجمال أحوال الناس في القضاء فيما يلي:

١. من الناس من لا يجوز له الدخولُ في القضاء، وهو من لا يحسنه، ولم تجتمع فيه شروطه.

٢. منهم من يجوز له ولا يجب عليه، وهو من كان من أهل العدالة، والاجتهاد، ويوجد غيره مثله.

٣. ومنهم من يجب عليه أن يتولى القضاء، وهو من يصلح للقضاء، ولا يوجد غيره يقوم مقامه؛ فهذا يتعين عليه؛ لأن القضاء فرض كفاية؛ فإذا لم يوجد من يقوم به غيره تعين عليه كسائر فروض الكفايات.[2]

سابعاً: استقلالية القضاء في الإسلام: لقد أكدت الشريعة الإسلامية استقلال القضاء والقاضي.

ويُعنى بذلك حصانة القضاء والقاضي، وحريته في اتخاذ الحكم، وتقرير الحق، ومنع التدخل في أحكامه، وابتعاده عن المؤثرات الخارجية، والسياسية، والشخصية.

وذلك لأن القاضي ملاذ المظلومين، وكهف المكروبين، ومُنْصِف المُحِقِّين،

---

١ ـ انظر مزيل الداء عن أصول القضاء ص٣٣ـ٤٦، والنظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢٥٢ـ٢٥٣.

٢ ـ انظر مزيل الداء عن أصول القضاء ص٢١.

وقامع المبطلين الظالمين ، فمهمته أن يعيد الحقوق إلى أربابها ، وأن يحكم بالحق دون أي مؤثرات خاصة أو عامة.

قال الله -عز وجل- : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ المائدة : ٨ .

وقال -جل ثناؤه- : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ المائدة : ٤٩ .

وقال : ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ النساء : ١٠٥ .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يجوز للوالي أن يملي عليه إرادته إلا إذا تنكب القاضي عن طريق الحق ، فيعزل بعد التحقق من أمره.

هذا وإن التاريخ الإسلامي منذ فجر الإسلام حافل بما يؤكد استقلالية القضاء ، ونزاهة القضاة[1].

---

١ ـ انظر النظام الأساسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٢٦٧ .

المبحث الخامس: الشورى في الإسلام

المطلب الأول: مفهوم الشورى

١. الشورى في اللغة: أصل هذه الكلمة الشين، والواو، والراء (شور).

قال ابن فارس رحمه الله: «الشين والواو والراء أصلان مُطّردان، الأول منهما: إبداء شيء وإظهاره، وعرضه، والآخر أخذ شيء».[١]

إلى أن قال رحمه الله: «قال بعض أهل اللغة: من هذا الباب شاورت فلاناً في أمري. قال هو مشتق من شور العسل؛ فكأن المستشير يأخذ الرأي من غيره».[٢]

فمعاني الشورى -إذاً- تدور حول إبداء الشيء، وإظهاره، وعرضه، واستخراجه.

ووجه المناسبة من كون الشورى مشتقة من شور العسل ههنا أن المستشار بمثابة النحلة التي تطوف على أنواع العسل والثمار؛ لتتغذى منها.

ومشورته تكون بمثابة العسل الذي هو خلاصة الغذاء؛ فالمستشير يأخذ من المستشار رأيه، كما يفعل من يأخذ العسل من الخلية، فيصفيه، وينقيه من الشمع ومما يَعْلَقُ به.[٣]

٢. الشورى في الاصطلاح: عرفت الشورى في الاصطلاح بعدة تعريفات.

ومما يمكن أن تعرف به أن يقال: الشورى استخراج الرأي من أهل الرأي، ومراجعة بعضهم بعضاً؛ رغبة في الوصول إلى الصواب في أي شأن من الشؤون[٤].

---

١ ـ معجم مقاييس اللغة ٣/٢٢٦.

٢ ـ معجم مقاييس اللغة ٣/٢٢٧.

٣ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٣٤.

٤ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٨٩، والنظام السياسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٣٤، والشورى في الإسلام بين النظرية والتطبيق د. عبدالله الموجان ص١٦ـ١٧.

أو يقال: الشورى هي النظر في الأمور من أرباب الاختصاص؛ لاستجلاء المصلحة المقصودة شرعاً، وإقرارها.[١]

وهذا يعني أن الشورى تتكون من طرفٍ يشير، وطرفٍ يسمع، ويتخلّل ذلك تغليبٌ للرأي، وتبادلٌ لوجهات النظر في الشأن الذي ينظر فيه.

ويهدف من وراء هذا الحوار إلى الاستنارة بالآراء، والخروج برأي واحد قبل أن ينفرد أحد، فيتصرف برأيه وحده.

بل يقوم بالتصرف بعد التشاور في المسألة، وأخذ الرأي ممن عرفوا بالسداد.

وتكون الشورى -أيضاً- خصوصاً في الشؤون العامة بالرجوع إلى آراء أهل الخبرة، من أفراد الأمة ممن لهم معرفة، وتجربة، أو من أهل الاختصاص بالأمر المرادِ التشاورُ فيه، كأن يكونوا أطباء إن كان طبيباً، أو عسكريين إن كان عسكرياً، وهكذا في كل شأن من الشؤون التي تحتاج إلى مشاورة؛ ذلك أن مجالات الشورى متعددة، ومتنوعة، وشاملة لجميع مجالات الحياة الإنسانية، سواء في الحكم، أو القضاء، أو الإرادة، أو البيت، أو الشؤون الخاصة[٢].

المطلب الثاني: الشورى في القرآن الكريم

ورد ذكر الشورى بمعناها العام المتعلق بنظام الحكم في الإسلام في آيتين من القرآن الكريم:

الأولى: في سورة الشورى، وهي مكية نزلت قبل الهجرةِ وقيامِ الدولة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ** ﴾ الشورى: ٣٨.

١ - انظر نظام الشورى في الإسلام ونظم الديموقراطية د. زكريا الخطيب ص١٨، والشورى في الإسلام ص١٧.

٢ - انظر النظام الأساسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٣٤-١٣٥، والنظام السياسي في الإسلام د. عبدالعزيز الخياط ص٨٩.

يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: « ﴿ وَأَمْرُهُمْ ﴾ الديني والدنيوي ﴿ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم، وتوالفهم، وتوادهم، وتحاببهم، فمن كمال عقولهم أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيرهما »[١].

ويظهر لنا من هذه الآية الكريمة أن الله -سبحانه وتعالى- ذكر الصفات الأساسية التي تميز المؤمنين ومدحهم لها، وذكر من ضمن هذه الصفات أن أمرهم شورى بينهم، وهذا يفيد أن الشورى من خصائص المسلمين التي يجب أن يتحلوا بها، سواء كانوا يشكلون جماعة لم تقم لهم دولة بعد كما كان حال المسلمين في مكة، أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كانت الحال في المدينة بعد الهجرة.

ويرى بعض الباحثين من خلال تدبرهم للآية الآنفة أن الشورى وصف ملازم للمؤمنين كالصلاة، فإذا لم يُسمح للمسلم أن يترك الصلاة؛ فكذلك لا يسمح له بترك إقامة الشورى خاصة في الأمور المتعلقة بالمصالح العامة، ويتأكد ذلك بأن الله -عز وجل- ذكر صفة الشورى بعد صفة الصلاة التي هي عماد الإسلام، وقبل صفة الزكاة، وهذا يدل على عظم شأن الشورى[٢].

الآية الثانية في سورة آل عمران، وهي مدنية، قال -تعالى-: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ**

---

١ - تيسير الكريم الرحمن ص٧٦٠.

٢ - انظر الشورى وأثرها في الديموقراطية د. عبدالحميد الأنصاري ص٥٢-٥٣.

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾. آل عمران: ١٥٩

تتضمن هذه الآية الكريمة أمراً من الله -عز وجل- لرسوله الكريمﷺ أن يستشير من معه من المؤمنين، فإذا كان الله -عز وجل- يأمر رسولهﷺ بذلك، مع كمال عقله، وجزالة رأيه، ونزول الوحي عليه، ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا أو كرهوا، فكيف بغيره؟!.[1]

ويرد هذا الأمر الإلهي في سياق إرشاد الرسولﷺ بالتودد إلى جماعة المسلمين بوصفه رئيساً للدولة الإسلامية، فقرنت الشورى هنا إلى جانب صفات الرحمة واللين، والابتعاد عن الفظاظة والغلظة، والعفو عن زلاتهم، والاستغفار لهم، وعليه فإن ظاهر الآية يرشد أنها جاءت تبين سلوكاً يجعل رئيس الدولة محبوباً مرغوباً لدى جماهير الناس.[2]

إن الناظر في أمر القرآن الكريم بالشورى، والمتدبر للمنافع المترتبة عليها لا يشك في مدى أهميتها الكبيرة في النظام السياسي الإسلامي، ويمكن إيجاز تلك الأهمية في العناصر الآتية[3]:

١. ذكر مدح المؤمنين بالشورى بين ركنين عظيمين من أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة كما تقدم في الآية الأولى، وإيرادها بهذا السياق يدل على خطورتها البالغة وعظم شأنها.

٢. أن الأمر إذا تم عن طريق المشاورة تقل فيه نسبة الخطأ، وتكثر الإصابة؛ فإن الحاكم مهما بلغ من رجاحة عقله وسعة اطلاعه، وكثرة تجاربه، فهو محدود

---

١ ـ انظر تفسير البغوي ١/٣٦٥ .

٢ ـ انظر الشورى للخالدي ص١٥٨ .

٣ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام ص٨٥ـ٨٩، وفقه الشورى دراسة تأصيلية نقدية ص٥٦ـ٦١ .

بنقصه البشري الذي لا ينفك عنه.

٣. أن الشورى في الحقيقة توزيع للمسؤولية، فلا تقع نتيجتها مهما كانت على كاهل واحد بعينه، بل يتقاسمها الجميع، فلا يتلاوم الناس ويتنافرون ويتشاجرون إن كانت نتيجتها على خلاف ما يريدون.

٤. أن المجتمع الذي تطبق فيه الشورى على الطريقة الشرعية يشعر فيه الأفراد بالمسؤولية تجاه قضاياهم الدنيوية والدينية، ولا تجد ذلك المجتمع يعاني من قلة المسؤولية، أو انعدامها تجاه قضايا الأمة الخطيرة والمهمة.

٥. أن الشورى وقاية للمجتمع من الاضطراب، وقلة الاستقرار؛ فهي تولد الثقة بين الحاكم والمحكوم، فتزول الأحقاد، ويذهب التدابر والتنازع؛ فالشورى صمام أمان وحاجز عن الفتن والقلاقل؛ لأنه من خلالها تُدرس المسائل والقضايا من أهل الحل والعقد والعلماء والخبراء، فإما أن يؤخذ بها، وإما أن ترد، وعلى كلا الحالين ترتاح النفوس، وتزول الضغائن، وبذلك يسود المجتمع الترابط والإخاء والمحبة والألفة والتراحم بين الحكام والمحكومين.

٦. أن الواقع التاريخي شاهد على أن أسعد الأوقات التي مرت بها الأمة يوم طبقت شرع الله، وساد مبدأ الشورى في حياتها، كما أن أشقى الأوقات هي تلك التي نُحِّيت فيها الشورى، وانتشر الاستبداد الذي تولد عنه النزاعات والفتن[1].

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية للشورى في القرآن الكريم

ما ورد ذكره من النص على الشورى في الآيتين السابقتين ليس هو جميع ما ورد في شأن الشورى في القرآن الكريم.

يقال هذا لأن كثيراً ممن يكتب عن الشورى في القرآن الكريم لا يكاد يذكر إلا هاتين الآيتين، وما تنطويان عليه من أحكام، وأسرار.

---

١ ـ انظر النظام السياسي في الإسلام ص١٣٥ـ١٣٨

ولا ريب أنهما نصٌّ في الموضوع، وأصلٌ فيه.

غير أن القرآن حافلٌ بتقرير الشورى في كثيرٍ من سوره وآياته.

ومن ذلك ما جاء في قصة بدء الخلق من المحاورة بين الرب -جل وعلا- وملائكته، كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة.

فهذه المحاورة تنطوي على نوعٍ من المشاورة، مشاورة أريد لها أن تكون في بدء الخليقة؛ لتكون هدياً ملازماً لبني آدم منذ الخلق الأول؛ ولتكون كالاستشارة للملائكة، وتكريماً لهم؛ فيكون تعليماً في قالب تكريم، ولِيَسُنَّ الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دقَّ وما خفي من حكمة الله.

فالشورى هي من أول السنن الاجتماعية التي سنَّها الله لخلقه؛ ليقتدوا بها، ويهتدوا بهداها[1].

٢- الشورى عند إبراهيم -عليه السلام-: قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الصافات: ١٠٢.

فالمسألة محسومة معزومة، ومع ذلك يستشير إبراهيم ولده: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ فيجيب الولد: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ ﴾.

فهذه الآيات تبين لنا أنه لا يمنع العزم عن إنفاذ الرأي وظهور جوابه عن الاستشارة، ألا ترى أن إبراهيم -عليه السلام- أُمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة

١ - انظر الشورى فريضة إسلامية د. علي الصَّلابي ص١٧.

فيها؛ فَحَمَلَهُ حسن الأدب، وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه فقال لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾.

إن من يعتاد المشاورة حتى فيما هو واضح جلي لا يمكن أن يتنكبها فيما هو غامض خفي؛ فكون الشورى مسنونة ومحمودة ومفيدة في قضايا قطعية ومحسوسة إنما هو إيذان بمدى ضرورتها، ولزومها، وأولويتها فيما تتعدد فيه الوجوه والإشكالات، وتتضارب فيه الأنظار والاحتمالات[١].

هذا وإن هناك نماذج تطبيقية أخرى للشورى في القرآن الكريم لا يتسع المقام لذكرها.

المطلب الرابع: كيفية الشورى في الإسلام

لم يأت نص في القرآن الكريم أو السنة النبوية يحدد لنا كيفية ممارسة الشورى وأسلوبها، وطريقة إجرائها.

كما لم يرد نَصٌّ يُلزم الأمة بعدد معين لأعضاء الشورى، أو كيف يعرفون؟ أو كيف يستشارون؟

وهذا كله دليل على المرونة التي اتَّسم بها الإسلام؛ فتكون الشورى حينئذ خاضعة للمصلحة الزمانية، والمكانية حسب أحوال المجتمعات.

وبهذا يعلم أن المهم أن تقوم حقيقة الشورى في المجتمع المسلم بأي وسيلة لا تعارض الشرع.[٢]

المطلب الخامس: بين الشورى والديموقراطية

اعتمد المسلمون الشورى أسلوباً في حياتهم وهي ـكما مرـ استطلاع الرأي من ذوي العلم والخبرة والأمانة للتوصل إلى أقرب الأمور للحق.

١ـ انظر الشورى فريضة إسلامية ص ١٧ـ١٨ .

٢ـ انظر النظام الأساسي في الإسلام د. سعود آل سعود وآخرون ص١٤٨ .

ولم تكن الشورى في أمر ورد النص الشرعي فيه «إذ لا اجتهاد في مورد النص».

ولكن الشورى كانت في الأمور العامة في المجالات المختلفة، والشورى كذلك في الاجتهاد الشرعي من النصوص.

ولقد اعتمد الغرب «الديموقراطية» أسلوباً في حياته، وهي مشتقة من كلمتي «**demes**» ديموس، و«**cratos**» كراتوس أي حكم الرعاع، ويقابلها كلمة الاستقراطية وهي حكم النبلاء، ثم استقر معناها السياسي في حكم الشعب وأصبحت تعني «الإرادة العامة للشعب هي أصل السلطة وأن الشعب صاحب السيادة».

واتخذت الديموقراطية بعد ممارسات طويلة أنماطاً مختلفة في الحكم ثم استقرت في الجهاز الرأسمالي التعددي الذي يهدف إلى حكم الشعب بنفسه عن طريق اختيار ممثليه وحكامه وممارسته لحرياته، وفي الحكم الاشتراكي في الحزب الواحد، وقد زال من أوروبا تقريباً وبقي في بلدين هما الصين وكوبا وهو في طريقه إلى الزوال.

والشورى تتفق مع الديموقراطية في أمور وتفترق في أمور؛ فما تتفقان فيه ما يلي:

١ـ ترشيح رئيس الشعب، وانتخابه من الشعب.

٢ـ رفض جميع أشكال الحكم المطلق أو الاستبدادي أو القبلي أو الثيوقراطي ـالحكم الكهنوتيـ لأن الإسلام ليس ديناً كهنوتياً، وليس فيه رجال دين، ولاهيئات دينية، ولكن علماء وفقهاء، وكل مسلم منتسب هو رجل دين.

٣ـ تعددية الأحزاب في الإسلام ضمن إطار الإسلام، وفي الديموقراطية ضمن أحكام الدساتير وتوجهات المواثيق.

٤ـ إقرار الملكية الفردية ـضمن تعاليم الإسلام لتحقيق مصلحة الجماعةـ في الشورى، أو ضمن أحكام الدستور ولمصلحة الجماعة في الديموقراطية.

٥ـ إعطاء الحريات العامة ولا سيما السياسية ضمن النظام العام.

٦ـ اختيار الشعب لممثليه في بيان الرأي.

وتفترقان فيما يلي:

١ـ الشورى مستمدة من الوحي الإلهي؛ فمخالفته تعد معصية لمخالفتها الحكم الشرعي، بينما الديموقراطية تستمد أصولها من إقرار الناس والناس يخطئون ويصيبون.

٢ـ الشورى تكون في سلطة الشعب لا في سيادته؛ فالسيادة في الإسلام للشرع والسلطان للشعب في اختيار حكامه وممثليه، بينما تعتبر الديموقراطية السيادة والسطان للشعب معاً.

٣ـ الشورى تعتمد على تكوين المواطن وفق تعاليم الدين لا سيما الدين الإسلامي تربية تقوم على خشية الله ومراقبته، والنصح للحاكم، والصراحة في القول في حدود الأدب والحكمة؛ فهي علاقة أخلاقية بين الراعي والرعية.

٤ـ الدستور والمواثيق والقوانين والتشريعات في الشورى تكون مستمدة من الشرع ـالقرآن والسنة النبويةـ ولا تمنع الإجماع، وتعتمد اجتهادات المجتهدين من أصول الإسلام في المسائل التي تواجهها الأمة.

والديموقراطية تترك ذلك لرأي الناس دون الاعتماد على أسس ثابتة باعتبار أن الناس عرضة لتغير الرأي في الأسس بين الحين والحين.

٥ـ مفهوم الحريات في الإسلام يجب أن لا يخرج عن نطاق القيم العليا والأخلاق الإسلامية أي هي مقيدة بالأوامر والنواهي الربانية.

وفي الديموقراطية في ظل القيم التي يتفق عليها المجتمع.

٦ـ تحدد الشريعة السلطات في الشورى الإسلامية السلطان (أي السلطة التنفيذية) للشعب، وتعطي حق اختيار القوانين من اجتهادات الفقهاء للشعب

إما مباشرة أو عن طريق ممثليه أو عن طريق الحاكم كما ورد في القاعدة الشرعية «رأي الإمام يرفع الخلاف»، والديموقراطية تعتبر الشعب مصدر السلطات.

هذا وإن الديموقراطية اتخذت أنماطاً مختلفة في التطبيق سواء في نمط النيابة الآمرة وهي التي تسمح للناخبين بمراقبة المنتخبين وعزلهم، أو في حق الاقتراع الشعبي وصياغة القوانين وعرضها على المجلس النيابي والتصويت عليه، أو في حق الاستفتاء الشعبي، أو الاعتراض الشعبي على القوانين مباشرة، أو من خلال النواب.

والإسلام لا يمنع أن تتطور أساليب الشورى في إطار الإسلام والحزم والضبط وتطبيق الأحكام الشرعية، والقناعة والتوصل إلى الرأي الأصوب.

ولا يمنع من اتباع النظم أو الطرق الحديثة التي أخذت بها الديموقراطية من انتخاب ممثلين للأمة، وتعيين مجلس من العلماء والوجهاء والخبراء والسياسيين والزعماء والقضاة وغيرهم، وتنفيذ رأي الإسلام في اختيار الحاكم وانتخابه، ووضع الدساتير والمواثيق ضمن إطاره العام.

وإذا كان هناك ثغرات وسلبيات فإنها تزال ويمنع الغش والخداع والتزييف والغوغائية، وشراء الأصوات والتلاعب بها، واستغفال الجماهير واستغلالها بالوعي الصحيح.[١]

المطلب السادس: نماذج من تطبيق الشورى في السيرة النبوية

السيرة النبوية حافلة بالشورى وتطبيقاتها، فقد كان النبي ﷺ إذا مر به موقف يستدعي الاستشارة حاور أصحابه، واستخرج ما لديهم من آراء؛ استجابة لأمر ربه -جل وعلا- بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

فقد أذن الله له بالاستشارة، وهو -عليه الصلاة والسلام- غني عنها بما يأتيه

---

١ ـ انظر النظام السياسي د. عبدالعزيز الخياط ص٩٢ـ٩٤.

من وحي السماء؛ تطييباً لنفوس أصحابه، وتقريراً لسنة المشاورة للأمة من بعده؛ إذ كان العرب من أشد الناس كراهةً للاستبداد، ونفوراً من الرئيس الذي لا يجعل لهم في تصريف الأمور العامة نصيباً من الرأي.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قصة أسارى بدر، فقد جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**».

فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار؛ فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**».

قال عمر: لا والله يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكننا؛ فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيباً لعمر- فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده.

فهويَ رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت.

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله: «**أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» -شجرة قريبة من نبي الله- وأنزل الله عز وجل-: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن

يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٧-٧٠[1].

ففي هذه الحادثة وغيرها يقرر النبيﷺ في حواراته مبدأ الشورى؛ لما فيها من تقريب القلوب، وتخليص الحق من احتمالات الآراء، واستطلاع أفكار الرجال، ومعرفة مقاديرها؛ فإن الرأي يمثل لك عقل صاحبه كما تمثل لك المرآة صورة شخصه إذا استقبلها.

كما أن في استشاراته أصحابه زرعاً للثقة في نفوسهم، وأنه يراهم مَطْلَعَ الآراء السديدة، ومواطن الإخلاص.

وأي منزلة أرفع من منزلة قوم يَعرِضُ عليهم الأمرَ يستطلع آراءهم فيه، وهو الغني بما يأتيه من وحي السماء ـ كما مر ـ وبما رزقه الله من سمو الفكر وصفاء البصيرة؟

ولهذا صار أصحابه، وقادة الأمة الكبار من بعده يأخذون بسنة المشاورة؛ فكان أبو بكر الصديقﷺ من العلم بالشريعة والخبرة بوجوه السياسة في منزلة عَلِيَّة.

ومع هذا كان لا يبرم حكماً في حادثة إلا بعد أن تتداولها آراء جماعة من الصحابة[2].

وهكذا كان عمر ﷺ في الشورى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «فكان عمر يشاور في الأمور لعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبي موسى ولغيرهم، حتى كان يدخل ابن عباس معهم مع صغر سنه.

وهذا مما أمر الله به المؤمنين ومدحهم عليه بقوله: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾** الشورى: ٣٨.

---

١ ـ مسلم (١٧٦٣).

٢ـ انظر الحرية في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين ص٢١، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ص١١٨ـ١٢٣، ومحمد ﷺ المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص١٨ـ٢٠.

ولهذا كان رأي عمر، وحكمه، وسياسته من أسدِّ الأمور، فما رؤي بعده مثله قط، ولا ظهر الإسلام وانتشر، وعزَّ كظهوره، وانتشاره، وعِزِّه في زمنه.

وهو الذي كسر كسرى، وقصر قيصر، والروم والفرس، وكان أميره الكبير على الجيش الشامي أبا عبيدة، وعلى الجيش العراقي سعد بن أبي وقاص، ولم يكن لأحدٍ ـ بعد أبي بكر ـ مثل خلفائه ونوابه وعماله وجنده وأهل شوراه»[(١)].

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً عنوانه: (باب قوله ـتعالىـ: (**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**) و (**وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ**).

وقد قرر فيه مبدأ الشورى في حوارات النبي ﷺ والأئمة من بعده.

قال رحمه الله: «وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج فلما لبس لأْمته، وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأْمَتَهُ فيضعها حتى يحكم الله».

وشاور علياً وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منهما حتى نزل القرآن فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله.

وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره؛ اقتداءً بالنبي ﷺ.

ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»؟.

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعدُ عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه»[(٢)].

---

١ ـ منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٨/٥٨.

٢ ـ صحيح البخاري كتاب الاعتصام ٩٦ باب قوله تعالى: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ ص١٤٠٤.

بل كان -عليه الصلاة والسلام- يقبل المشورة إذا أبداه أحد فأصاب المرمى، حيث يؤخذ برأي ذلك المشير، ويُصار إليه.

والشواهد على ذلك من السيرة النبوية كثيرة، ومن أحسن ما يمثل هذا الأدب الجميل ما جاء في خبر مشورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه في غزوة بدر، ومما جاء في ذلك الخبر أن الله -عز وجل- بعث السماء، فأصاب رسولَ الله ﷺ والمسلمين ماءٌ لبَّدَ لهم الأرض، وأصاب قريشاً ماءٌ لم يقدروا أن يرتحلوا معه، ثم رحل رسول الله ﷺ بالمسلمين، وقال لهم: «**سيروا على بركة الله؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين؛ فكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

ثم مضى يبادر قريشاً إلى الماء إذا جاء أدنى من ماء بدر نزل به.

فجاء الحباب بن المنذر بن الجموح أحد بني سلمة إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟

أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**».

قال: يا رسول الله؛ فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض حتى نأتي أقرب قليب القوم، ثم نُغَوِّر ما سواه من القُلُب، ثم نبني حوضاً؛ فنملأه، ثم نقاتل، فنشرب، ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «**قد أشرت بالرأي**».

ثم أمر بإنفاذه؛ فلم يجئ نصفُ الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب، وامتلكوا مواقع الماء.[1]

ففي هذه القصة أدب نبوي عظيم من آداب الحوار؛ حيث استمع النبي ﷺ إلى مبادرة الحباب، وفيه أدب الحباب مع الوحي؛ حيث سأل هل هذا من قبيل الوحي

---

١ - رواه ابن هشام ٢/٣٦٦ عن ابن إسحاق قال: «فحدثت عن الرجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب...».
وقال الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي ص٢٤٠: «وهذا سند ضعيف؛ لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بني سلمة، وقد وصله الحاكم ٣/٢٦-٢٧».

والنص الذي لا اجتهاد معه؟

أو هو من قبيل الرأي القابل للأخذ، والرد، والمداولة؟

ولما تيقن الحباب أنه من قبيل الرأي أبدى رأيه بكل صراحة وأدب.

ولما رأى النبيﷺ وجاهة رأي الحباب قَبِلَه، وعَدَلَ عما كان مقبلاً عليه.

وفي هذا رفعة لشأن الحباب، وإشادة برجاحة رأيه، ونفاذ بصيرته.

الفصل الثاني

النظام الاقتصادي في الإسلام

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الاقتصاد الإسلامي ومصادره

المبحث الثاني: الأصول الاعتقادية للاقتصاد الإسلامي، وأهدافه وخصائصه

المبحث الثالث: أسس الاقتصاد والتمويل الإسلامي

المبحث الرابع: الربا

المبحث الخامس: الاحتكار

المبحث الأول: مفهوم الاقتصاد الإسلامي ومصادره

أولاً: تعريف الاقتصاد في اللغة: أصل هذه الكلمة مادة (قصد) يقصد قصداً.

والقصد يطلق على معانٍ منها: استقامة الطريق، والعدل، والسهولة، والقرب، والاعتدال، والتوسط، والوجهة[١].

والاقتصاد قريب من القصد؛ فمن معانيه التوسط في الأشياء، والاعتدال فيها.

وهذا هو مضمون علم الاقتصاد وجوهره، وهو ما نصت عليه الآيات القرآنية في العديد من المواضع، كما في قول الله -تعالى-: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) الفرقان: ٦٧.

وقوله -عز وجل-: (وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا) الإسراء: ٢٩.

وقوله -تعالى-: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣١.

كما أن هذا المعنى هو الذي استعمله العلماء -رحمهم الله- في تعريفهم لمصطلح الاقتصاد؛ حيث أرادوا به التوسط والاعتدال بين الإسراف والتقتير[٢].

ثانياً: تعريف النظام الاقتصادي في الإسلام: لعل الأنسب في تعريف النظام الاقتصادي في الإسلام أن يقال: **هو مجموعة الأحكام، والسياسات الشرعية التي يقوم عليها المالُ، وتَصَرُّفُ الإنسان فيه[٣].**

ويقصد بمجموعة الأحكام: الحكم الشرعي، وهو ما نصَّ عليه الشارع.

والسياسات الشرعية: هي ما يفعله ولي الأمر، أو تسنُّه الدولة من نظم يُقصد بها تنظيم أحوال المجتمع، وتعاملهم فيه، وتكون غير معارضة للأحكام المنصوص عليها.

---

١ - انظر لسان العرب ٣/٣٥٣-٣٥٥.

٢ - انظر لسان العرب ٣/٣٥٤، والنظام الاقتصادي في الإسلام د. عبدالعزيز المرزوقي وآخرون ص١٢.

٣ - انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص١٣.

ويقصد بالمال: الذي له منفعة مقصودة مباحة، وله قيمة مادية بين الناس.

ومعنى تَصَرُّف الإنسان فيه: أي في المال، كإنفاقه، أو بيعه، ونحو ذلك من التصرفات المالية[١].

ثالثاً: مصادر النظام الاقتصادي الإسلامي: يستمد النظام الاقتصادي الإسلامي قواعده من مصادر الدين الإسلامي، وهي:

١ـ القرآن الكريم. ٢ـ السنة النبوية.

٣ـ **الإجماع:** وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمدﷺ بعد عصر النبوة على حكم شرعي[٢].

٤ـ **القياس:** وهو إلحاق فرع بأصل في الحكم لجامع بينهما[٣].

ومن أمثلة قياس الأوراق النقدية المتداولة الآن كالريالات، والجنيهات، والدولارات على العملة النقدية الموجودة في عهد النبيﷺ وهي الدينار الذهبي، والدرهم الفضي بجامع أن العلة واحدة، وهي التنمية.

٥ـ **سد الذرائع:** ويقصد بها منع الوسائل المباحة التي تؤدي إلى مفاسد[٤].

٦ـ **العرف:** وهو كل ما تعارف عليه الناس، وأَلِفُوه حتى أصبح شائعاً في مجرى حياتهم[٥].

فإذا كان العرف شائعاً بين أهله، ولم يخالف نصاً شرعياً فإنه يكون معتبراً إلا إذا صرح المتعاقدان على خلافه.

ومن الأمثلة على الأخذ بالعرف في الجانب الاقتصادي: نفقة الزوج على زوجته وأبنائه؛ حيث يرجع في تحديد مقدارها إلى العرف، قال الله ـتعالىـ: ﴿ **وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ البقرة: ٢٣٣ [٦].

---

١ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص١٣ـ١٤ .

٢ ـ انظر روضة الناظر لابن قدامة ٤١١/١ ، وتيسير الوصول إلى علم الأصول د. عبدالرحيم يعقوب ص٢٠٠ .

٣ ـ انظر روضة الناظر ٢٢٧/٢.

٤ ـ انظر شرح الكوكب المنير لابن النجار ٤٣٤/٤ ، وتيسير الوصول ص٢٢١ .

٥ ـ انظر تيسير الوصول ص٢١٢ .

٦ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص١٨ـ٢٣ ، والنظام المالي والاقتصادي في الإسلام د. محمود الخطيب ص٣٠ـ٣١ .

المبحث الثاني: الأصول الاعتقادية للاقتصاد الإسلامي، وأهدافه، وخصائصه

المطلب الأول: الأصول الاعتقادية للاقتصاد الإسلامي

لكل نظام اقتصادي أصوله وقواعده الفكرية التي يؤمن بها وينطلق منها في رسم أنظمته وسياساته الاقتصادية.

وإذا كان النظامان الرأسمالي والاشتراكي ينطلقان من قاعدة اعتقادية واحدة هي (المادية) أو (تقديس المال) فإن النظام الاقتصادي الإسلامي يختلف عنهما في الوجهة؛ حيث يقيم أصوله الفكرية على قاعدة أعظم وأهم، بل هي الأصل لكل جوانب الحياة، ألا وهي قاعدة الإيمان.

فالإيمان يمثل المنطلق الرئيس، والركيزة الأولى لكل جوانب الاقتصاد الإسلامي ومجالاته؛ فهو في حقيقته وجوهره فرع من فروع عقيدة الإيمان، ومهمته أن يحمي هذه العقيدة ويعمق جذورها، وينشر نورها، ويضع الصور العملية التي تعبر عنها، وتحقق أهدافها في واقع الحياة.

ولذا نجد أن الله -سبحانه وتعالى- يوجه الخطاب في كتابه الكريم إلى الذين آمنوا، وذلك في سائر الأحكام الشرعية، ومنها أحكام المعاملات.

يقول -تعالى- في آيات الربا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٧٨ .

فَوَجَّهَ الخطاب إلى عباده المؤمنين طالباً منهم تقواه، وذلك بتركهم الربا إن كانوا مؤمنين حقًّا، وفي آخر الآيات أعاد الأمر بتقواه، والتحذير من عقوبته في الدار الآخرة: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٨١ .

مما يعني أن الالتزام في أساسه التزام عقدي إيماني.

والمسلم حين يلتزم بهذه الأوامر والنواهي من إيتاء الزكاة، وبذل الصدقات،

وترك الربا والغش...إلخ فإنه إنما يلتزم بها؛ لأنها من عند الله -عز وجل- وهو يدرك في قرارة نفسه أنها خيرٌ له في عاجل أمره وآجله.

وارتباط الاقتصاد الإسلامي بالعقيدة يظهر في علاقته المباشرة بأركان الإيمان وخاصةً الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره[1].

لأنه يؤمن بأن الله مطلع عليه في كل ما يأتي وما يذر، ويؤمن بأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه مجازىً في الآخرة على كل عمل، ويؤمن بأنه لن يأتيه من الرزق إلا ما قدره الله له.

ومن هنا تراه يأخذ بالأسباب المشروعة، ويبذل جهده في تحصيل الرزق، راضياً بما قسم الله له، غير متسخط ولا جازع مما يصيبه من خسارة بعد فعل الأسباب.

المطلب الثاني: أهداف الاقتصاد الإسلامي

يسعى النظام الاقتصادي إلى تحقّق عدة أهداف يمكن إبرازها في النقاط التالية:

أولاً: تحقيق حد الكفاية المعيشية: فالإسلام يهدف في نظامه الاقتصادي إلى توفير مستوى ملائم من المعيشة لكل إنسان، ولهذا فقد فرض الإسلام أموراً معينة كالزكاة لِتُسهم في تحقيق المعيشة للذين لا يقدرون على كفاية أنفسهم.

والتاريخ الإسلامي مليء بالشواهد التي تثبت أن الدولة الإسلامية كانت تنفق على الفقراء والمحتاجين، ولو كانوا غير مسلمين، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لعماله على الزكاة: «إذا أعطيتموهم فأغنوا»[2].

وليست الزكاة هي الوسيلة الوحيدة المسؤولة عن ضمان حد الكفاية في الاقتصاد الإسلامي، بل يعد من ذلك تدخل الدولة في سوق العمل؛ لإيجاد فرص العمل، والكسب للعاطلين، و إقرار الأجر العادل الذي يحقق الكفاية المعيشية للأجير، وتوجيه الموارد الاقتصادية وفقاً لاحتياجات المجتمع الحقيقية.

---

١ - انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص٢٨-٢٩ .

٢ - كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٥٠٢ .

كل ذلك يعد من الوسائل التي تسهم في تحقيق حد الكفاية في الاقتصاد الإسلامي[١].

ثانياً: الاستثمار ـالتوظيفـ الأمثل لكل الموارد الاقتصادية: يعد التوظيف الأمثل للموارد الاقتصادية من الأهداف الرئيسة للنظام الاقتصادي الإسلامي، ويتحقق توظيف هذه الموارد في الاقتصاد الإسلامي من خلال عدة طرق أهمها ما يلي:

١ـ توظيف الموارد الاقتصادية في إنتاج الطيبات من الرزق، والبعد عن إنتاج السلع أو الخدمات الضارة والمحرمة.

٢ـ العناية بإنتاج الضروريات والحاجات التي تسهم في حماية مقاصد الشريعة.

٣ـ إبعاد الموارد الاقتصادية عن إنتاج السلع والخدمات التي تتطلب إنفاقاً ذا طبيعة إسرافية[٢].

ثالثاً: تخفيف التفاوت الكبير في توزيع الثروة والدخل: فالإسلام ينكر التفاوت الصارخ في توزيع الدخل والثروة، وهو التوزيع غير العادل، الذي تستأثر فئة بالجزء الأكبر منه، مما يؤدي إلى الإضرار بالأغلبية الساحقة التي لا تستطيع ضمان تغطية حاجاتها الأساسية.

ولهذا لا يقر الغنى المطغي، أو تسلط الأقلية على مقدرات الجماعة ـكما هو الحال في النظم الاقتصادية الوضعيةـ.

كما لا يقر الفقر المعدم، أو حرمان أحدٍ من وسائل المعيشة، بل يقاوم ذلك كله، ولا يقبله؛ فليس في نظام الاقتصاد الإسلامي أن يكون الظلمُ الاجتماعيٌّ، أو إهمالُ حقِّ الفقراء والضعفاء، أو تكديس الثروة واكتنازها هو الغايةَ التي يسعى

---

١ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٧٤ـ٧٥ .

٢ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص٧٦ .

إليها عنصر المال، أو التوزيع في الإسلام، بل العكس هو الصحيح؛ إذ إن تخفيف التفاوت، وتقريب الفقراء من الأغنياء، ومنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد المضر بالأخلاق ـ هدفٌ من أهداف الإسلام في مجال الاقتصاد ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ الحشر: ٧.

ولهذا فهو ينبذ اكتناز الأموال، والاحتكار، والربا، والقمار، والرشوة، والغش، وكل صور الاستغلال، والأنانية التي يكون الفقيرُ هو ضحيتَها.

ثم إن الإسلام يفرض الزكاة، والنفقات الواجبة، ويحث على الوصايا والأوقاف والصدقات التطوعية بما يحقق في النهاية توزيعاً عادلاً للدخل والثروة في المجتمع، ويرتقي بحال الفقير[1].

رابعاً: تحقيق القوة المادية والدفاعية للأمة الإسلامية: فإذا كان النظام الاقتصادي في الإسلام يهدف إلى تحقيق حد الكفاية، والتصدي للفقر والفاقة ـ فإن أهدافه لا تتوقف عند ذلك فحسب، وإنما تتجاوزه إلى هدف سام يتمثل في تحقيق القوة المادية والدفاعية للأمة الإسلامية بما يكفل لها الأمن والحماية، ويدرأ عنها العدو المتربص بها، والمستنزف لطاقتها الاقتصادية، يقول ـتعالىـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الأنفال: ٦٠ [2].

---

١ ـ انظر اقتصاديات الغنى في الإسلام د. عمر المرزوقي ص٦٠، والنظام الاقتصادي في الإسلام ص٧٦ـ٧٧.

٢ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ٧٧ـ٨٨.

المطلب الثالث: خصائص الاقتصاد الإسلامي

للاقتصاد الإسلامي خصائص متعددة تميزه عن غيره من النظم الاقتصادية، أهمها على سبيل الإجمال ما يلي:

أولاً: يقوم الاقتصاد الإسلامي على أساس الاعتراف بالملكية المزدوجة، العامة -بما فيها الملكية الجماعية، وملكية الدولة، وبيت مال المسلمين- والملكية الخاصة، ونظرته الخاصة للمال.

ثانياً: يقوم النشاط الاقتصادي في الإسلام على أساس الحرية الاقتصادية المُقيَّدة.

ثالثاً: ارتكاز الاقتصاد الإسلامي على أساس التكافل بين أفراد الأمة الإسلامية عامة.

رابعاً: الاقتصاد الإسلامي جزء من الشريعة الإسلامية -نظام الإسلام-.

خامساً: للنشاط الاقتصادي في الإسلام طابع تعبدي.

سادساً: للنشاط الاقتصادي في الإسلام هدف سامٍ يجمع بين الآخرة والأولى.

سابعاً: الرقابة على ممارسة النشاط الاقتصادي في الإسلام رقابة ذاتية في المقام الأول.

ثامناً: الاقتصاد الإسلامي لا يقول بالندرة ولا بالوفرة المطلقة، بل كل شيء بمقدار.

تاسعاً: الاقتصاد الإسلامي يحقق التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.[1]

---

١ - انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ص٥٨ .

المبحث الثالث: أسس الاقتصاد والتمويل الإسلامي

يرتكز الاقتصاد الإسلامي على عدة أسس وأصول وأركان، وهي كما يلي:

الأصل الأول: المال والملكية الاقتصادية: فتعد قضية المال والملكية من المعالم البارزة التي تميز نظاماً اقتصادياً عن غيره، وهي محور النشاط الاقتصادي في كل مجتمع؛ ولقد أقر الإسلام الملكية الفردية بكل صورها، ولم يضع لها حداً، بما في ذلك التصرف في الملكية، وطرق تنميتها، وحرية الانتفاع بها؛ فالإسلام يراعي غريزة التملك، وحب الاستئثار بالشيء.

قال الله -عز وجل-: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ سورة آل عمران: ١٤.

وقال النبي ﷺ: «**يهرم ابن آدم، وتشيب معه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**»[١].

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية بإقرار التملك الفردي للإنسان، وحقه في التصرف ما دام أنه في الإطار الشرعي؛ رعاية للمصالح، واستجابة للغريزة التي أودعها الله فيه.

وهذا النظام الإسلامي يخالف النظام الرأسمالي الذي يعد الملكية الخاصة هي الأصل، وما عداها استثناء.

ويخالف النظام الاشتراكي الذي يعد الملكية العامة هي الأصل، ولا يعترف بالملكية الخاصة إلا في أضيق الحدود.[٢]

الأصل الثاني: الحرية الاقتصادية المقيدة: وتعني إعطاء الفرد الحرية في الاكتساب والتمتع بالطيبات، والقيام بجميع أوجه النشاط الاقتصادي ضمن دائرة الحلال والقيم

---

١ ـ أخرجه مسلم (١٧٣٦) و (١٧٣٩).

٢ ـ انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ص٤٦ـ٤٨، والنظام الاقتصادي في الإسلام ص٨١ـ٨٢.

والأخلاق الإسلامية.

هذا وقد وضع الإسلام قيوداً على الحرية الاقتصادية تعود آثارها الطيبة على الأفراد، والمجتمعات، فمن تلك القيود ما يلي:

١ـ أن يكون النشاط الاقتصادي الذي يمارسه الأفراد مشروعاً نافعاً لهم ولمجتمعاتهم.

٢ـ تحريم إنتاج واستهلاك السلع، والخدمات الخبيثة المضرة بالإنسان، كما فيه قوله ـتعالىـ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ الأعراف: ١٥٧.

فحرية الإنتاج والاستهلاك تقع داخل دائرة الحلال.

أما السلع المحرمة، والخدمات الخبيثة فهي ممنوعة كالخمر، والمخدرات.

٣ـ تحريم طرق الكسب غير المشروع كالربا، والغرر، والغش بجميع صوره، كالرشوة، والتزوير[١].

الأصل الثالث: التكافل الاجتماعي: ومعنى ذلك أن يتساند المجتمع أفراده وجماعته؛ بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة كما في الرأسمالية، ولا تذوب مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة كما في الاشتراكية.

وإنما يبقى للفرد كيانه، وإبداعه، ومميزاته، وللجماعة هيئتها، وسيطرتها؛ فيعيش الأفراد في كفالة الجماعة، كما تكون الجماعة متلاقية في مصالح الأفراد، ودفع الضرر عنهم.

وهذا ما يقرره صريح القرآن، كما في قول الله ـتعالىـ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ المؤمنون: ٥٢.

وتؤيده الأحاديث النبوية الكثيرة، كما في قول النبيﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً**» وشبك بين أصابعه[٢]، وقولهﷺ: «**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣].

---

١ ـ انظر النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ص٥١.

٢ ـ رواه البخاري (٤٦٧) ومسلم (٢٥٨٥).

٣ ـ رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

المبحث الرابع: الربا

أولاً: تعريف الربا: أ. تعريف الربا في اللغة: الربا مصدر ربا يربو، ربواً، ورباً، يعني الزيادة، والنمو، والارتفاع[١].

ب. تعريف الربا في الشرع: هو زيادة في أشياء ونسأ في أشياء جاء الشرع بتحريمها[٢].

ثانياً: أنواع الربا: ينقسم الربا إلى نوعين:

النوع الأول: ربا النسيئة وله صور:

١ـ الزيادة في الدين مقابل الزيادة في الأجل: ومثال ذلك أن يطلب المدين من الدائن ـصاحب الدينـ تمديد أجل الدين بعد حلوله، فيقبل الدائن ذلك بشرط الزيادة في مقدار الدين.

وهذا هو ربا الجاهلية؛ لأنه كان الغالب على تعاملاتهم، فكان أحدهم إذا جاءه المدين يطلب تأجيل الدين يقول له: إما أن تقضي، وإما أن تربي، أي: إما أن تقضي الدين الذي حلَّ عليك، أو تزيد في مقداره؛ لقاء تأجيله.

٢ـ الزيادة المشروطة: وذلك بأن يحدد الدائن للمدين موعداً معيناً لسداد الدين، ويشترط عليه في العقد زيادة معينة إذا لم يسدد في الموعد المحدد.

النوع الثاني: ربا الفضل: وهو بيع ربوي بمثله متفاضلاً حالاً أو مؤجلاً.

ويقع في الأعيان الربوية التي نص عليها النبي ﷺ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُر بالبُر، والشعير**

---

١ ـ انظر لسان العرب ٣٠٤/١٤ .

٢ ـ انظر الإقناع للحجاوي ٢٤٥/٢ .

بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، فإن اختلفت الأشياء فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»[١].

ويقاس على هذه الأشياء المذكورة ما يشترك معها في عِلَّة الربا، ومثال ذلك: بيع خمسين جراماً ذهباً بسبعين جراماً ذهباً في الحال، أو بيع خمسين ريالاً بسبعين ريالاً حالاً[٢].

ثالثاً: علة الربا: نص النبيﷺ على الأصناف الستة المذكورة في حديث عبادة المتقدم، ويقاس عليها ما شاركها في العلة، و العلة فيها كما يلي:

الذهب والفضة: العلة فيهما الثمنية؛ فهما أثمان للأشياء، فيقاس عليهما ما كان ثمناً كالأوراق النقدية المعروفة؛ حيث يجري فيها الربا؛ لكونها أثماناً قياساً على الذهب والفضة.

الأصناف الأربعة الأخرى: العلة فيها على الصحيح الطعمُ مع الكيل أو الوزن، فالأطعمة التي تكال أو توزن يجري فيها الربا قياساً على الأصناف الأربعة الواردة في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (**البر، الشعير، التمر، الملح**).

رابعاً: ضوابط التعامل بالأجناس الربوية: التعامل بالأجناس الربوية لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: بيع جنس ربوي بمثله كبيع ذهب بذهب مثلاً، فيشترط لجواز التعامل في هذه الحالة شرطين:

١ـ التماثل في القدر بين الجنسين.

٢ـ التقابض في مجلس العقد: ودليل ذلك قولهﷺ: «**... مِثلاً بِمثْل سواء بسواء يداً بيد..**».

---

١ ـ أخرجه مسلم (٢٩٧١).

٢ ـ انظر النظام الاقتصادي في الإسلام ص ١٠٦ـ١٠٧.

الحالة الثانية: بيع جنس ربوي بجنس ربوي آخر، كبيع بر بتمر مثلاً، فيشترط لجواز التعامل في هذه الحالة التقابض في مجلس العقد، وتجوز الزيادة بينهما.

ودليل ذلك قوله ﷺ: «**فإذا اختلفت ـ أي الأجناس ـ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**».

خامساً: أدلة تحريم الربا: الربا محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ البقرة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٧٨.

وأما السنة: فعن جابر رضي الله عنه قال: **لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال هم سواء**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت أبا القاسم يقول: «**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[2].

---

١ ـ أخرجه مسلم (٢٩٧١).

٢ ـ أخرجه البخاري (٢٦١٥) ومسلم (٢٩٩٥).

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على تحريم الربا[1].

سادساً: الحكمة من تحريم الربا:

هناك حكم كثيرة لتحريم الربا، ومنها ما يلي:

١ـ الابتعاد عن الظلم واكل أموال الناس بالباطل: قال تعالى ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** ﴾ البقرة: ٢٧٩.

٢ـ الربا طريق للكسل والبطالة: فالنفس البشرية تميل بطبعها إلى كثرة المال مع الراحة والدعة، والربا من أقوى العوامل المؤدية إلى الكسل، والخمول، وترك البحث عن الرزق والاكتساب وبذل الجهد في ذلك.

ولا شك أن هذا مذموم في هذه الشريعة المباركة التي جاءت بالحث على العمل والاكتساب، وقد كان من صفات الأنبياء ـعليهم الصلاة والسلامـ حب العمل والحث عليه؛ حيث اشتغل النبيﷺ بالرعي، والتجارة فأكل من كسب يده.

٣ـ الربا يربي الإنسان على الجشع والطمع، ويهدم الأخلاق الفاضلة: ذلك أن المرابي يستغل حاجات أفراد المجتمع بتطويق أعناقهم بالديون مما يجعل المدين في موقف يصعب عليه التخلص من ربقة الديون،ويسد بالتالي أبواب الخير والتعاون على البر والتقوى، ويغلق باب القرض الحسن، كما يحمله على الشح والبخل المنهي عنه، فالربا إذاً يقضي على عوامل التكافل، والتعاون.

٤ـ الربا طريق إلى الجريمة، وتوجيه الأموال نحو الاستثمار الضار: ذلك أن المدين مطالب بتسديد ما عليه من مستحقات هي في الغالب باهظة لصاحب المال، لذلك فهو يلجأ إلى طريق سريع تخلصه من هذه الأعباء التي أحاطت به، وحيث

---

١ ـ انظر المغني لابن قدامة ٦/٥٢.

إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما قال ذلك الصادق المصدوقﷺ لذلك فغالبا ما يلجأ المدين إلى الحصول على المال بأي طريق كان، إما بالسرقة المترتب عليها زعزعة الأمن، واضطراب أحوال الناس، ومعايشهم، وعدم أمنهم على أموالهم، وإما بالاشتغال في المحرمات كالمخدرات، والمسكرات، وغيرها من الوسائل المحرمة، والتي يترتب عليها إفساد المجتمع بأفراده وجماعاته.

ولهذا جاءت هذه الشريعة المباركة بتحريم الربا والتحذير منه، وترتيب الوعيد الشديد على من تعامل به.

٥ـ للربا آثار نفسية وصحية مدمرة: ذلك أن المرابي يستعبده المال، فيسعى للوصول إليه دونما مبالاة باعتداء على المحرمات، أو تجاوز للحدود.

ويرى بعض الأطباء أن الاضطراب الاقتصادي الذي يولد الجشع الذي لا تتوافر أسبابه الممكنة ـ يسبب كثيراً من الأمراض التي تصيب القلب، فيكون من مظاهرها ضغط الدم المستمر، أو الذبحة الصدرية، أو الجلطة الدموية، أو النزيف في المخ، أو الموت المفاجىء.

وهذا ما يلاحظ أثناء وقوع الخسائر في الشركات، أو المساهمات.

ولقد قرر عميد الطب الباطني في مصر الدكتور عبدالعزيز إسماعيل في كتابه (الإسلام والطب) أن الربا هو السبب في كثرة أمراض القلب.

ثم إنه مزيل للترابط والتآخي والتكافل بين الناس، فأضراره على الأفراد والمجتمعات كثيرة جدًّا[1].

---

(١) انظر الربا وأثره على المجتمع الإنساني د.عمر الأشقر ص١٠١ـ١٣٣.

المبحث الخامس: الاحتكار

أولاً: مفهوم الاحتكار: يعرف الاحتكار في اصطلاح الفقهاء بأنه: هو حبس الطعام أو غيره مما يحتاج إليه الناس بقصد إغلائه عليهم.

وهو ما يعرف في الاقتصاد الوضعي بالسيطرة على عرض أو طلب السلعة، بقصد تحقيق أقصى ربح ممكن، ومن باب التحكم بهذه السلعة لغرض غير إنساني[١].

ثانياً: مساوئ الاحتكار: يمكن أن تجمل مساوئ الاحتكار بما يلي:

أ. ارتفاع أثمان السلع والخدمات.

ب. التحكم ولو بقدر يسير في أسعار المواد الخام والسلع المصنوعة.

ت. إبقاء النواحي الفنية على حالها لعدم وجود المنافسة العادلة.

ث. تحديد الإنتاج ونقص كمياته في كثير من الأحيان.

ج. أنه لا يشبع حاجات الأفراد بالقدر الكافي.

ح. العمل على إذلال الشعوب، والسيطرة عليهم بشتى الوسائل، حتى إن بعض المحتكرين؛ تحقيقاً لأهداف الاحتكار يلجأون إلى إتلاف فائض الإنتاج للإبقاء على الأسعار على المستوى المطلوب، أو تخزينها رغم ما يتحملونه من تكاليف باهظة للتخزين؛ للتحكم بأقوات الشعوب في عصر يسمى عصر العولمة.

أما من الجانب الآخر فربما يكون الاحتكار احتكار شراء ـ طلب ـ فيتآمر المحتكرون على بخس أثمان المواد الخام التي تنتجها البلاد النامية بخاصة.[٢]

ثالثاً: حكم الاحتكار: تضافرت الأحاديث النبوية الشريفة على بيان حرمة

---

١ ـ انظر النظام المالي الاقتصادي في الإسلام ص١٠٣ .

٢ ـ انظر النظام المالي الاقتصادي في الإسلام ص١٠٣ـ١٠٤ .

الاحتكار، ومن ذلك: أن النبيﷺ قال: «**لا يحتكر إلا خاطئ**» وفي رواية: «**من احتكر فهو خاطئ**».[1]

ويعلق الشوكاني على أحاديث الاحتكار بقوله: «ولا شك أن الأحاديث تنهض بمجموعها للاستدلال على عدم جواز الاحتكار، والتصريح بأن المحتكر خاطئ كافٍ لإفادة عدم الجواز؛ لأن الخاطئ: المذنب العاصي».[2]

رابعاً: الاحتكار المباح: يعدُّ من الاحتكار المباح ما يلي:

أ. ما يدخره الإنسان لقوته وقوت عياله، إلا في أوقات الأزمات؛ حيث يغالي الناس في خزن المواد الضرورية، مما يؤدي إلى اعتباره احتكاراً.

ب. ما يخزن؛ ليستهلك في وقت لاحق؛ لأن إنتاجه ربما يكون موسمياً، في حين أن استهلاكه يستمر طيلة أيام السنة مثل الحبوب، أو التمر.

ج. ما يدخل ضمن احتياطيات الدولة لمواجهة الطوارئ؛ وذلك لحماية المنتجين والمستهلكين، كالاحتياطي الاستراتيجي من الوقود والحبوب.[3]

---

١ ـ أخرجه مسلم (١٦٠٥).

٢ ـ نيل الأوطار للشوكاني ٢٢١/٥.

٣ ـ انظر فقه السنة لسيد سابق ٢٦٧/٣، والنظام المالي والاقتصادي في الإسلام ص١٠٥.

الفصل الثالث

النظام الاجتماعي في الإسلام

وتحته:

المبحث الأول: مفهوم الاجتماع، والحياة الاجتماعية في الإسلام

المبحث الثاني: مكانة الجار في الإسلام

المبحث الثالث: صلة الرحم

المبحث الرابع: كرامة الإنسان، ومعيار العدل والكرم في الإسلام

المبحث الخامس: أصول الأخلاق ودورها في بناء المجتمع

المبحث السادس: الصداقة، والصحبة في الإسلام، وعلاقة المسلمين بغيرهم

المبحث الأول: مفهوم الاجتماع، والحياة الاجتماعية في الإسلام

المطلب الأول: مفهوم الاجتماع، وما يتعلق به

يحسن قبل الدخول في بعض تفصيلات النظام الاجتماعي في الإسلام الوقوف على بعض المصطلحات التي تدور في ذلك الفلك، كالمجتمع، والجماعة، والأمة.

١. **معنى الاجتماع**: أصل مادة اجتماع (جمع) من جمع الشيء عن تفرقه يجمعه جمعاً، وجَمَّعه، وأَجْمَعه فاجتمع، وكذلك وتَجَمَّع واستجمع.

والمجموع: الذي جمع من ههنا وههنا، وتَجَمَّع القوم: اجتمعوا من ههنا وههنا ـكما يقول ابن منظورـ[1].

ويُلْحظ في هذا التعبير: استحضار نشأة المجتمعات[2].

٢. **معنى المجتمع البشري**: المجتمع البشري عبارة عن مجموعة من الناس مُكَوَّنة من أفراد[3].

أو: هو عدد كبير من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابطُ اجتماعيةٌ، ومصالحُ مشتركةٌ تصحبها أنظمة تضبط السلوك، وسلطةٌ ترعاها[4].

٣. **معنى المجتمع الإسلامي**: لا يبعد مفهوم المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات إلا بما فيه من خصائص وصفات سيأتي بيان لشيء منها.

وعلى هذا فيمكن تعريف المجتمع الإسلامي بأنه: خلائق مسلمون في أرضهم، مستقرون تجمعهم رابطة الإسلام، وتدار أمورهم في ضوء تشريعاته،

١ ـ انظر لسان العرب ٥٣/٨.
٢ ـ انظر الإسلام وبناء المجتمع د. حسن أبو غدة وآخرون ص١٣.
٣ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للعلامة الشيخ محمد بن عاشور ص٣٩.
٤ ـ انظر الإسلام وبناء المجتمع ص١٣.

وأحكامه، ويرعى شؤونهم ولاة أمر منهم[١].

٤. معنى الجماعة: الجماعة هي الطائفة من الناس يجمعها رابط فأكثر، كالقرابة، أو الجنس؛ فهي بهذا المفهوم جزء من مكونات المجتمع[٢].

٥. تعريف الأمة: تطلق كلمة الأمة على عدة إطلاقات، فتطلق على الفترة الزمنية، وعلى الجماعة من الناس، وعلى الشريعة، وعلى غير ذلك.

وتطلق في الاصطلاح الاجتماعي على كل جماعة يجمعهم أمْرٌ ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك بغير إرادتهم كالجنس واللون، أو باختيارهم كالمعتقد والأرض[٣].

٦. تعريف الأمة الإسلامية: يمكن أن تعرف الأمة الإسلامية في ضوء دلالة النصوص الشرعية بأنها: جماعات من الناس تجمعهم عقيدة الإسلام بغض النظر عن أي اعتبار.

ويشهد لهذا الإطلاق: القرآن الكريم، قال الله -عز وجل-: ﴿ **وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ** ﴾ المؤمنون: ٥٢.

وإذا تأمل الباحث في أحوال الدول عموماً رأى أنها -مع محاولاتها الجادة للانضواء تحت أمة واحدة- لم تستطع ذلك.

وما زال الناس يسمعون بمصطلح الأمم الأوربية.

وكذلك الدول الإفريقية؛ فإنها على ما بينها من روابط تسمى الأمم الأفريقية.

على حين أنك لا تسمع بمصطلح الأمم الإسلامية، بل هي أمة مسلمة واحدة، برغم ما بين أفرادها من اختلاف في اللغة، والجنس، والأرض.

---

١ ـ انظر الإسلام وبناء المجتمع ص١٣ـ١٤.

٢ ـ انظر الإسلام وبناء المجتمع ص١٣.

٣ ـ انظر الكليات للكفوي ص١٧٦ـ١٨١.

وهذا يعني أن أمة الإسلام تتكون من عدة مجتمعات لاعتبارات تفرض نفسها.

لكن التوافق بين المجتمعات الإسلامية ملحوظ؛ بسبب اتفاقهم على مرجعية عليا واحدة، وهي الإسلام[1].

المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية في الإسلام

للشرائع السماوية مزية تقويم النفوس، وإنارة البصائر، وفتح طريق الحكمة.

ولا ريب أن نصيب الإسلام من هذه المزية أوفر وأجلى؛ فهو خير الأديان، وخاتمها، وأشملها، وأكملها؛ فلا غرو -إذاً- ألا يغادر صغيرة ولا كبيرة من قضايا العقائد والسلوك، والتربية، والأخلاق، والأحكام، والاجتماع، والسياسة إلا وأحاط بها جملة وتفصيلاً.

والذي يعنينا ههنا ما كان من شأن الاجتماع الذي أعلى الإسلام مناره، فلبست به النفوس أدباً ضافياً، وأخذت به صورةً منتظمةً، وبَصُرَت العقول بحقائق كانت غامضة.

فبعد أن تكاملت هدايةُ الإسلام، وأخذت بالإصلاح من جميع أطرافه ـ وضعت مكان الجهالة علماً، ومكان الأهواء الطاغية همماً سامية، ومكان الخسران فلاحاً وصلاحاً.

ولم يكتف الإسلام بإصلاح النفوس بالعقائد الصحيحة السليمة، وبتشريع العبادات التي تؤكد صلة العبد بربه.

بل زوَّد النفوس بالأخلاق الزاهرة، وأرسى قواعد الاجتماع على أحسن ما يكون؛ حيث نظر إلى أن الإنسان لم يخلق في عُزْلةٍ من الناس، وإنما خلق ليكون في جماعة تتعاون على القيام بمصالح الحياة، والأخذ بوسائل السعادة؛ فَعُني بحقوق ذوي القربى، فقرر النفقات، والمواريث في نظم محكمة، وحرص على

---

١ ـ انظر الإسلام وبناء المجتمع ص١٤ .

إسعادهم بالبر بهم من طريق المروءة، ومكارم من الأخلاق، وحاط الزوجية بحقوق تجعل الزوجية في ألفة صادقة، وعيشة راضية، وأخذ بإصلاح رابطة أخرى هي رابطة الجوار، إلى غير ذلك مما يحفظ نظام الاجتماع من الاختلال[1].

فمن أجل ذلك كانت دعوة الإسلام تخالف ما سبقها مخالفة بينة من جهة كونه ديناً عاماً؛ حيث استعد البشر إلى قبول دين عام، ومن جهة اتساع أصول دعوته فضلاً عن فروعها، ومن جهة اقتضاء العلم العمل، وامتزاج العقيدة فيه بالشريعة، وتلازمهما؛ فضبط للأمة نظامها الاجتماعي في تصاريف الحياة كلها، تكملةً للنظام الديني الذي هيأ الناس للاتحاد، والمعاشرة؛ فلما اكتملت للإسلام هذه الصفة عُلِم أنه الدين المراد لله -تعالى- أن يكون دين البشر، وأن ما تقدم من الأديان كان تمهيداً، وتدرجاً إلى قمته.

قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: ١٩.

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة: ٤٨.

والحاصل أن الإسلام داعٍ إلى إصلاحِ البشر من جميع نواحي حياتهم، وإصلاحُ البشرِ يحصل بإصلاح أفراده، ثم بإصلاح مجموعه في حال اجتماعه؛ فالإصلاح الاجتماعي -إذاً- هو من أسمى أغراض الإسلام؛ قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الأعراف: ٥٦ [2].

قال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «ومن عجيب المناسبات وبديع تأييد الله -تعالى- هذا الدين وتيسير أسباب ظهوره أن جعل لمدة ظهوره طورين عظيمين هما: طور إقامة الرسول ﷺ بموطنه مكة -وهذا طور ما قبل

---

١ - انظر الدعوة إلى الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ص ٩ و٤٨ و٨٨-٨٩ و١٩٢-١٩٣.

٢ - انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ص١١-١٢.

الهجرة- وطور ما بعد هجرته إلى يثرب.

وإن غَرَضَيْ التشريع الإسلامي كانا موزعين على ذينك الطورين، فكان الطور الأول معظمه للإصلاح الفردي، وكان الطور الثاني معظمه للإصلاح الاجتماعي، و ما دخل الإسلام في طوره الثاني عند الهجرة إلا وقد كانت له جماعة صالحة كاملة الأُهبة لما يناط بعهدتها من الإصلاح، فكانت جامعة المسلمين يومئذ تتألف من المسلمين الأولين القاطنين مع رسول اللهﷺ بمكة وهم نحو خمسين رجلاً، ومن المسلمين المهاجرين إلى الحبشة وهم نحو ثمانين رجلاً، ومن مسلمي الأوس والخزرج أهل المدينة وهم زهاء أربعة آلاف رجل.

هذا كله عدد صالح لنشر إصلاح الإسلام، وبثّ فضيلته في نفوس الناس فيما بعد، والصدع بدعوته على رؤوس الملأ؛ فكان الإسلام يومئذ حقيقاً بأن يسرع في إصلاحه الاجتماعي، وتأسيس قواعده، وإشادة صروحه»[1].

هذا وسيتبين فيما يلي من مباحث شيء من عناية الإسلام بالاجتماع، وذلك من خلال الحديث عن بعض الروابط الاجتماعية، والأخلاق التي ترسي دعائم الاجتماع.

---

١ ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص٩٧ .

المبحث الثاني: مكانة الجار في الإسلام

المطلب الأول: مفهوم الجوار

أولاً: تعريف الجار: أ. الجار في اللغة: قال ابن منظور رحمه الله: «والجوار: المجاورة، والجار الذي يجاورك.

وجاور الرجلَ مجاورة وجِوارًا وجُوارًا، والكسر أفصح: ساكَنَهُ.

وإنه لَحَسنُ الجيرة: لحالٍ من الجوار، وضربٍ منه» [١].

وقال: «وجارُك: الذي يجاورك، والجمع أجوار، وجيرة، وجيران، ولا نظير له إلا قاعٌ، وأقواعٌ، وقيعان، وقيعة» [٢].

ب. تعريف الجار في الاصطلاح: هو مَنْ جاورك جوارًا شرعيًا سواء كان مسلمًا أو كافرًا، برًّا أو فاجرًا، صديقًا أو عدوًّا، محسناً أو مسيئاً، نافعًا أو ضارًّا، قريبًا أو أجنبيًّا، بلديًّا أو غريبًا.

وله مراتب بعضها أعلى من بعض، تزيد وتنقص بحسب قربه، وقرابته، ودينه، وتقواه، ونحو ذلك، فَيُعْطى بحسب حاله وما يستحق [٣].

ثانياً: حد الجوار: اختلفت عبارات أهل العلم في حد الجوار المعتبر شرعًا، فمما قيل في ذلك ما يلي:

١ـأن حد الجوار أربعون دارًا من كل جانب، وقد جاء ذلك عن عائشة ـرضي الله عنهاـ كما جاء عن الزهري والأوزاعي ـرحمهما اللهـ.

٢ـأنه عشرة دور من كل جانب.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٥٣/٤.

(٢) المرجع السابق ١٣٥/٤.

(٣) انظر لسان العرب ١٥٣/٤ـ٥٤، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٥٥/١٠ـ٤٦١.

٣ـأن من سمع النداء هو جار، وقد جاء ذلك عن علي رضي الله عنه.

٤ـأن الجار هو الملاصق الملازق.

٥ـأن حد الجوار هم الذين يجمعهم مسجدٌ واحدٌ.

والأقرب ـوالله أعلمـ أن حد الجوار يُرجع فيه إلى العرف؛ فما علم عرفاً أنه جار فهو جار[1].

ثالثاً: شمول مفهوم الجار: لا ريب أن الجوار في المسكن هو أجلى صور الجوار وأوضحها.

ولكن مفهوم الجار والجوار ـفي الإسلامـ لا يقتصر على الجوار في المسكن فحسب؛ بل هو أعم من ذلك؛ فالجار معتبر في المتجر، والسوق، والمزرعة، والمكتب، ومقعد الدرس.

ومفهوم الجار يشمل الرفيق في السفر؛ فإنه مجاور لصاحبه مكانًا وبدنًا، ولكل واحد منهما على الآخر حق الجوار.

والزوجة كذلك تسمى جارة، كما جاء في تفسير قولهـتعالىـ ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (النساء: ٣٦).

وكذلك مفهوم الجار يشمل الجوار بين الدول والممالك؛ فلكل دولة على جارتها حق الجوار.

وكذلك يُقال للذي يستجير بك: جار، وللذي يجير: جار.

المطلب الثاني: وصاية الإسلام بالجار

لقد أوصى الإسلام بالجار، وأعلى من قدره؛ فللجار في الإسلام حرمة مصونة، وحقوق كثيرة لم تعرفها قوانين الأخلاق، ولا شرائع البشر.

بل إن تلك القوانين والشرائع الوضعية لتتنكر للجار، وتستمرئ العبث بحرمته؛

---

(٤) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٤٣٧/١، وفتح الباري لابن حجر ٤٥٥/١٠، ٤٦١.

إذ غالبًا ما يكون العبث بحق الجار أسهل تناولاً، وأقل كلفة، وأسنح فرصة.

ولقد بلغ من عِظَم حق الجار في الإسلام أن قرنَ الله حق الجار بعبادته وتوحيده-تبارك وتعالى-وبالإحسان إلى الوالدين، واليتامى، والأرحام.

قال -عز وجل- في آية الحقوق العشرة: ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ (النساء: ٣٦).

فقوله -تعالى-: ﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾: هو الذي بينك وبينه قرابة، وقيل: هو الذي قَرُبَ جوارُه، وقيل: المسلم، وقيل: الزوجة.

وقوله: ﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ** ﴾: قيل: هو الذي يعد في العرف جارًا وبينك وبين منزله فسحة.

وقيل: هو الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الزوجة: وقيل: غير المسلم[1].

أما السنة النبوية فقد استفاضت نصوصها في بيان رعاية حقوق الجار، والوصاية به، وصيانة عرضه، والحفاظ على شرفه، وستر عورته، وسد خلَّته، وغض البصر عن محارمه، والبعد عن ما يريبه ويسيء إليه.

ومن أجلى تلك النصوص وأعظمها ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة وابن عمر -رضي الله عنهما-أن النبيﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه**»[2].

أي ظننت أنه سَيَبْلُغني عن الله الأمرُ بتوريث الجارِ الجارَ.

---

(١) انظر: تفسير البغوي معالم التنزيل ٣١٠/٢، ٢١١، وزاد المسير لابن الجوزي ٧٨/٢-٨١ وجامع العلوم والحكم ٤٣٧/١، ٤٣٨ وفتح القدير للشوكاني ٤٦٤/٤-٤٦٥.

(٢) البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

وهذه كلمة جامعة بالغة؛ فإن الوصاية بالجار تشمل كف الشر عنه، وإسداء الخير إليه، وقوله ﷺ: «**حتى ظننت أنه سيورِّثه**» يدل على أن الوصاية بالجار كانت على جانب عظيم من التأكد، والحث على رعاية حقوقه [(١)].

المطلب الثالث: حقوق الجار في الإسلام

حقوق الجار على وجه التفصيل كثيرة جدًا وأما أصولها فتكاد ترجع إلى أربعة حقوق، وهي كما يلي:

١ ـ كف الأذى: فقد تقدَّم أن للجار مكانةً عالية، وحرمةً مصونة.

ومن أجل ذلك جاء الزجر الأكيد والتحذير الشديد في حق من يؤذي جاره؛ فالأذى بغير حق محرم، وأذية الجار أشد تحريمًا.

جاء في صحيح البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**».

قيل: من يا رسول الله ؟

قال: «**من لا يأمن جارُه بوائقه**» [(٢)].

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**» [(٣)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره**» [(٤)].

٢ ـ حماية الجار: فمن الوصية بالجار ومن حقه حمايته، ومما ينبه لشرف همة الرجل نهوضه لإنقاذ جاره في بلاء يُنال به، سواء كان ذلك في عرضه، أو بدنه، أو ماله أو نحو ذلك.

---

(١) انظر الهداية الإسلامية للشيخ محمد الخضر حسين ص ٧٨.

(٢) البخاري (٦٠١٦).

(٣) مسلم (٤٦).

(٤) البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

٣ـالإحسان إلى الجار: فلا يكفي الرجل في حسن الجوار أن يكف أذاه عن جاره، أو أن يدفع عنه بيده أو جاهه يدًا طاغيةً، أو لسانًا مقذعًا.

بل يدخل في حق الجار أن يُحْسَن إليه في كافة وجوه الإحسان، فذلك دليل الفضل، وبرهان الإيمان، وعنوان الصدق.

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرةﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[(١)].

ولمسلم ـأيضًاـ: «**فليحسن إلى جاره**»[(٢)].

فمن الإحسان إلى الجار تعزيته عند المصيبة، وتهنئته عند الفرح، وعيادته عند المرض، وبداءته بالسلام، و طلاقة الوجه عند لقائه، وإرشاده إلى ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، ومواصلته بالمستطاع من ضروب الإحسان.

٤ـاحتمال أذى الجار: فللرجل فضل في أن يكف عن جاره الأذى، وله فضل في أن يذود عنه، ويجيره عن أيدٍ أو ألسنة تمتد إليه بسوء، وله فضل في أن يواصله بالإحسان جهده.

وهناك فضل رابع، وهو أن يغضي عن هفواته، ويتلقى بالصفح كثيرًا من زلاته وإساءاته، ولا سيما إساءة صدرت عن غير قصد، أو إساءة ندم عليها وجاء معتذرًا منها.

فاحتمال أذى الجار وترك مقابلته بالمثل من أرفع الأخلاق وأعلى الشيم.

ولقد فقه السلف هذا المعنى وعملوا به.

«روى المرُّوذي عن الحسن: ليس حسن الجوار كف الأذى، حسن الجوار الصبر على الأذى»[(٣)].

---

(١) البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) مسلم (٤٧)، (٧٦).

(٣) الآداب الشرعية ٢/١٦.

المبحث الثالث: صلة الرحم

المطلب الأول: مفهوم صلة الرحم، وكيفية تحققها

أولاً: مفهوم صلة الرحم

قال ابن منظور رحمه الله: « وصلت الشيء وَصْلاً وصِلةً، والوصل ضد الهجران »[1].

وقال: «ويقال: وصل فلان رحمه يَصِلُها صِلةً وبينهما وصْلةٌ: أي اتصال وذريعة »[2].

وقال: « التواصل ضد التصارم »[3].

وقال: عن صلة الرحم: «قال ابن الأثير: وهي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار، والعطف عليهم، والرفق بهم، والرعاية لأحوالهم، وكذلك إن بعدوا وأساءوا، وقَطْعُ الرحمِ ضد ذلك كله» [4].

ثانياً: كيفية تحقق صلة الرحم

صلة الرحم تتحقق بأمورٍ عديدة؛ فتكون بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، والسؤال عنهم، والإهداء إليهم، وإنزالهم منازَلهم، والتصدق على فقيرهم، والتلطف مع غنيِّهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم وضعفتهم، وتعاهدهم بكثرة السؤال والزيارة إما أن يأتي الإنسان إليهم بنفسه، أو يصلهم عبر الرسالة، أو المكالمة الهاتفية.

وتكون باستضافتهم، وحسن استقبالهم، وإعزازهم، وإعلاء شأنهم، وصلة القاطع منهم.

وتكون ـأيضًاـ بمشاركتهم في أفراحهم، ومواساتهم في أتراحهم، وتكون بالدعاء لهم، وسلامة الصدر نحوهم، وإصلاح ذات البين إذا فسدت بينهم، والحرص على تأصير العلاقة وتثبيت دعائمها معهم.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٧٢٦/١١.

(٢) لسان العرب ٧٢٧/١١.

(٣)(٤) لسان العرب ٧٢٨/١١ ، وانظر: التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية د. محمد بن أحمد الصالح ص١٠٧.

وتكون بعيادة مرضاهم، وإجابة دعوتهم.

وأعظم ما تكون به الصلة، أن يحرص المرء على دعوتهم إلى الهدى، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر[١].

المطلب الثاني: فضائل صلة الرحم في الشريعة الإسلامية

لقد جاءت الشريعة الإسلامية ببيان فضل صلة الرحم؛ ونصوص الكتاب والسنة في ذلك متظاهرة، وكذلك أقوال العلماء والحكماء، فمن تلك الفضائل ما يلي:

١ـصلة الرحم شعار الإيمان بالله واليوم الآخر: فعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه**»[٢].

٢ـصلة الرحم سبب لزيادة العمر وبسط الرزق: فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره فَليصل رحمه**»[٣].

ومما قاله العلماء في معنى زيادة العمر، وبسط الرزق الواردين في الحديث ما يلي:

١ـ أن المقصود بالزيادة أن يبارك الله في عمر الإنسان الواصل، ويهبه قوة في الجسم، ورجاحة في العقل، ومضاءً في العزيمة، فتكون حياته حافلة بجلائل الأعمال.

٢ـأن الزيادة على حقيقتها؛ فالذي يصل رحمه يزيد الله في عمره، ويوسع له في رزقه.

ولا غرو في ذلك؛ فكما «أن الصحة وطيب الهواء، وطيب الغذاء، واستعمال الأمور المقوية للأبدان والقلوب من أسباب طول العمرـفكذلك صلة الرحم جعلها الله سبباً ربانيًّا؛ فإن الأسباب التي تحصل بها المحبوبات الدنيوية قسمان: أمور

---

(١) انظر قطيعة الرحم لمحمد الحمد ص١٦ .

(٢) البخاري (٦١٣٨).

(٣) البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

محسوسة تدخل في إدراك الحواس، ومدارك العقول، وأمور ربانية إلهية قدَّرها مَنْ هو على كل شيء قدير، ومَنْ جميعُ الأسباب وأمور العالم منقادةٌ لمشيئته»[(١)].

٣ـصلة الرحم تجلب صلة الله للواصل: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك**»[(٢)].

٤ـصلة الرحم من أعظم أسباب دخول الجنة: فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**»[(٣)].

٥ـصلة الرحم طاعة لله ـعز وجلـ: فهي وصل لما أمر الله به أن يوصل.

قال ـتعالىـ مُثْنياً على الواصلين: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ**﴾ (الرعد: ٢١).

٦ـوهي من محاسن الدين: فالإسلام دين الصلة، ودين البر والرحمة، فهو يأمر بالصلة، وينهى عن القطيعة، مما يجعل جماعة المسلمين مترابطة، متآلفة، متراحمة، بخلاف الأنظمة الأرضية التي لا ترعى ذلك الحق، ولا توليه اهتمامها.

٧ـوهي مما اتفقت عليه الشرائع: فالشرائع السماوية كلها أمرت بالصلة، وحذرت من ضدها، وهذا يدل على فضلها، وعظم شأنها.

---

(١) انظر بهجة قلوب الأبرار للشيخ ابن سعدي، ص٧٤ـ٧٥، ومجموع الفتاوى، ٥٤٠/٨، وتفصيل الأقوال السابقة في شرح النووي لصحيح مسلم ٤/١٦، وفتح الباري لابن حجر ٤٣٠/١٠، وإفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه للسيوطي، وتنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل للشوكاني ص٣٢، وانظر: تفسير الشيخ ابن سعدي لقوله ـتعالىـ: ﴿**يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ**﴾ (الرعد: ٣٩)، والأدب النبوي لمحمد الخولي ص١١٥

(٢) البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).

المبحث الرابع: كرامة الإنسان، ومعيار العدل والتكريم في الإسلام

المطلب الأول: كرامة الإنسان في الإسلام

لقد قرر الإسلام كرامة الإنسان بما لا يُقرره أي نظام في الدنيا؛ وأدلة الكتاب والسنة شاهدة بذلك، ناطقة به.

ويكفي في ذلك قول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠.

وهذا من كرم الله -عز وجل- وإحسانه الذي لا يُقْدَرُ قَدْرُه؛ حيث كَرَّم بني آدم بجميع وجوه الإكرام؛ فكرمهم بالعلم، والتمييز، والعقل، والصورة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتسخير ما في الأرض لهم.[١]

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «والمراد ببني آدم جميع النوع؛ فالأوصاف المثبتة هنا إنما هي أحكام للنوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات.

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات»[٢].

ثم شرع رحمه الله في بيان ذلك بكلام عظيم، فقال: «فأما مِنَّةُ التكريمِ فهي مزية خصّ بها الله بني آدم من بني سائر المخلوقات الأرضية.

والتكريم: جَعْلُه كريماً، أي نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته؛ فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة، ولا اللباس، ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد

---

١ - انظر تفسير القاسمي محاسن التأويل ١٠/٢٥٠-٢٥١، وتفسير السعدي ص٤٦٣.

٢ - تفسير التحرير والتنوير ١٥/١٦٤.

لما ينفعه ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلوّ عن المعارف والصنائع، وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته.

وقد مَثَّل ابن عباس للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه، يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه، بل يرفعه إلى فيه بيده، ولا يكرع في الماء بل يرفعه إلى فيه بيده؛ فإن رفع الطعام بمغرفة، والشراب بقدح فذلك من زيادة التكريم وهو تناول باليد.

والحمل: الوضع على المركب من الرواحل، فالراكب محمول على المركوب، وأصله في ركوب البر، وذلك بأن سخر لهم الرواحل، وألهمهم استعمالها»[1].

إلى أن قال رحمه الله: «**وأما الحمل في البحر** فهو الحصول في داخل السفينة، وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحمل على الراحلة، وشاعت حتى صارت كالحقيقة، قال -تعالى-: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ الحاقة: ١١.

ومعنى حمل الله الناس في البحر: إلهامه إياهم استعمال السفن، والقلوع، والمجاديف؛ فجعل تيسير ذلك كالحمل.

وأما الرزق من الطيبات؛ فلأن الله -تعالى- ألهم الإنسان أن يطعَم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أماراتٍ على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جدًّا مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها، على أن أقرب الحيوان إلى الإنسية والحضارة أكثرها اتساعاً في تناول الطعوم.

وأما التفضيل على كثير من المخلوقات، فالمراد به التفضيل المشاهد؛ لأنه موضع الامتنان، وذلك الذي جُمَّاعُه تمكينُ الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية.

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم: منظورٌ فيه إلى

---

١ - تفسير التحرير والتنوير ١٦٥/١٥.

تكريمه في ذاته، والتفضيل: منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه، ودفع الأضرار عنه، وبأنواع المعارف والعلوم، هذا هو التفضيل المراد»[١].

المطلب الثاني: معيار العدل في الإسلام

العدل إعطاء الحق إلى صاحبه، بحيث يمكَّن من أخذه بيده، أو يد نائبه، وتعيينه له قولاً أو فعلاً.

والعدل هو الأصل الجامع للحقوق، وهو مما تواطأت على حسنه الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتَمَدَّح بادعاء القيام به عظماء الأمم.

وحسن العدل مستقر في الفطرة؛ فإن كل نفس تنشرح لمظاهر العدل؛ فالبشر كلهم في جميع الأعصار والأمصار متفقون على مدح العدل، وتمجيده، والمطالبة بنشره على الإجمال، وإن اختلفوا في جزئياته، وعند تطبيقاته[٢].

هذا وإن للعدل في دين الإسلام مكانة سامية؛ فهو أصل من أصول النظام الاجتماعي فيه.

ولقد تظاهرت نصوص الشرع من الكتاب والسنة في بيان فضل العدل، وتفصيل جزئياته، والتحذير من ضده، وهو الظلم، واتباع الهوى.

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة؛ إذ العدل كلمة مجملة جامعة.

وفيما يلي ذكر لبعض ما جاء في شأنه في الشريعة الإسلامية:

١ ـ أن الله ـعز وجلـ أمر بالعدل أمراً عزماً: ويتبين ذلك من خلال تكراره في كتابه من الآيات الآمرة بالعدل، قال الله ـعز وجلـ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ** ﴾ النحل: ٩٠ .

---

١ ـ تفسير التحرير والتنوير ١٥/١٦٥ـ١٦٦.

٢ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١٤/٢٥٤، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٧٤ .

٢ـ أن الله قرن بالأمر بالعدل التحذير من مخالفته: قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾ المائدة: ٨ .

أي: لا يحملنكم عداوتُكم لأناس أن تظلموهم، وتتركوا استعمال العدل معهم[1].

٣ـ تنوع الأمر بالعدل، وعمومه: فالأمر بالعدل يشمل العدل بالقول، ويشمل العدل في القضاء بين الناس في منازعاتهم، وفي فرض الواجبات، والتكاليف عليهم، وفي التشريع لهم، وفي الإفتاء، وفي الشهادة بينهم.

قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ النساء: ١٣٥ .

والقسط: هو العدل.

٤ـ التحذير من التهاون بإقامة العدل: وذلك بدافع الرقة، أو اللين، أو الهوى، أو القرابة؛ قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء: ١٣٥ .

ولا ريب أن العدالة خلق يبعث المتخلق به على إقامة العدل في نفسه، وفي الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٥ـ أن الشريعة بينت وجوه الأحكام في الأعمال؛ قصداً لإيصال الحقوق إلى أصحابها، وحياطةً للعدل في الأحكام بحيث لا يلتبس الجور على الناس.

قال الله ـتعالى ـ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ النساء: ١٠٥ .

---

١ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٧٤ .

وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ النحل: ٨٩.

ثم وكَلَ الله ذلك إلى رسولهﷺ بقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل: ٤٤.

فتصدى رسول اللهﷺ للبيان والتفصيل في خطبه، ومجالس تعليمه، ومنازل الوحي إليه.

٦ـ إقامةُ التشريعِ الإسلاميِّ القضاةَ: وذلك من أجل تمييز الحق، وتعيين صاحبه في جزئيات الحوادث بين الناس، ومخاصماتهم، واشترط بالقضاء شروطاً، وصفاتٍ تجعل من تحققت فيه مأموناً على هذه الأمانة العظمى.

وترجع تلك الصفات إلى خلق تعظيم الشريعة في نفس القاضي واتقاء الحياد عنها، وإلى جودة الفهم بأبلغ ما يمكن من ثبات الرأي، وشجاعة النفس بحيث لا تأخذه لومة لائم.

واشترطت الشريعة في القاضي أن يكون ملحوظاً بعين الإجلال والحرمة؛ لِيُسَلِّموا إليه فيما يقضي بينهم[1]، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥.

٧ـ أن الأمر بالعدل شامل لجميع أفراد الأمة: فليس مقتصراً على الحاكم الأعلى في سياسته لرعيته، أو القاضي في مقطع أحكامه.

وإنما هو شامل لجميع أفراد الأمة بما فيهم الوالد في بيته وبين أولاده، والزوجة في بيت زوجها، والخادم في مال سيده.

ولزوم العدل مأمور به مع القريب والبعيد، والموافق والمخالف، والقوي والضعيف.

كما أن الأمر بالعدل شاملٌ لحال السلم والحرب، والبيع والشراء، وسائر الأحوال.

---

١ ـ مرَّ الحديث عن القضاء بشيء من البسط عند الكلام على النظام السياسي في الإسلام.

وتفصيل ذلك يحتاج إلى بسط وإطالة[١].

المطلب الثالث: معيار التفاضل والتكريم في الإسلام

الإسلام -كما مر- دين الكرامة والعدل؛ فالله -عز وجل- كرَّم بني آدم، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

والشريعة الإسلامية قررت مبدأ العدل مع كل أحد وفي كل حال.

والحديث ههنا عن معيار التفاضل والتكريم في الإسلام؛ فالتكريم يقوم على العدل، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقه دون وكس ولا شطط؛ فلا طبقية في الإسلام، ولا عنصرية، ولا تفضيل لعرق، أو جنس، أو لون، أو بلد على آخر؛ فهذه الأمور ليست معياراً للتفاضل والتكريم في الإسلام.

إنما المعيار بالتقوى، وبما يمتاز به الإنسان من الكمالات.

قال الله -تعالى- مقرراً هذا المعنى العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ الحجرات: ١٣.

وبعد أن بين الله -جل وعلا- أصل الناس جميعاً، وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى وهما آدم وحواء أَبَوَا البشر - قرر معيار التفاضل فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ الحجرات: ١٣.

وفي معنى الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجة الوداع إذ قال: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسودَ على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى**»[٢].

فالمعيار في التفاضل -إذاً- إنما هو بزيادة التقوى؛ فمن فَضُل بالتقوى، وزاد في الأخذ بشعبها فَضُلَ غيرَه ممن هو دونه في ذلك.

---

١ - انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٧٤-١٧٩.

٢ - رواه أحمد (٢٣٥٣٦).

ولا ينافي ذلك أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثرُ تزكيةٍ في النفوس كحسن التربية، والعراقة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم وفي الفضائل[١].

وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد، قال النبيﷺ: «**تجدون الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٢].

وما كان للشريعة الكاملة الحقة أن تدعو إلى مساواة تُلْغَى فيها جميع الفروق، والمميزات، والحقوق الكائنة بين البشر مما له أثر في صلاح العالم.

ولو دعت إلى ذلك لدعت إلى ما لا يطيقه البشر، ولحملت الناس على إهمال مواهبهم السامية، وفي ذلك فسادٌ قبيحٌ يؤول إلى اختلال نظامِ العالم في إلغاء المميزات والحقوق المفيدة رفعةً وصلاحاً.

والمقصود أن الإسلام جعل التمايز، والتفاضل للتقوى دون إهمال لسائر الميزات، ودون تحيز للون، أو جنس، أو عرق، أو عصر؛ فهو ينظر إلى الناس على أنهم سواسية في الكفاءة، والصلاح للمزايا والجزاء على ما يصدر من نفع يخص أو يعم لا يختص بذلك عصر دون عصر، ولا قبيلة دون قبيلة، ولا سنٍّ دون سن، ولا طبقة دون طبقة، ولا صنف من الناس دون صنف[٣].

بخلاف ما كان سائداً قبل الإسلام، أو ما كان بعيداً عن هداية الإسلام؛ فلقد تمايز الأمم والقبائل من فروع كل قانون، وكل شريعة سبقت الإسلام؛ ففي شريعة التوراة خصائص لبني إسرائيل، وخصائص لأبناء لاوي بن يعقوب.

وفي قوانين الفرس والروم لم يكن للدخيل فيهم من الحقوق مثل ما للأصيل.

---

١ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١٦/٢٦٠ـ٢٦٣.

٢ ـ أخرجه البخاري (٣٢٠٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

٣ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٣٨.

وقد كان العرب قبل الإسلام لا يسمحون لِلَّصِيق في القبيلة بمثل ما للصريح، ولا يرفعون قدر الموالي.

أما الإسلام فقد أبطل ذلك، واعتبر المسلمين بفضائلهم وكفاءتهم[١].

ومما يشهد لذلك أن النبيﷺ رد على بعض الناس لما طعنوا في إمارة أسامة بن زيد وهو مولى بن مولى؛ فقد جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عمر ـرضي الله عنهماـ أن رسول اللهﷺ بعث بعثاً، وأمَّر عليهم أسامةرضي الله عنه فطعن الناس في إمارته فقام رسول اللهﷺ فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده**»[٢].

وإنما طعنوا فيهما؛ لأنهما من الموالي لا من صميم العرب، وقول رسول اللهﷺ: «**إنهما لمن أحب الناس إلي**» كناية عن درجتهما في الفضل؛ إذ لا تكتسب محبةُ الرسولﷺ إلا بالكمالات الدينية النفسانية[٣].

ثم إن الناس في الإسلام يتساوون في إقامة الحق عليهم، واستيفائه منهم.

والسيرة النبوية حافلة بما يؤكد هذا المعنى، ومما جاء فيها من هذا القبيل قضية المرأة المخزومية التي سرقت في زمن رسول اللهﷺ وكانت من أهل بيت مَجْدٍ؛ فلما أراد رسول اللهﷺ إقامة الحد عليها عظم ذلك على المهاجرين؛ فقد جاء في الصحيحين عن عائشة ـرضي الله عنهاـ أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت؛ فقالوا: ومن يكلم رسول الله ﷺ، ومن يتجرأ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ.

---

١ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٣٨ .

٢ ـ البخاري (٤٤٦٩) ومسلم (٢٤٢٦).

٣ ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٣٩ .

فكلم رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟**».

ثم قام فخطب، قال: «**يا أيها الناس! إنما أضل من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**».[١]

فهذه نبذة تشير إلى معيار التفاضل والتكريم في الإسلام.

---

١ ـ البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (٢٦٤٨).

المبحث الخامس: أصول الأخلاق ودورها في بناء المجتمع

تمهيد

سبق الكلام على منزلة الأخلاق، وفضلها في الإسلام، وما جرى مجرى ذلك في الباب الأول.

والحديث ههنا إكمالٌ لما مضى، وتأكيدٌ عليه، و بيانٌ لدور الأخلاق في تماسك المجتمعات وصلاحها، ونظرةٌ في أوامر الإسلام ونواهيه، وأثرها في الاجتماع، والنهوض بالهمم، وتوضيحٌ لأمهات الفضائل، وأصول الأخلاق، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مكارم الأخلاق ودورها في انتظام أمر الاجتماع

لا يكاد أمر الاجتماع ينتظم كمال انتظامه ما لم تكن مكارم الأخلاق غالبة على جمهورها، وسائدة على معظم تصاريفها وأمورها؛ لأن مِلاك مكارم الأخلاق هو تزكيةُ النفس الإنسانية، وتعويدُ العقل على إدراك الفضائل، وتمييزه عن الرذائل، وتدريبُه على التحلي بتلك الفضائل، والتخلي عن الرذائل.

وإذا بلغت الأمة إلى غاية مكارم الأخلاق، وغلبت تلك الحال على جمهورها زكت نفوسها، وأثمرت غروسُها؛ فحينئذ يسود الأمن، ويرقى الذوق العام، وتسود الألفة، وتنصرف العقول إلى الأعمال النافعة؛ فتكون العاقبة رُشداً، وفلاحاً، وتعقلاً، ورفاهية، وإنصافاً.

وعلم الأخلاق -الذي أعلى الإسلام مناره- كفيل بتهذيب الأخلاق، وإيقاف الناس على حدودها، وحملهم على امتثالها؛ ذلك أن التربية الإسلامية لها أثر أعظم من كل أثر؛ فإن التربية غير الدينية قد تضعف أمام كثير من الأهواء

الطاغية؛ فلا تستطيع كبح جماحها.

أما تربية دين الإسلام فلديها من المتانة ما يطارد تلك الأهواء.

وليس الذي يؤمن بأنه سيقف بين يدي علام الغيوب؛ فيحاسبه على ما ارتكبه من جنايات، ويجازيه عليها جزاء العادل الحكيم ـ مثل الذي لا يعرف زاجراً عن الجناية سوى موضع لوم من يطلعون عليها، أو عقوبة من ترفع إليهم قضيتها.

لذلك كان تهذيب الأخلاق أصلاً عظيماً من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام؛ لأنه من أعظم ما يهيئ أفراد الأمة لتكوين جامعة صالحة لهم[١].

ألا ترى أن مثال تمام مكارم الأخلاق وهو رسول الله ﷺ الذي قال الله في خطابه له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

ألا ترى أنه لما سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق النبي ﷺ قالت: «**كان خلقه القرآن**»[٢].

وقولها: «**كان خلقه القرآن**» كلمة جامعة يرجع معناها إلى أنه ﷺ كان يتأول القرآن، ويعمل بما فيه، فيأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه، ويقف عند حدوده، ويتأدب بآدابه؛ فصار العمل بالقرآن خلقاً له كالطبيعة التي لا تفارقه[٣].

لذلك لو عَرَضْتَ أيَّةَ آيةٍ من القرآن الواردة في خلق حسن، وعمل صالح، وتأملت سيرة النبي ﷺ وجدت سيرته مطابقة لما تضمنه القرآن؛ فالقرآن ـ إذاً ـ هو جامع مكارم الأخلاق، والرسول ﷺ هو مظهر تلك المكارم؛ فتبين من ذلك أن الإسلام هو مكارم الأخلاق، وجماع مكارم الأخلاق يعود إلى التقوى، ولذلك قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ الحجرات: ١٣.

---

١ ـ انظر إحياء علوم الدين ٣/٥٥ـ٥٦، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١١٦ـ١١٩، والدعوة إلى الإصلاح ص١٩٢ـ١٩٣.

٢ ـ أخرجه مسلم (٧٤٦).

٣ ـ انظر جامع العلوم والحكم ٢/٩٩.

ويؤيد هذا المعنى قول النبيﷺ : «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[١].

إن أعظم ما بنى عليه الإسلام دعوته إلى مكارم الأخلاق وتهذيبها هو العناية بتربية النفس، وكمالها، وتدريبها على متابعة الهدى والإرشاد الذي يشهد العقل السليم بحقيقته وصلاحه ونفعه؛ فالإسلام يتميز عن ما سواه من الشرائع والدعايات بأنه أقام مبانيه على أساس جميع الفضائل الحقة دون الواهية، وبأنه حث إلى بث تلك المباني بين جميع الأمم، وبأنه جعل الإنصاف بمكارم الأخلاق حقًّا على الولاة، والهداة، والرعايا كلٌّ فيما يخصه من الأفعال المتعلقة بالإسلام، أو بمعاشرة المسلمين، أو غيرهم من الأمم، أو حتى بالتصرف مع الحيوان المسخر[٢].

وإن نظرة عامة على أوامر الإسلام ونواهيه لتكشف مدى ما يدعو إليه من الرقي بالأفراد والأمم، والنهوض بأخلاقها وأعمالها -كما سيتبين شيء من ذلك في الفقرة التالية-.

المطلب الثاني: نظرة في أوامر الإسلام ونواهيه

النظر في أوامر الإسلام ونواهيه يبيِّن لك مدى ما عليه دين الإسلام من المكارم والسمو، وأنه دين السعادة والفلاح، وأنه لم يَدَع الإنسان في خاصة نفسه أو مع أهله، أو مع جيرانه، أو أهل ملَّته، أو الناس أجمعين - إلا علَّمه من دقائق الآداب، ومحاسن المعاملات ما يصفو به عيشه، ويتم سروره.

ولا يَريبَنَّك ما عليه بعض المسلمين من سوء الحال؛ فإن ذلك بمقتضى أهوائهم لا من طبيعة دينهم.

ومحاسن الدين الإسلامي تتجلى بوضوح من خلال النظر في أوامر الإسلام

---

١ - رواه أحمد (٨٩٣٩)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩): «**صحيح**».

٢ - انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص١٢١-١٢٣ .

ونواهيه؛ فإليك نبذة عن ذلك فيما يلي من أسطر[١]:

أولاً: من أوامر الإسلام: الإسلام يأمر بأوامر عظيمة تنتظم بها الأمور المدنية، وتصلح بها حالة المعاش؛ فالإسلام في ذلك الشأن هو البحر الذي لا يدرك غوره، والغاية التي ليس بعدها أمل لآمل، ولا زيادة لمستزيد.

وهذه الأوامر حثَّ عليها الإسلام بأبلغ العبارات، وأقربها إلى الأفهام، وتوعد على الخروج عن هذه الجادة بالعقاب، ووعد من أخذ بها بجزيل الثواب.

فمن تلك الأوامر العظيمة التي جاء بها الإسلام ما يلي:

١ـ الإسلام يأمرك بما تكون به كبير النفس عن التشبه بما دونك من أنواع الحيوانات، رفيعَ القدر عن أن تكون عبداً لشهواتك وحظوظك، عالي المنزلة عن أن تعظم غير ربك، أو تخضع لغير حكمه.

٢ـ الإسلام يأمرك بما يشعرك أنك عضو نافع عامل تأنف أن تقلد غيرك التقليد الأعمى، أو تكون عالة على سواك.

٣ـ الإسلام يأمرك باستعمال عقلك، وجوارحك فيما خُلِقْتَ له، من العمل النافع في أمر دينك ودنياك.

٤ـ الإسلام يأمرك بالتوحيد الخالص، والعقيدة الصحيحة التي لا يقبل العقل غيرها، ولا تطمئن القلوب إلا بها؛ فالعقيدة التي أمرك الإسلام بها تجعلك عظيماً كبيراً، وتشعر قلبك العزة، وتذيقك حلاوة الإيمان.

٥ـ الإسلام يأمرك بستر عورات المسلمين، واتقاء مواضع التهم.

٦ـ الإسلام يأمرك بالسعي لقضاء حاجات الناس، وتنفيس كرباتهم.

٧ـ الإسلام يأمرك بالبدء بالسلام على كل مسلم، وأن تنصر أخاك المسلم في

---

١ ـ انظر تعريف عام بدين الإسلام المسمى: رسائل السلام ورسل الإسلام للشيخ يوسف الدجوي ص٧١ـ٧٤.

غيبته، وأن ترده عن الظُّلم إذا ظلم.

٨- الإسلام يأمرك بعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، والدعاء لإخوانك المسلمين.

٩- الإسلام يأمرك بإنصاف الناس من نفسك، وأن تحب لأخيك المسلم ما تحبه لنفسك.

١٠- الإسلام يأمرك بالسعي في طلب الرزق، وأن تعز نفسك، وأن ترفعها عن مواطن الذل والهوان.

١١- الإسلام يأمرك بالرحمة بالخَلق، والعطف عليهم، وحُسن رعايتهم ومداراتهم، والسعي في نفعهم، وجلب الخيرات لهم، ودفع المضرات عنهم.

١٢- الإسلام يأمرك ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجار، والرفق بالحيوان.

١٣- الإسلام يأمرك بالوفاء للأصحاب، وحُسن المعاملة للزوج والأبناء.

١٤- الإسلام يأمرك بالحياء، والحلم، والسخاء، والكرم، والشجاعة، والغيرة على الحق.

١٥- ويأمرك بالمروءة، وحسن السمت، والحزم، والحكمة في الأمور.

١٦- ويأمرك بالأمانة، والعدل، وإنجاز الوعد، وحُسن الظن، والأناة في الأمور، والمبادرة في فعل الخير.

١٧- ويأمرك بالعفة، والاستقامة، والشهامة، والنزاهة.

١٨- الإسلام يأمرك بشكر الله، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والأنس به، والتوكل عليه.

إلى غير ذلك من المعاني الجميلة العظيمة[1].

---

١ - انظر تعريف عام بدين الإسلام ص٧٤-٧٥، والطريق إلى الإسلام ص ٤١-٤٣.

ثانياً: من نواهي الإسلام: فمن أعظم محاسن الإسلام ما جاء به من النواهي التي تحذر المسلم من الوقوع في الشر، وتنذره سوء العاقبة التي تترتب على الأفعال القبيحة؛ فمما نهى الإسلام عنه مايلي:

١- نهى عن الكفر، والفسوق، والعصيان، واتباع الهوى.

٢- ونهى عن الكِبْر، والحقد، والعجب، والحسد، والشماتة بالمبتلين.

٣- ونهى عن سوء الظن، والتشاؤم، واليأس، والبخل، والتقتير، والإسراف، والتبذير.

٤- ونهى عن الكسل، والخور، والجبن، والضعف، والبطالة، والعجلة، والفظاظة، وقلة الحياء، والجزع، والعجز، والغضب، والطيش، والتسخط على ما فات.

٥- ونهى عن العناد، وعن قسوة القلب التي تمنع صاحبها من إغاثة الملهوف والمضطر.

٦- ونهى عن الغِيبة وهي ذكرك أخاك بما يكره، وعن النميمة وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

٧- ونهى عن كثرة الكلام بلا فائدة، وعن إفشاء السر، والسخرية بالناس، والاستهزاء بالآخرين.

٨- ونهى عن السب، واللعن، والشتم، والتعبير بالعبارات المستقبحة، والتخاطب بالألقاب السيئة.

٩- ونهى عن كثرة الجدال، والخصومة، وعن المزاح البذيء الذي يجر إلى الشر والتطاول.

١٠- ونهى عن الكلام فيما لا يعني.

١١- ونهى عن كتمان الشهادة، وعن شهادة الزور، وعن قذف المحصنات،

وسب الأموات، وكتم العلم.

١٢ـ ونهى عن السفاهة، والفُحش، وعن المن بالصدقة، وعن ترك الشكر لمن أسدى إليك معروفاً.

١٣ـ ونهى عن الاستطالة في الأعراض، وانتساب المرء إلى غير أبيه، وعن ترك النصيحة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٤ـ ونهى عن الظلم، والغش، والخيانة، والمكر، وإخلاف الوعد، والفتنة التي توقع الناس في اضطراب.

١٥ـ ونهى عن عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وإهمال الأولاد، وأذية الجار.

١٦ـ ونهى عن التجسس، والتحسس، وتتبع عورات الناس.

١٧ـ ونهى عن تشبه الرجال بالنساء، وعن تشبه النساء بالرجال، وعن إفشاء سر الزوج.

١٨ـ ونهى عن شرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وعن المقامرة التي تعرض المال للمخاطرة.

١٩ـ ونهى عن ترويج السلعة بالحلف الكاذب، وعن بخس الكيل والوزن، وعن إنفاق المال بالمحرمات.

٢٠ـ ونهى عن السرقة، والغصب، وخطبة الإنسان على خطبة أخيه، وشرائه على شراء أخيه.

٢١ـ ونهى عن خيانة أحد الشريكين لشريكه، وعن استعمال العارية بغير ما أذن بها صاحبها، وعن تأخير أجرة الأجير، أو منعه منها بعد فراغه من عمله.

٢٢ـ ونهى عن الإكثار من الطعام بحيث يضر صاحبه.

٢٣ـ ونهى عن التهاجر، والتشاحن، والتدابر، وحذّر أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث ليال.

٢٤ـ ونهى عن الضرب لأحد بغير مسوغ شرعي، وعن ترويع الناس بالسلاح.

٢٥ـ ونهى عن الزنا، واللواط، وقتل النفوس التي حرَّم الله قتلها.

٢٦ـ ونهى عن قبول القاضي هديةً من أحد لم يكن له عادة بإهدائها له قبل توليه، وعن قبول الضيافة الخاصة.

٢٧ـ ونهى عن أخذ الرشوة من محق أو مبطل، وعن دفع الرشوة من محق أو مبطل، إلا من محق مضطر إلى دفعها، دون أن تكون على حساب تضييع لحق أحد.

٢٨ـ ونهى عن خذلان المظلوم مع القدرة على نصره.

٢٩ـ ونهى عن اطِّلاع المرء على دار غيره بغير إذنه ولو من ثقب، وعن التسمع لحديث قوم يكرهون سماعه.

٣٠ـ ونهى عن كل ما يضر بالهيئة الاجتماعية، أو النفس، أو العقل، أو الشرف، أو العرض.

هذه نبذة موجزة عن أوامر الإسلام ونواهيه، وبسط ذلك وذكر أدلته يحتاج إلى مجلدات ضخام[1].

المطلب الثالث: نظرة في أمهات الفضائل، وأصول الأخلاق

مر في الفقرات الماضية شيء من البيان المجمل في شأن أمهات الفضائل، وأصول الأخلاق.

والحديث ههنا سيتناول ذلك بشيء من الإيضاح دون إطناب وتفصيل، وذلك من خلال النظر في أصول تلك الفضائل والأخلاق، مع ملاحظة أن الأخلاق والفضائل تتلاقى، وتجتمع، ويحمل بعضها على بعض، وملاحظة أن الإسلام قد رفع من قدر تلك الأخلاق، وجعل لها المكانة العلية:

١ـ **الصبر:** الحديث عن الصبر ذو شجون، فهو يبدأ ولا ينتهي سواء عن

---

١ ـ انظر تعريف عام بدين الإسلام ص ٧٥ـ٧٩، والطريق إلى الإسلام ص ٤٣ـ٤٥.

فضله، أو أنواعه، أو منزلته، أو ثمراته.

والكلام على الصبر ههنا أشبه ما يكون بالإشارات التي تدور حوله، والتي قد يُغْفل عنها في شأنه.

فالصبر -في أيسر تعريفاته- هو: حبس النفس عن شيء تحبه، أو حبسها على شيء تكرهه.

ويدخل تحت هذا التعريفِ: الصبرُ على طاعة الله، والصبرُ عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

ويدخل تحت ذلك من أفراد الصبر ما لا يحصى مما سيرد ذكر لشيء منه فيما يلي.

ولا ريب أن الصبر ملاك الفضائل؛ فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة - كما يقول ابن عاشور - لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة؛ ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه؛ حتى تكون مكارم الأخلاق مَلَكَةً لمن راض نفسه عليها[1].

ثم إن الفضائل تنبعث عن مكارمِ الخلال، والمكارمُ راجعةٌ إلى قوة الإرادة، وكبحِ زمام النفس عن الإسامة في شهواتها عما لا يفيد كمالاً، أو عما يورث نقصاناً؛ فكان الصبرُ ملاكَ الفضائل؛ فما التحلم، والتعلم، والتقوى، والشجاعة، والعدل، والعفة، والكرم ونحوها - إلا من ضروب الصبر.

وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر؛ فإن فيه مخالفةَ النفس هواها ومألوفَها[2].

وأما فضل الصبر فحدث ولا حرج؛ إذ هو نصف الإيمان، فالإيمان شكر وصبر، والقرآن الكريم حافل بذكر الصبر؛ ذلك الخلقُ العظيم الذي أمر الله به،

---

١ - انظر تفسير التحرير والتنوير ١٦/٤٦٠.

٢ - انظر تفسير التحرير والتنوير ١/٣٥٢.

وأعلى مناره، وأكثر من ذكره في كتابه، وأثنى على أهلِه القائمين به، ووعدهم بالأجر الجزيل عنده.

قال -تعالى-: ﴿**وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ**﴾ النحل: ١٢٧ .

وقال: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾ الشورى: ٤٣ .

وقال -عز وجل-: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ آل عمرآن: ٢٠٠ .

وقال: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ**﴾ البقرة: ١٥٥ .

وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ومن يتصبّر يصبّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً أعظمَ ولا أوسعَ من الصبر**»[١].

فإذا تحلى الإنسان بالصبر كان جديراً بأن يفلح في حياته، وأن يقدِّمَ الخيرَ العميمَ لأمته، ويتركَ فيها الأثرَ الكبيرَ.

وإن عَطُل من الصبر فما أسرعَ خورَه، وما أقل أثرَه.

ثم إن الإنسان -أيَّ إنسان- لا بد له من الصبر، إما اختياراً وإما اضطراراً؛ ذلك أنه عُرضةٌ لكثير من البلاء في نفسه بالمرض، وفي ماله بالضياع، وفي أولاده وأحبته بالموت، وفي حياتِه العامةِ بالحروبِ وتوابِعها من فقدان كثير من حاجاته التي تعوَّدها في حياته؛ فإذا لم يتعوَّدِ الصبرَ على المشاقِّ وعلى تركِ ما يألف -وقع صريع تلك الأحداث.

وكذلك حال الإنسان مع الشهوات؛ فهي تتزين له، وتغريه، وتتمثل له بكل سبيل؛ فإذا لم يكن معه رادعٌ من الصبر، ووازعٌ من الإيمان أوشك أن يتردى في الحضيض.

وبالجملة فإن الصبر من أعظم الأخلاق، وأجلّ العبادات، وإن أعظمَ الصبرِ

---

١ ـ البخاري (١٤٠٠) ومسلم (١٠٥٣).

وأحمده عاقبةً الصبرُ على امتثال أمر الله، والانتهاء عمّا نهى الله عنه؛ إذ به تَخْلُص الطاعة، ويصحُّ الدينُ، ويُسْتَحَقُّ الثوابُ؛ فليس لمن قل صبرُه على الطاعةِ حظٌ من برٍّ، ولا نصيبٌ من صلاح[١].

٢ـ العفة: قال الجرجاني رحمه الله في تعريفها: «العفة هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوةِ، والخمود الذي هو تفريطها؛ فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة»[٢].

وقال ابن حزم رحمه الله: «حد العفة أن تغض بصرك وجوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك؛ فما عدا ذلك فهو عهر، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله ـتعالى ـ فهو ضعف وعجز»[٣].

ومن خلال ذلك يتبين لنا أن العفة أصل من أصول الأخلاق، وأساس من أسس الاجتماع؛ فإذا شاعت في مجتمع ما حملت أفراده على اجتناب الرذائل والقبائح؛ وعلى تمثل الحياء الذي هو رأس كل خير، ومنعت من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة، والذلة[٤].

٣ـ عزة النفس: وهو من الأخلاق العالية، فعزة النفس تعني الارتفاع عن مواضع الإهانة، ويقابلها الضعة، وهي انحدار النفس في المهانة.

وعزة النفس تلقي على صاحبها مهابة ووقاراً في العيون، وتحرز له جلالة ومكانة في القلوب، وذلك لما تنشرح له صدور العظماء.

ولهذه ـكذلكـ آثار صالحة في الاجتماع؛ فإن الأمة التي تشرب نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشؤونها، غنيةً عن غيرها، وتبالغ في الحذر

---

١ ـ انظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٦٠/١.

٢ ـ التعريفات للجرجاني ص١٥١ .

٣ ـ انظر الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ص٣٢ .

٤ ـ انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢٩٤/٢ .

في أن تقع في يد من يطعن في كرامتها، ولا يستحيي من هضمها حقًّا من حقوقها[١].

٤ـ **السخاء:** فالسخاء يقوم على الشعور بأن للمال قيمة تستدعي عدم الإسراف في إنفاقه؛ وأن للحياة الفاضلة مطالب يبذل المال في سبيلها غير مأسوف عليه؛ فهو بذل ما ينبغي في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

فمن أطلق يده في اتباع الشهوات فهو مسرف، ومن قبضها عن الإنفاق في وجوه الخير فهو بخيل، أما السخاء فكان بين ذلك قواماً.

وبما أن السخاء يقوم على الرحمة، وقلة الحرص على جمع المال ـ كان متصلاً بفضائل أخرى تعد من مقومات الهمة العالية، ومن مظاهرها الجلية؛ فالسخي في أغلب أحواله يأخذ بالعفو، ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته على الإنصاف، فيؤدي حقوق الناس من تلقاء نفسه، وإذا قضى كان عادلاً، فلا تطمح نفسه إلى رشوة، ولا تحدثه أن يأخذ حق ضعيف إلى قوي.

ولتجدن السخي بحق متواضعاً، لا يطيش به كبر، ولا تستخفه الخيلاء، ولتجدنه أقرب الناس إلى الشجاعة وعزة النفس، وإنما يخسر الإنسان الشجاعة والعزة بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا.

وللسخاء أثر في سيادة الأمة؛ فالأمة تبلغ القدر الأسمى من السيادة بحفظ دينها، وسعة معارفها، وسمو أخلاقها، وصيانة أعراضها، ونابهة ذكرها، ومتانة اتحادها، وحماية أوطانها.

وكل هذه المقاصد الرفيعة الشأن ـ إنما تتحقق بالمال الذي يبذله الأسخياء من الناس[٢].

---

١ ـ انظر رسائل الإصلاح ١/١٢٤ـ١٢٦.

٢ ـ انظر الهداية الإسلامية ص٨٤ـ٩٢.

٥ـ **الشجاعة:** فهي خلق فاضل يحمل على عزة النفس، وإباءة الضيم، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب، ومفارقته.

وهي تحمل صاحبها على كظم الغيظ، والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزق والطيش[١].

ولهذا قرر النبيﷺ أن الشجاع المحمود شرعاً هو الذي يملك نفسه عند الغضب، قال ـعليه الصلاة والسلامـ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[٢].

والشجاعة لا تقتصر على الإقدام في ميادين الوغى، بل هي أعم من ذلك؛ فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، والصدع بالحق، والاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين[٣].

٦ـ **الوفاء:** قال الجرجانيرحمه الله: «الوفاء: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء»[٤].

ولقد كان رسول اللهﷺ أوفى الناس، وأبرهم في جميع صور الوفاء.

ومن صور وفائه ما كان من وفائه، وحفظه لودِّ زوجته خديجة ـرضي الله عنهاـ فبعد أن ماتت، وتزوج بعائشة وغيرها من ذوات الجمال والشرف ـرضي الله عنهنـ لم ينس خديجة، وما لها من سابقة في الإسلام، ونفقة في سبيل الله؛ فلقد كان كثيراً ما يلهج بذكرها، والثناء عليها.

بل لقد كان ـعليه الصلاة والسلامـ يتعاهد صديقاتها بعد موتها، وربما ذبح

---

١ ـ انظر مدارج السالكين ٣/٣٩٤.

٢ ـ أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

٣ ـ انظر رسائل الإصلاح ١/٧٧ـ٧٨.

٤ ـ التعريفات ص٢٥٣.

الشاة، فقطعها، ثم يبعثها إليهن، وكان يُذكِّرهن بالهدية والصدقة برَّ خديجة، وإحسانها الذي ألفوه منها، وعرفوه عنها، فيترحمون عليها، وينقلون الحديث عن كرمها وجودها.

حتى لقد بلغ من كثرة ذكره لخديجة -رضي الله عنها- أن غارت منها عائشة -رضي الله عنها- مع أن خديجة ماتت قبل أن يتزوج النبيﷺ عائشة بثلاث سنين.

جاء في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة؛ من كثرة ذكر رسول اللهﷺ إياها.

قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمر ربه -عز وجل- جبريل -عليه السلام- أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب»[(١)].

وجاء فيهما عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبيﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبيﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**»[(٢)].

وجاء فيهما -أيضاً- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «استأذَنَتْ هالة بنت خويلد -أخت خديجة- على رسول اللهﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: «**اللهم هالة**» قالت: فغرت» الحديث[(٣)].

فهذه نبذة عن أصول الأخلاق في الإسلام، وأما تفصيلاتها فمبثوثة في كثير من نصوص الوحيين، وكتب التفسير، وشروح الحديث.

---

١ ـ البخاري (٣٨١٧) ومسلم (٢٤٣٥).

٢ ـ البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥).

٣ ـ البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧).

المبحث السادس: الصداقة، والصحبة في الإسلام، وعلاقة المسلمين بغيرهم

أولاً: الصداقة، والصحبة في الإسلام

الصداقة عاطفة سامية القدر، غزيرة الفائدة، لذيذة المطعم.

والإسلام بشموله، وسعته، وتشريعاته الحكيمة لم يغفل جانب الصداقة والصحبة.

بل لقد عُني بالصداقة الحقة، ورغّب فيها، ووضع لها الأسس العامة التي تكفل استمرارَها، وإيتاءَها ثمارَها الطيبةَ.

وفيما يلي بيان لشيء من مظاهر عنايته بها:

١. إن الإسلام رغَّب في أن يحب المسلم لأخيه ما يحبه لنفسه، وبين أن ذلك علامة إيمان، وأنه من كمال الإيمان.

قال النبيﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».[١]

٢. أن الإسلام استحب للمسلم أن يؤثر أخاه المسلم وإن كانت به خصاصة، وهي الحاجة الشديدة، وذلك أقصى ما يفعله الصديق لصديقه.

قال الله -عز وجل- في معرض الثناء على الأنصار -رضي الله عنهم-: **﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾** الحشر: ٩.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع

---

١ ـ أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

الحاجة، بل مع الضرر، والخصاصة.

وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله -تعالى- مقدمة على شهوات النفس ولذاتها.

ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حيث آثر ضيفه بطعامه، وطعام أولاده وباتوا جياعاً.

والإيثار عكس الأثرة؛ فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة؛ لأنها من خصال البخل والشح، ومن رزق الإيثار فقد وُقي شح نفسه ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾ الحشر: ٩ .[١]

٣. أن الإسلام رغب في مصاحبة الجليس الصالح وصداقته، وحذر من جليس السوء والقرب منه؛ فلقد بين ذلك النبيﷺ بأبلغ ما يكون، قال النبيﷺ: «**مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة.**

ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».[٢]

٤. بيان أن الصداقة الحقة الصالحة تستمر إلى ما بعد الممات: ففي يوم القيامة حين يتبرأ كل صديق من صديقه تبقى صداقة المؤمنين المتقين ظاهرة في ذلك اليوم العصيب.

قال الله -عز وجل-: ﴿**ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ الزخرف:٦٧ .

فالمتصاحبون المجتمعون على الكفر والتكذيب والعصيان يتعادون في ذلك اليوم؛ لأن صحبتهم وخلتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت عداوة يوم القيامة.

---

١ ـ تفسير السعدي ص٨٥ .

٢ ـ أخرجه البخاري (٥٥٣٤ و٢١٠١ و٢٣٧) ومسلم (١٨٧٦) .

أما المتقون فإن محبتهم وصداقتهم تدوم وتتصل بدوام من كانت المحبة لأجله[١].

٥. أن الصداقة الخالصة يترتب عليها الثواب الجزيل: قال النبي ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم: «**رجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**».[٢]

فهذا شيءٌ مما جاء به الإسلام في شأن الصداقة.

ثانياً: علاقة المسلم بغير المسلم

علاقة المسلم بغير المسلم من الكفار والمشركين تقوم في أصلها على الإحسان، والبر، والصلة، والعدل، وحب الخير والهداية لهم.

قال الله -عز وجل-: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ الممتحنة: ٨.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين، والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناح أن تصلوهم؛ فإن صلتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة».[٣]

وهذا ما فهمه الصحابي الجليل عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- حيث ذبح شاةً فقال: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات.

ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»[٤].

---

١ ـ انظر تفسير السعدي ص٧٦٩.

٢ ـ أخرجه البخاري (٦٦٠ و١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

٣ ـ انظر تفسير السعدي ص٨٥٧٦.

٤ ـ أخرجه احمد ١٦٠/٢، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٥)، وأبو داود (٥١١٢)، والترمذي (٩٤٣) وقال: «حسن غريب».

ففهم هذا الصحابي الجليل من هذا الحديث في حسن معاملة الجار أنه يشمل المسلم والكافر.

وفي ظل هذا التوجيه القرآني عاش أهل الكتاب في جوار المسلمين ينعمون بالأمن والطمأنينة على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

بل لقد وجدوا معاملةً وعدلاً لم يكونوا يجدونها بين أهليهم وبني جنسهم وملَّتهم.

وحين وجدوا تلك المعاملة الحسنة والعدل والخلق من المسلمين أحبوا دين الإسلام، وسارعوا إلى الدخول فيه عن قناعة ويقين.

ومما يوضح هذا المعنى ويجليه غاية الجلاء ما جاء في السيرة النبوية من التعامل مع كافة الطبقات من غير المسلمين، وإليك بيان ذلك بشيء من البسط، الذي يتبين من خلاله شيء من سماحة الإسلام وعدله:

١ ـ التعامل مع طائفة المنافقين: الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر؛ فهؤلاء كان ـعليه الصلاة والسلامـ يعاملهم بما يشبه معاملة المهتدين من الرحمة، والرفق، والإحسان، ومقابلة الإساءة بالعفو أو الإحسان؛ فكان يعاملهم على ظواهرهم دونما بحث عما تُكِنُّه سرائرهم، وتنطوي عليه دخائل نفوسهم.

ويشهد لذلك حوادثُ كثيرةٌ، ومن أجلاها مواقفه العظيمة مع رأس المنافقين عبدالله بن أُبَيٍّ بنِ سلول الذي آذى النبيﷺ أيما أذية؛ حيث آذاه في بيته كما في قصة الإفك ـ فهو الذي تولى كبره، وأشاع قالة السوء عن عائشة ـرضي الله عنهاـ.

وهو الذي رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد، فخذل النبيﷺ في أحرج أوقاته، وهو الذي قال ـكما أخبر الله عز وجل عنهـ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ (المنافقون:٨).

وهو صاحب المواقف المشهورة بالخزي والشنار.

هذا الرجل الذي كان من شأنه ما كان لما مات طلب ابنُه من النبيﷺ قميصه؛ ليكفنه فيه؛ تطهيراً له؛ فأعطاه قميصه كفناً لزعيم المنافقين!

أرأيت أكرم من هذا الصنيع؟ وهل وقف الأمر عند هذا الحد؟

لا، بل مشى -عليه الصلاة والسلام- إلى قبره، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب إليه عمر بن الخطابﷺ وقال: أتصلي على ابنِ أُبيٍّ وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ يعدد عليه قوله، فتبسم رسول اللهﷺ وقال: «**أخِّر عني يا عمرُ**».

فلما أكثر عليه قال: «**إني خيِّرت فاخترت؛ لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها**».

وذلك إشارة إلى قوله -تعالى- في المنافقين: ﴿**ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ**﴾ (التوبة: ٨٠).

ففي الخيار بين أن يستغفر أو لا يستغفر نزعت به طبيعته الرحيمة إلى الاستغفار لأعدائه.

قال عمر بن الخطاب في نهاية الحديث: «فصلى عليه رسول اللهﷺ ثم انصرف؛ فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ**﴾ (التوبة: ٨٤).

قال: فعجبت بَعْدُ من جرأتي على رسول اللهﷺ يومئذٍ، والله ورسوله أعلم».[1]

فهذه مواقفه مع زعيم المنافقين؛ فما ظنك بمن دونه؟

٣- طائفة المخالفين المسالمين: فهؤلاء يحرص على هدايتهم، ويلقاهم بالأدب الجميل، ويقسط إليهم، ولا يهضم لأحد منهم حقًّا، ويأخذ فيهم بأدب قوله -تعالى-: ﴿**لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن**

١ - انظر صحيح البخاري (١٣٦٦).

دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ومنها ما جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلم**».

فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأَسْلَمَ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[1].

ثم إن حسن معاملته -عليه الصلاة والسلام- للمخالفين الذين دخلوا معه في عهده، أو رضوا بأن يعيشوا تحت راية الإسلام - من أوضح الشواهد على سماحة الدين الحنيف وبنائه على رعاية قاعدتي الحرية وتوطيد السلام؛ فراية الإسلام صالحة لأن تخفق على رؤوس أمم مختلفة في عقائدها، متفاوتة على مرافق حياتها.

وقد جرى أمراء الإسلام العادلون على هذه السيرة في معاملة أهل الذمة؛ فكانوا ينصحون لنوابهم بالعدل، ويخصون أهل الذمة في نصيحتهم بالذكر.

وأحسن مثل على هذا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يومئذ الوالي على مصر.

ومما جاء في هذا الكتاب: «وإن معك أهلَ ذمةٍ وعهد، وقد وصى رسول الله ﷺ بهم»[2].

ومنه «وقد قال ﷺ: «**من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة**»[3].

---

١ ـ البخاري (١٣٥٦).

٢ ـ كنز العمال، للهندي (١٤٣٠٤) وهو في جامع الأحاديث للسيوطي -بسند عمر بن الخطاب- ٢١١/٢٨.

٣ ـ أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٥٢) بلفظ: «**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ - فأنا حجيجه يوم القيامة**».

احذر يا عمرو أن يكون رسول اللهﷺ لك خصماً؛ فإنه من خاصمه خصمه»[١].

ومن الأحاديث الثابتة في هذا الصدد قولهﷺ: «**من قذف ذميًّا حُدَّ له يوم القيامة بسياط من نار**»[٢].

فانظروا إلى مكانة العهد في نظر الإسلام، وزنوها بمعاهدات يأخذ فيها بعض الأقوياء على أنفسهم احترام حقوق شعب إسلامي حتى إذا أمسكوا بناصيته لم يستحيوا أن يعبثوا بالأرواح، وتجول أيديهم في الأموال، ويعملوا جهدهم على أن يقلبوهم إلى جحود بعد إيمان، ويغضبون بعد هذا كله على من يسميهم أعداء الإنسانية، وقابضي روح الحرية.

لقد أدرك فقهاء الإسلام رعايةَ شارعِ الإسلامِ لأهل الذمة، وحرصَه على احترام حقوقهم؛ فاستنبطوا من أصوله أحكاماً جعلوا المسلم وغير المسلم فيها على سواء.

ومن هذه الأحكام أنهم أجازوا للمسلم أن يوصي أو يقف شيئاً من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة، وتكون هذه الوصية أو الوقف أمراً نافذاً.

ولما قالﷺ: «**لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض**[٣]» قالوا: البيع على بيع غير المسلم الداخل في ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم.

والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم: كلاهما حرام.

وإذا ذكر الفقهاء آداب المعاشرة نبهوا على حقوق أهل الذمة، وندبوا إلى الرفق بهم، واحتمال الأذى في جوارهم، وحفظ غيبتهم، ودفع من يتعرض لأذيتهم.[٤]

---

١ ـ انظر كنز العمال (١٤٣٠٤) وسنن أبي داود (٣٠٥٢).

٢ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥).

٣ ـ أخرجه مسلم (١٤١٢).

٤ ـ انظر رسائل الإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، ص١٢٠ـ١٢٢، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ص١٠٣.

قال شهاب الدين القرافي رحمه الله في كتاب الفروق: «إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا؛ لأنهم في جوارنا، وفي خفارتنا وذمة الله -تعالى- وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو أي نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك - فقد ضيع ذمة الله -تعالى- وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام.

وكذلك حكى ابن حزم رحمه الله في مراتب الإجماع: أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه - وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك؛ صوناً لمن هو في ذمة الله -تعالى- وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة».[1]

٤- طائفة المخالفين المحاربين: فهؤلاء يخرج لهم -عليه الصلاة والسلام- في مظهر الحزم والاحتراس، ويدفعهم بالتي هي أحكم وأعدل؛ فيرفق بهم إن كان هناك موضع للرفق، ويأخذ فيهم بسنة الحزم إن طغى بهم الشر، ولم يزدهم الرفق إلا تمرداً.[2]

---

١ - الفروق للقرافي ١٤/٣، وانظر أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، لنمر محمد الخليل نمر ص١٢٧-١٦١، وأهل الذمة في الحضارة الإسلامية، لحسن المِمّي ص١٠١-١٠٥، وحقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية د.علي بن عبدالرحمن الطيار.

٢ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص١٠٣.

الفصل الرابع

نظام الأسرة في الإسلام

وتحته: تمهيد:

المبحث الأول: مكانة المرأة في الإسلام

المبحث الثاني: الزواج في الإسلام

المبحث الثالث: الطفل في الإسلام

المبحث الرابع: بر الوالدين ومنزلتهما

المبحث الخامس: الأبناء في الإسلام حقوق وواجبات

تمهيد

البيت هو المدرسة الأولى للأولاد، وفي الأسر الكريمة الراشدة التي تقوم على دعائم المحبة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى ـ ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

وفي تلك الأسر الطيبة تحفظ الحقوق، وتصان الكرامات، وترفرف السعادة.

ولقد حاط الإسلام البيت المسلم بعناية تامة، فحاط الزوجية بحقوق تجعلها في ألفة صادقة، وعيشة راضية، وكفل للوالدين، والأولاد كافة الحقوق، وناط بكل فرد من أفراد الاسرة المسلمة أمانة يسأل عن رعايته لها بين يدي رب العالمين.

وفيما يلي من مباحث بيان لشيء من نظام الأسرة في الإسلام.

المبحث الأول: مكانة المرأة في الإسلام

المطلب الأول: تكريم الإسلام للمرأة

لقد رفع الإسلام مكانة المرأة، وأكرمها بما لم يكرمها به دين سواه؛ فالنساء في الإسلام شقائق الرجال، وخير الناس خيرهم لأهله؛ فالمسلمة في طفولتها لها حق الرضاع، والرعاية، وإحسان التربية، وهي في ذلك الوقت قرة العين، وثمرة الفؤاد لوالديها وإخوانها.

وإذا كبرت فهي المعززة المكرمة، التي يغار عليها وليها، ويحوطها برعايته، فلا يرضى أن تمتد إليها أيدٍ بسوء، ولا ألسنةٌ بأذى، ولا أعينٌ بخيانة.

وإذا تزوجت كان ذلك بكلمة الله، وميثاقه الغليظ؛ فتكون في بيت الزوج بأعز جوار، وأمنع ذمار، وواجب على زوجها إكرامها، والإحسان إليها، وكف الأذى عنها.

وإذا كانت أماً كان برُّها مقروناً بحق الله -تعالى- وعقوقها والإساءة إليها مقروناً بالشرك بالله، والفساد في الأرض.

وإذا كانت أختاً فهي التي أُمر المسلم بصلتها، وإكرامها، والغيرة عليها.

وإذا كانت خالة كانت بمنزلة الأم في البر والصلة.

وإذا كانت جدة، أو كبيرة في السن زادت قيمتها لدى أولادها، وأحفادها، وجميع أقاربها؛ فلا يكاد يرد لها طلب، ولا يُسَفَّه لها رأي.

وإذا كانت بعيدة عن الإنسان لا يدنيها قرابة أو جوار كان لها حق الإسلام العام من كف الأذى، وغض البصر، ونحو ذلك[1].

---

١ - انظر أحكام القرآن لابن العربي ١/٢٥٣، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٩، ٣٢، وزاد المعاد لابن القيم ٢/٣٠٢، وبدائع الفوائد ٣/١٥١-١٥٢، وبدائع الصنائع ٤/٢٣، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/٤١٥-٤٢٣، وأحكام الزواج للأشقر ص ٤٣، و ٤٩.

وما زالت مجتمعات المسلمين ترعى هذه الحقوق حق الرعاية، مما جعل للمرأة قيمة واعتباراً لا يوجد لها عند المجتمعات غير المسلمة.

ثم إن للمرأة في الإسلام حق التملك، والإجارة، والبيع، والشراء، وسائر العقود، ولها حق التعلم، والتعليم، بما لا يخالف دينها، بل إن من العلم ما هو فرض عين يأثم تاركه ذكراً أم أنثى.

بل إن لها ما للرجال إلا بما تختص به من دون الرجال، أو بما يختصون به دونها من الحقوق والأحكام التي تلائم كُلاًّ منهما على نحو ما هو مفصل في مواضعه[1].

ومن إكرام الإسلام للمرأة أن أمرها بما يصونها، ويحفظ كرامتها، ويحميها من الألسنة البذيئة، والأعين الغادرة، والأيدي الباطشة؛ فأمرها بالحجاب والستر، والبعد عن التبرج، وعن الاختلاط بالرجال الأجانب، وعن كل ما يؤدي إلى فتنتها.

ومن إكرام الإسلام لها: أن أمر الزوج بالإنفاق عليها، وإحسان معاشرتها، والحذر من ظلمها، والإساءة إليها[2].

بل ومن المحاسن ـ أيضاً ـ أن أباح للزوجين أن يفترقا إذا لم يكن بينهما وفاق، ولم يستطيعا أن يعيشا عيشة سعيدة؛ فأباح للزوج طلاقها بعد أن تخفق جميع محاولات الإصلاح، وحين تصبح حياتهما جحيماً لا يطاق.

وأباح للزوجة أن تفارق الزوج إذا كان ظالماً لها، سيئاً في معاشرتها، فلها أن تفارقه على عوض تتفق مع الزوج فيه، فتدفع له شيئاً من المال، أو تصطلح معه على شيء معين ثم تفارقه[3].

---

١ ـ انظر نيل الأوطار للشوكاني ٤١٨/٦ .

٢ ـ انظر المغني لابن قدامة ٣٤٧/١١ ، والمبسوط للسرخسي ١٨٠/٥ ، وبداية المجتهد لابن رشد ٥٣/٢ ، وحاشية ابن عابدين ٥٧٢/٣ .

٣ ـ انظر مجموع الفتاوى ٣٢ ، ٧٤ ، ٢٨١ ، ونداء للجنس اللطيف لمحمد رشيد رضا ص ٤٤ـ٥٠ ، والطلاق والعدَّة بين التشريع والواقع لمحمود بزال ص ٢٦ـ٢٧ .

ومما يؤكد ما قيل في الأسطر الماضية كثرة النصوص الواردة في شأن المرأة وإعلاء قيمتها سواء كانت أمًّا، أو زوجة، أو أختاً، أو غير ذلك.

وهذا ما سيتبين في المطلبين الآتيين:

المطلب الثاني: آيات من القرآن الكريم في شأن المرأة

لقد نوَّه القرآن بشأن المرأة، وأكثر من ذكرها، وبيان مكانتها، وحقوقها، وهناك سورة من طوال سور القرآن اسمها النساء.

وفيما يلي ذكرٌ لبعض الآيات القرآنية الواردة في شأن النساء.

قال الله -تعالى-: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ (النساء: ٣٦).

وقال -تعالى-: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقال -عز وجل-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ (الإسراء).

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤).

وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

وقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

وقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ (النساء: ٣٤).

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨).

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (النحل: ٧٢).

وقال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ (محمد: ١٩).

المطلب الثالث: أحاديث نبوية في شأن المرأة

السنة النبوية حافلةٌ بذكر النساء، وما لهن من الحقوق، وما عليهن من الواجبات.

وفيما يلي بيان لشيء مما جاءت به السنة النبوية في ذلك الشأن.

١ـ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ **قال: «أمك»** قال: ثم من؟ **قال: «أمك»** قال: ثم من؟ **قال: «أمك»** قال ثم من؟ **قال: «أبوك»**[1].

٢ـ قال النبي ﷺ: **«اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»**[2].

٣ـ وقال ﷺ: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها الذي أنفقته على أهلك»**[3].

٤ـ وقال ﷺ: **«ابدأ بنفسك، فتصدق عليها، فإن فَضُل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء، فهكذا وهكذا»**[4].

٥ـ وقال ﷺ: **«استوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضِلَع أعوج، وإن أعوج شيء في الضِّلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٢٦) ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٩٩٥).

(٤) أخرجه مسلم (٩٩٧).

أعوج، استوصوا بالنساء خيراً»[١].

٦ـ وقال ﷺ: «**لا يَفْرَك ـ أي يبغض ـ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر**» رواه مسلم.

٧ـ وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وخياركم خياركم لنسائهم**» أخرجه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح.

٨ـ وقال ﷺ: «**إن من أشر الناس منزلةً يوم القيامة الرجلَ يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**» رواه مسلم.

٩ـ وقال: «إني أحرج عليكم حق الضعيفين: اليتيم والمرأة» أخرجه أحمد، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

١٠ـ وقال ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**» أخرجه أحمد، وابن ماجه، والترمذي، وأبو داود، وصححه أحمد شاكر في تحقيق الترمذي.

١١ـ وقال ﷺ: «**لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يضاجعها**».

١٢ـ وقال ﷺ: «**من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل**»[٢].

١٣ـ وقال ﷺ: «**لا تُنكح الأيِّم حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تستأذن**».
قالوا: يا رسول الله! وكيف إذنها؟ قال: «**أن تسكت**»[٣].

١٤ـ وقال ﷺ: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن ستراً له من النار**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٣) ومسلم (١٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٢٣) والترمذي (١١٤١) وأبو داوود (٢١٣٥) وقال الألباني في صحيح أبي داود (١٨٥١): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٤٣) ومسلم (١٤١٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٥٢) ومسلم (٢٦٢٩).

١٥ـ وقال ﷺ: «**لا يكون لأحد ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان، فيتقي الله فيهن، ويحسن إليهن إلا دخل الجنة**»[١].

المطلب الرابع: نظرة في منزلة المرأة عند النظم الأخرى

مر في المطالب الماضية شيء من مكانة المرأة في دين الإسلام؛ فأين النظم الأرضية من نظم الإسلام العادلة السماوية، فالنظم الأرضية لا ترعى للمرأة كرامتها، حيث يتبرأ الأب من ابنته حين تبلغ سن الثامنة عشرة أو أقل؛ لتخرج هائمة على وجهها تبحث عن مأوى يسترها، ولقمة تسد جوعتها، وربما كان ذلك على حساب الشرف، ونبيل الأخلاق.

وأين إكرامُ الإسلام للمرأة، وجَعْلُها إنساناً مكرماً من الأنظمة التي تعدها مصدر الخطيئة، وتسلبها حقها في الملكية والمسؤولية، وتجعلها تعيش في إذلال واحتقار، وتعدها مخلوقاً نجساً؟

وأين إكرام الإسلام للمرأة ممن يجعلون المرأة سلعة يتاجرون بجسدها في الدعايات والإعلانات؟

وأين إكرام الإسلام لها من الأنظمة التي تعد الزواج صفقة مبايعة تنتقل فيه الزوجة؛ لتكون إحدى ممتلكات الزوج؟ حتى إن بعض مجامعهم انعقدت؛ لتنظر في حقيقة المرأة وروحها أهي من البشر أو لا؟![٢]

وهكذا نرى أن المرأة المسلمة تسعد في دنياها مع أسرتها وفي كنف والديها، ورعاية زوجها، وبر أبنائها سواء في حال طفولتها، أو شبابها، أو هرمها، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (١١٤٠٢) وقال عنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٧): «حسن».

(٢) انظر ماذا يريدون من المرأة لعبدالسلام بسيوني ص ٦٣ـ٦٦، و١٢٠، ومن أجل تحرير حقيقي للمرأة لمحمد رشيد العويد ص١٤، و ١٦ـ٢١، و ٤٨ـ٤٩، والمجتمع العاري بالوثائق والأرقام ص ٥٦ـ٥٧.

حال فقرها أو غناها، أو صحتها أو مرضها.

وإن كان هناك من تقصير في حق المرأة في بعض بلاد المسلمين أو من بعض المنتسبين إلى الإسلام ـ فإنما هو بسبب القصور والجهل، والبُعد عن تطبيق شرائع الدين، والوزر في ذلك على من أخطأ، والدين براء من تبعة تلك النقائص.

وعلاج ذلك الخطأ إنما يكون بالرجوع إلى هداية الإسلام وتعاليمه؛ لعلاج الخطأ.

هذه هي منزلة المرأة في الإسلام على سبيل الإجمال: عفة، وصيانة، ومودة، ورحمة، ورعاية، وتذمم إلى غير ذلك من المعاني الجميلة السامية.

أما الحضارة المعاصرة فلا تكاد تعرف شيئاً من تلك المعاني، وإنما تنظر للمرأة نظرة مادية بحتة، فترى أن حجابها وعفتها تخلف ورجعية، وأنها لابد أن تكون دمية يعبث بها كل ساقط؛ فذلك سر السعادة عندهم.

وما علموا أن تبرج المرأة وتهتكها هو سبب شقائها وعذابها.

وإلا فما علاقة التطور والتعليم بالتبرج، والاختلاط، وإظهار المفاتن، وإبداء الزينة، وكشف الصدور، والأفخاذ، وما هو أشد؟!

وهل من وسائل التعليم والثقافة ارتداء الملابس الضيقة والشفافة والقصيرة؟!

ثم أي كرامة حين توضع صور الحسناوات في الإعلانات والدعايات؟!

ولماذا لا تروج عندهم إلا الحسناء الجميلة، فإذا استنفدت السنوات جمالها وزينتها أهملت ورميت كأي آلة انتهت مدة صلاحيتها؟!

وما نصيب قليلة الجمال من هذه الحضارة؟ وما نصيب الأم المسنة، والجدة، والعجوز؟

إن نصيبها في أحسن الأحوال يكون في الملاجىء، ودور العجزة والمسنين؛

حيث لا تُزار ولا يُسأل عنها.

وقد يكون لها نصيب من راتب تقاعد، أو نحوه، فتأكل منه حتى تموت؛ فلا رحم هناك، ولا صلة، ولا ولي حميم[(١)].

أما المرأة في الإسلام فكلما تقدم السن بها زاد احترامها، وعظم حقها، وتنافس أولادها وأقاربها على برها ـ كما سبق ـ لأنها أدَّت ما عليها، وبقي الذي لها عند أبنائها، وأحفادها، وأهلها، ومجتمعها.

أما الزعم بأن العفاف والستر تخلف ورجعية ـ فزعم باطل، بل إن التبرج والسفور هو الشقاء والعذاب، والتخلف بعينه، وإذا أردت الدليل على أن التبرج هو التخلف فانظر إلى انحطاط خصائص الجنس البشري في الهمج العراة الذين يعيشون في المتاهات والأدغال على حال تقرب من البهيمية؛ فإنهم لا يأخذون طريقهم في مدارج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا.

ويستطيع المراقب لحالهم في تطورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقدموا في الحضارة زادت نسبة المساحة الكاسية من أجسادهم، كما يلاحظ أن الحضارة الغربية في انتكاسها تعود في هذا الطريق القهقرى درجة درجة حتى تنتهي إلى العري الكامل في مدن العراة التي أخذت في الانتشار بعد الحرب العالمية الأولى، ثم استفحل داؤها في السنوات الأخيرة[(٢)].

وهكذا تبين لنا عظم منزلة المرأة في الإسلام، ومدى ضياعها وتشردها إذا هي ابتعدت عن الإسلام.

هذه نبذة يسيرة، وصور موجزة من تكريم الإسلام للمرأة.

---

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها ص ٨٩ـ٩٠، ووحي القلم للرافعي ١/٢٠٤، ورسائل الإصلاح ٢/٢٢٣.

(٢) انظر تلبيس مردود في قضايا حية د. صالح بن حميد ص٦٥ـ٦٨، وحصوننا مهددة من داخلها ص ٨٩ـ٩٠.

المبحث الثاني: الزواج في الإسلام

تمهيد

الزواج في الإسلام رباط مقدس، وميثاق غليظ، تسوق إليه الفطر القويمة، وتدعو إليه الشرائع الحكيمة.

وما زالت نفوس البشر تنساق فيه مع الفطرة، وتجيب به داعي الحكمة؛ فبالزواج يحصل السكن، وتكون المودة والرحمة، ويُلَمُّ الشَّعث، ويجتمع القلب، وتُبتغى الذرية.

ثم إن طيب الحياة ومتعتها يتحققان في زوجيَّةٍ سعيدةٍ، وسعادةُ الزوجيةِ أن يكون الزوجان على دين صحيح، وخلق سجيح، وأن يجمعا إلى ذلك صفاء الود، والقيام بالحقوق، ونصح كلٍّ واحدٍ منهما لصاحبه.

وإذا قام كل من الزوجين بواجبه تماماً على أحسن ـ حلَّت الأفراح والمسرات، وزالت أو قلَّت المشكلات، وكان لذلك أبلغ الأثر في صلاح الأسرة، وقوة الأمة؛ فصلاح البيوت صلاح للأمة، وصلاح الأمة هو السبب الأعظم لعزتها، وسعادتها، وكرامتها.

ومن أجل ذلك جاء الإسلام بمراعاة رابطة الزوجية، وتقويمها، وتمكينها، وإحاطتها بما يحفظ وجودها، ويعلي منارها[1].

والحديث في هذا المبحث سيتناول شيئاً من مشروعية الزواج في الإسلام، وحِكَمِه، وأحكامه.

---

(١) انظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ١/١٧٣ـ١٧٤، وإصلاح المجتمع للبيحاني ص٢٨٣، وتأخر سن الزواج د. عبدالرب نواب الدين ص ١٩ـ٣٤.

المطلب الأول: مشروعية الزواج في الإسلام

الزواج مشروع في دين الإسلام، وأقل درجات المشروعية الإباحة.

بل إن المتأمل في أدلة الشرع يجدها لا تدل على الإباحة فحسب، بل تدل على الاستحباب أو الوجوب.

وقد استدل القائلون بالفرضية، أو الوجوب العيني أو الكفائي بالنصوص الآمرة بالنكاح كقوله -تعالى-: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء: ٣).

وقوله: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ (النور: ٣٢).

وقوله ﷺ «**يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»[١].

فالأمر عندهم للوجوب، ولم يأتِ صارف يصرفه عن الوجوب، وقد تأكد الوجوب من إخبار الرسول ﷺ أن النكاح من سنته، ومن إنكاره -عليه الصلاة والسلام- على من ترك النكاح وعزم على التبتل[٢].

وذهب جمهور أهل العلم إلى استحباب النكاح للتائق إليه الذي لا يخشى على نفسه الوقوع في الزنا؛ فإن كان توقانه شديداً بحيث يخشى على نفسه الوقوع في الزنا وجب عليه الزواج متى قدر على تكاليفه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

(٢) انظر أحكام الزواج د. عمر الأشقر ص٢٨.

(٣) انظر حاشية ابن عابدين ٧/٣، وبدائع الصنائع ٢٢٨/٢، وكفاية الأخيار للحسيني ٦٧/٥ وروضة الطالبين ١٨/٧، وصحيح مسلم بشرح النووي ٥٢٢/٩-٥٢٣، وشرح الزركشي على مختصر الخرقي للزركشي تحقيق الشيخ عبدالله بن جبرين ٥/٥-٨ ومغني المحتاج ١٢٥/٣، ومختصر المزني ٢٥٥/٣، والكافي في فقه أهل المدينة لابن عبدالبر ٥١٩/٢، وجواهر الإكليل للآبي ٤٧٤/١، وأحكام الزواج ص٣٢.

المطلب الثاني: حِكَم الزواج في الإسلام

حِكَم الزواج في الإسلام كثيرة جدًّا، ومن تلك الحكم ما يلي:

أ- أنه إجابة لأمر الله ورسوله ﷺ قال -تعالى-: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ (النور: ٣٢).

وقال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣).

وقال النبي ﷺ «**يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج**»[١]

ب- حصول الأجر والثواب: قال النبي- عليه الصلاة والسلام-: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»[٢].

ولقد قرر كثير من أهل العلم أن الاشتغال بالنكاح أفضل من التخلي لنوافل العبادات؛ لما يشتمل عليه النكاح من المصالح الكثيرة[٣].

جـ - حصول العفاف: فإذا نظرت إلى هناك فضيلة يقال لها العفاف- فالزواج من أعظم ما يعين على التحلي بها؛ فالزواج وسيلة من وسائل الفضائل، وكثيراً ما تأخذ الوسائل أحكام المقاصد في نظر الشارع، وعرف الناس.

د- بقاء النسل، والمحافظة على النوع الإنساني: فإذا نظرت إلى أن حكمة الله قد اقتضت بقاء النسل لإقامة الشرائع، وعمران الكون، وإصلاح الأرض، وأن النسل الصالح لا يبقى إلا بالزواج - رأيت كيف كان الزواج وسيلة إلى تحقيق أمور عظيمة أحب الله أن تكون، وحبب الناس للقيام عليها.

هـ- حصول السكن والمودة والرحمة: أوليس الزواج يكسب الرجل رفيقة تخلص له ودها، وتشمل منزله برعايتها؟

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٣) انظر حاشية ابن عابدين ص٣٣، وأحكام الزواج ص١٧-١٩.

ومثل هذه الرفيقة التي تحمل حبه الطاهر، وتعمل لتدبير منزله من غير مِنَّةٍ ولا تباطؤ- لا تتمثل إلا فيمن تربطه بها صلة الزواج.

قال-تعالى-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

و- **حصول القرابة والمودة بين الناس:** فليس الزواج يكسب صلة مقصورة على الزوجين فحسب، بل تمتد هذه الصلة من الزوجين لأسرتيهما، فتكون حلقة واسعة في سلسلة اتحاد الأمة.

وللصلات الخاصة كالقرابة والصهر أثر في التناصر كبير.

ز- **حصول نعمة الولد:** فالزواج يكسب الزوج ولداً إن يُحْسِنْ تربيته كان له قرة عين في حياته، وذِكْراً طيباً بعد وفاته.

ح- **سلامة المجتمع من الانحلال الخلقي**، والأمراض الفتاكة التي تنشأ عن الفوضى الخلقية.

ط- **حصول الغنى وانتفاء الفقر:** فالزواج سبب للغنى ونفي الفقر.

وهذا من لطائف النكاح وأسراره التى تخفي على كثير من الناس، وخصوصاً من يحجمون عن الزواج بحجة الفقر.

ومصداق ذلك قوله-تعالى-: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٢).

ومصداقه قول النبيﷺ: «**ثلاثة على الله عونُهم: الناكح يريد العفاف، والمُكاتَب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله**»[1].

(١) أخرجه أحمد ٢/٢٥١ و ٤٢٧ والترمذي (١٦٥٥) والنسائي ٦/٦١ وابن ماجه (٢٥١٨) عن أبي هريرة وقال الترمذي: «حديث حسن».

وبالجملة فللزواج مصالح تكثر بكثرته، وتقل بقلته، وتفقد بفقده، وقد عَرَفْت قيمة هذه المصالح ومكانتها في إعلاء الدين، وبسط أجنحة العمران؟، وتخفيف متاعب الحياة.

المطلب الثالث: في أحكام الزواج -الواجبات والحقوق-

الزواج في الإسلام يقوم على واجبات وحقوق من قِبَل الزوج والزوجة؛ فلكل منهما حقوق، وعليه واجبات.

كما أن هناك أحكاماً لا بد من مراعاتها، والأخذ بها في شأن الزواج سواء قبل الزواج أو بعده، فمن ذلك ما يلي:

١ـ أنه لا يجوز إرغام المرأة على الزواج بمن لا تريد: فقد قرر أهل العلم أنه لايجوز إرغام المرأة على الزواج بمن تقدم لخطبتها، بل لا بد من موافقتها على ذلك بكراً كانت أم ثيباً؛ فليس لوليها أن يكرهها على الزواج بمن لا تريد.

وقد استدل أهل العلم على عدم صحة إكراه الولي للثيب البالغ من الزواج بما رواه البخاري ومسلم عن خنساء بنت خذام الأنصارية: «أن أباها زوَّجها وهي ثيب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها»[1]

وبما رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ **قال: أن تسكت**»[2].

٢ـأنه لا يجوز أن يخطب الرجل على خطبة أخيه: قال النبي ﷺ: «**لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض**»[3].

---

(١) البخاري (٥١٣٨) ومسلم (١٤١٩).

(٢) البخاري (٥١٣٦).

(٣) رواه مسلم (١٤١٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه**».

زاد البخاري: «**حتى ينكح أو يترك**».

وفي رواية عن مسلم: «**حتى يذر**»(١).

والحكمة من وراء النهي عن الخطبة على الخطبة أن هذا الفعل يورث العداوة و البغضاء، كما يؤدي إلى تزكية المرء نفسه، وذم غيره، كما أن في ذلك عدواناً وظلماً؛ فالخطبة على الخطبة كالبيع على البيع، والشراء على الشراء، وذلك مما يولد الكراهية، ويوهي حبال المودة.

والإقدام على الخطبة سواء علم الخاطب أن المخطوبة أجابت أم لم تجب بعد ـ يحدث مفسدة بين المسلمين.

فإذا أذن الخاطب الأول، أو صرف النظر عن الخطبة، أو رَدَّته المخطوبة ـ فلا إشكال.

أما إذا أجابت الخاطب الأول، أو كانت في مرحلة تردد وتأمل ـ فإن ذلك لا يجوز؛ فإن خطبة الثاني قد تجعلها تعدل عن الأول، وتصرف النظر عنه(٢).

٣ـ أركان عقد النكاح: أركان عقد النكاح هما الإيجاب والقبول(٣).

والمراد بالإيجاب والقبول: الألفاظ التي يُصْدِرُها كلٌّ من العاقدينِ للدلالة على رضاه بالمعقود عليه، وبهما ينعقد النكاح إذا صدرا ممن يَصِحُّ منه عقد النكاح، وهما الخاطب والمخطوبة إذا كان كل منهما أهل لعقد النكاح.

كما يصح صدورهما من وكيل الخاطب، أو المخطوبة(٤).

---

(١) البخاري (٥١٤٢)، ومسلم (١٤١٤).

(٢) انظر أحكام الزواج ص٤٣ـ٤٦.

(٣) انظر الشرح الكبير لابن قدامة ٧/٣٧٠.

(٤) انظر أحكام الزواج ص٨٠.

٤ـ **المهر:** المهر اسم للمال الواجب للمرأة على الرجل بالنكاح.

وقد سماه الله في كتابه: صداقاً، وأجراً، وفريضة[1].

وهو واجب بدلالة الأمر في قوله ـتعالىـ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ النساء: ٤.

والنحلة ما يوهب بطيب نفس من الواهب، وأقوى من النص السابق في الدلالة على الوجوب قوله ـتعالىـ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ النساء: ٢٤.

فقد أمر النص بإيتاء الزوجات أجورهن، والأجور المهور.

٥ـ **النفقة على الزوجة:** من حق الزوجة على زوجها أن ينفق عليها بالمعروف، والمراد بالنفقة ههنا ما يفرض للزوجة على زوجها من مال للسكنى، والطعام، والحضانة، واللباس، وما إلى ذلك مما تصان به حرمة الزوجة من الابتذال، وما تحفظ به صحتها وكرامتها، كل ذلك في حدود الطاقة والوسع.

فإن أعسر الزوج إعساراً تتعذر معه النفقة، واختارت الزوجة فراقه؛ لعدم صبرها عليه فقد ذهب أكثر العلماء إلى أنه يفرق بينهما، وخالف آخرون.

والذي يظهر من أصول الشريعة أن لها الحق في مفارقته؛ دفعاً للضرورة[2].

٦ـ **حسن العشرة للزوجة:** من حق الزوجة على زوجها أن يحسن عشرتها فيهش عند لقائها، ويمازحها ويداعبها؛ تطييباً لقلبها، وإيناساً لها في وحدتها، وإشعاراً لها بمكانتها من نفسه، وقربها من قلبه.

ومن حسن المعاشرة أن يعتني الزوج بمحادثة زوجته، فيصغي لها إذا

---

(١) انظر روضة الطالبين للنووي ٧/٢٤٩.

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيم ٥/٥١١ـ٥٢٢، وفتح الباري ٩/٤١٨ـ٤٢١، ونيل الأوطار للشوكاني ٦/٧٦٢ـ٧٦٦، والمسؤلية في الإسلام ص١٢٦.

تحدثت، ويظهر العناية بحديثها، فلا يتشاغل عنها، ولا يقوم قبل أن تكمل حديثها إلا بعد إذنها؛ فذلك من كمال الأدب مع كل أحد فكيف بالزوجة وهي من أحق الناس بالبر؟.

ومن حسن العشرة للزوجة أن يتجمل الرجل لها، فذلك من حقوقها، قال الله -تعالى-: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ** ﴾ البقرة: ٢٢٨.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية: «إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله -تعالى- يقول: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ»[(١)].

ومن حسن العشرة وحق الزوجة على زوجها حفظ سر الفراش، جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: «**إن من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة - الرجلَ يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»[(٢)].

ومما يترخص فيه في إفشاء سر الفراش إذا احتاج الإنسان للفتيا أو العلاج، ونحو ذلك من المقاصد الصحيحة المعقولة؛ فله أن يتحدث عن أمر الفراش بما تدعو إليه الحاجة.

٧- حسن عشرة الزوجة لزوجها: من حق الزوج على زوجته أن تعترف له بنعمته، وأن تشكر له ما يأتي به من طعام، ولباس، وهدية ونحو ذلك مما هو في حدود قدرته، وأن تدعو له بالعوض والإخلاف، وأن تظهر الفرح بما يأتي به؛ فإن ذلك يفرحه، ويبعثه إلى المزيد من الإحسان.

كما يحسن بالزوجة أن تستحضر أن الزوج سبب الولد، والولدُ من أجل النعم.

ومن حق الزوج على زوجته أن تقوم على خدمته، من نحو صناعة الطعام،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٣٨.

(٢) مسلم (١٤٣٧).

وغسيل الثياب، وتنظيف المنزل ونحو ذلك حق على الزوجة.

وهذا من الحق الواجب على القول الصحيح.

والحجة في ذلك ما جاء في حديث عمة حصين بن محصن حين سألها النبيﷺ: «**أذات بعل أنت؟**» قالت: نعم، قال: «**فأين أنت منه؟**» قالت: ما آلوا إلا ما عجزت عنه، قال: «**فانظري أين أنت منه؛ إنما هو جنتك ونارك**»[1].

ومع ما تقرر من وجوب قيام المرأة بخدمة زوجها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ـ فإنه ليس للزوج أن يكلفها ما لا تطيق، بل عليه أن يرفق بها، ويعينها على شؤون بيتها، كما كان رسول اللهﷺ يفعل.

تقول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سُئلت: ما كان النبيﷺ يصنع في بيته؟ قالت: يكون في مهنة أهله ـ تعني خدمتهم ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[2].

وفي رواية أخرى أنها سُئلت: ما كان رسول اللهﷺ يعمل في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته»[3].

وإذا لم يقم الزوج بذلك فلا أقل من أن يسمع زوجته كلمة ثناء وأن يريها ابتسامة رضا[4].

---

(١) أخرجه أحمد ٣٤١/٤ و ٤١٩/٦، وابن أبي شيبة ٣٠٤/٤، والحميدي (٣٥٥)، والنسائي في الكبرى (٨٩٦٢)، والبيهقي ٢٩١/٧، والطبراني في الكبير ١٨٣/٢٥، والحاكم ١٨٩/٢، وقال: صحيح، وأقره الذهبي، وجود إسناده المنذري في الترغيب ٥٣/٣.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٩).

(٣) أخرجه أحمد ٢٥٦/٦، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، وابن حبان (٥٦٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٢٠).

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتاب: من أخطاء الأزواج لمحمد الحمد ص ٤٠ـ٤١.

المبحث الثالث: الطفل في الإسلام

للطفل في دين الإسلام مكانة عالية، حيث أَوْلَتْهُ الشريعة عناية تامة، وحاطته بحقوق تكفل له السعادة، والعيشة الكريمة، وتنأى به عن الشقاء والضياع.

وفيما يلي بيان لشيء من ذلك بما يسمح المقام:

أولاً: جاء التحذير الشديد من بعض العادات الجاهلية التي كان بعض العرب يمارسها قبل الإسلام من قتل الأطفال؛ خشية الفقر.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ الإسراء: ٣١.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «هذه الآية الكريمة دالة على أن الله -تعالى- أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته؛ لئلا تكثر عيلته، فنهى الله -تعالى- عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾.

وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ الأنعام: ١٥١، أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ الأنعام: ١٥١.

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً»[1].

وجاء في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنهما- قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟

قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك؛**

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٦٣.

خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**»[١].

ثانياً: ما جاء في الشريعة من استحباب طلب الولد: قال الله -تعالى-: ﴿**فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ**﴾ البقرة: ١٨٧.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير قوله -تعالى-: ﴿**وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ**﴾ قال: «هو الولد».

وقال النبي ﷺ: «**تزوجوا الولود الودود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[٢].

ثالثاً: أن الشرع جاء بالنهي عن التسخط بالبنات: حيث بيَّن الله -عز وجل- في كتابه أن التسخط بالبنات من أخلاق أهل الجاهلية الذين ذمهم الله بقوله: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ النحل: ٥٨.

رابعاً: أن الشرع أوجب على الأم إرضاع طفلها، كما أوجب على الأب أن ينفق على هذه الأم؛ لتتمكن من إرضاع هذا الطفل حتى لو طلقها زوجها في أثناء فترة الرضاع، قال الله -عز وجل-: ﴿**وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ**﴾ البقرة: ٢٣٣.

خامساً: ترتب الثواب الجزيل على حسن تربية الأطفال حتى يكبروا؛ قال النبي ﷺ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا**» وضم أصابعه[٣].

ومعنى قوله: «**من عال جاريتين**»: أي قام عليهما بالمؤونة، والتربية،

---

(١) انظر البخاري (٤٤٨٣) ومسلم (٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣١).

والإصلاح.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن من جِدَتِهِ كن له حجاباً من النار يوم القيامة**»(١).

ومعنى «**من جدته**»: أي من غناه.

بل بيَّن -عليه الصلاة والسلام- أن النفقة على الأهل أعظم أجراً من أي نفقة، قال ﷺ: «**أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله**»(٢).

قال أبو قلابة -أحد رواة الحديث-: «**وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يُعِفُّهم، أو ينفعهم الله به ويغنيهم**».

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً للذي أنفقته على أهلك**»(٣).

سادساً: أن القيام على الأولاد أمانة يسأل عنها الإنسان يوم القيامة؛ فإن أحسن القيام بتلك المسؤولية فله الثواب الجزيل، وإن فرَّط خشي عليه من العقاب، قال النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»(٤).

سابعاً: أن الإسلام أولى اليتيم عناية بالغة: حيث عظم من شأن الاهتمام به،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٦٦٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٧٨) ومسلم (١٨٢٩).

ورغب في الإحسان إليه، وحذّر من الإساءة إليه، وتعنيفه، والنصوص من الكتاب والسنة في هذا السياق لا تكاد تحصى كثرة.

ومن ذلك أن الله -عز وجل- قال في معرض الحديث عن صفات أهل الجنة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ الإنسان: ٨.

وقال -عز وجل- منبهاً إلى مزيد العناية باليتيم: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ الضحى: ٩.

وقال محذراً من أكل مال اليتيم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ النساء: ١٠.

وقال ذاماً من لا يكرم اليتيم: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ الفجر: ١٧.

وقال في حق من يهين اليتيم: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ الماعون.

وقال النبيﷺ مبيناً عظم منزلة كافل اليتيم: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً[1].

ثامناً: أن الإسلام حرَّم قتل الأطفال في الحرب: فلقد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يوصي قواد جيشه، ومن تلك الوصايا قوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تَغلُّو، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**»[2].

إلى غير ذلك من الوصايا في هذا الصدد، والتي سيمر ذكر بعضها عند الحديث عن الجهاد.

تاسعاً: أن الإسلام حرم ظلم الأطفال داخل كيان الأسرة؛ بحيث يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣١).

التعامل مع الأبناء صغاراً وكباراً جارياً على العدل بلا تفضيل أحد على أحد، يقول الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنه: تصدق عليَّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ فانطلق أبي إلى النبي ﷺ لِيُشْهِدَه على صدقتي، فقال له رسول الله ﷺ: «**أفعلتَ بولدك هذا كلهم**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**».

فَرَدَّ أبي تلك الصدقة.

وفي رواية: «**فلا تشهدني؛ فإني لا أشهد على جور**»[١].

والعدل ههنا لا يقتصر على العدل في المال فحسب، بل يشمل العدل في الأمور المعنوية كالعطف، والحنان، والتقريب، وما إلى ذلك.

وبالجملة فإن أحكام الأطفال في الشريعة الإسلامية كثيرة جدًّا؛ فهي شاملة للطفل قبل ولادته إلى أن يشب عن الطوق، ويصبح مكلفاً بالأحكام الشرعية التي تخص البالغين والمكلفين.

وللأطفال حقوق كثيرة كتسميتهم بالأسماء المناسبة، وتعليمهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم، وتجنيبهم ما يضرهم إلى غير ذلك من الأحكام والحقوق التي لا يتسع المقام لذكرها[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (١٦٢٣).

(٢) انظر تفاصيل ذلك في كتاب تحفة المودود في أحكام المولود لابن القيم، والمسؤولية في الإسلام د. عبدالله قاوري ص٩٧ـ١١٩ و١٤٧ـ١٥٣، وتربية الأولاد في الإسلام للشيخ عبدالله علوان، وكتاب مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة د. عدنان باحارث، وحقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية، والإسلام مقارنة بالقانون الدولي د. خالد الشنيبر ص ٤٦٧ـ٤٧٢ .

المبحث الرابع: بر الوالدين، ومنزلتهما

تمهيد: في مفهوم بر الوالدين

بر الوالدين ضد العقوق، قال ابن منظور رحمه الله: «والبر ضد العقوق، والمَبَرَّةُ مثله، وبَرِرْت والدي: بالكسر أَبَرُّه برًّا، وقد برَّ والدَه يَبَرُّه ويَبِره بِرًّا، فَيَبَرُّ على بَرِرْتُ، ويَبِر على بَرَرْتُ».

وقال: «ورجل برٌّ من قوم أبرار، وبارٌّ من قوم بررة، وروي عن ابن عمر أنه قال: إنما سماهم الله أبرارًا؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء.

وقال: كما أن لك على ولدك حقًّا كذلك لولدك عليك حق» [(١)].

المطلب الأول: حق الوالدين ومنزلتهما

حق الوالدين عظيم، ومنزلتهما عالية في الدين؛ فبرّهما قرين التوحيد، وشكرهما مقرون بشكر الله -عز وجل- والإحسان إليهما من أجل الأعمال، وأحبها إلى الكبير المتعال.

قال الله-عز وجل-: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (النساء: ٣٦).

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

ثم إن الأحاديث في هذا السياق كثيرة جدًّا، منها ما رواه ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ: «أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة في**

---

(١) لسان العرب ٤/٥٣.

وقتها» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[(١)].

ثم إن بر الوالدين مما أقرته الفطر السوية، واتفقت عليه الشرائع السماوية، وهو خلق الأنبياء، ودأب الصالحين.

كما أنه دليل على صدق الإيمان، وكرم النفس، وحسن الوفاء.

وبرّ الوالدين من محاسن الشريعة الإسلامية؛ ذلك أنه اعتراف بالجميل، وحفظ للفضل، وعنوان على كمال الشريعة، وإحاطتها بكافة الحقوق.

بخلاف الشرائع الأرضية التي لا تعرف للوالدين فضلاً، ولا ترعى لهما حقًّا، بل إنها تتنكر لهما، وتزري بهما.

وها هو العالم الغربي بتقدمه التكنولوجي شاهد على ذلك؛ فكأن الأم في تلك الأنظمة آلةٌ إذا انتهت مدة صلاحيتها ضُرب بها وجهُ الثرى.

وقصارى ما تَفَتَّقَتْ عنه أذهانهم من صور البر أن ابتدعوا عيداً سنوياً سموه: (عيد الأم).

حيث يُقدِّم الأبناء والبنات في ذلك اليوم إلى أمهاتهم باقات الورد معبرين لهن عن الحب والبرِّ.

هذا منتهى ما توصلوا إليه من البر، يوم في السنة لا غير!

أين الرعاية؟ أو أين الترحم؟ أو أين الوفاء؟!

لا علم لهم بتلك المعاني الشريفة الفاضلة، ولا حظّ لها عندهم.

أما حق الوالدين في الإسلام فقد مرّ بك شيء منه، وليس ذلك فحسب، بل إن الإسلام نهى عن العقوق، وحذر منه أشد التحذير، فهو كبيرة من الكبائر، وهو قرين للشرك.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

ويكفي في ذلك قوله ـتعالىـ: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (الإسراء:٢٣). فما بالك بما فوق كلمة «أف».

والأحاديث في هذا السياق كثيرة جدًّا، ومنها ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**[1]».

المطلب الثاني: الآداب التي ينبغي مراعاتها مع الوالدين

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بآداب كثيرة حال التعامل مع الوالدين، ولقد قرر أهل العلم شيئاً من تلك الآداب التي استنبطوها من الكتاب والسنة، ويكفي في ذلك أن يُسْتَحضرَ في ذلك قول الله ـتعالىـ: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ لقمان: ١٥.

فقوله ـعز وجلـ: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا ﴾ من ألطف ما يكون في الحث على بر الوالدين؛ ذلك أن الصحبة في هذه الآية تقتضي الملازمة، ومن شأن الملازمة الدوام على تقلب الأحوال؛ فالصحبة الطويلة يعتريها الملل، والفتور؛ فإذا استحضر الولد هذا الإرشاد الإلهي علم أن لوالديه حقًّا عظيماً، فيلزم صحبتهما ـ وهما أحق الناس بحسن صحابته ـ بالمعروف.

وذلك يشمل الملاطفة، والمشاورة، والمداراة.

ويشمل كذلك مراعاة أدب المحادثة مع الوالدين؛ لأن طول الصحبة يفضي إلى الملل من جرَّاء تكرار الأحاديث، والوقائع؛ فيسمعها الولد بروايات كثيرة متنوعة، مما يضجره، ويجلب له السآمة؛ فإذا لزم حسن الصحبة لم يظهر الملالة سواء خصه الوالد بالحديث، أو كان حاضراً مع أناس يتحدث إليهم الوالد، حتى لو كان الحديث معلوماً للولد، مكروراً على سمعه.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٥).

ويشمل كذلك الإكرام بالمال خصوصاً إذا كان الوالد محتاجاً، فكم من الأولاد مَنْ يُقصِّر في هذا الحق إما تكاسلاً، أو غفلةً، أو بخلاً.

وكم من الأولاد من يقول: إن أبي، أو أمي لا يحتاجان إلى شيء؛ فَيَحْرِمُ نفسه من بركة الإنفاق على الوالدين.

وكم من الأولاد من يقول: إن إخواني أو أخواتي يرفدون والديَّ بما يحتاجان إليه؛ فليسا ـ إذاً ـ في حاجة إلي.

وربما قال ذلك جميع الأولاد، فاعتمد كل واحد منهم على الآخر، فخلت يد الوالدين من أي معونة من الأولاد.

فحري بالولد ألا ينسى نصيبه من رفد والديه، ولو كانا غير محتاجين فضلاً عن كونهما كذلك.

وجدير به أن يبادر إلى ذلك ولو كان إخوانه يقومون به ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ**﴾ المطففين: ٢٦ .

ومن حسن الصحبة أن يعين والده على البر والصدقات والإحسان؛ فيحدث أحياناً أن يكون الوالد ثرياً محسناً، ولكنه لا يوفق بأولاد يعينونه على البر والإحسان، بل ربما قطعوا عليه الطريق، وخذلوه عن الخير؛ فإذا هَمَّ بالمعروف قالوا له: مهلاً؛ إما خوفاً من ضياع مال والدهم ـ كما يزعمون ـ وإما رغبة في زيادة الميراث، أو شحاً بالخير، أو غير ذلك؛ فحقيق على الأولاد ألا يقفوا حجر عثرة في طريق والدهم، بل عليهم أن يعينوه على الخير.

ومن صور الصحبة السفر مع الوالدين، والرحلة معهما.

ومن صور المصاحبة في المعروفِ القيامُ بإكرام ضيف الوالد، والحرص على راحته حال قدوم الضيف.

ومن ذلك صحبة الوالد إذا طلب منك الصحبة لأي مكان، أو أناس ما لم يكن في ذلك مأثم.

ومن ذلك أن تُعرِّف أصحابك على والدك؛ حتى يطمئن على سيرك، ويأنس بأصحابك إذا زاروك.

ومن ذلك قضاء حوائج الوالد ـ أباً أو أماً ـ بكل ارتياح ونشاط وتَدَفُّع.

ومن ذلك ملاحظتُه في علاجه، ومراجعاته، ومرافقته في المستشفى إن احتاج إلى ذلك.

ومن ذلك ألا يتأفف الولدُ إذا أمره والده دون إخوانه، بل عليه أن يفرح بذلك، بل يجمل به أن يبادر إلى التنفيذ ولو لم يؤمر.

ويحسن به أن يتحمل جفوة الوالد، وقسوته، وتغير مزاجه.

وجماع حسن الصحبة للوالدين أن يحرص الولد على إدخال السرور عليهما، وأن يبتعد عن كل ما يكدِّر خاطرهما.

فهذه إشارات مما حملته الآية الكريمة من معان، أما تفاصيل الحديث عن البر فليس هذا مجالها[1].

---

(١) انظر في ذلك: أدب المسلم في العادات والعبادات والمعاملات، لمحمد سعيد مبيض، ص١٥٨ـ١٦٠، وقرة العينين في فضائل بر الوالدين، لنظام يعقوبي، ص٤٦ـ٥٢، وتربية الأولاد في الإسلام، لعبد الله علوان، ١/٢٨٥ـ٢٨٦، والإعلام في ما ورد في بر الوالدين وصلة الأرحام، للحازمي، ص ٢٦، وبر الوالدين، لعاشور، ص ١٦ـ٢٠، والتكافل الاجتماعي، د. محمد الصالح، ص ٩٨ـ١٠٥، ووصية لقمان لابنه، علي محمد جماز، ص ٢٣ـ٣٣.

المبحث الخامس: الأبناء في الإسلام حقوق وواجبات

تمهيد

مر في المبحث الماضي شيء من الواجبات على الأبناء تجاه والديهم.

وفيما يلي بيان لشيء من حقوق الأبناء على والديهم؛ فالأولاد أمانة في أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير في تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، وهو اللبنة التي يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفي الأسر الكريمة الراشدة التي تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى ـ ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها، وعظماؤها.

والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع ـ يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم، كما أن أبويه مسؤولان إلى حد كبير عن انحرافه الخلقي[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه، ففاته انتفاعُه بولده، وفوَّت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء»[(٢)].

وكما أن للوالدين حقًّا على الأولاد ـ فكذلك للأولاد حق على الوالدين، وكما أن الله ـعز وجلّـ أمرنا ببر الوالدين ـ فكذلك أمرنا بالإحسان إلى الأولاد،

(١) انظر: نظرات في الأسرة المسلمة د: محمد الصباغ ص١٥٤، وأخلاقنا الاجتماعية د. مصطفى السباعي ص١٥٥.

(٢) تحفة المودود في أحكام المولود لابن القيم، ص ١٤٦ـ ١٤٧

فالإحسان إليهم، والحرص على تربيتهم ـ أداءٌ للأمانة، وإهمالهم والتقصير في حقوقهم ـ غش وخيانة.

ولقد تظاهرت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ـ آمرةً بالإحسان إلى الأولاد وأداء الأمانة إليهم، محذرة من إهمالهم والتقصير في حقوقهم.

قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)

وقال النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته**»[١].

وقال: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[٢].

ومن حق الأولاد على والديهم أن يدعوا لهم، وأن يسموهم بالأسماء الحسنة، وأن يغرسوا في نفوسهم الإيمان والعقيدة الصحيحة، وأن يربوهم على مكارم الأخلاق، و حميد الخصال[٣].

هذا وقد مر شيء من حقوق الأبناء على الأولاد عند الحديث عن حقوق الطفل في الإسلام.

(١) البخاري مع الفتح (٨٥٣)، ومسلم (١٨٢٩).
(٢) رواه البخاري ١١٢/١٣ ومسلم (١٤٢).
(٣) انظر تحفة المولود ص٩٢.

الباب السابع

موقف الإسلام من بعض القضايا المعاصرة

وتحته :

الفصل الأول: الإسلام، والعقل، والعلم، والعمل.

الفصل الثاني: الإسلام، والصحة العامة، والنظافة.

الفصل الثالث: قضايا: الإسلام والتعايش، والتسامح، والإكراه، والعنف، والإرهاب.

الفصل الرابع: الجهاد في الإسلام.

تمهيد

الحديث في هذا الباب سيدور حول قضايا معاصرة يكثر الحديث عنها، وقد يساء إلى الإسلام بسبب الجهل بها، وبموقف الإسلام منها.

والقضايا التي سَتُطْرَقُ في الباب ستكون عبر الفصول الآتية:

الفصل الأول: الإسلام، والعقل، والعلم، والعمل.

الفصل الثاني: الإسلام، والصحة العامة، والنظافة.

الفصل الثالث: قضايا الإسلام والتعايش، والتسامح، والإكراه، والعنف، والإرهاب.

الفصل الرابع: الجهاد في الإسلام.

الفصل الأول

الإسلام والعقل، والعلم، والعمل

وتحته:

المبحث الأول: موقف الإسلام من العقل

المبحث الثاني: الإسلام والعلم

المبحث الثالث: الإسلام والعمل

المبحث الأول: موقف الإسلام من العقل

لقد مرَّ في أبواب سابقة حديث عن العقل، وعظيم منزلته في الإسلام، ودلالته على كثير من مسائل الإيمان.

والحديث ههنا سيكون مزيد بيان عن العقل، وموقف الإسلام منه، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: مفهوم العقل: أ ـ تعريف العقل: هو نور روحاني، به تدرك النفس العلوم الضرورية، والنظرية.

هذا تعريف العقل عند صاحب القاموس[١].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد نعيم ياسين في بيان ماهية العقل: هو أحد غرائز النفس، أو قوة من قُواها تُمكِّنها من إدراك المعاني والحقائق[٢].

ب ـ ابتداء وجود العقل: يقول الفيروز بادي: «وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ»[٣].

ج ـ من إطلاقات العقل: يطلق العقل على العلم، أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها.

أو العلم بخير الخيرين وشرِّ الشرَّين، أو مطلقٌ لأمور أو لقوة بها يكون التميز بين القبيح والحسن، ولمعان مجتمعة بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه.

د ـ مَنِ العاقل؟: هو الجامع لأمره، الذي يحبس نفسه عن هواها.

---

(١) القاموس المحيط للفيروز بادي ص١٣٣٦.

(٢) انظر مباحث في العقل أ.د. محمد نعيم ياسين ص١٣٠، وهناك أقوال كثيرة في بيان ماهية العقل يطول ذكرها، وفي كتاب ياسين المذكور بيان مفصَّل لذلك، وقد توصَّل في النهاية إلى القول بالتعريف السابق.

(٣) المرجع السابق.

هـ ـ لم سمي العقل بهذا الاسم؟: لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، ويحجزها عما لا ينبغي من اعتقاد فاسد، أو فعل قبيح[١].

ثانياً: منزلة العقل في الإسلام: لقد أعلى الإسلام منزلة العقل، ورفع مناره؛ فالعقل في الإسلام أساس التكليف، ومناط الأهلية.

والقرآن الكريم مليء بالأمر بالتعقل، والنظر، والتدبر، والثناء على من كانوا كذلك.

كما أنه مليء بذم الذين عطلوا عقولهم، وركنوا إلى التقليد الأعمى، واتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم من غير ما بينة أو أثارة من علم[٢].

ثالثاً: وظيفة العقل: العقل نور أودعه الله في الإنسان؛ ليكشف له الأشياء، والحقائق الواقعة، وليفهم به عن الله ورسوله ﷺ ولينظر من خلاله في ملكوت السموات والأرض، وليدرك به أسرار الكون، ويتدبر في نفسه وآيات الله من حوله، ويصل من خلاله إلى كثير من أمور الاعتقاد في حدود طاقته، ويبحث من طريقه إلى ما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه[٣].

هذه ـ بإجمال ـ وظيفة العقل.

رابعاً: حدود العقل: فمع أن الإسلام ينظر تلك النظرة العظيمة للعقل، ومع أن للعقل وظيفته العظمى ـ كما مر ـ إلا أن الإسلام يحدد مجال العقل، وذلك صوناً للطاقة العقلية أن تتشتت أو تتبدد وراء الأمور الغيبية التي لا يستطيع العقل إدراكها أو الوقوف على حقيقتها، كالذات الإلهية، والروح، والجنة، والنار، وكيفية صفات الله ـ عز وجل ـ وغيرها؛ ذلك أن العقل البشري له مجاله الذي يعمل فيه؛ فإذا ما حاول أن يتخطى هذا المجال فإنه سَيَضِل ويتخبط في متاهات لا قبل له بها؛ فمجال العقل كل ما هو محسوس.

أما الغيبيات التي لا تقع تحت مداركه فلا مجال للعقل أن يخوض فيها، ولا يخرج

---

(١) انظر لسان العرب ٢٧/٨، والقاموس المحيط ص١٣٣٦.

(٢ـ٣) انظر مباحث في العقل ص ٢٢٣ـ٢٢٤.

عما دلت عليه النصوص الشرعية في شأنها.

خامساً: العقل في مجال العقيدة: لا يجوز تعطيل العقل في مجال العقيدة وغيرها؛ إلا أنه لا يجوز للعقل ـ كما مر ـ أن يتجاوز وظيفته، ويجنح في أودية الخيال الفاسد، ويتيه مع الأوهام الكاذبة؛ فالخيال والوهم لا يصلحان أساساً للعقيدة والمعرفة الصحيحة.

والعقيدة الإسلامية حقيقة ثابتة دل عليها الشرع بالقواطع من الأدلة النقلية.

والعقل السليم لا يعارضها على القاعدة التي تقول:

«العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح».

فإذا كان العقل هو الذي دلنا على معرفة الله ـ عز وجل ـ وعلى أن محمداً رسول الله حقًّا ـ فإن أي معارضة تُفْرَض بين العقل وما جاء في الكتاب والسنة، أو رَدّ خبر الله، وخبر رسوله؛ بحجة مخالفتها للعقل ـ تعد مناقضة صريحة لما دل عليه العقل نفسه[1].

سادساً: بين العقل والنقل: القاعدة العريضة العامة المشهورة تقول: «العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح».

والعقل الصريح: هو الخالي من الشبهات والشهوات، والنقل الصحيح هو السالم من العلل والقوادح.

القاعدة الأخرى تقول: «إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل»[2].

سابعاً: الإسلام يحفظ العقول ويرتقي بها: ولهذا حرم الإسلام الخمر، والمخدرات تحريماً لا هوادة فيه، وحرم كل ما يؤدي إلى فساد العقل.

وكما أن الإسلام ارتقى بالعقول، وأبعدها عن التناقض، وحمى معتنقيه من الفوضى الفكرية، والضياع، والتخبط؛ فهو دين واضح سهل ميسور، مفتوح لكل أحد.

---

(١) انظر العقل والنقل عند ابن رشد، د. محمد أمان ١٢ـ١٥.

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٢٢ـ٢٣ و ٧٨ـ٨١.

المبحث الثاني: الإسلام والعلم

الإسلام دين العلم والحقيقة، بل إن الإسلام عدو الجهل والخرافة، والقرآن الكريم والسنة النبوية قائمان على العلم الصحيح، وفيما يلي بيان لبعض مظاهر التوافق بين الإسلام والعلم.

أولاً: أن الإسلام جعل طلب العلم فريضة: قال النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[1].

ولا ريب أن الناس يتفاوتون في مداركهم؛ ويجب على بعضهم من العلم ما لا يجب على بعضهم الآخر؛ غير أن الواجب الذي لا يعذر به أحدٌ هو ما يقيم به الإنسان دينه، وما افترضه الله عليه.

ثانياً: أن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم كانت أمراً بالعلم: فمن المعلوم أن أول سورة أنزلت من القرآن الكريم كان سورة العلق، وأن أول كلمة منها هي قوله -تعالى-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ العلق: ١.

وفي هذا إيماء إلى أن أمة محمد ﷺ ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم[2].

ثالثاً: أن الله -عز وجل- نوَّه بالعلم وأهله: قال -عز وجل-: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الرعد: ١٩.

فانظر كيف قرن الجهل بالعمى؟

وقال -عز وجل-: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ المجادلة: ١١.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٢٤).

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٣-٤٣٤.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «العلماء فوق المؤمنين مائة درجة، ما بين الدرجتين مائة عام»[1].

ولا ريب أن أول ما يدخل في مفهوم العلم في نصوص الشرع هو العلم الشرعي، ولكن يدخل في ذلك كل علم نافع؛ والعلم النافع الذي دل عليه الكتاب والسنة هو كل علم أثمر الثمار النافعة، وأوصل إلى المطالب العالية، فكل ما زكى الأعمال، ورقى الأرواح وهدى إلى السبيل - فهو من العلم النافع، لا فرق في ذلك بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة؛ فشرف الدين لازم لشرف الدنيا، وسعادة المعاش مقترنة بسعادة المعاد.

والشريعة بكمالها وشمولها أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة من العلم بالتوحيد وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن العلوم العربية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحربية، والطبية، إلى غير ذلك من العلوم التي يكون بها قوام الأمة، وصلاح الأفراد و المجتمعات.[2]

رابعاً: أن الإسلام يتفق مع الحقائق العلمية: فالحقائق العلمية تشهد للقرآن والسنة بالصحة؛ فمع اتساع علوم الطبيعة وما استجد من العلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئاً مما جاء في القرآن والسنة الصحيحة، مع أن الذي جاء بتلك الحقائق نبينا محمد الأمي ﷺ[3].

فالعلم الصحيح لا يناقض النقل الصحيح، بل يتفق معه تمام الاتفاق، كما لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبداً، وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة - فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة له، وإما أن يكون القرآن

١- انظر تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص٢٧.

٢- انظر الدين الصحيح يحل جميع المشاكل للشيخ ابن سعدي ص٢٠، والدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة داخلة في الدين الإسلامي للشيخ ابن سعدي ص٦، وانظر ومضات فكر للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ص١٣٤.

٣- انظر الأدلة والقواطع والبراهين للشيخ عبد الرحمن بن سعدي ص٣٥٠.

الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبداً[١].

وهذا ما قرره العلماء في القديم والحديث، ولقد بنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابه العظيم (درء تعارض العقل والنقل) على هذه القاعدة.

بل لقد صرح كثير من الكتاب الغربيين بهذه الحقيقة، ومنهم الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

حيث قرر في ذلك الكتاب أن التوراة والإنجيل المحرفين الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق العلمية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكاتب شهادات تفوق للقرآن الكريم سبق بها القرآن العلم الحديث.

وأثبت من خلال ذلك أن القرآن لا يتعارض أبداً مع الحقائق العلمية، بل يتفق معها تمام الاتفاق[٢].

خامساً: تضافر البراهين الحسيَّة، والعلميَّة، والتجريبيَّة على صدْق ما جاء به الإسلام حتى في أشد المسائل بُعداً عن المحسوس، وأعظمها إنكاراً في العصور السابقة.

خذ على سبيل المثال قول النبي ﷺ: «**إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً أُولاهنَّ بالتراب**»[٣].

ولقد جاء الطب باكتشافاته ومكبراته فأثبت أن في لعاب الكلب ميكروباتٍ وأمراضاً فتَّاكة لا يزيلها الماء وحده، وأظهرت البحوث العلمية الحديثة أنه يحصل من إنقاء التراب لهذه النجاسة ما لا يحصل بغيره.

وجاء ـ أيضاً ـ أن شرب الكلب في الإناء يسبب أمراضاً خطيرة، فالكلب كثيراً ما

---

١ ـ انظر مجموعة فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين ٣/٧٧.

٢ ـ انظر التوراة والإنجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي ترجمة الشيخ حسن خالد.

٣ ـ أخرجه مسلم (٢٧٩).

تكون فيه ديدان مختلفة الأنواع، ومنها: دودة شريطية صغيرة جدًّا، فإذا شرب في إناء، أو لمس إنسان جسد الكلب بيده أو بلباسه انتقلت بويضات هذه الديدان إليه، ووصلت إلى معدته في أكله، أو شربه، فتثقب جدرانها، وتصل إلى أوعية الدم، وتصل إلى الأعضاء الرئيسة، فتصيب الكبد، وتصيب المخ، فينشأ عنه صداع شديد، وقيءٌ متوالٍ، وفقد للشعور، وتشنجات، وشلل في بعض الأعضاء، وتصيب القلب، فربما مزَّقته، فيموت الشخص في الحال[1].

بل إنه قد ثبت أن جميع أجناس الكلاب لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشريطية؛ فيجب إبعادها عن كل ما له صلة في مأكل الإنسان أو مشربه[2].

وسيأتي مزيد بيان وأمثلة على ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

سادساً: أن العلوم الطبيعية تؤيد الإسلام، وتؤكد صحته على غير علم من ذويها؛ مثال ذلك: تلقيح الأشجار الذي لم يُكتَشف إلا منذ عهد قريب، وقد نصَّ عليه القرآن الذي أُنزل على النبي الأمي منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ (الحجر: ٢٢)، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (ق: ٧)، وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ (يس: ٣٦).

فهذا كلام رب العالمين في القرآن قبل أن تبيِّن لنا العلوم الطبيعية أن في كل نبات ذكراً وأنثى.

ولقد اعتنق بعض الأوربيين الإسلام لما وجد وصف القرآن للبحر وصفاً شافياً مع كون النبي ﷺ لم يركب البحر طول عمره، وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ:

---

١ ـ انظر تيسير العلام شرح عمدة الأحكام للشيخ عبدالله البسام ١/٣٤، وتعريف عام بدين الإسلام المسمى رسائل السلام ورسل الإسلام للشيخ يوسف الدجوي ص ٣٨ـ٣٩.

٢ ـ انظر توضيح الأحكام ١/١٣٧.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[1] (النور: ٤٠).

فهذا شيء مما يبين أن الإسلام دين العلم، وسيأتي مزيد بيان لذلك في المباحث التالية.

١ ـ انظر تعريف عام بدين الإسلام ص٤١ـ٤٦ .

المبحث الثالث: الإسلام والعمل

تمهيد: في مكانة العمل ومفهومه في الإسلام

أولاً: مكانة العمل في الإسلام:

الإسلام دين العزة، والكرامة، ودين السمو، والارتفاع، ودين الجد، والاجتهاد؛ فليس دين ذلة ومسكنة، ولا دين كسل وخمول ودعة.

ولقد تبوأ العملُ قيمةً حضاريةً عاليةً، ونظرة متميزة في الدين الإسلامي؛ فقد رسم له الإسلام منهجاً رائعاً متكاملاً، يقوم على مراعاة التوازن بين حقوق العمال، وحقوق أصحاب العمل على حد سواء.

ويؤكد سبق الإسلام في الدعوة إلى مراعاة حقوق الإنسان وتكريمه، والرفع من شأنه؛ ليكون عضواً فاعلاً في هذه الحياة.

ولقد كان نظام العمل من الأمور التي أَوْلَتْها الحضارةُ الإسلامية رعاية واهتماماً، وذلك بمتابعة المستجدات حول هذا النظام، ومواكبتها بالأحكام والضوابط، والحرص على مراعاة احتياجات العامل وصاحب العمل.

وكان من بوادر تنظيم العمل في الإسلام نظرةُ التكريم للعاملين، والدعوة الصريحة إلى العمل المهني، واعتباره وسيلةً شريفةً ساميةً لكل قادر عليه، وسمةً من سمات المسلمين المنتسبين للعيش في حياة كريمة [1].

وهذا ما سيتبين في الفقرات التالية.

ثانياً: مفهوم العمل في الإسلام وما يلحق به:

الحديث ههنا سيدور حول تعريف العمل، وما يلحق به، ويرتبط به من مصطلحات ذات علاقة مباشرة بالعمل، أو صاحب العمل.

١ـ انظر: العمل عند المسلمين رؤية حضارية د إبراهيم المزيني ص١١ـ١٢

وهي مصطلحات مترادفة متداخلة تؤدي معاني متقاربة كالصناعة، والحرفة، والمهنة.

أ ـ **تعريف العمل**: يمكن أن يعرف العمل بشموله بأنه: الطريق المباح للكسب الحلال الضروري لاستقامة الحياة الذي يشمل على جهد يقوم به الإنسان لتحقيق منفعة خاصة به، أو متعدية إلى غيره مقابل أجر يحصل عليه العامل.

وهذا الجهد يمكن أن يكون ذهنياً، أو يدوياً، أو فنياً، أو بدنياً، أو غير ذلك سواء كان لشخص، أو لجهة عامة، أو خاصة.

ب ـ **تعريف الصناعة**: هي نشاط يترتب عليه إنتاج محسوس له مردود اقتصادي، أو يخدم منفعة معينة.

ج ـ **تعريف الحرفة**: تطلق على كل عمل يقوم به الإنسان، ويتطلب مهارة معينة مكتسبة، وربما يتخصص به المحترف دون غيره.

د ـ **تعريف المهنة**: المهنة تستخدم في الغالب للتعبير عن مصدر رزق الشخص، فيقال: فلان مهنته كذا، أو أنه امتهن هذه الحرفة، أو تلك.

فهذه المصطلحات تتصل اتصالاً مباشراً بالعامل ومصدر رزقه مقابل قيامه بمهمة أُوكلت إليه، وإن اختلفت تلك المفهومات في استخدامها؛ فإنها تؤدي إلى مدلولات متقاربة ترمز إلى مصطلح العمل بمفهومه العام[1].

وبعد أن تبين شيء من مكانة العمل ومفهومه في الإسلام ينتقل الحديث إلى نظرة الإسلام، وموقفه من العمل، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: دعوة الإسلام إلى العمل

لقد كانت دعوة الإسلام إلى العمل صريحة قوية، وذلك من خلال ورود تلك الدعوة في كثير من آيات الكتاب العزيز والسنة النبوية.

---

١ ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٢٥

وسيتضح من خلال ما يلي ما يؤكد ذلك.

أولاً: دعوة القرآن الكريم إلى العمل: لقد تظاهرت الآيات القرآنية المؤكدة على مشروعية العمل، وأهميته، ومدى الحاجة إليه.

ولقد تنوعت دلالة تلك الآيات تنوعاً كثيراً يؤكد مكانه العمل في الإسلام، وإليك طرفاً مما ورد في القرآن الكريم بشأن العمل.

١ـ أن تلك الدعوة جاءت بصيغة الحث على المشي في الأرض؛ والضرب فيها، والسعي والانتشار؛ ابتغاء الرزق الحلال: قال الله ـتعالى ـ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ** ﴾ الملك: ١٥ .

وقال الله ـتعالى ـ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ الجمعة.

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ الأعراف: ١٠ .

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾ النبأ: ١١ .

٢ـ أن القرآن ارتفع بالعمل، والسعي في طلب الرزق إلى مصاف العبادات الكبرى؛ حيث قرنه بالجهاد في سبيل الله، قال ـ عز وجل ـ في معرض الثناء على المؤمنين: ﴿ **وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ المزمل: ٢٠ .

٣ـ أن القرآن أشاد بعمل اليد، وعدَّه نعمةً يُستوجب شكرها، قال ـعز وجل ـ: ﴿ **لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾ يس: ٣٥ .

٤ـ أن القرآن نوَّه بشأن كثير من الصناعات الضرورية للحياة، كما في قول الله ـعز وجل ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحديد: ٢٥.

وقال ممتناً على نبيه دواد ـعليه السلام ـ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ سبأ.

والسابغات: هي الدروع، كما في قوله ـ تعالى ـ عن داود ـ عليه السلام ـ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ الأنبياء: ٨٠.

وقال ـ عز وجل ـ في صناعة الجلود: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ النحل: ٨٠.

وقال في صناعة الأكسية: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ النحل: ٨٠.

أي: من أصواف جلود الأنعام، وأوبارها، وأشعارها.

وأشار القرآن إلى اتخاذ البيوت مساكن كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ النحل: ٨٠.

وفي بناء القصور يقول ـعز وجل ـ: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ الأعراف: ٧٤.

وقال آمراً نوحاً ـعليه السلام ـ بصناعة الفلك: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ هود: ٣٧.

وقال مثنياً على خاصة المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ النور: ٣٧.

فلم يقل إنهم لا يتاجرون، وإنما ذكر أن التجارة لم تكن تلهيهم عن ذكر الله وإقامة الصلاة.

فهذه الآيات وغيرها كثير تُعَدُّ دعوة إلى العمل، والحث عليه، وتؤكد مشروعية اتخاذ الأسباب، والاكتساب المباح عن طريق العمل على اختلاف أنواعه[١].

ثانياً: الدعوة إلى العمل في السنة النبوية: لقد جاءت السنة القولية والعملية بالدعوة إلى العمل، وإلى تغيير النظرة الخاطئة لدى العرب قبل الإسلام، سواء بالتوجيه المباشر من النبيﷺ أو بتطبيق أمور يُخالِف بها مفهوماً شائعاً عند الناس؛ حتى يرى أصحابه ذلك منه، ومن ثم يقتدون به، وينقلون ذلك عنه إلى الناس.

ولقد خَصَّصت معظمُ كتبِ السنة أبواباً عن الكسب والعمل باليد؛ فقد أفرد الإمام البخاري في كتابه الصحيح باباً سماه (**باب في كسب الرجل، وعمله بيده**).

كما وضع ابن ماجة في سننه باباً (**في الحث على المكاسب**) وباباً (**في الصناعات**) ووضع الدارمي في سننه باباً سماه (**باب في الكسب، وعمل الرجل بيده**).

وغيرهم كثير من أصحاب الكتب التي دونت السنة النبوية.

وقد أوردوا تحت هذه الأبواب العديد من الأحاديث التي تحث المسلمين على العمل، واكتساب المال عن طريق بعض الأعمال والحرف[٢].

ومن الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن ما روته أم المؤمنين عائشة ـرضي الله عنهاـ أن صحابة رسول اللهﷺ كانوا عمالَ أنفسهم، وأنه كان يكون لهم أرواح[٣]؛ فقيل لهم: لو اغتسلتم»[٤].

١ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٢٨ـ٣١

٢ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٣٢

٣ـ أرواح: جمع ريح بسبب تَعَرُّقهم.

٤ـ أخرجه البخاري (١٩٦٥) ومسلم (٨٤٧).

وقال ﷺ: «**ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه، وأهله، وولده، وخادمه فهو صدقة**»[1].

وفي مواضع كثيرة بين النبي ﷺ أن العمل من أشرف وسائل الارتزاق، وفي هذا الصدد يقول: «**إن خير الكسب كسب يدي عامل إذا نصح**»[2].

وكان النبي ﷺ يتحدث كثيراً إلى أصحابه حديثاً يحبب إليهم العمل، ويحثهم عليه؛ فكان يذكِّر أصحابه بأنه كان يعمل بالرعي، وأن الأنبياء -عليهم السلام- كانوا يحترفون لأنفسهم؛ للكسب والتعفف عن أموال الناس؛ حيث كان لكل واحد منهم حرفة يعيش بها؛ فكان آدم حراثاً وحائكاً، وكان إدريس خياطاً، وكان نوح وزكريا نجارين، وكان أيوب زراعاً، وكان يونس وشعيب ومحمد - عليهم السلام- رعاةً للغنم[3].

بل يؤكد النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا رعى الغنم، وقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله قال: «**وأنا كنت أرعاها لأهل مكة على قراريط**»[4][5].

وكان من سيرته ﷺ أنه كان يقوم في بيته بِمَهْنَةِ أهله يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويَخْصِفُ النعل، ويخدم نفسه، ويَقُمُّ بيته، ويعلف بعيره، ويطحن مع أهله، ويحمل بضاعته من السوق، ويَنْحَرُ ذبائحه إلى غير ذلك من الأعمال التي كان -عليه الصلاة والسلام- يقوم بها؛ تواضعاً منه، وحثاً لأصحابه، وأمته على العمل، وبياناً لفضله[6].

---

١ ـ أخرجه ابن ماجة (٢١٣٨).

٢ ـ أخرجه أحمد في المسند (٨٦٩١).

٣ ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٣٤

٤ ـ قراريط: جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار.

٥ ـ أخرجه البخاري (٢١٤٣).

٦ ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٣٨

وبالجملة فإن الأحاديث التي تحث على العمل، وتمجِّده، وترفع من شأن العاملين كثيرة جدًّا، وكلها توجيه للأمة نحو العمل والكسب الحلال؛ فكان لهذه التوجيهات أبلغ الأثر في صحابة رسول الله ﷺ فتوجه كثير منهم إلى عمل يعمله، ويتكسب من خلاله[1].

المطلب الثاني: نهي الإسلام عن الكسل والبطالة واستجداء الناس

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العمل، والتحفيز إليه، والتذكير بفضله، بل -مع ذلك- حذَّر أشد التحذير من البطاله، والكسل، والقعود، والتواكل، والاستسلام للفقر، واستجداء الناس؛ فكل قادر على العمل مطالب في شريعة الإسلام بأنه يسعى، ويبذل جهده في سبيل طلب الرزق.

ولا ريب أن ذلك مما يرفع من شأن المسلم، ويزرع في نفسه العزة والكرامة، ويجتث منها منابت السقوط والمهانة.

ومن تربية الإسلام للمسلمين على هذا الخلق ـ أن وجههم لكسب الرزق المباح عن طريق الكدح، والعمل، والمشي في مناكب الأرض؛ حتى يعف الإنسان نفسه ويستغني عن غيره.

كما وجههم في المقابل إلى أن يترفعوا عن مسألة الناس ونفَّرهُم من ذلك الخلق الذميم ما لم تَدْعُ الضرورة إلى ذلك وعلَّمَهُم أن اليدَ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى؛ فمنع القادر على الكسب من بسط كفه؛ للاستجداء إذا كان في استجدائه إراقة لماء وجهه بين يدي من تكون يده هي العليا.

بل إن من أحكام الشريعة إباحةَ التيمم للمكلف، وعدمَ إلزامه بقبول هبة الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المنّة التي تنقص حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة.

بل ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة.

---

١ ـ انظر العمل عن المسلمين رؤية حضارية ص ٣٨

وأبيح له أن يصلي عارياً؛ صيانةً لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

ومن الأحكام القائمة على رعاية هذا الخلق أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المتبرع له؛ فلو وهب شخص لآخر مالاً لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له؛ إذ قد يربأ به خلق العزة عن قبولها؛ كراهة احتمال مِنَّتها، والمنة تصدع قناة العزة؛ فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال الضرورة ولا سيما منة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع[1].

ولهذا قال النبي ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم أحبلا فيأخذ حزمة من حطب فيكف الله به وجهه خير من أن يسأل الناس أعطي أو منع**»[2].

وقال: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**»[3].

وقال: «**من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد خيرا وأوسع من الصبر**»[4].

وقال-عليه الصلاة والسلام-: «**من سأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا؛ فليستقل، أو يستكثر**»[5].

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال: «تحمَّلت حَمَالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**».

قال: ثم قال: «**يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله**

---

١ ـ انظر حياة الأمة للشيخ محمد الخضر حسين ٣٠، ورسائل الإصلاح ١/١٢٦.

٢ ـ رواه البخاري ٣/٧٩، ومسلم(١٠٤٢).

٣ ـ رواه البخاري ٨/١١٢، ومسلم(١٠٤٥).

٤ ـ رواه البخاري ٣/٢٦٥، ومسلم(١٠٥٣).

٥ ـ رواه مسلم(١٠٤١).

فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش «أو قال سِداداً من عيش» ، ورجل أصابته فاقةٌ حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش «أوقال: سداداً من عيش.

فما سواهن من المسألة ياقبيصة سحتا يأكلها صاحبها سُحتاً»[1].

بل لقد أوصى النبي ﷺ نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه أنه لما بايع النبيﷺ مع طائفة من أصحابه أَسَرَّ إليهم النبي ﷺ كلمة خفية: «**ألا تسألوا الناس شيئاً**»[2]؛ فكان أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه».

المطلب الثالث: القواعد المنظمة للعمل في الإسلام

لقد أرسى الإسلام القواعد المنظمة للعمل، ونظم العلاقة بين العامل وصاحب العمل، وضبط تلك العلاقة بما يسمى في الفقه الإسلامي بالعقد، وجعلها تقوم على أساس قوي من الوضوح، وضمان الحقوق كاملة.

وفي المقابل أكد أهمية التزامه بمجموعة من الواجبات التي تضمن لصاحب العمل حقوقه.

كما ترك الإسلام الحرية التامة للإنسان في اختيار ما يناسبه من أعمال في حدود ما تبيحه الشريعة الإسلامية، وبما يعود على العامل ومجتمعه بالخير العميم.

وفيما يلي ذكر لبعض القواعد المنظمة للعمل في الإسلام على سبيل الإجمال؛ لأن المقام لا يحتمل التفصيل[3]:

١ـ رواه مسلم (١٠٤٤).

٢ـ مسلم (١٠٤٣).

٣ـ انظر العمل عند المسلمين ص ٨١ .

أولاً: عقد العمل: وهذا العقد يشتمل على أركان أربعة وهي: العامل، وصاحب العمل، والعمل المتفق عليه، وأجر ذلك العامل.

ويمكن أن يشار هنا إلى أبرز الأمور التي يجب أن يشتمل عليها عقد العمل فيما يأتي:

١ـ بيان نوع العمل: وهو أمر جوهري في تمام العقد، فالإجارة على المجهول فاسدة.

٢ـ بيان المدة أو الزمن المشروط لإنفاذ العمل: وهو أمر مهم في تمامِ العقدِ، وعَدَمُه يؤدي إلى التنازع في الغالب.

٣ـ بيان الأجر: وهو من أهم الأمور التي ينشدها العامل في إقدامه على العمل، وهو حقٌ شرعيٌ ثابتٌ له فلابدّ من اشتمال العقد على الأجر المتفق عليه[1].

ثانياً: حقوق العمال وواجباتهم: ١ـ حقوق العمال: ويمكن إجمال أبرز تلك الحقوق بما يلي:

أـ استيفاء الأجر: وهو إعطاء كل ذي حقٍ حقَّه بعد أدائه ما كلف به.

بـ مراعاة كرامة العامل، وعدم تكليفه ما لا يطيق.

جـ تأمينه من إصابات العمل، وتعويضه عن الضرر، ويمكن أن يلحق بذلك الاهتمام بصحة العامل، وغذائه، ومسكنه.

ولا ريب أن هذه الحقوق التي قررها الإسلام للعمال هي موضع أمان، واطمئنان لهم، وحفز لمزيد من العطاء والجد [2].

٢ـ واجبات العمال: في مقابل الحقوق التي ضمنها الإسلام للعاملين أكد

١ـ انظر العمل في الإسلام لعز الدين الخطيب ص ٦٢ـ٦٣، والعمل عند المسلمين ص ٨٥ـ٨٦.

٢ـ انظر العمل عند المسلمين ص ٨٧ـ٩٣

أهمية التزام هؤلاء بمجموعة من الواجبات التي من أهمها ما يلي:

أ. الإخلاص في العمل، والأمانة، ومراقبة الله -عز وجل-.

فإذا كان صاحب العمل مسؤولاً فإن العامل مؤتمن ومسؤول أمام الله القائل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا**﴾ النساء: ٥٨.

والقائل: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ**﴾ الأنفال: ٢٧.

ب. الإتقان، والقيام بالعمل وفْق ما هو متفق عليه.

ويتأتى ذلك بإحكام العمل، وإجادته دون إهمال أو تقصير.

وقد قال النبيﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1].

ومن إتقان العمل حسن رعايته، والشعور بالمسؤولية تجاه ما يوكل إليه من عمل.

ج. حفظ أسرار المهنة، والحرص على مصلحة من ائتمنه من أسرار، والحذر من إفشاء سر من أسراره.

د. أن يقنع بالأجر الذي تم الاتفاق عليه مع صاحب العمل دون مساس بمال صاحب العمل[2].

قال الرسولﷺ: «**من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فغلول**»[3].

ثالثاً: تحريم العمل غير المشروع: فهذا هو أحد القواعد في العمل في الإسلام؛

١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢٩) والطبراني في الأوسط (٨٩٧) وأبو يعلى في مسنده (٤٣٨٦).

٢- انظر العمل عند المسلمين ص ٩٤-٩٥.

٣- أخرجه أبو داود (٢٩٤٣).

فإذا كان الإسلام يحفز على العمل، ويدفع الناس إليه حتى يعيشوا أعزة كرماء ـ فإنه ينأى بهم عن الأعمال المحرمة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢.

ومعنى ذلك أنه لا يجوز للمسلم أن يعمل أي عمل يعده الشرع معصية.

كما أن الإسلام حرم على الإنسان أي عمل يجلب الضرر على الإنسان نفسه، أو على مجتمعه[1].

فهذا شيء من موقف الإسلام من العمل.

١ـ مر الحديث عن تحريم الكسب غير المشروع عند الحديث عن الاقتصاد في الإسلام.

الفصل الثاني

الإسلام والصحة العامة والنظافة

وتحته:

المبحث الأول: الإسلام والصحة العامة

المبحث الثاني: الإسلام والنظافة

المبحث الأول : الإسلام والصحة العامة

الإشارة إلى نظرة الإسلام إلى الصحة ، واهتمامه بها ، ودلالتها على ما يحفظ الصحة قد مرت عند الحديث عن آثار الإيمان بأركان الإيمان الستة ، وعن الحديث عن أركان الإسلام ، وما يستتبع ذلك من حفظ الصحة البدنية ، والنفسية.

كما مر الحديث عن ذلك عند الحديث على أضرار المعاصي ، وعن آثارها المدمرة على صحة الإنسان ، ونفسيته ، وأن تركها يحفظ على الإنسان صحته ، وطُمأنينة نفسه؛ إلى غير ذلك مما مرت الإشارة إليه في أبواب سابقة.

والحديث ههنا إكمال لما مضى ، وإلقاء للضوء على شيء من ذلك القبيل ، فلقد وردت في حفظ الصحه إشارات ، وإرشادات في الكتاب العزيز ، والسنة النبوية فمن ذلك ما يلي :

أولاً : أن الإسلام أرشد إلى الاقتصاد في المطعم والمشرب : ولا يخفى ما في ذلك من حفظ الصحة والوقاية من الأمراض ، فالتخلي عن الطعام والشراب جملة ، أو ترك ما يحتاجه الجسم من ذلك سبب في الهلاك أو المرض .

كما أن الإسراف في المطاعم والمشارب من أعظم أسباب الأدواء المتنوعة.

والإقتصاد في ذلك هو الصحة ، والوقاية -بإذن الله- وإلى هذا المعنى أرشد قول الله -عز وجل- : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ الأعراف : ٣١ .

قال بعض العلماء : « جمع الله بهذه الكلمات الطب كلَّه » [1].

١- تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص١٢١

وقريب مما جاء في الآية ما جاء في قول النبيﷺ محذراً من البطنة: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن؛ بحسب ابن آدم لقيماتٌ يُقمن صلبه؛ فإن كان لامحالة فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه**»[١].

ثانياً: ورود كثيراً من الإشارات في حفظ الصحة: فمن ذلك أن الإسلام حرَّم الخمر، ولا يخفى ما في الخمر من أضرار صحية كثيرة، فهي تضعف القلب، وتفري الكلى، وتمزق الكبد إلى غير ذلك من أضرارها المتنوعة.

ومن ذلك: أن الإسلام حرَّم الفواحش من زناً ولواط، ولا يخفى ما فيهما من الأضرار الكثيرة، ومنها الأضرار الصحية التي عُرِفَتْ أكثر ما عُرِفَتْ في هذا العصر من: زهري، وسيلان، وهربس، وإيدز ونحوها.

ومن حِفظ الإسلام للصحة أنه حرَّم لحم الخنزير، الذي عُرِفَ الآن أنه يولِّد في الجسم أدواءً كثيرة، ومن أخصِّها الدودة الوحيدة، والشعرة الحَلزونية، وعَمَلُهما في الإنسان شديد، وكثيراً ما يكونان السبب في موته[٢].

ومن الإشارات في هذا الصدد ما عُرف من أسرار الوضوء، وأنه يمنع من أمراض الأسنان، والأنف، بل هو من أهم الموانع للسل الرئوي؛ إذ قال بعض الأطباء: إن أهم طريق لهذا المرض الفتاك هو الأنف، وإن أنوفاً تُغسَلُ في اليوم خمس عشرة مرة لجديرة بألا تبقى فيها جراثيم هذا الداء الوبيل، ولذا كان هذا المرض في المسلمين قليلاً وفي الإفرنج كثيراً.

والسبب أن المسلمين يتوضؤون للصلاة خمس مرات في اليوم، وفي كل وضوء يغسل المسلم أنفه مرة أو مرتين أو ثلاثاً[٣].

١ـ أخرجه أحمد ١٣٢/٤، والحاكم ٤/ ١٢١، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥) وصحيح الجامع (٥٦٧٤)

٢ـ انظر تعريف عام بدين الإسلام المسمى برسائل الإسلام ورسل السلام ص ٣٨ـ٣٩.

٣ـ انظر تعريف عام بدين الإسلام ص ٤٥، والطريق إلى الإسلام ص ٣٥ـ٣٦

وسيأتي مزيد بيان لأسرار الوضوء، وفوائده.

ثالثاً: ورود كثير من النصوص في مشروعية التداوي والدلالة عليها: وقد مضى شيء من ذلك، ومنه ـ أيضاً ـ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ المائدة: ٣٢ .

ووجه الدلالة أن الله ـ تبارك وتعالى ـ امتدح من سعى في إحياء النفس وإنقاذها من الهلاك.

ومعلوم أن الطب ينتظم في كثيرٍ من صوره إنقاذ النفس المحرمة من الهلاك المحقق؛ فكثير من الأمراض التي تستلزم علاجاً، أو حمية، أو جراحة قد يكون المريض فيها مهدداً بالموت إذا لم يُقَمْ بمداواته؛ فإذا قام الطب بوصف شيء من ذلك أو فِعْله، وشفي المريض عُدَّ ـ بإذن الله ـ منقذاً لتلك النفس المحرمة، ودخل في قبيل من امتدحهم الله ـ عز وجل ـ في الآية السالفة.

وفي ذلك إشارة إلى علم الطب وفضله[1].

رابعاً: ورود الدلالة على الجراحة الطبية: حيث دلت السنة المطهرة على جواز الجراحة الطبية، ومشروعيتها، ويظهر ذلك من خلال عدد من الأحاديث الشريفة، ومنها ما ورد في شأن الحجامة، ومن ذلك ما جاء في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ احتجم في رأسه[2].

وما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه عاد مريضاً، ثم قال: «**ألا تحتجم**»؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فيها شفاءً**»[3].

---

١ ـ انظر أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها د. محمد المختار الشنقيطي ص ٨٥ـ٨٦

٢ ـ أخرجه البخاري (٥٣٧٣)

٣ ـ أخرجه البخاري(٥٣٧٢)

ووجه الدلالة من الحديثين أنها نصَّت على مشروعية التداوي بالحجامةِ، والحجامةُ تقوم على شق موضع معين من الجسم وشَرْطِه، ومصِّ الدم الفاسد، واستخراجه؛ فتعد أصلاً في جواز شق البدن، واستخراج الشيء الفاسد من داخله سواء كان عضواً، أو كيساً مائياً، أو ورماً أو غير ذلك[١].

والحجامة في العصر الحديث تعد نوعاً من الجراحة الطبية الصغرى؛ حيث يجري استعمالها في علاج عدد من الأمراض، والالتهابات[٢].

ويدل على ذلك ما جاء في حديث جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبيِّ بن كعب طبيباً، فقطع منه عرْقاً، ثم كواه عليه[٣].

ووجه الدلالة أن النبي ﷺ أقر الطبيب على قطع العرق، وكَيِّه.

وقطع العرق ضرب من العلاج الجراحي، وهو مستخدم في الجراحة الطبية الحديثة، حيث يتم قطع مواضع من العرق في حال انسدادها، أو وجود آفة تستدعي قطع جزء منها[٤].

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا السياق[٥].

خامساً: أن النبي ﷺ فتح العقول لمعرفة الطب، ومزيد التطور فيه؛ ومن أجلى الأدلة على ذلك قوله ﷺ: «**ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاءً**»[٦].

ومعنى أنزل: أي قدَّر.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «وعموم هذا الحديث يقتضي أن جميع الأمراض الباطنة لها أدوية تقاومها: تدفع مالم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية أو تُخَفِّفه.

١- انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٨٨

٢- انظر الجراحة الصغرى د. رضوان بابولي، ود. أنطوان دولي ص ٢٤

٣- رواه مسلم(٢٢٠٧)

٤- انظر أحكام الجراحة الطبيةص٨٨

٥- انظر كتب الطب في الصحاح، والسنن، وغيرهما؛ ففيها أحاديث كثيرة من هذا القبيل.

٦- أخرجه البخاري (٥٣٥٤).

وفي هذا الترغيب في تعليم طب الأبدان، كما يتعلم طب القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة.

وجميع أصول الطب وتفاصيله شرح لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية، فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها»[١].

ثم إن في الحديث دلالةً واضحةً إلى أنه لا يأس من وجود علاج لأي مرض؛ طالما أن مسبب الأسباب وهو الله -تعالى- لم ينزل داءاً إلا أنزل له شفاءً.

ولقد كان كثير من الناس يظن أن بعض الأمراض ليس لها دواء، وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علم - عرفوا مصداق هذا الحديث[٢].

سادساً: ما كان عليه العلماء المسلمون من الإسهام في تطوير الطب: فلقد عاشت أوربا في العصور الوسطى سنوات طويلة في ظلام دامس من الجهل، وتعد هذه الفترة فترة ركود حضاري بالنسبة لها.

وفي الوقت نفسه كانت البلاد الإسلامية تعيش حياة علمية مزدهرة، حتى أصبحت في ذلك الحين محط الرحل لطلاب العلم والمعرفة الذين يقصدونها، خاصة من البلاد الأوربية؛ طمعاً في الحصول على المعارف والفنون التي نبغ المسلمون فيها نبوغاً عظيماً.

ولقد تفجرت ينابيع المعرفة على أيدي جهابذة العلماء المسلمين في شتى العلوم والمعارف، حتى شمل ذلك علوم الطب، والحساب، والفلك، وغيرها من العلوم الأخرى.

١- بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٢١٣-٢١٤

٢- انظر بهجة قلوب الأبرار ص ٢١٤

وأمسكت تلك الأيدي الأمينة بزمام الحضارة العلمية، وقادتها بعقولها الفذة التي صقلتها رُوحانية الكتاب والسنة، فَسَمَتْ بها إلى ذروة المجد والعلياء[١].

يقول الشيخ الدكتور محمد المختار الشنقيطي -حفظه الله-: «وكان من ضمن ما نبغ به المسلمون في تلك العصور المزهرة علم الطب على اختلاف تخصصاته، والتي من ضمنها الجراحة الطبية.

فقد كانت الجراحة الطبية في العصور الإسلامية الأولى تعتبر صنعة ممتهنة، وكان علماء الطب المسلمين من الأوائل يترفعون عن القيام بها وأدائها، وكانوا يسمونها «عمل اليد» وكانت آنذاك من مهمة الحجامين الذين يقومون بالكي، والفصد والحجامة، وبتر الأعضاء تحت إشراف الأطباء وإرشاداتهم.

ثم لم تمض مدة حتى نبغ علماء الطب المسلمون في تطوير الجراحة الطبية والإسهام في تقدمها حتى وصلت إلى درجة عالية من الدقة والمهارة، وذلك بفضل الله -تعالى- ثم بفضل جهودهم المخلصة التي تمثلت في جوانب عديدة ساعدت على الوصول إلى هذه الغاية»[٢].

إلى أن قال -حفظه الله-: «فقد كانوا أول من أفرد علم الجراحة الطبية بالكتابة عنه في مواضع مخصوصة من كتبهم الطبية، ثم بالتأليف المستقل الذي يجمع شتاته، ويعتني بصياغتة في أسلوب علمي بديع.

وقد اعتنوا في تلك المؤلفات ببيان عدد من أنواع الجراحة الطبية التي لم يُسْبقوا إلى معرفتها، وقاموا بوصف مراحلها في كتبهم لأول مرة في التاريخ، ومن تلك الأنواع التي بينوها ما يلي:

١ـ عملية تفتيت الحصى الموجود في المثانة.

١ـ انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٠

٢ـ أحكام الجراحة الطبية ص ٥٠ـ٥١ .

٢ـ عملية تجبير الكسور الموجودة في الأنف.

٣ـ عملية فتح القصبة الهوائية

٤ـ عملية استئصال اللوزتين.

٥ـ عملية فتح الخراج الموجود في اللهاة.

٦ـ عملية قطع اللحم النابت في الأذن.

٧ـ عملية ثقب الأذن المسدودة.

ومع اكتشافهم لهذه الأنواع، ووصفهم لها لأول مرة في التاريخ نجدهم ـ أيضاً ـ قد تكلموا على بعض المعلومات المهمة جدًّا في علم الجراحة، وكانوا أول من نبه عليها، ومن تلك المعلومات تفريقهم بين الأورام الخبيثة ـ السرطانية ـ والزوائد اللحمية، حيث وضعوا بعض الأمارات والعلامات التي يمكن للطبيب أن يستهدي بها لمعرفة نوعية الورم هل هو خبيث فيتجنبه، أم هو من الزوائد اللحمية التي يمكن استئصالها ومداوتها بالجراحة»[١].

ثم ذكر الشيخ الدكتور محمد المختار الشنقيطي ـ حفظه الله ـ نماذج عديدة من الأطباء المسلمين الذين كانت لهم الريادة والسبق في كثير من مجالات الطب كعبدالملك بن زهر[٢]، والرازي[٣].

ثم أطال الحديث عن الزهراوي، وجهوده في علم الطب، والجراحة، والتأليف في ذلك، واستفادة علماء الطب الجراحين الأوروبيين وغيرهم من الزهرواي على مدى القرون.

١ـ انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥١ـ٥٢

٢ـ عبدالملك بن زهر ولد ما بين عامي ٤٨٤ و ٤٨٧ وتوفي عام ٥٥٧، ويعد أول طبيب جراح قام بوصف جراحة الجهاز التنفسي، وذلك في كتابه الفريد في الطب «التيسير في المداواة والتدبير». انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٣.

٣ـ الرازي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ولد في الري سنة ٢٥٤ وتوفي في بغداد سنة ٣١١، وهو أول من تكلم عن الفوارق التي يميز بها بين نوعي النزيف: النزيف الشرياني والوريدي، كما تكلم على جراحة الكسور والجبائر؛ فجاء بآراء في غاية الصحة، كما نبه على الطرق التي يمكن بواسطتها إيقاف النزيف الشرياني، والسيطرة عليه. انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٣.

ثم تحدث عن مقالة للزهراوي أفرد فيها الحديث عن علم الجراحة، وجاء فيها بالعجيب من الجراحات المبتكرة التي لم يَسْبِقْ أحدٌ إلى فعلها، والكتابة عنها.

ثم تحدث عن جهود الزهراوي في جراحة العيون، والأنف، والأذن، والحنجرة، والفم، الأسنان، وعظام الفكوك، وأنه أول من وصف ما يسمى بعملية تفتيت الحصى.

ثم تحدث عن جهود الزهراوي في علاج الفتوق، وما يعرف بتضخم الغدة الدرقية[1].

ثم ختم الشيخ الشنقيطي حديثه عن الزهراوي وجهوده في الطب بذكر بعض ما قيل عنه، ومن ذلك أنه أورد ما قاله عن الدكتور سيمون حايك، حيث قال: «غي دي شولياك ١٢٦٧ـ١٣٠٠م تأثر بالزهراوي، وبهذا الجراح الفرنسي تبتدئ سلسلة طويلة من الجراحين الفرنسيين وغيرهم.

وقد أثر تأثيراً كبيراً في الجراحين الذين جاؤوا من بعده؛ فقد أقلع عن استعمال المبيدات، وعاد إلى استعمال المراهم، والزيت، والفتيل، مقتفياً بذلك أثر الزهراوي»[2].

فانظر إلى هذا النموذج وهو الزهراوي، وانظر إلى آثاره مع أنه مات قبل ما يزيد عن ألف سنة، حيث مات في الأندلس بعد الأربعمائة الهجرية[3].

سابعاً: أن الفقهاء عَدُّوا حفظ الصحة أحد مقاصد الشريعة: ذلك أن تشريعات الإسلام كلها تُولي هذا المقصد ـحفظ البدن وصحتهـ مكانة خاصة، بل تعده ركناً أساساً.

١ـ انظر أحكام الجراحة الطبية ص ٥٤ـ٦٥

٢ـ أحكام الجراحة الطبية ص ٦٥

٣ـ انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٢٠٨ـ٢٠٩ وأحكام الجراحة الطبية ص٥٥

ولهذا كان من أعظم الأدعية النبوية سؤال الله العافية، بل إن النبيﷺ جعل العافية تلي نعمة الإيمان في الأهمية، قال رسول اللهﷺ: «**سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية**»[١].

ومن دعائهﷺ «**اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت**»[٢].

يقول الطبيب الدكتور محمد نزار الدقر: «وتتطابق نظرة الإسلام للصحة مع المفهوم الحديث؛ فالصحة في مفهوم الطب الحديث ليست مجرد الخلوِّ من العاهات أو الأمراض، بل أن يتمتع الفرد برصيد من القوة في وظائف أعضائه تجعله يتحمل ما قد يتعرض له من مسببات كثيرة من الأمراض.

وهذا تطابقٌ مُعْجِزٌ حقًّا مع ما قال به نبي الرحمة محمدﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلي من المؤمن الضعيف**»[٣][٤].

ثامناً: أن الإسلام عني بصحة الإنسان قبل أن يتخلق: إذ أرشد إلى حسن انتقاء شريك الحياة زوجاً أو زوجة؛ حتى تخرج منهما ذرية سليمة.

ومصداقه قول النبيﷺ: «**تخيروا لنطفكم**»[٥].

كما أن الإسلام حث على الرضاعة: حيث أرشد إليها، وحث على إطالة مدتها قدر الإمكان؛ ليحصل الطفل على عناصر المناعة الطبيعية اللازمة التي لا تعطيها الرضاعة الصناعية.

---

١ ـ أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٥٥٨): «حسن صحيح».

٢ـ أخرجه أبو داود (٥٠٩٠) قال عنه الألباني في صحيح أبي داود (٥٠٩٠): «حسن الإسناد».

٣ـ أخرجه مسلم (٢٦٦٤)

٤ـ روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٢/١ .

٥ـ أخرجه ابن ماجة (١٩٦٨) قال عنه الألباني في الصحيحة (١٠٦٧): «صحيح».

قال الله -عز وجل- ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ البقرة: ٢٣٣[١].

تاسعاً: تقرير بعض الأمور العلاجية: حيث وجه الإسلام الأمة لأمور تنفعها بوحي السماء كما قال النبيﷺ: «**عليكم بهذه الحبة السوداء؛ فإن فيها شفاءً من كل داء**»[٢].

ثم إن في إرشادات القرآن الكريم توجيه إلى الطب الوقائي الذي يعمل على حماية صحة الفرد، ويحافظ على صحة المجتمع كله، قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة: ١٩٥.

وفي الإسلام نظام صحي عالمي، يكاد يكون أول نظام في ذلك، ألا وهو إقرار الحجر الصحي عند حدوث الأوبئة كالطاعون، والكوليرا؛ حيث وضع له قواعد راسخة أقرها الطب الحديث، فقد روى الشيخان عن النبيﷺ قوله: «**إن هذا الطاعون رجز، وبقية من عذاب عُذِّبه من كان قبلكم؛ فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها؛ فراراً منه، وإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلو عليه**»[٣].

يقول الدكتور محمد الدقر معلقاً على هذا الحديث: «والذي يعرف أهمية الحجر الصحي في حياة الأمم يعرف عظمة ما جاء النظام الصحي الإسلامي منذ قرون»[٤].

عاشراً: أن في آداب الطعام في الإسلام إشاراتٍ كثيرةً لحفظ الصحة: يقول الدكتور محمد الدقر: «وآداب الطعام مفخرة من مفاخر الهدي النبوي العظيم،

١- انظر روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٣/١.
٢- انظر روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر ٣/١.
٣- البخاري (٥٣٩٨) ومسلم(٢٢١٨) وهذا لفظ مسلم.
٤- روائع الطب الإسلامي ٣/١

حرص من خلالها على أن يتناول المسلم طعاماً نظيفاً خالياً من أي تلوث، فأمر بالأكل باليد اليمنى، وأمر بتغسيل اليد قبل الطعام وبعده، وأمر بتجنب الإسراف في الأكل، وتجنب إدخال الطعام على الطعام».

إلى أن قال: «وجعل ـ سبحانه ـ من أهم أهداف البعثة المحمدية أن يحل لأمته الطيب النافع، ويحرم عليها الخبيث الضار، وقال ـ تعالى ـ معدداً أهداف بعثة محمدﷺ: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ الأعراف: ١٥٧»[١].

ويواصل الدكتور الدقر حديثه فيقول: «هذا وإن تحريم الخمر والتدخين والمخدرات يمكن اعتباره أهم منجزات شريعتنا الغراء في مجال الطب الوقائي؛ إذ إن التزام المجتمع باجتناب هذه الخبائث يقيه من الوقوع في براثن العديد من الأمراض المهلكة، ويحمي الأجنة من التشوهات، ويقي الأفراد من الحوادث»[٢].

حادي عشر: أن الشريعة الإسلامية وضعت القواعد للوقاية من الحوادث التي تؤدي إلى إزهاق الأرواح، أو الحاق الأضرار بالناس، وذلك ضمن أوامرَ ونواهٍ محددة واضحة تقود من يأخذ بها إلى السلامة، وتنأى به عن العطب، فمن ذلك أن النبيﷺ نهى أن يبيت المسافر في طريق الناس، فعن ابي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ قال: «**وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق؛ فإنها مأوى الهوام بالليل**».

وفي رواية «**وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق؛ فإنها طريق الدواب، ومأوى الهوام**»[٣].

ومن النواهي الواردة في ذلك الشأن أن النبي ﷺ نهى عن النوم على سطح

١ـ روائع الطب الإسلامي ٤/١

٢ـ روائع الطب الإسلامي ٤/١

٣ ـ أخرجه مسلم (١٩٢٦).

غير محجور عليه[١].

ونهى أن يترك أحدٌ النار مشتعلة وينام عنها فقال ﷺ: «**لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون**»[٢].

فهذا نزرٌ يسيرٌ في شأن ما جاء من عناية الإسلام بشأن الصحة، وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن عناية الإسلام بالنظافة في المبحث التالي.

١ـ أخرجه أبو داود (٥٠٤١).

٢ ـ أخرجه البخاري (٥٩٣٥) ومسلم (٢٠١٥).

المبحث الثاني: الإسلام والنظافة

مر في كثير من أبواب هذا الكتاب إشارات إلى عناية الإسلام بالنظافة .

والحديث في هذا البحث سيتناول هذا الجانب بشيء من البسط ، وذلك من خلال المطالب التالية التي ستدور حولها وقفات لما جاء في حديث خصال الفطرة ، وما جاء في شأن الوضوء والغسل ، وحث الإسلام على النظافة العامة.

ولا ريب أن ما سيذكر إنما هو نزرٌ يسيرٌ جدًّا من عناية الإسلام بالنظافة.

المطلب الأول: ما جاء في حديث خصال الفطرة

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «**عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء -يعني الاستنجاء- قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة**»[١].

فهذا الحديث احتوى على جملة من الإرشادات الراقية في شأن النظافة؛ حيث عدها من الفطرة التي هي الخلقة التي خلق الله عبادَه عليها، وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه.

كما أن هذا الحديث جعل شرائع الفطرة على نوعين:

أحدهما: ما يطهر القلب والروح، وهو الإيمان وتوابعه التي تُزكي النفس، وتُطهر القلب، وتُذهب عنه الآفات الرذيلة، وتُحلِّيه بالأخلاق الجميلة.

النوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر، ونظافته، ودفع الأقذار والأوساخ عنه، وهي هذه العشرة المذكورة في الحديث[٢].

١- رواه مسلم (٢١٦).

٢- انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٩/٣، انظر بهجه قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٨١-٨١

وإليك هذه الوقفة حول هذه الخصال:

١ـ قوله: «**قص الشارب**»: المقصود قصه، أو حفُّه حتى تبدو الشفة؛ لما في ذلك من النظافة، والتحرز مما يخرج من الأنف؛ فإن الشارب إذا تدلى على الشفة بَاشَرَ بِهِ الإنسانُ ما يتناوله من مأكول، أو مشروب، مع تشويه الخلقة بوفرته[1].

يقول الدكتور الطبيب محمد الدقر: «ومن الناحية الطبية فإن الشوارب إذا طالت تلوثت بالطعام والشراب، وقد تكون سبباً في نقل الجراثيم».

إلى أن قال: «وسنة الإسلام في قص الشوارب تتفق مع ما دعا إليه الطب بقص ما زاد عن حدود الشفة العليا»[2].

٢ـ قوله: «**إعفاء اللحية**» المقصود: إكرامها، وتوفيرها، وترك حلقها.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «فإن الله جعلها وقاراً للرجل، وجمالاً له، ولهذا يبقى جماله في حال كبره لوجود شعر اللحية»[3].

«ومن الناحية الصحية فإن الدكتور عبد الرازق كيلاني يرى أن عمل الرجل يؤدي إلى كثرة تعرضه لأشعة الشمس والرياح الباردة والحارة، والذي يؤثر سلباً على الألياف المرنة، والكلاجين الموجودين في جلد الوجه، ويؤدي إلى تخربها شيئاً فشيئاً إلى ظهور التجاعيد، والشيخوخة المبكرة»[4].

٣ـ قوله: «**السواك**»: السواك دلك الأسنان بعود أراك أو نحوه؛ لتذهب عنها الصفرة ونحوها[5].

فالسواك يشرع في كل وقت، ويتأكد عند الوضوء، والصلاة، والانتباه من النوم، وتغير الفم، وصفرة الأسنان، ونحوها.

١ـ انظر بهجه قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار ص ٨٢

٢ ـ روائع الطب الإسلامي ص ١/٧٣ـ٧٤

٣ ـ بهجة قلوب الأبرار ص ٨٢

٤ ـ روائع الطب الإسلامي ١/٧٤

٥ـ انظر لسان العرب ١٠/٤٤٦، وصحيح مسلم بشرح النووي ٣/١٤٢

وفي ذلك تطهير، ونظافة للفم الذي هو عضو التواصل، كما هو مدخل معظم الجراثيم إلى البدن، ولهذا ربط النبيﷺ بين نظافة الفم ورضا الله ـ عز وجل ـ[١] بقوله: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**»[٢].

٤ـ قوله: «**واستنشاق الماء**» المقصود به استنشاق الماء عند الوضوء، ويراد به غسل الأنف باستنشاق الماء إلى داخل الأنف وإخراجه منه، وذلك مشروع في الوضوء والغسل، وهو فرض فيهما من تطهير الأنف، وتنظيفه؛ لأن الأنف يتوارد عليه كثير من الأوساخ، والأبخرة، ونحوها، والإنسان محتاج إلى إزالة ذلك[٣].

ولا ريب أن ذلك نظافة، وصحة زيادة على كونه أجراً ومثوبة.

جاء في كتاب أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء؛ ما نصه: «أظهر بحث علمي حديث أجراه فريق من أطباء جامعة الإسكندرية أن غالبية الذين يتوضؤون باستمرار قد بدا أنفهم نظيفاً خالياً من الأتربة والجراثيم والميكروبات.

ومن المعروف أن تجويف الأنف من الأماكن التي يتكاثر فيها العديد من هذه الميكروبات والجراثيم.

ولكن مع استمرار غسل الأنف والاستنشاق والاستنثار بقوة ـ أي طرد الماء من الأنف بقوة ـ يحدث أن يصبح هذا التجويف نظيفاً خالياً من الالتهابات والجراثيم مما ينعكس على الحالة الصحية للجسم كله؛ حيث تحمي هذه العملية من خطر انتقال الميكروب من الأنف إلى الأعضاء الأخرى للجسم»[٤].

٥ـ قوله: «**قص الأظفار**»: المراد تقليمها كما جاء في بعض الروايات[٥]، ومعنى التقليم: القطع.

١ـ انظر بهجة قلوب الأبرار ص٨١، وروائع الطب الإسلامي ٤/٢

٢ـ أخرجه الشافعي في الأم ١/٢٣، وأحمد ٦/٤٧ و٦٢ و١٢٤

٣ـ انظر بهجة قلوب الأبرار ص ٨١

٤ـ أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء لأبي إسحاق العراقي ص٤٠

٥ـ انظر صحيح مسلم (٢٥٧).

ولا ريب أن قص الأظفار سلامة من الجراثيم التي تتكون في الأظفار إذا طالت.

٦ـ قوله: «**وغسل البراجم**»: البراجم جمع بُرجُمة.

قال النووي رحمه الله: «البراجم هي عقد الأصابع ومفاصلها كلها.

قال العلماء: ويلحق بالبراجم ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن وهو الصماخ، فيزيله بالمسح؛ لأنه ربما أضرت كثرته بالسمع.

وكذلك ما يجتمع في داخل الأنف، وكذلك جميع الوسخ المجتمع على أي موضع كان من البدن بالعرق، والغبار ونحوها والله أعلم»[١].

٧ـ قوله: «**ونتف الإبط**» وهو إزالة الشعر النابت بالإبط، قال النووي رحمه الله: «أما نتف الإبط فَسُنةٌ بالاتفاق، والأفضل فيه النتف لمن قوي عليه، ويحصل ـأيضاًـ بالحلق»[٢].

٨ـ قوله: «**وحلق العانة**» المراد بالعانة: الشعر الذي فوق ذكر الرجل وحواليه، وكذلك الشعر الذي حوالي فرج المرأة، ويلحق به الشعر النابت حول حلقة الدبر[٣].

قال النووي رحمه الله: «فيحصل من مجموع هذا استحباب حلق ما على القبل والدبر وحولهما.

وأما وقت حلقه فالمختار أنه يُضْبَط بالحاجة، وكذلك الضبط في قص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار.

وأما حديث أنس المذكور في الكتاب: «**وُقِّت لنا في قص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة**»[٤] فمعناه لا يترك تركاً يتجاوز أربعين إلا أنهم وقت لهم الترك أربعين والله أعلم»[٥].

١ـ صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٠/٣

٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٩/٣

٣ ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٨/٣

٤ ـ أخرجه مسلم (٢٥٨)

٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٨/٣ـ١٤٩

ولا ريب أن في ذلك رقيٌّ، ونظافة، وتطهر، وصحة، وراحة.

يقول الدكتور الكيلاني متحدثاً عن نتف الإبط، وفوائد ذلك: «إن النتف يضعف إفراز الغدد العَرَقية، والدهنية، وإن الاعتياد عليه ـأي بالنتف ـ منذ بدء نموه، ودون أن يحلقه أبداً يضعف الشعر ـأيضاًـ ولا يشعر المرء بأي ألم عند نتفه.

والمقصود أن يكون باليد، ويمكن إزالته بالرهيمات المزيلة للشعر.

وفي الحقيقة فإن نمو الأشعار تحت الإبطين بعد البلوغ يرافقه نضوج غُددٍ عرقية خاصة تفرز موادَّ ذات رائحة خاصة إذا تراكمت مع الأوساخ والغبار أزنخت، وأصبح لها رائحة كريهة.

وإن نتف هذه الأشعار يخفف إلى حد كبير من هذه الرائحة، ويخفف من الإصابة بالعديد من الأمراض التي تصيب المنطقة كالمذح، والسعفات الفطرية، والتهابات الغدد العرقية، والتهابات الأجربة الشعرية وغيرها.

كما يقي من الإصابة بالحشرات المتطفلة على الأشعار كقمل العانة»[1].

ويقول الدكتور محمد نزار الدقر متحدثاً عن الفوائد الصحية الناتجة عن إزالة شعر العانة، وعن حكمة الإسلام في سن هذه الإزالة التي ينتج عنها نظافة وصحة قال: «إن ناحية العانة، وما يحيط بالقبل والدبر منطقه كثيرة التعرق، والإحتكاك ببعضها البعض.

وإنه إن لم يحلق شعرها تراكمت عليه مفرزات العرق والدهن.

وإذا ما تلوثت بمفرغات البدن من بول وبراز صعب تنظيفها حينئذ وقد يمتد التلوث إلى ما يجاورها فتزداد، وتتوسع مساحة النجاسة، ومن ثم يودي تراكمها إلى تخمُّرها، فتنتن، وتصدر عنها روائح كريهة جدًّا، وقد تمنع صحة الصلاة إن لم تنظف، وتقلع عنها النجاسات».

---

١ ـ روائع الطب الإسلامي ٧٢/١.

ويواصل الدكتور الدقر حديثه عن حكمة حلق شعر العانة، فيقول: «وفي حلق شعر العانة -أيضاً- وقاية من الإصابة بعدد من الأمراض الطفيلية المؤذية كقمل العانة الذي يتعلق بجذور الأشعار، ويصعب حينئذ القضاء عليها.

كما يخفف الحلق من إمكانية الإصابة بالفطور المضنية؛ لذا سن الإسلام حلق العانة، والأشعار حول الدبر كلما طالت تأميناً لنظافتها المستمرة، ولأنها من أكثر مناطق الجسم تعرضا للتلوث والمرض»[١].

٩- قوله: « **وانتقاص الماء**»: يعني الاستنجاء، وهو إزلة الخارج من السبيلين بماء أو حجر، فهو لازم، وشرط من شروط الطهارة[٢].

قال الله -عز وجل- في معرض الثناء على أهل قباء: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ التوبة: ١٠٨.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «سبب نزولها أن رجالاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية، قاله الشعبي.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية آتاهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما الذي أثنى الله به عليكم**».

فقالوا: «إنا نستنجي بالماء»[٣].

لقد فطر الله -عز وعلا- الإنسان، وجبله على أن يتخلص مما في أمعائه ومثانته من غائط وبول وغيرهما من نفايات الجسم، حتى يظل الجسم الإنساني في حالة من النقاء، والصحة، والقدرة على أداء الوظائف الطبيعية والحيوية التي يقوم بها، وبعد عملية التخلص تلك فإنه يجب على المسلم أن ينظف هذه الأماكن بالماء، وفي هذا يقول رسول ﷺ: «**تنزهوا من البول فإنه عامة عذاب القبر منه**»[٤].

١- روائع الطب الإسلامي ٧٢/١

٢ - انظر بهجة الأبرار ص ٨٢.

٣ - زاد المسير لابن الجوزي ٥٠١/٣.

٤ - أخرجه الدار قطني (٧) وصححه الألباني كما في إرواء الغليل برقم (٢٨٠).

ومعنى التنزه : هو التطهر والاستنجاء ، ولهذا العملية فائدة طبية وقائية عظيمة ، فقد أثبت الطب الحديث أن النظافة الذاتية لتلك الأنحاء تقي الجهاز البولي من الالتهابات الناتجة عن تراكم الميكروبات والجراثيم ، كما أنها تقي الشرج من الاحتقان ، ومن حدوث الالتهابات والدمامل ، وفي حالة المرضى خصوصاً مرضى السكر أو البول السكري؛ لأن بول المريض يحتوي على كمية كبيرة من السكر ، فإذا بقيت آثار البول فإن هذا يجعل العضو عرضة للتقيح والالتهابات ، وقد تنتقل الأمراض في وقت لاحق إلى الزوجة عند الجماع ، وقد يؤدي إلى عقم تام[١] .

كذلك سنَّ الإسلام استعمال اليد اليسرى لإزالة النجاسة؛ حتى تظل اليد اليمنى المخصصة للطعام طاهرة نظيفة ، وكذلك اشترط غسلها بعد التطهير.

وقد يعجب بعض الناس من اهتمام الإسلام حتى بهذه الأمور ، ولكن لا عجب لمن يعرف لهذا الدين قدره ، ومن يؤمن أنه الدين الذي أتمه الله وأكمله منهاجاً أبديًّا للبشر إلى قيام الساعة ، منهاجاً لا يحمل إلا الخير لعبادة المسلمين قال الله -تعالى- : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ المائدة : ٣ .

فإزالة النجاسة وقاية -بإذن الله- من كثير من الأمراض ، وأمان من انتقال كثير من الأمراض المعدية[٢] .

جاء في كتاب أسباب الشفاء ما نصه : «في عام ١٩٦٣ في دولة انجلترا وبالتحديد في مدينة «دانداي» حدث أن انتشر مرض التيفود بشكل عاصف ، مما أصاب السكان بالذعر الشديد ، وبذل الجميع طاقاتهم في محاولات شتى لوقف انتشار المرض.

---

١ - انظر أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء ص ٣٥

٢ - أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء ص ٣٦

وفي النهاية اتفق العلماء على إذاعة تحذير في مختلف وسائل الإعلام يأمرون الناس بعدم استعمال الأوراق في دورات المياة، واستبدالها باستخدام المياه مباشرة في النظافة؛ وذلك لوقف انتشار العدوى.

وبالفعل استجاب الناس، وللعجب الشديد توقف فعلاً انتشار الوباء وتمت محاصرته، وتعلم الناس هناك عادة جديدة عليهم بعد معرفة فائدتها، وأصبحوا يستخدمون المياه في النظافة بدلاً من المناديل الورقية.

ولكننا لسنا متأكدين ماذا يقول هؤلاء لو علموا أن المسلمين يفعلون هذا أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ليس لأن التيفود تَفَشَّى بينهم، ولكن لأن خالق التيفود وغيره من الأمراض أمرهم بكل ما يجلب لهم الصحة والعافية، فقالوا سمعنا وأطعنا قال الله -تعالى-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1] الملك: ١٤.

١٠- قوله: «**المضمضة**»: هي تحريك الماء في الفم للوضوء، لأجل تطهير الفم، وتنظيفه.

وقد أثبت العلم الحديث أن المضمضة تحفظ الفم والبلعوم من الالتهابات، وتحفظ اللثة من التقيح، ولذا تقي الأسنان وتنظفها بإزالة الفضلات الغذائية التي تبقى بعد الطعام في ثناياها.

وفائدة أخرى مهمة جدًّا للمضمضة فهي تقوي بعض عضلات الوجه، وتحفظ للوجه نضارته، واستداراته، وهي تمرين مهم يعرفه المتخصصون في التربية الرياضية، وهذا التمرين يفيد-أيضاً- في إضفاء الهدوء النفسي على المرء لو أتقن تحريك عضلات فمه أثناء المضمضة[2].

المطلب الثاني: ما جاء في مشروعية الوضوء

الوضوء طهارة مائية تتعلق بالوجه، واليدين والرجلين؛ فغسل هذه الأعضاء يعد

---

١ - أسباب الشفاء من الأسقام والاهواء ص ٣٦

٢ - أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء ص ٤٠

فروضَ الوضوء.

وللوضوء سنن، كالتسمية في أوله، والسواك قبله، وغسل الكفين ثلاثاً في أول الوضوء، والمضمضة ثلاثاً، والاستنثار ثلاثاً، ومعنى الاستنثار إخراج الماء من الأنف بعد استنشاقه.

ومن سنن الوضوء التيامن -أي البدء بغسل اليمين- وتخليل الأصابع، ومسح الأذنين، والاقتصاد بالماء[١].

قال الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة: ٦ .

وقال النبيﷺ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ**»[٢].

ولقد جاء تفصيل الوضوء في السنة النبوية في أحاديث كثيرة، وقد أطنب العلماء والفقهاء في بيان ذلك مفصلاً، وليس هذا موضع بسطه، وإنما الذي يعني ههنا بيان علاقة الوضوء بالنظافة؛ ذلك أن للوضوء أسراراً، وحكماً، وتعلقاً بالنظافة، بل والصحة.

ولقد مَرَّ في الفقرة الماضية بيان لشيء من ذلك.

ومما يحسن الإشارة إليه في شأن الوضوء ههنا ما يلي:

١ـ أن الوضوء ليس مجرد تنظيف للأعضاء الظاهرة فحسب؛ وليس مجرد تطهير للجسد يتوالى عدة مرات في اليوم.

بل إن الأثر النفسي، والسمو الروحي الذي يشعر به المسلم بعد الوضوء لشيءٌ أعمق من أن تعبر عنه كلماتٌ، خاصةً مع إسباغ الوضوء وإتقانه، واستحضار فضله؛

١ـ انظر فقه السنه السيد سابق ١/ ٣٨

٢ـ أخرجه البخاري (٦٥٥٤) ومسلم(٢٢٥).

فللوضوء أثر عظيم في حياة المسلم؛ حيث يجعله في يقظة، وحيوية، وتألق[١].

٢ـ أن عملية غسل الأعضاء التي نُص عليها في الوضوء تعد من منتهى الأهمية للنظافة والصحة العامة؛ ذلك أن تلك الأعضاء تتعرض ـكما يقول الأطباءـ لعدد هائل من الميكروبات التي تقدر بالملايين في كل سنتمتر مكعب من الهواء، وهي دائماً في حالة هجوم على الجسم الإنساني من خلال الجلد في المناطق المكشوفة منه.

وعند الوضوء تُفاجأ هذه الميكروبات بحالة كسح شاملة لها من فوق سطح الجلد خاصة مع الإسباغ الجيد الذي هو هدي رسول الله ﷺ وبذلك لا يبقى بعد الوضوء أيُّ أثرٍ من أدرانٍ أو جراثيمَ على الجسم إلا ما شاء الله[٢].

٣ـ أن لغسلِ الوجه واليدين إلى المرفقين حالَ الوضوء فائدةً كبيرةً جدًّا في إزالة الأتربة، والميكروبات فضلاً عن إزالة العرق من سطح الجلد، كما أنه ينظف الجلد من المواد الدهنية التي تفرزها الغدد الجلدية.

وهذه غالباً ما تكون موطناً ملائماً جدًّا لمعيشة الجراثيم وتكاثرها[٣].

٤ـ أن لغسل الرجلين أثناء الوضوء مع الإسباغ الجيد أثراً في النظافة، وإطفاء السكينة، لما في الأَقْدام من منعكسات لأجهزة الجسم كله.

وهذا من أسرار ذلك الشعور بالهدوء الذي يجده المسلم بعد الوضوء[٤].

٥ـ أنه قد ثبت بالبحث العلمي أن الدورة الدموية في الأطراف العلوية من اليدين والساعدين، والأطراف السفلية من القدمين والساقين أضعف منها في الأعضاء الأخرى؛ لبعدها عن المركز المنظم للدورة الدموية وهو القلب؛ لذا فإن غسل هذه الأطراف جميعاً مع كل وضوء يقوي الدورة الدموية؛ فيزيد في نظافة الجسم، ونشاطه، وحيويته.

١ـ انظر أسباب الشفاء ص ٣٩

٢ـ انظر أسباب الشفاء ص ٤١

٣ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٠٥

٤ـ انظر أسباب الشفاء ص ٤١

وقد ثبت ـأيضاًـ تأثيرُ أشعة الشمس ولا سيما الأشعة فوق البنفسجية في إحداث سرطان الجلد، وهذا التأثير ينحسر جدًّا مع توالي الوضوء؛ لما يحدثه من ترطيب دائم لسطح الجلد بالماء، خاصة تلك الأماكن المعرضة للأشعة مما يتيح لخلايا الطبقات السطحية والداخلية للجلد أن تحتمي من الآثار الضارة للأشعة[1].

المطلب الثالث: ما جاء في مشروعية الغسل

الغسل هو تعميم البدن بالماء، قال الله ـتعالىـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ المائدة: ٦.

وقال ـعز وجلـ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.

والغسل معروف عند جميع الأمم؛ فلقد اكتشف الإنسان على مدار التاريخِ الأهميةَ العظمى لتنظيف البدن عن طريق الاغتسال، وعالج به كثيراً من الأمراض.

ولكن لم يَعْرفِ التاريخُ أمةً شُرِعَ لها تنظيمُ هذا الأمر أعظم مما جاء به الإسلام الذي جعله الله خاتم أديانه.

ولو أراد باحث أن يستقصي ما ورد في الغسل من النصوص الشرعية، ومن شروح العلماء عليها لطال به المقام في تفصيلات كثيرة جدًّا تُبِيْنُ عن عِظمِ هذا الدين، ودقة تشريعاته في هذا الباب كما هي في غيره.

فهناك الغسل الواجب كما في حال خروج المني دفقاً بلذة، وعند التقاء الختانين، وعند انقطاع دم الحيض، أو النفاس، وإذا أسلم الكافر.

وهناك الأغسال المستحبة التي يمدح المكلف على فعلها ويثاب، وإذا تركها فلا لوم عليه، كغسل الجمعة، وغسل العيدين، وغسل الإحرام، وغسل دخول مكة، وغسل

١ـ انظر أسباب الشفاء ص ٤١

يوم عرفة[١].

وبالجملة فما يقال في الوضوء يقال في الغسل، ويزيد الغسل في التنظيف، والصحة.

المطلب الرابع: ما جاء من حث الإسلام على النظافة العامة

من نظافة البيوت، ونظافة الطرقات، ونظافة الملابس، ونحوها؛ فقد وردت نصوص كثيرة جدًّا في هذا السياق؛ فمن ذلك ما يلي:

١ـ أن إزالة الأذى عن الطرقات شعبة من شعب الإيمان: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٢].

٢ـ أنه جاء النهى عن البول في الماء الراكد: فعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يُبال في الماء الراكد[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**لا تبل في الماء الدائم الذي يجري ثم تغتسل منه**»[٤].

ففي هذين الحديثين نهي عن البول في الماء المستقر؛ لأن البول فيه يسبب تقذيره وتوسيخه عن الناس، ويلحق بذلك تحريم التغوط، والاستنجاء بالماء الراكد[٥].

٣ـ أنه جاء النهي عن الاغتسال في الماء الراكد: فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول ﷺ: «**لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب**» فقيل كيف يفعل يا أبا هريرة؛ قال: يتناوله تناولاً[٦].

فهذا شيء مما جاء به الإسلام في شأن النظافة.

١ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١/٢١٩ـ٢٣٦، وفقه السنة لسيد سابق ١/٥٩ـ٦٦ .

٢ـ أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥)

٣ـ أخرجه مسلم (٢٨١)

٤ـ أخرجه البخاري (٢٣٩) ومسلم (٢٨٢)

٥ ـ انظر توضيح الأحكام ١/١٢٩

٦ـ أخرجه مسلم (٢٨٣)

الفصل الثالث

قضايا السلام والتعايش والتسامح، والإكراه والعنف والإرهاب والجهاد

وتحته:

تمهيد

المبحث الأول: الإسلام والحفاظ على السلام العالمي

المبحث الثاني: الإسلام والتعايش والتسامح

المبحث الثالث: موقف الإسلام من الإكراه

المبحث الرابع: موقف الإسلام من العنف

المبحث الخامس: الجهاد في الإسلام

المبحث السادس: موقف الإسلام من الإرهاب

تمهيد

مر في الفصل الماضي إشارات في هذا الشأن، والحديث ههنا سيتناول قضايا حية، يكثر حولها الجدل، ويشيع الجهل بموقف الإسلام منها عند كثير من الناس الذين لم يدرسوا حقائق الإسلام، ولم يرجعوا إلى مصادره الأصلية التي تجلي تلك القضايا، ولا إلى تاريخه المجيد الذى كان يعطي صورة صادقة لما كان عليه المسلمون من العدل، والرحمة، والتسامح، مع ملاحظة أن تلك القضايا متقاربة، داخل بعضها في بعض.

المبحث الأول: الإسلام والحفاظ على السلام العالمي

الإسلام ـ كما هو معلوم وكما مر فيما سبق ـ دين السلام، والخير، والعدل، والإحسان، بل إن ذلك حاصل حتى في حال الحرب التي قد تقوم فيه لمسوغات معقولة.

وأما غير حال الحرب فالأمر أجلى وأوضح، ومن مظاهر حرص الإسلام على السلام، وأن يعيش الناس براحة، وأمان، وحرية مايلي:

أولاً: أن كلمة السلام من أكثر الكلمات وروداً في شريعة الإسلام: فذلك مما يدل على أنه دين السلام، والخير.

ويتجلى ذلك المعنى غاية الجلاء من خلال شواهد كثيرة من الكتاب والسنة، ومنها ما يلي:

١ـ أن السلام اسم من أسماء الله ـعز وجلـ: قال الله ـتعالىـ: ﴿ **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ... الآية** ﴾ الحشر: ٢٣ .

٢ـ أن اسم السلام مشتق من السِّلْم: والسلم، والسلام من أسماء الإسلام.

قال الله ـتعالىـ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً** ﴾ البقرة: ٢٠٨.

والسِّلْم ههنا بمعنى الإسلام[١].

وقال ـعز وجلـ: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا** ﴾ النساء: ٩٤ .

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فالسلم، والسلام بمعنى الاستسلام، وقيل: هما بمعنى الإسلام»[٢].

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٥٦٥، وتفسير البغوي ١/٢٤٠ .

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/٥٠١ .

٣ـ أن الرسولﷺ حث على إفشاء السلام، وبين أنه من أعظم أسباب الألفة، ودخول الجنة: فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم**»[1].

٤ـ أن أفضل تحية بين المسلمين هي السلام: وهي أن يقول المُحَيِّي: السلام عليكم، أو يقول: السلام عليكم ورحمة الله، أو يزيد: وبركاته.

ويرد عليه المسلَّم عليه بقوله: وعليكم، أو: وعليكم السلام، أو يزيد: ورحمة الله، أو يزيد على ذلك كله: وبركاته.

قال النووي رحمه الله: «يستحب أن يقول المبتدئ بالسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتي بضمير الجميع وإن كان المسلم عليه واحداً.

ويقول المجيب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيأتي بواو العطف في قوله: وعليكم»[2].

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه ثم جلس، فقال النبيﷺ: «**عشر**» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: «**عشرون**» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: «**ثلاثون**»[3].

وهذا الحديث يعني زيادة الحسنات بزيادة التحية.

وقد ذكر أهل العلم تفصيلات في كيفية السلام ورده، وعن السلام وآدابه، وتسليم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، وعن استحباب إعادة السلام على من تكرر لقاؤه، واستحبابه لمن دخل بيته، وعن السلام

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤).

(٢) رياض الصالحين للنووي ص ٢٦٠ .

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٩٥) والترمذي (٢٦٨٩) وقال: «حديث حسن».

على الصبيان، ولمن قام من المجلس، أو فارق جلساءه إلى غير ذلك من أحكام السلام التي تعطي دلالة على مكانة السلام في دين الإسلام[1].

٥ـ أن تحية المسلمين في الجنة سلام: قال الله ـعز وجل ـ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يونس: ١٠.

وقال ـأيضاًـ عن تحية الملائكة لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الرعد: ٢٤.

وقال ـسبحانهـ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ ق: ٣٤.

٦ـ أن الله ـعز وجلـ أثنى على المؤمنين الذين يقابلون السفه والجهل بقولهم سلام: قال الله ـعز وجلـ في معرض ذكر صفات عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ الفرقان: ٦٣.

وقال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ القصص: ٥٥.

٧ـ أن الرسول ﷺ بين أن المسلم حقًّا هو من يَسْلَمُ الناسُ من شره: قال ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[2].

فهذا نزر يسير من مكانة السلام في شريعة الإسلام.

ثانياً: أن الإسلام يحفظ الأموال: وفي ذلك إشاعة للسلام، والأمان؛ ولهذا حثَّ على الأمانة، وأثنى على أهلها، ووعدهم بطيب العيش، ودخول الجنة، وحرَّم السرقة، وتوعد فاعلها بالعقوبة، وشرع حد السرقة وهو قطع يد السارق؛ حتى لا يتجرأ أحد على سرقة الأموال؛ فإذا لم يرتدع خوفاً من عقاب الآخرة ارتدع خوفاً من قطع اليد؛ ولهذا يعيش أهل البلاد التي تُطَبِّق حدود الشرع آمنين على أموالهم، بل

---

(١) انظر رياض الصالحين للنووي ص ٢٥٦ـ٢٦٤.

(٢) أخرجه البخاري (١٠) ومسلم (٤٠).

إن قطع اليد في تلك البلاد قليل جدًّا؛ لقلة من يسرق.

ثم إن قطع يد السارق فيه حكمة الزجر للسارق من معاودة السرقة، وردع أمثاله عن الإقدام عليها، وهكذا تحفظ الأموال في الإسلام، ويعيش أهله في أمن وسلام.[١]

ولا يعني قطع يد السارق أن كل من سرق أي شيء قطع، بل لا بد له من توافر شروط، وانتفاء موانع، ولا بد من النظر في قضية السرقة من قبل القاضي، في تفصيلات يطول شرحها، وانطباق حد السرقة فيها.

ثالثاً: أن الإسلام يحفظ الأنفس: ولهذا حرَّم قتل النفس بغير الحق، وعاقب قاتل النفس بغير الحق بأن يقتل؛ ولأجل ذلك يقل القتل في بلاد المسلمين، التي تطبق شرع الله؛ فإذا علم الإنسان أنه إذا قَتَل شخصاً بغير حق سيُقتل به كفَّ عن القتل، وارتاح الناس من شر المقاتلات.

ثم إن أهل القتيل لهم حق؛ فإذا كان القاتل سَيَقْتُل، ثم يخرج بعد ذلك يتمتع بالحياة كيفما شاء ـ كان ذلك ـ مُغِيظاً لأهل المقتول، وربما حملهم على الثأر، فيزيد الأمر ضراوة وفتنة.

فإذا اقْتُصَّ من القاتل ارتاحت نفوس أهل القتيل، واشتفت صدورهم بأخذ حقهم.

ثم إن القصاص ليس الطريقَ الوحيدَ، بل إن لورثة القتيل الحقَّ في العفو، أو أخذ الدية، وهذا من التخفيف والرحمة.

بل إن الإسلام حث على العفو، ورتب عليه الجزاء العظيم، والثواب الجزيل من الله ـ عز وجل ـ.

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩ .

١ـ انظر الطريق إلى الاسلام ص٣٣ـ٣٤

وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الشورى: ٤٠ .[١]

والقصاص من القاتل ليس كلأً مباحاً لكل أحد، بل هو مسؤولية الوالي المسلم، أو من ينصِّبه من القضاة، ولا بد في قضية القتل من اجتماع شروط، وانتفاء موانع في تفصيلات يطول شرحها.

ثم إن النفس التى حرم الإسلام قتلها بغير الحق شامل عام؛ فيشمل قتل النفس المؤمنة قال الله ـعز وجلـ: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ النساء: ٩٣ .

ويشمل تحريم الاعتداء على حياة الآخرين ممن لم يدخلوا دين الإسلام، وحفظ الإسلام ذممهم، قال النبيﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**»[٢].

وقال النبيﷺ: «**أيما رجل آمن رجلاً على دمه، ثم قتله فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً**»[٣].

وفي لفتة أخرى يحسن ذِكْرُ هذه الحادثة التى حصلت لما فتح نبي الإسلامﷺ مدينة خيبر، وكانت من معاقل اليهود شمال المدينة المنورة ـ دخلها الصحابي عبدالله بن سهيل رضي الله عنه ثم وجد مقتولاً ومرمياً في أحد آبارها، فجاء أهله إلى النبيﷺ يتهمون اليهود في قتله، فكتب رسول الله ﷺ إلى اليهود في ذلك، فكتبوا: إنا والله ما قتلناه، فقال رسول الله ﷺ لأهل القتيل: «**أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟**» قالوا: لا ، قال:«**أفتحلف لكم يهود؟**» قالوا: ليسوا بمسلمين، فدفع رسول اللهﷺ ديته لأهله، وكانت مائة ناقة[٤].

١ـ انظر الطريق إلى الإسلام ص ٣٤ـ٣٥

٢ ـ أخرجه البخاري(٢٩٩٥)

٣ ـ أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٩٦٧٩) وأحمد في المسند (١٩١٠)

٤ـ انظر صحيح البخاري (٦٧٦٩) ومسلم (١٦٦٩)

وما من شك أن الشبهاتِ القويةَ، والقرائنَ الدالةَ كانت تحوم حول يهود؛ حيث وجد الصحابي المقتول بينهم، وألقي في بئر لهم، وكانت خيبر مدينة يهودية، وقد اعتاد المسلمون الغدر من اليهود.

ولكن نبي الإسلام لم يأخذهم بهذه الشُّبَهِ القوية، ودفع بنفسه الدين عن هذا القتيل؛ حفاظاً منه على حرمة النفس، وإشاعة السلام والعدل مع الأعداء.

رابعاً: الإسلام حرم اعتداء الإنسان على نفسه: فلم يقتصر على تحريم الاعتداء على الآخرين، بل حرَّم حتى اعتداء الإنسان على نفسه التي هي أخص ما يملك؛ فلم يجز له الإسلام أن يفسد عقله، أو يدمر صحته، فضلاً عن أن يعتدي عليها بالقتل.

ولذلك جاء الوعيد الشديد في حق من قتل نفسه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا**﴾ النساء.

خامساً: أن الإسلام يكفل الحريات ويضبطها: وذلك من أجلى صور السلام؛ فحرية التفكير في الإسلام مكفولة، وقد منح الله الإنسان الحواس من السمع، والبصر، والفؤاد؛ ليفكر، ويعقل، ويصل إلى الحق، وهو مأمور بالتفكير الجاد السليم، ومسؤول عن إهمال حواسه وتعطيلها، كما أنه مسؤول عن استخدامها فيما يضر.

والإنسان في الإسلام حُرٌّ في بيعه، وشرائه، وتجارته، وتنقلاته، ونحو ذلك ما لم يتعد حدود الله في غش، أو خداع، أو إفساد.

والإنسان في الإسلام حُرٌّ في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا من: مأكول، أو مشروب، أو مشموم، أو ملبوس، ما لم يرتكب محرماً يعود عليه أو على غيره بالضرر.

ثم إن الإسلام يضبط الحريات؛ فلا يجعلها مطلقة سائمة في مراتع البغي والتعدي على حريات الآخرين؛ فالشهوة على سبيل المثال لو أُطلِقت لاندفع الإنسان وراء شهوته، التي تكون سبباً في هلاكه؛ لأن طاقته محدودة، فإذا استُنفِذت في اللهو والعبث والمجون ـ لم يبق فيها ما يدفعها إلى الطريق الجاد،

ويدلها على مسالك الخير؛ فليس من الحرية -إذاً- أن يسترسل في شهواته وملذاته غير مبالٍ بحلال أو حرام، وغير ناظر في العواقب.

إن نهايته ستكون وخيمة في العاجل قبل الآجل؛ إن ثرواته ستتبدد، وإن قواه ستنهار، وصحته ستزول، وبالتالي سيكون تعيساً محسوراً.

ثم هب أن الإنسان أطلق لشهواته العنان، هل سيجد الراحة والطمأنينة؟

الجواب: لا؛ وإذا أردت الدليل على ذلك فانظر إلى عالمنا المعاصر بحضارته المادية؛ لما أطلق حرية العبث والمجون، ولم يُحسن استخدامها ـ حدثت القلاقل، والمصائب، والأمراض الجسدية والنفسية، وشاع القتل، والنهب، والسلب، والانتحار، والقلق، وأمراض الشذوذ.

وليست الحرية ـ أيضاً ـ بالسير وراء الأطماع التي لا تقف عند حد دونما مبالاة في آثارها على الآخرين؛ فهل يعد من الحرية ما يقوم به الأقوياء من سطو على الضعفاء، واستخفاف بحقوقهم، ومصادرة لآرائهم كما هي حال الدول الكبرى في عالمنا المعاصر؟

الجواب: لا؛ فالحرية الحقة هي ما جاء به الإسلام، وهي الحرية المنضبطة التي تحكم تصرفات الإنسان، والتي يكون فيها الإنسان عبداً لربه وخالقه؛ فذلك سر الحرية الأعظم؛ فالإنسان إذا تعلق بربه خوفاً، وطمعاً، وحباً، ورجاء، وذلاً، وخضوعاً ـ تحرر من جميع المخلوقين؛ ولم يعد يخاف أحداً غير ربه، ولا يرجو سواه، وذلك عين فلاحه وعزته[1].

وهذا وسيأتي مزيد بيان لترسيخ الإسلام لمبدأ السلام في المباحث التالية.

١ـ انظر تلبيس مردود ص ٢٢ـ٢٧ والطريق إلى الاسلام ص ٢٨ـ٤٠

المبحث الثاني: الإسلام والتعايش والتسامح

الإسلام -كما هو معلوم- هو الدين الخاتم، وهو رسالة الله الأخيرة للبشرية، فلا غرو أن تكون تلك الرسالة شاملة عامة صالحة لكل زمان، ومكان وأمة -كما مر-.

وأحكام الإسلام لم تختص بتعامل المسلمين فيما بينهم، بل هي عامة تُظِل جميع الناس على اختلاف أديانهم؛ ففي شمول الإسلام وعمومه ما يبيِّن كيفيه التعامل مع كافة الطبقات من أهل الإسلام وغيرهم.

وهذا يعنى أن الإسلام دين عملي، واقعي، وليس نظرياتٍ مُغْرِقةً في المثالية التي لا تتلاءم مع واقع الحياة والناس.

والله -عز وجل- خلق الناس، وقرر أن منهم كافراً، ومنهم مؤمناً.

وأمر-عز وجل- بدعوة الناس إلى الهدى، ولكن لم يُكَلِّف الداعين بإدخال الناس في الدين الحق ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ الشورى: ٤٨ .

ومن هنا فإن سنة الاختلاف بين الناس قائمة، مقررة في القرآن: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ هود.

ولا يعنى ذلك إقرار الباطل، ولا قبول كل المذاهب أو تسويغها، أو الرضا بها، أو ترك الإنكار عليها، وبيان زيفها، ودعوتها إلى الحق.

وإنما المطلوب في ذلك حسن التعامل مع تلك الاختلافات، واتباع هدي الإسلام بالحوار مع المخالف[1]، والأخذ -في الأصل- بمبدأ الرفق واللين؛ فجماع آداب المعاملة في الدين يرجع إلى الدعوة للدين بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في قالب التسامح بقدر الإمكان تسامحاً لا ينتقض شيئاً من عرى الإسلام، ولا يُجرِّؤُ أحداً على حرمته وسلطانه[2].

١- انظر خطوات في فقه التعايش والتجديد د.هاني فقيه ص١٩

٢- انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص٢١٣.

فهذا هو مفهوم التعايش الإنساني بين البشر، فكلمة التعايش شائعة في هذا العصر، وهي قريبة من كلمة التسامح التي كانت أشهر وأسْير.

هـذا وإن النـاظر في نصـوص الشـرع، وتـاريخ المسـلمين ليجـد أن روح التسـامح والإحسان واضحة جلية.

وإليك فيما يلي نبذة عن التسامح الذي هو قريب من التعايش، وعن بعض مظاهره في الشريعة الإسلامية الغراء، وعن بعض تطبيقاته في تاريخ أمة الإسلام:

أولاً: مفهوم التسامح: يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ﷺ: «التسامح في اللغة مصدر سامحه إذا أبدى له السماحة القوية»

إلى أن قال: «وأصل السماحة: السهولة في المخالطة والمعاشرة، وهما لين في الطبع في مظانَّ تكثر في أمثالها الشدة.

وفي الحديث الصحيح أن رسول اللهﷺ قال: «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**»[١][٢].

إلى أن قال ﵀: «وأنا أريد بالتسامح في هذا البحث إبداء السماحة للمخالفين للمسلمين بالدين، وهو لفظ اصطلح عليه العلماء الباحثون في الأديان من المتأخرين في أواخر القرن الماضي أخذاً من الحديث: «**بعثت بالحنفية السمحة**»[٣].

فقد صار هذا اللفظ حقيقة عرفية في هذا المعنى.

وربما عبروا عنه سالفاً بلفظ: (تَسَاهُل)

وهو مرادف له في اللغة، ولكن الاصطلاح الذى خَصَّ لَفْظَ التسامح بمعنى السماحة الحاصلة تلقاء المخالفين في الدين كان حقيقاً أن يترك مرادفه في أصل معناه؛ فلذلك هجروا لفظ: (التساهل) إذ كان يُؤْذِنُ بقلة تمسك المسلم بدينه؛ فتعيَّن لفظُ التسامح للتعبير عن هذا المعنى.

١ـ أخرجه البخاري (١٩٧٠) بلفظ: «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، إذا اشترى، إذا اقتضى**».

٢ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٣.

٣ـ أخرجه الإمام أحمد (٢٢٣٤٥) والطبراني في الكبير (٧٨٠٣) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).

وهذا لفظ رشيق الدلالة على المعنى المقصود لا ينبغي استبداله بغيره »[١].

ثانياً : أهمية البحث في تسامح الإسلام : البحث عن تسامح الاسلام ـكما يقول ابن عاشورـ من أهم المباحث للناظر في حقائق دين الاسلام؛ فإن كثيراً من العلماء والمفكرين خصوصاً من غير المسلمين لا يتصور معنى سماحة الإسلام حَقَّ تصورها.

وربما اعتقدوا أنها غير موجودة في الإسلام، وربما اعتقد مثبتوها أحوالاً لها تزيد في حقيقتها، أو تنقصها عما كانت عليه.

ولبعض هؤلاء العذر في هذا الخطأ؛ لأنهم قد يشاهدون من أحوال عامة المسلمين في كثير من عصور التاريخ ما يجعلهم يظنون أن ذلك حقيقة دين الإسلام، فيخالفون بذلك صورة الإسلام الحقيقية التي قامت عليها البراهين والشواهد.

على أن بعضاً من المسلمين قد حملهم على تناسي التسامح الإسلامي ما يلاقيهم به بعضُ أهل الملل الأخرى من صلابة المعاملة، وسوء الطوية، وتبييت الشر، وتربص الدوائر، واستغلال ما للمسلمين من تسامح؛ لتحصيل فوائدهم، وإدخال الرزايا على المسلمين مما يبعث المسلمين إلى أخذ الحذر، والمعاملة بالمثل طيلة القرون، حتى أنساهم تسامحهم.

ولكن هذا لهُ مجال آخر؛ فلا يكون ذلك باعثاً على تحريف معنى التسامح.

على أن هذه المعاملة التي لقيها المسلمون في كل العصور في وقت ظهور الدين لم يكن حائلاً بين المسلمين وبين تخلُّقهم بخلق التسامح، واكتساب فضائله مع العلم بما ينالهم من جَرَّائه من متاعب الحذر؛ فإن محاسن الخلال لا يشينها ما قد يضيع بسببها من المنافع، وعلى المتخلق بالفضائل أن لا ينبذها لذلك، ولكن أن يأخذ الحيطة لدفع مكارهها[٢].

ومن جهة أخرى فإنة لا ينبغي للناظر إلى دين الإسلام أن ينطر من زاوية ما يلقاه من أحوال بعض المسلمين في بعض فترات التاريخ، خصوصاً مثل هذه العصور المتأخرة؛ إذ إن من الظلم، وقصور النظر أن تُجْعل حالُ بعضِ المسلمين هي الصورة التي تمثل

١ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٣ .

٢ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٤ .

الإسلام؛ فَيُظنَّ أن الإسلام لم يُهذِّب طباع أهله، ولم يرفع عنهم الذلة، والقسوة؛ لذا كان لزاماً على من يريد الحقيقة بعدل وإنصاف أن ينظر إلى دين الإسلام من خلال مصادره الصحيحة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلف الأمة الصالح، وأن ينظر إلى الإسلام من خلال الكتب التي تتحدث عنه بعدل وعلم، فسيتبين له أن الإسلام يدعو إلى إسعاد البشر، وإضفاء السلام والأمن، وإشاعة العدل والإحسان.

أما انحرافات بعض المنتسبين إلى الإسلام ـقَلَّتْ أو كثرتـ فلا يجوز بحال من الأحوال أن تحسب على الدين، أو أن يعاب بها، بل هو براء منها، وتبعة الانحراف تعود على المنحرفين أنفسهم؛ لأن الإسلام لم يأمرهم بذلك؛ بل نهاهم وزجرهم عن الانحراف عما جاء به.

ثم إن العدل يقتضي بأن يُنظر في حال القائمين بالدين حق القيام، والمنفذين لأوامره وأحكامه في أنفسهم وفي غيرهم؛ فإن ذلك يملأ القلوب إجلالاً ووقاراً لهذا الدين وأهله؛ فالإسلام لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الإرشاد والتهذيب إلا حثَّ عليها، ولا رذيلة أو مفسدة إلا صدَّ عن سبيلها.

وبذلك كان المعظمون لشأنه، المقيمون لشعائره في أعلى طبقة من أدب النفس، وتربيتها على محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، يشهد لهم بذلك القريب والبعيد، والموافق والمخالف.

أما مجرد النظر إلى حال المسلمين المفرِّطين في دينهم، الناكبين عن صراطه المستقيم ـ فليس من العدل في شيء، بل هو الظلم بعينه[1].

ثالثاً: أن التسامح في الإسلام وليد إصلاح التفكير ومكارم الأخلاق: اللذين هما من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

وهذا التسامح ناشىء من صحة الاعتقاد الذي يأمر صاحبه بكل خير، وينأى

١ـ انظر تنزيه الدين وحملته ورجاله للسعدي ص ٤٧٤

به عن كل شر، ويضبط عواطفه، ويجتث من نفسه كافة الرعونات.

ولا ريب أن العقل السالم من الشهوات والشبهات يسوق صاحبه إلى العقائد الحقة، ويكسبه الثقةَ بعقيدته، والأمنَ من أن يزلزلها مخالف.

غير أنه ربما أحس من ضلال مخالفه بإحساس يضيق به صدره، وتمتلئ منه نفسه تعجباً من قلة اهتداء المخالفين إلى العقيدة الحقة، وكيف يغيب عنهم ما يبدو له هو واضحاً بيناً؛ فههنا يجيء عملُ مكارم الأخلاق، فيكون من النشأة على مكارم الأخلاق، ومن التأدب بآداب الشرع الحكيم مَعْدلٌ لذلك الحرج، وشارحٌ لذلك الصدر من الضيق؛ فيتدرب بذلك على تلقي مخالفات المخالفين بنفس مطمئنة، وصدر رحب، ولسان طلْق؛ لإقامة الحجة، والهدى إلى المحجة دون ضجر ولا سآمة.

وقد جاءت وصايا الإسلام مثيرةً لهذين الأصلين، وهما أصل الثقة بصحة العقيدة، وأصل مكارم الأخلاق في نفوس أبنائه، فأما إثارة أصل الثقة بصحة العقيدة دون التفات لعقيدة الآخرين فبمثل قول الله ـتعالىـ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ النمل: ٧٩ـ٨٠.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة: ١٠٥ .

وأما إثارة أصل مكارم الأخلاق فبمثل قوله ـتعالىـ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف: ٦ .

ومعنى باخع: مهلك.

ولا ريب أن إثارة هذا الأصل تُوَسِّع الصدر، وتوطِّن النفس على احتمال ما يكون من المخالف.

فلذلك يحق لنا أن نقول: إن التسامح من خصائص دين الإسلام، ومن أشهر مميزاته، وإنه من النعم التي أنعم بها على أضداده وأعدائه، وأدلّ حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المُقَرَّرة بقول الله -تعالى-: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ الأنبياء: ١٠٧ [(١)].

رابعاً: أن الإسلام أرْسى القواعد العامة للتسامح: حيث أسَّس الأسس الراسخة، وعَقَد المواثيقَ المتينة، وفصَّل تفصيلاً بَيِّناً بَيْن واجب المسلمين بعضهم بعضاً، وبَيْن حسن المعاملة لأهل الملل الأخرى؛ فالقرآن والسنة يُعلِّمان المسلمين أن الاختلاف ضروري في جبلَّة البشر؛ فإذا استحضر المرء ذلك، وتخلَّق به صار ينظر إلى الاختلاف نَظَرَه على أنه تفكير جِبِلِّي تتقارب فيه المدارك إصابةً وخطأً، لا نَظَرَهُ إلى الأمر العدواني المثير للغضب.

قال الله -تعالى-: ﴿**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ**﴾ هود: ١١٨-١١٩.

وقال: ﴿**وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ**﴾ الكهف: ٢٩.

وقال: ﴿**لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ**﴾ الحج: ٦٧.

إلى غير ذلك من الآيات في هذا السياق.

ولا ريب أن ذلك أساسٌ خُلُقيٌّ عظيم، وهو أن يكون المسلم يضع الأشياء مواضعها، ويحكم لها بأوصافها، لا أن يكون مُنْدَفعاً إلى جميع العوارض التي تعرض له[(٢)].

١- انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص٢١٥-٢١٦.

٢- انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٦-٢١٧

خامساً: شهادة التاريخ على تسامح المسلمين: فلقد عاش الذميون وغيرهم في كنف الدولة الإسلامية دون أن يتعرض أحد لعقائدهم وديانتهم.

وتاريخ الإسلام الطويل شاهد على أن الشريعة وأهلها قد كفلوا لأتباع الأديان الذين يعيشون في ظل الإسلام البقاء على عقائدهم.

ومعلوم لدى القاصي والداني أن هذا لم يكن موقفَ ضعْفٍ من دولة الإسلام، بل كان هذا هو مبدؤها حتى حين كانت في أوج قوتها[1].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله بعد أن قرر تسامح المسلمين مع غيرهم؛ قال: «وإن شئت فَلُذْ بشواهد التاريخ في عصور الإسلام الجارية على تعاليمه الحقة، والمنزهة عن الأفن والتحريف تَجِدْ مصداقَ ما ذكرناه.

لقد مازج المسلمون أمماً مختلفة الأديان دخلوا تحت سلطانهم من نصارى العرب، ومجوس الفرس، ويعاقبة القبط، وصابئة العراق، ويهود أريحاء، فكانوا مع الجميع على أحسن ما يعامل به العشيرُ عَشيرَه»[2].

إلى أن قال: «ولم يحفظ التاريخ أمة سَوَّت رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة، ونوال حظوظ الحياة بقاعدة: لهم مالنا وعليهم ما علينا مع تخويلهم البقاء على رسومهم وعاداتهم ـ مثل أمة المسلمين؛ فحقيق هذا الذي نسميه التسامح بأن نسميه العظمةَ الإسلاميةَ؛ لأنا نجد الإسلام حين جعل هذا التسامح من أصول نظامه قد أنبأ على أنه مليء بثقة النفس، وصدق الموقف، وسلامة الطوية، وكل إناء بالذي فيه يرشح، وقد أعرب عن ذلك كله قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ يوسف: ١٠٨»[3].

١ـ انظر تلبيس مردود في قضايا حية ص ٣١ـ٣٢

٢ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٩

٣ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢١٩

فهذا شيء من تسامح المسلمين، وتعايشهم مع غيرهم، وقد مضى بيان لشيء من ذلك في مباحث سابقة.

وسيأتي مزيد بيان لذلك في المبحث التالي، حيث سيتضح أن من سماحة المسلمين أنه لا يكره أحداً على الإسلام، كما سَيُورَد شهادات لغير المسلمين على سماحة الإسلام.

المبحث الثالث: موقف الإسلام من الإكراه

هذا المبحث مكمل لما مضى من المباحث، حيث سيؤكد من خلاله على مدى روح التسامح في دين الإسلام، وعلى نَبْذِهِ للإكراه، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: مفهوم الإكراه: الإكراه في الأصل إلزام شخص بأمر وهو كاره له[١].

وفي الاصطلاح: هو كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمورَ به إلى ضرب، أو حبس، أو قطعِ رزقٍ يستحقه، أو نحو ذلك[٢].

ثانياً: موقف الإسلام من المخالفين: لا يوجد هناك ديانة من الديانات فَصَّلت في أحكام المخالفين لها -حقوقاً وواجبات- كما هو الحال بالنسبه للشريعة الإسلامية، وقد مر شيء من ذلك فيما سبق، بل لقد ألف بعض علماء الإسلام في ذلك، كما في صنيع ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم (أحكام أهل الذمة[٣]).

ولذا يرى بعض الباحثين الغربيين في مجال حقوق الإنسان أن عهد الذمة التي كان يعقدها نبي الإسلام ﷺ كانت أول ميثاق في حرية الاعتقاد[٤].

ثالثاً: انتفاء الإكراه على دخول الإسلام: الأصل في دين الإسلام أن لا يُكْرِه أحداً على الدخول فيه.

وهذا الأمر ظاهر البيان في نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعليه سار المسلمون في تعاملهم مع الشعوب[٥].

١- انظر لسان العرب ٥٣٥/١٣، وفتح الباري لابن حجر ٣١١/١٢

٢- انظر مجموعة الفتاوى المصرية لا بن تيمية ٥٦/١ .

٣- نظر حقوق الإنسان بين اليهود والمسيحية والإسلام ص٣٠٠

٤- انظر نشأة وتطور حقوق الإنسان بول جوردن ص٢٤

٥- انظر حقوق الإنسان ص ٣٠١

فالإكراه على الدين والعقيدة منتفٍ من عدة جهات:

الأولى: أن من آمن مُكرهاً لا ينفعه إيمانه؛ إذ لابد أن يكون الإيمان عن قناعة ويقين، واعتقادٍ صادق، واطمئنان قلب[١].

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكره بغير حق؛ فلا يصح كُفْرُ المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق»[٢].

الثانية: أن وظيفة الرسل وأتباعهم من بعدهم إنما هي البلاغ، وإيصال الحق الى الناس.

قال الله -تعالى- لرسوله ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الشورى: ٤٨.

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ص: ٦٥.

فالمهمة الـمُناطة بهم -إذاً- إنما هي الدعوة والبلاغ، والمناصحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي ما يعرف بهداية الدلالة والإرشاد.

أما هداية التوفيق والإلهام، وإدخال الإيمان في القلوب فهي لله وحده.

وهذا ما يؤكد جانباً من جوانب الحرية، ألا وهو تَحَرُّرُ الإنسان من كل رقابة بينه وبين خالقه؛ فالعلاقة -في الإسلام- مباشرة بين الإنسان وربه من غير واسطة من أحد مهما كانت منزلته[٣].

الثالثة: واقع غير المسلمين في بلاد المسلمين، وقد مر الإشارة إلى ذلك في المبحث الماضي

الرابعة: شهادات غير المسلمين في ذلك، وستأتي الإشارة إليها.

الخامسة: أن المسلم إذا تزوج كتابية فإنه لا يلزمها بالتخلي عن دينها والدخول

١- انظر تلبيس مردود ص٢٨

٢- الاستقامة لابن تيمية ٢/٢١٩-٢٢٠

٣- انظر تلبيس مردود ص ٢٩

في الإسلام، بل لها الحق الكامل بالبقاء على ديانتها مع حفظ كامل حقوقها[١].

رابعاً: أشهر النصوص في انتفاء الإكراه عن الإسلام: لعل أشهر النصوص من الكتاب والسنة في أن الإسلام لا يجبر أحداً على الدخول فيه كما قال الله -تعالى-: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه واضح جَلِيةٌ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكْرَهَ أحَدٌ على الدخول فيه.

بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونوَّر بصيرته دخل فيه على بينة.

ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول مكرهاً مقسوراً»[٢].

كما يُظْهر القرآن صورة أخرى في المعاملة الحسنة مع المخالفين في قوله -تعالى-: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الممتحنة.

فالآية تشهد بطريق واضح أن هؤلاء بقوا مع المسلمين مع احتفاظهم بدينهم المخالف للإسلام، ولم يمنع الإسلام من الإحسان في معاملتهم.

ونجد مبدأ الحرية في الديانة مقرراً في قوله-تعالى-: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ الكهف: ٢٩.

والمراد ههنا دعوة الناس، ولا يلزم من ذلك أن كلَّ من دُعي إلى الإسلام

١-انظر تلبيس مردود ص ٣٢

٢- تفسير ابن كثير ٦٨٢/١، وهناك تفسيرات أخرى للآية غير أن هذا التفسير هو الأشهر.

والهدى أنه سيجيب، وإن كان الواجب عليهم أن يكونوا مسلمين جميعاً[1].

خامساً: شهادة غير المسلمين على تسامح المسلمين: هناك الكثير من الشهادات التى تجلي تسامح المسلمين، وعدلهم، بل الإحسان للمخالفين لهم في الدين.

وأكثر هذه الشهادات من المنصفين، وبعضها ممن يسمون برجال الدين المسيحيين، بل إن بعضها ممن يتسمون بالحقد والجهل على الإسلام.

وفيما يلي شيء من تلك الشهادات:

١ـ تقول دائرة المعارف الكتابية ـوالتي كتبها جماعة من المختصين في شأن اللاهوت والكتاب المقدسـ عن الحالة الدينية، وما ناله المسيحيون في مصر إبَّان الفتح الإسلامي؛ من معاملة عادلة: «وحظي اليهود والأقباط من العرب أفضل من معاملة الرومان، أو رجال الكنيسة اليونانية.

وبعد الفتح العربي استراحت الكنيسة من الاضطهاد، فازدهرت، وربحت كثيراً من النفوس حتى بين غير المسيحيين»[2].

٢ـ وهذا المطران ميشيل يتيم يتحدث عن الفتح الإسلامي لمنطقة الشام والعراق، والتي كان معظم سكانها من المسيحيين؛ فيقول: «ولما استتب الأمر للعرب بعد السنوات الأولى من الفتوحات اضطر الخلفاء والحكام إلى إصدار أحكام واضحة تحدد موقف المسلمين من النصارى، وتنظم أوضاعهم الدينية والسياسية والاجتماعية.

لقد اتصفت هذه العهود بالسماحة ورحابة الصدر، فسمحت لمن يشاء من السكان والرهبان والموظفين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية، فغادر الدولة

١ـ انظر حقوق الإنسان ص ٢٠٢ـ٢٠٥

٢ـ دائرة المعارف الكتابية إعداد جماعة من اللاهوتيين مادة اسكندر ٦/ ، وانظر حقوق الإنسان ص٣١٣ .

الإسلامية عدد وافر، وحافظ الباقون على كنائسهم، وأموالهم، وحريتهم الدينية، وشرائعهم الخاصة بقيادة أساقفتهم».

ثم ذكر بعض الواجبات المترتبة عليهم إزاء ذلك[١].

٣ـ وهذا جولدزيهر وهو المستشرق المعروف بطعنه في عدد من الشرائع الإسلامية نجده لا يخفي إعجابه، حيث يقول: «وروح التسامح في الإسلام قديماً، تلك الروح التى اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضاً، كان لها أصلها في القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ البقرة: ٢٥٦.

وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمُثُل للتسامح الديني للخلفاء إزاء الأديان القديمة، وكثيراً ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحكيمة»[٢].

٤ـ وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «فما يدَّعيه بعضهم من اتهامهم ـأي المسلمينـ بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة في تسامحهم، وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة.

التاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب، وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر، مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف، ولا الحضارة الرومانية بعنفها وفرض إرادتها بالقوة[٣]».

١ـ تاريخ الكنيسة الشرقية ميشيل يتيم، أغناطيوس ديك ص ١٦٨، وانظر حقوق الإنسان ص ٣١٤

٢ـ العقيدة والشريعة في الإسلام جولدزيهر ص٤٦، وانظر حقوق الإنسان ص ٣١٥

٣ـ شمس العرب تسطع على الغرب زيغريد هونكه ص ٣٥٧

٥ـ ويقول المستشرق الإنجليزي توماس آر نولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام: «لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح»[1].

٦ـ ويقول ـأيضاًـ: «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قُصد منه استئصال الدين المسيحي»[2].

فهذا فيض من غيض من الشهادات التي تبين ما كان عليه المسلمون من التسامح[3].

١ـ الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٩٨ـ٩٩

٢ـ الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٩٩

٣ـ انظر حقوق الإنسان ٣١٢ـ٣١٧

المبحث الرابع: موقف الإسلام من العنف

تمهيد في مفهوم العنف: قال ابن منظور رحمه الله: «العنف: الخرقُ بالأمر، وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق»[1].

فالعنف ـ إذاً ـ هو الشدة والغِلظة، والجفاء في المواضع التي تحتاج إلى الرفق.

ويقصد بالعنف في الاصطلاح العالمي الآن ما يكون من استعمال الشدة في التعبير، والخطاب، وما إلى ذلك مما يدخل في معنى العنف، وينافي الرفق.

وسيكون الحديث فيما يلي من خلال بيان موقف الإسلام من العنف، ومن خلال ذكر نماذج من رفق النبي ﷺ بالمخالفين.

المطلب الأول: موقف الإسلام من العنف

لقد جاء الإسلام بنبذ العنف، والتحذير منه، وبيان سوء عاقبته.

كما جاء بالحث على لزوم الرفق، والأخذ به، والترغيب فيه.

والنصوص من الكتاب والسنة حافلة بذلك إما تصريحاً، أو إشارة، أو أمراً بلزوم الرفق، أو نهياً عن العنف، أو بياناً في فضل الرفق وذم العنف، وذلك في شتى الشؤون سواء بالدعوة إلى الله، أو الدعوة إلى التغيير والإصلاح، أو في الأمور الخاصة، أو العامة.

قال الله ـتعالى ـ في خطاب هارون وموسى ـعليهما السلام ـ: ﴿ **ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ طه.

ولقّن موسى ـعليه السلام ـ من القول اللين أحسنَ ما يخاطب به جبار يقول لقومه: أنا ربكم الأعلى، فقال ـتعالى ـ: ﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ**

---

١ ـ لسان العرب ٢٥٧/٩

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ النازعات.

قال ابن القيم رحمه الله: «وتأمل امتثال موسى لما أُمِر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ النازعات.

فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مَخْرجَ الأمر، وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ولم يقل: «إلى أن أزكيك».

فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكِّي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال: ﴿ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك.

وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه، ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً».[1]

ولهذا فإن المحاورة التي تُلقى في أدب، وسعة صدر، تسيغها القلوب، وتهش لها النفوس، وترتاح لها الأسماع.

ولقد امتن ربنا -جل وعلا- على نبينا محمد ﷺ بأن جبله على الرفق، ومحبة الرفق، وأن جنبه الغلظة، والفظاظة، فقال -عز وجل-: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ولقد كانت سيرته -عليه الصلاة والسلام- في الحوار وغيره حافلةً بهذا الخلق الكريم الذي مَنْ مَلَكَه بسط سلطانه على القلوب.

وكما كان -عليه الصلاة والسلام- متمثلاً هذا الخلق فقد كان يأمر به ويبين فضله.

قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على**

---

١ - بدائع الفوائد لابن القيم ٣/١٣٢- ١٣٣.

العنف، وما لا يعطي على غيره». [١]

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**». [٢]

ولما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذاً إلى اليمن قال لهما: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**». [٣]

هذا وإن الأمثلة على ذلك الخلق من سيرة النبي ﷺ كثيرة جدًّا، ومنها ما جاء في الصحيحين أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ له في القول، فهمَّ به أصحابه، فقال: «**دعوه، فإن لصاحب الحق مقالاً**». [٤]

وجاء في الصحيحين أن رهطاً من اليهود دخلوا عليه وقالوا: «السام عليكم» محرفين كلمة (السلام) إلى (السام) والسام الموت، فلم يزد رسول الله على أن قال: «**وعليكم**».

ولما ردَّت عليهم أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بقولها: «وعليكم السام واللعنة» قال لها: «**مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق بالأمر كله**». [٥]

وجاء في صحيح البخاري أن عائشة -رضي الله عنها- تصفُ رسول الله فتقول: «والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط؛ حتى تنتهك حرمات الله؛ فينتقم لله». [٦]

وإذا تقصَّيتَ سيرته بحثاً وتنقيباً، وجدت مُصَدِّقه لما وصفته به أم المؤمنين من

---

١ - رواه مسلم (٢٥٩٣).

٢- رواه مسلم (٢٥٩٤).

٣- رواه البخاري (٦١٢٤) ومسلم (١٧٣٣).

٤- البخاري (٢١٨٣ و ٢٢٦٠ و ٢٢٧١ و ٢٤٦٥ و ٢٤٦٧) ومسلم (١٦٠١).

٥- البخاري (٥٦٧٨ و ٥٦٨٣ و ٥٩٠١ و ٦٠٣٨) ومسلم (٢١٦٥).

٦- أخرجه البخاري (٦٤٠٤).

الرفق والحلم، فما عاقب -عليه الصلاة والسلام- أحداً مسه بأذى، ولا اضطغن على أحد أغلظ له في القول، بل كان يلاقي الإساءة بالحسنى، والغلظة بالرفق إلا أن يتعدى الشر، فيلقي في سبيل الدعوة حجراً، أو يحدث في نظام الأمة خللاً.[١]

فالرفق واللين -إذاً- هو المتعين، وهو الأليق، وهو الأصل في أحوال النبي ﷺ.

ومع ذلك فقد يُحْتَاج إلى الحزم، وذلك في حالات خاصة، ومن أناس مخصوصين، وفي حق من يستحق ذلك؛ فإذا كان الإنسان ذا مكانة، وكان المقام يقتضي الحزم، ولم يترتب على ذلك مفسدة أكبر -أُخِذ بهذا الأسلوب.

ولهذا كان موسى -عليه السلام- متلطفاً مع فرعون غاية التلطف في بداية الأمر -كما مر قريباً- وعندما رأى من فرعون العناد والاستكبار ومحاولة الصد عن الهدى من بعد ما تبين له - أغلظ له في الخطاب كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾ الإسراء:١٠٢.

فأين هذا الخطاب من الخطاب الأول؟

وكما في قوله - تعالى-: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ العنكبوت:٤٦.

وكما قال إبراهيم -عليه السلام- لقومه: ﴿**أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ الأنبياء:٦٧.

وكان النبي ﷺ يأخذ بهذا الأسلوب عند الحاجة إليه.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين في قصة المرأة المخزومية التي سرقت، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت؛ فقالوا: ومن يكلم رسول الله ﷺ، ومن يتجرأ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ.

فكلم رسول الله ﷺ فقال: «**أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟**».

---

١ - انظر محمد رسول الله وخاتم النبيين ص٧٢، وموسوعة نضرة النعيم ٦/٢٢٨٧-٢٢٩٩.

ثم قام فخطب، قال: «**يا أيها الناس! إنما أضل من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**».[١]

ولقد بوب البخاري في كتاب الأدب من صحيحه باباً سماه: «باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله».

ثم ساق تحته خمسة أحاديث.[٢]

وخلاصة القول أنَّ الرفق هو الأصل، وهو الأليق ما لم تدع الحاجة إلى الحزم، وأنَّ الحزم قد لا يلائم كل أحد، خصوصاً ممن ليس له قَدْرُ سنٍّ، أو علم، أو منزلة، أو قبول عند الناس.

ولعل السبب في تنويع النبيﷺ أنه كان يراعي أحوال الناس من حيث الشدة والرفق؛ فهو يستعمل الرفق في الأصل، ومع الجاهلين، أو الصغار، أو حديثي العهد بالإسلام، أو في غير ذلك من الأحوال والمصالح التي يحسن فيها الرفق.

ويستخدم الشدة أحياناً مع من صدر منهم ما لا يليق بهم ذلك؛ لطول صحبتهم، أو لعلمهم، وورعهم، وتقواهم[٣].

كما كان يستعمل الشدة مع المعاندين والمتكبرين، والمستهزئين، والمستخفين بالدعوة؛ فاستعمال الرفق في موضعه حكمة، كما أن استعمال الشدة في مكانها حكمة.

---

١ ـ البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (٢٦٤٨).

٢ ـ من (٦١٠٩) إلى (٦١١٣).

٣ـ انظر: من صفات الداعية مراعاة أحوال المخاطبين ص٨٦، وانظر: من صفات الداعية الرفق واللين د. فضل إلهي ص٣٩ـ٤٥.

المطلب الثاني: نماذج من رفق النبيﷺ بالمخالفين

السيرة النبوية حافلة بنماذج كثيرة من رفق النبيﷺ بالمخالفين من سائر الطبقات، وإليك هذين المثالين في هذا الشأن:

المثال الأول: جاء في الصحيحين عن سعيد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة يقول: «بعث رسول الله خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول اللهﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**».

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تُعطَ منه ما شئت.

فتركه رسول اللهﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**».

قال: ما قلت، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعط منه ما شئت.

فتركه رسول اللهﷺ حتى كان من الغد، ثم قال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**».

فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت.

فقال رسول اللهﷺ: «**أطلقوا ثمامة**» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد! والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلِّها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول اللهﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟

فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ».[1]

فانظر إلى هذا الحلم، والصبر، وطول النفس؛ حيث أمهله النبي ﷺ ثلاثة أيام وهو يقول له: «**ماذا عندك يا ثمامة**».

ولما أحس منه العِزَّة، وأدرك -بذوقه المرهف- أنه سيد لا يقبل الضيم صفح عنه، وأطلق سراحه بعد حوار دام ثلاثة أيام.

فما كان من ذلك السيد إلا أن دخل في الإسلام عن طواعية، وصار في قبيل أهله بفضل ذلك الحوار الراقي، وذلك الرفق، والحلم، والصبر، وطول النفس.

يقول النووي رحمه الله: «قوله: وما عندك يا ثمامة؟» وكرر ذلك ثلاثة أيام - هذا من تأليف القلوب، وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير»[2].

المثال الثاني: جاء في صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من اليهود، فقال: السلام عليكم يا محمد؛ فدفعته دفعةً كاد يصرع منها، فقال: لِمَ تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**».

فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك؟**».

قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟

فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**» قال: فمن أول الناس

---

١ - البخاري (٤٦٢ و ٤٦٩ و ٢٤٢٢ و ٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

٢- صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/٨٩.

إجازة؟ قال: «**فقراء المهاجرين**».

قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟

قال: «**زيادة كبد النون**».

قال: فما غذاؤهم على إثرها؟

قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها**».

قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين فيها تسمى سلسبيلاً**» قال: صدقت.

قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل، أو رجلان، قال: «**أينفعك إن حدثتك؟**» قال: أسمع بأذني.

قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأةِ أَذْكَرا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأةِ منيَّ الرجل آنثا بإذن الله**».

قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فذهب.

فقال رسول الله ﷺ: «**لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به**»(١).

فالنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يُلْزِم أهل الكتاب بما في كتبهم من العلم، وينعى عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم، وكانوا؛ لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة تشتمل على شيء من الدقة والمعرفة وإن كانوا ضالين.

والحبر اليهودي في هذا الحديث حاور النبيﷺ ودار في خلده أن النبيﷺ لن يستطيع الإجابة عن أسئلته، غير أن ظنه لم يكن في محله؛ حيث أجابه النبيﷺ عن تلك الأسئلة(٢).

---

١ ـ مسلم (٣١٥).

٢ ـ انظر تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهره ص٤٩، والحوار للمغامسي ص١٤١.

كما أن في ذلك الحوار أدباً نبوياً عالياً، ألا وهو التواضع الجم، والرفق بالمخالف؛ فالنبيﷺ تواضع لهذا اليهودي، وتنزل في محاورته؛ حيث وافقه، ورضي منه بأن يناديه باسمه المجرد دون أن يعترف له بالرسالة؛ طمعاً في هدايته.

كما أن فيه أدباً آخر من آداب الحوار ألا وهو ترك التحاور فيما لا ينفع؛ حيث سأل النبيُّﷺ الحبرَ عن مدى نفع جوابه له، فقال: «**أينفعك إن حدثتك؟**».

ولهذا آتى الحوار ثمرته، وانقطع اليهودي، وأقر بالنبوة للنبيﷺ.

المبحث الخامس: الجهاد في الإسلام

تمهيد

الحديث عن الجهاد في الإسلام يطول، والمقام لا يسمح بالتفصيل، وإنما سيدور حول بعض المسائل التي تعطي صورة عامة عن مفهوم الجهاد، وإيضاح شيء من مقاصده، وعن بعض ما جاء في السيرة النبوية في شأنه، وعن أدب الحرب في الإسلام، وعن أمثلة من أخلاق المسلمين في الجهاد؛ فإلى بيان ذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مفهوم الجهاد

أولاً ـ حقيقة الجهاد: يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «حقيقة الجهاد هو الجد والاجتهاد في كل أمر يقوي المسلمين، ويصلحهم، ويلم شعثهم، ويضم متفرقهم، ويدفع عنهم عدوان الأعداء أو يخففه بكل طريقة ووسيلة».[1]

ثانياً ـ أقسام الجهاد في الإسلام: يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية.

وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والملحدين وجميع أعداء الدين، ومقاومتهم.

---

١ ـ انظر وجوب التعاون بين المسلمين للشيخ عبدالرحمن السعدي ص٧.

وهذان نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان.

هذا مجمل أنواعه على وجه التأصيل». [١]

ثم شرع في بيان أنواع الجهاد على وجه التفصيل، فذكر أنواعاً كثيرة متعددة من الجهاد، فذكر منها: الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة، واتفاق الكلمة، ووجوب الاستعداد للأعداء بكل قوة، وأخذ الحذر منهم، وأن الوجوب يتعلق بالقدرة والاستطاعة.

وذكر أَنَّ معرفة أحوال الأمم وَدَرْسَها، ومعرفة سياساتها داخل في الجهاد، وأن القيام بالقسط والوفاء بالعهود والمعاقدات، وربط الصداقات، وعقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله.

وذكر أن الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد، وأنَّ من الجهاد رعايةَ الأمانة، وتخيُّرَ الأكفاء من الرجال في الولايات والأعمال، وأَنَّ شرح محاسن الدين الإسلامي من أعظم الجهاد إلى غير ذلك مما ذكره، وفصَّل القول فيه. [٢]

وبهذا يتضح لنا شيء من سعة مفهوم الجهاد في الإسلام، وأنه ليس مقتصراً على القتال والحرب، وإنما هو أعم وأشمل من ذلك.

ثالثاً ـ الإسلام دين القوة: والقوة أمر محمود في كل شيء، وهي صفة تتعلق بها النفس البشرية وتحبها، والإنسان حينما يأخذ أموره بحزم، وينجز أعماله ويدير شؤونه بقوة فإنه منجز ما يريد سواء في ذلك القوة الفكرية أو القوة العلمية أو القوة المادية.

---

١ ـ انظر وجوب التعاون بين المسلمين ص ٧ـ٨ .

٢ ـ انظر وجوب التعاون بين المسلمين ص٨ـ٣٠ .

فالبدن القوي، والرأي القوي والشخصية القوية كلها صفات مستحبة.

ومعلوم أن وجه الاستحباب والاستحسان لا يكون محموداً إلا إذا كان في طرق الخير، ووجوه المنفعة للنفس والناس أجمعين.

والدولة لا تحفظ مهابتها وتقرُّ بها أعين حلفائها إلا إذا كانت القوة سمة ملازمة لها.

وهذه سنة إلهية من السنن التي تبنى عليها الحياة؛ فلا خير في حق لا نفاذ له، ولا يقوم حق ما لم تسانده قوة تحفظه، وتحيط به.

وما فتئت أمم الدنيا ودولها تعد لنفسها القوة بمختلف الأساليب والأنواع حسب ظروف الزمان والمكان، وعصرنا الحاضر تَفَتَّقت أذهان أبنائه عن أنواع من القوى وأساليب من الاستعداد فاقت كل تصور، فهذه مقدمة في القوة وأهميتها.

ومقدمة أخرى تتعلق بطبيعة الإسلام وأهله، **أما الإسلام** فيخطئ كثير من غير المسلمين حين يظنون أن الإسلام ملة مقصورة على مجموعة من العقائد الغيبية والشعائر التعبدية مما يجعل الإسلام في مفهومهم لا يعدو أن يكون مسألة شخصية يختار الإنسان لنفسه ما شاء من عقيدة وديانة يعبد ربه بأي طريقة رضيها لنفسه، لا يعدو الأمر عندهم غير ذلك.

ولكن الإسلام في معناه ومرماه غير ذلك، فهو اعتقاد صحيح في القلب إيماناً بالله إلهاً و احداً لا يستحق العبادة سواه، موصوفاً بصفات الكمال، منزهاً عن كل عيب ونقص.

وهو إلى جانب ذلك شريعة حاكمة شاملة لكل ما يحتاجه الإنسان في نفسه ومجتمعه، في سلمه وحربه، في تعامله مع أهله، والقريب والبعيد، والعدو والصديق في شرائع وأحكام وآداب تشمل النظم السياسية، والاجتماعية،

والخلقية، والاقتصادية، وسائر شؤون الدنيا.

وأما أهل الإسلام فليسوا أمة على المعنى المصطلح عندهم، والذي يعني طائفة من الناس توافقت فيما بينها، وتألفت في خصائص معينة.

ولكن أمة الإسلام تضم كل من اعتنق الدين من أي جنس أو لون أو قطر في الشرق وفي الغرب.[1]

وانطلاقاً من هذا الإيضاح يتبين أن الإسلام ليس بتلك النحلة الضيقة، وأهل الإسلام ليسوا بتلك الأمة المنزوية على نفسها.

وبناءً عليه فإن الجهاد في الإسلام مشروع لنشر الحق، وليدخل الناس في الإسلام كافة.

وفي هذا الصدد يحسن التنبيه إلى أن المصطلح الإسلامي هو «الجهاد» وليس الحرب أو القتال، وإنما مفهومه أشمل وأعم ـكما مرـ.

إن لفظ الحرب ـغالباًـ ما يراد به القتال الذي يشب لهيبه، وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية، وأغراض ذاتية، وأهداف مادية.

والقتال المشروع في الإسلام ليس من هذا القبيل، وليس لهذه الأغراض، ولا لتلك الأهداف.[2]

رابعاًـ معنى كون الجهاد في سبيل الله: بعد ما سبق إيضاحه من معنى الجهاد وحقيقته، و سر اختيار هذه الكلمة، لا بد من التنبيه على كلمة لصيقة بها في المصطلح الإسلامي ألا وهي عبارة «**في سبيل الله**».

إنها تحدد بجلاء المقصود من هذه القوة الإسلامية، إنه شرط لا ينفك عنه أبداً

---

١ ـ انظر تلبيس مردود في قضايا حية ص٩٥ـ٩٨.

٢ ـ انظر تلبيس مردود في قضايا حية ص٩٨ـ٩٩.

بل لو انفك عنه لبطل المصطلح، ولفسد الأمر، واضمحل الهدف.

إن معنى «**في سبيل الله**» أن كل عمل يقوم به المسلم يقصد به وجه الله، ثم المصالح العامة، وسعادة الأمة؛ فهو في سبيل الله -كما مر- فإنفاق المال في وجوه الخير والبر إذا قصد به المنفق منافع دنيوية، أو ثناء الناس فهو ليس في سبيل الله، حتى ولو دفعه إلى مسكين معوز.

«**في سبيل الله**» مصطلح يطلق على الأعمال التي تؤدى خالصة لوجه الله من غير أن يشوبها شيء من شوائب الأهواء والشهوات.

والجهاد ما قُيِّد بهذا القيد إلا للدلالة على هذا المعنى؛ فالجهاد الإسلامي الحق لا بد أن يكون مجرداً من كل غرض، مبرأً من كل هوى، أو نزعات شخصية، لا يُقْصَد به إلا تأسيس نظام عادل يقوم عليه الناس بالقسط؛ فينشر الحق، وينصر العدل.

يقول الله -عز وجل-: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ**﴾ النساء: ٧٦.

وجاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله؛ ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه.

قال وما رفع رأسه إليه إلا أنه كان قائماً، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[١].

والقرآن والسنة مملوءان ببيان هذا المعنى، وتأكيده، وضرورة التزامه.[٢]

---

١ ـ أخرجه البخاري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤).

٢ ـ انظر تلبيس مردود في قضايا حية ص١٠٠ـ١٠٢.

المطلب الثاني: نظرة في الجهاد من خلال السيرة النبوية

من ذا يجهل أن محمداًﷺ قد أفاض على العالم حكمة وهداية وإصلاحاً، وما الحسام الذي يأمر بانتضائه إلا كمبضع طبيب ناصح يشرط به جسم العليل؛ لينزف دمه الفاسد حرصاً على صحته وسلامته.

ومن تقصى السيرة النبوية وجد فيها ما يصدق قول عائشة -رضي الله عنها-: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله، فينتقم لله».[1]

فمحمد -عليه الصلاة والسلام- لم يقاتل الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون حرصاً على حياته، وإنما كان يقاتلهم حرصاً على حياة الفضيلة، وظهور الحق، وبسط أنوار التوحيد، وإقامة نظم المدنية المهذبة، ولكن الناشئين على اللهو واتباع الشهوات لا يفقهون.[2]

فما الذي كان يريده المفترون على نبينا محمد ﷺ أن يفعل بعد ما ألح عليه العدوان هكذا، حتى كاد يأتي عليه؟!.

إن الدنيا لَتَعرف كيف تَكتَّلَ الكفار ضده في شعب أبي طالب ذلك الحصار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المشهور الذي أنزل بمحمد وصحبه وبعض قرابته من الضُّر ما آذاهم حتى أكل بعضهم يوماً من الجوع أوراق الشجر.

ولولا أن الله عَطَّف عليه قلوبَ بعض الكرام لبلغ الكفار مرادهم، مما أكره الرسولﷺ على الإذن لصحبه بالهجرة الكبرى إلى المدينة.

ثم أدركهم بعدها صبيحة الليلة التي جمع الكفارُ فيها من كل قبيلة فتىً، وقرروا أن يُنْهُوا حياته بالسيف؛ حتى يضيع في القبائل دمه، وما تقوى على

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣٣٦٧) ومسلم (٢٣٢٧).

٢ ـ انظر حدائق الأنوار ٤٤/١ و ٥٠٩/٢، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ص١٠٤، ومحمد رسول الله لمحمد رضا ص٢٣٠.

حربهم قريش.

فأي صبر كانوا ينتظرون من الرسول ﷺ فوق هذا الصبر؟ وكيف تكون الموادعةُ بعد هذا سبيلَ التفاهمِ من أناس رفعوا عليه السيف، ولم يَحْمِهِ منه أحدٌ غيرُ رعايةِ الله له؟!

إن صبر محمد ﷺ على قومه حتى هذا المدى لَهُوَ آيةٌ من الآيات على عظمة التسامح والمسالمة عند محمد، وإرخائه العِنان لقوم لم يكونوا يستحقون سوى الكبريت والحطب.

لقد سَالَمَ محمدٌ المشركين، وجاوز حدود الصبر، فما أجدت المسالمة، ولا أفاد الصَّبرُ، وأصبح الاستمرار عليهما مما لا يتفق ومنطقَ الحياة، ومما لا يتفق -كذلك- ومنطقَ النبي الذي جاء قوياً كفرسان العرب، عظيماً في حسبه ونسبه وفضائله، والذي جاء قبل هذا ليكون رسولَ حياةٍ يخاطب أهلها بما يفهمون.

إنْ لقيه الناس بالإحسان فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وإن كانت الأخرى فَدِيْنُ محمدٍ فيه ترياقُ السموم، وقرعُ الحديد بالفولاذ.

ومن عَجَبٍ أن ما اتخذه محمد -صلوات الله عليه- سلوكاً لنفسه، وطريقاً لحماية دعوته منذ القرون الطوال هو نفسه الطريق الذي آثرته البشرية دون غيره لضمان البقاء.

ولو خضع الناس للبغي، وأداروا خدودهم اليسرى لمن يصفعهم على اليمنى لما قام على وجه الدنيا أحدٌ في وجه ظالم، ولعاش الطغاة أعمارهم محفوفين بالإجلال والإعظام.

ولو قال أصحاب محمدﷺ مقالة أصحاب موسى: ﴿ **فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ** ﴾ (المائدة: ٢٤) لما قُدِّرَ للحياة أن تفيد من أسرار هذا الدين العظيم الذي لا يوجد لمشكلات عالم اليوم من حلول أفضل مما فرضها لها دين

محمد ﷺ![1]

وإذا جنح -عليه الصلاة والسلام- إلى خيار الحرب؛ فهل يعني ذلك أن يتجرد من الرحمة، ويكون هدفُه الأولُ والأخير سفكَ الدماءِ دون مراعاة لعهد أو حرمة؟

هذا ما سيتبين خلال المطلب التالي.

المطلب الثالث: آداب الحرب في الإسلام

إن الحرب في الإسلام لها آداب، وأحكام محفوفة بالرفق، والرحمة.

فمن الرفق الذي أقام عليه الإسلام سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان، والفلاحين، والنساء، والأطفال، والشيخ الهرم، والأجير، والمعتوه، والأعمى، والزَّمِن.

ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى، والزَّمِن ولو كانا ذوي رأي في الحرب وتدبير.

ولا يجوز قتلُ النساءِ وإن استعملن لحراسة الحصون أو رمين بنحو الحجارة، ودليل هذا قوله -تعالى-: ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ** ﴾ (البقرة: ١٩٠) فجعل القتال في مقابلة القتال.

ونبه النبيﷺ على أن من لا يقاتل لا يقتل، حين وجد امرأة في بعض الغزوات قتيلة؛ فأنكر ذلك، وقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»![2]

وإذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم، وجب الكف عن قتالهم، إلا أن يَتَّخِذوا ذلك ذريعة للنصر علينا، ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا.

---

١ -انظر مقال نبي الملحمة للأستاذ عبدالصبور مرزوق في كتاب محمد رسول الله لأحمد تيمور باشا ص١٨١-١٨٥.

٢ - أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٦٩) وابن حبان في صحيحه (٤٧٩١).

ولا يجيز الإسلامُ التمثيلَ بالمحارب، قالﷺ: «**ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**»[١].

ويمنع من حمل الرؤوس من بلد إلى بلد، أو حملها إلى الولاة، وقد أنكر أبوبكر الصديقرضي الله عنه هذا؛ فقد روى البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن عمرو ابن العاص، وشرحبيل بن حسنة بعثا عقبة بريداً إلى أبي بكر الصدِّيقرضي الله عنه برأس يناق بطريق الشام؛ فلما قدم على أبي بكر أنكر ذلك، فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله فإنهم يصنعون ذلك بنا.

قال أبو بكر: تأسِّياً أو استناناً بفارس والروم؟

لا يحمل إليَّ برأس، وإنما يكفي الكتاب والخبر.[٢]

وأخرج أحمد وأبو داود من حديث عمران بن حصين وسمرة بن جندب أن النبيﷺ كان ينهى عن المُثْلة.[٣]

والمثلة: تعذيب المقتول بقطع أعضائه، وتشويه خلقه قبل أن يُقتل أو بعده، وذلك كأن يجدع أنفُه، أو تصلم أذنُه، أو تفقأ عينُه، وما أشبه ذلك من أعضائه.[٤]

ولم يشرعِ الإسلامُ للأسير حكماً واحداً، بل جعل أمره موكولاً إلى الأمير الذي يقدر مصلحة الحرب، وله أن يخلي سبيله بفداء، أو بغير فداء.

ومن أدب الحرب في الإسلام الوفاءُ بتأمين المحارب؛ فإذا أعطى أحدُ الجند الأمان لأحد المحاربين ـ وجب احترام هذا التأمين، ولا يجوز لأحد أن يتعرض

---

١ ـ رواه مسلم (١٧٣١).

٢ ـ سنن البيهقي ١٣٢/٩، قال في تلخيص الحبير ٢٨٨/٤: «إسناده صحيح».

٣ ـ المسند ٤٣٩/٤ و ٤٤٠ و ٤٦٠، وأبو داود (٢٦٦٧)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٣٢٢): «صحيح».

٤ ـ انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ٣٩٠/١ـ٣٩٢.

لذلك المحارب بأذى.

وإلى هذا يشير قوله ـصلوات الله عليه ـ: «**ويسعى بذمتهم أدناهم**».[١]

وقد أمضى النبيﷺ تأمين أم هانئ بنت أبي طالب لرجل من المشركين، وقال لها: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**».[٢]

وحدث في عهد عمر بن الخطاب أن عبداً أَمَّن أهل بلد بالعراق، فكتب قائد الجيش وهو أبو عبيدة إلى عمر يأخذ رأيه في هذا التأمين، فكتب إليه عمر: «إن الله عظّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا؛ فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم».[٣]

ومن آداب الحرب في الإسلام، ومما يُجَلِّي معنى الرفق والرحمة مجاملةُ رسل العدو، وترك التعرض لهم بأذى؛ فقد يأتي رسول العدو في شأن الصلح أو غيره مما فيه تخفيف شر الحرب؛ فمن حسن الرأي أن لا يُتَعَرَّض للرسل بأذى، وأن يكونوا في أمن حتى يعودوا إلى قومهم؛ فإن التعرض لهم بأذى يقطع صلة الرسالة بين الفريقين، ويسد طريق المفاوضات التي يُتَوسَّل بها إلى عدم الدخول في الحرب، أو إنهائها إذا كانت ناشبة.

ومكارم الأخلاق تأبى أن يُتَعَرَّض لرسول بأذىً ولو أرسله قومه لإبلاغ ما عزموا عليه من محاربتنا، أو صدر منه كلام في تعظيم أمر قومه بقصد الفخر أو الإرهاب.

وقد جرى نظام الإسلام في الحرب على هذا الأدب المقبول.[٤]

قدم أبو رافع بكتاب من قريش إلى رسول اللهﷺ فلما رأى رسول الله أُلقِيَ في

---

١ ـ أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٦٢٣) وأخرجه أبو داود في سننه (٤٥٣٠)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٧٩٧): «صحيح».

٢ ـ أخرجه البخاري (٣٥٠ و ٣٠٠٠ و ٥٨٠٦) ومسلم (٣٣٦).

٣ ـ تاريخ الطبري ١٨٨/٣.

٤ ـ انظر رسائل الإصلاح ١١٧/١ـ١١٨، وآداب الحرب في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين ص٤٥.

قلبه الإسلام، فقال: يا رسول الله: إني -والله- لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أني لا أخيس بالعهد، ولا أحبسُ البُرُدَ، ولكن ارجع فإن كان في قلبك الذي في قلبك الآن، فارجع**».

قال: فرجعت، ثم أقبلت إلى رسول الله ﷺ، وأسلمت.[1]

هذه نبذة من آداب الحرب في الإسلام، تلك الآداب التي غَيَّرت نظرةَ الناس للحرب؛ إذ كانت نظرتهم تعني أن مبدأ الشفقة مناقض للحرب التي تعني الكُلوحَ، والعبوس، والقسوة بكل حال.

وبخاصة ما نراه اليوم من حروب هذا العصر التي تأكل الأخضر واليابس، وتتسم بالوحشية، ولا تعرف الرحمة لا في أثنائها، ولا بعد نهايتها.

غير أن الناظر في تاريخنا المجيد، وسيرة نبينا الأعظم يجد هذا المعنى لائحاً واضحاً -كما مر- ويراه -كذلك- بعد نصره ﷺ، وتمكنه من الأعداء الذين ناصبوه العداوة، ولم يَدَعوا طريقاً في سبيل إيذائه إلا وسلكوه.

وإذا أردت مثالاً يثبت فؤادك فانظر إلى ما كان منه -عليه الصلاة والسلام- يوم فتح مكة الذي حصل بعد صراع مرير، وبعد أن فعلت قريشٌ بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعلوا.

فعندما انتصر عليهم، وأحاط بهم إحاطة السِّوار بالمِعْصم، وظنت قريش الظنون؛ لعلمهم بسوء صنيعهم السابق، وحسبوا أنه سيدخل مكة دخول الجبابرة والطغاة مزهوًّا منتقماً - فاجأهم بأن جاء متواضعاً متخشعاً لربه، غير مَزْهوٍّ بنصره، ولا شامت بأعدائه.

وعندما رأى قريشاً وهم يتوقعون الإجهاز عليهم، ورأى جموع الصحابة

---

١ - أخرجه أحمد (٢٣٩٠٨)، وأبو داود (٢٧٥٨)، و الحاكم في المستدرك (٦٥٣٨)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٣٩٦): «صحيح».

وهم ينتظرون أدنى إشارة منه أشار النبيﷺ حتى يبيدوا خضراء قريش ـ قال النبي ـعليه الصلاة والسلام ـ مخاطباً قريشاً: «**ما تظنون أني فاعل بكم**»؟

قالوا: أخ كريم وابن أخٍ كريم.

قال: «**فاذهبوا فأنتم الطلقاء**».[1]

ولقد كان لتحلِّي المسلمين بأدب الحرب من الرحمة والسماحة أثر بالغ في نفوس كثير من أعدائهم؛ حيث أعجبوا بدين الإسلام، ونبيِّه، ورحمةِ أهله، وحسنِ معاملتهم.

بل لقد وجدوا عدلاً ورحمة لم يجدوها عند بني ملتهم، مما حدا بكثير منهم إلى الدخول في الإسلامِ، والحوادثُ في هذا السياق لا تكاد تحصى.

المطلب الرابع: أمثلة على أخلاق المسلمين في الجهاد

من الأمثلة على أخلاق المسلمين في الجهاد أن كثيراً من زعماء الصليبيين، وكثيراً من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين ـ ارتَموا في أحضان الدعوة الإسلامية التي غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف؛ ذلك هو أعجبُ آثارِ التسامح!

« فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينود) أمير طوائف الجرمان واللمبارديين، وأسلم معه خلق كثير منهم.

---

١ ـ انظر سنن البيهقي الكبرى ١١٨/٩، وفتح الباري لابن حجر ١٨/٨.

وما مضى من أحكام الحرب وآدابها إنما هو نزر يسير مجمل، أما تفاصيل ذلك، واستثناءاته وأحكامه فهي مبثوثة في التفاسير، وكتب الفقه، وشروح الحديث، والكتب التي أفردت في الحرب، والجهاد وما إلى ذلك.

انظر المبسوط للسرخسي ٥/١٠، وشرح فتح القدير لابن الهمام ٩٠/٤، والمغني لابن قدامة ٣٢٦/٩، وروضة الطالبين للنووي ١٥٠/١٠، وآداب الحرب للشيخ محمد الخضر حسين، وقواعد الحرب في الشريعة الإسلامية للشيخ عواض الوذيناني.

وأسلم في الحرب الصليبية الثانية خلقٌ كثيرٌ، كما يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة كبيرة، وإليكم ما يقوله الراهب في عبارة شائقة:

«وفي طريق الصليبيين إلى المقدس، عبر جبال الأناضول التقوا بجيش المسلمين، فهُزِم الصليبيون شرَّ هزيمة.

وكان في الممرِّ الجبلي (فريجيا) وذلك سنة ١١٤٨م، ولم يصلوا إلى مرسى (أضاليا) إلا بشقِّ الأنفس، ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحراً، وقد دفعوا مبالغ طائلة، وتركوا خلفهم الجرحى، والمرضى، والحجاج، فدفع كذلك لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يُعْنَوْا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشْفَوا، وعلى أن يرافقهم حرسُ اليونان حتى يلحقوا بمن سبقهم، فما كان من اليونان الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين، واتصلوا بالمسلمين الأتراك، وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى، ممن تخلفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس، والمرض، وسهام المسلمين.

ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذَرْعاً بما أصابهم خرج ثلاثةُ آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم، فحصرهم المسلمون، وشدُّوا عليهم، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقلَّ رجاءٍ، ولم يُنْقَذُوا إلا بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة، حين اطَّلعوا على ما فيه عدُّوهم من بأساء، وما أصابهم من ضراء رقَّت قلوبهم، وذابت نفوسهم؛ رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسَوا المريضَ، وأحسنُوا للفقيرِ، وأطعموا المسكينَ بسخاءٍ وكرم، وبلغ من إحسانهم أن بعضهم

استردَّ بالشِّراء أو الحيلة أو القهر النقودَ الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج، وردَّها عليهم، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين.

«وقد كان الفرق واضحاً بين معاملة هؤلاء الكفار -يقصد المسلمين- للحجاجِ المسيحيينَ، ومعاملة اليونان الذين سخَّروا إخوانهم في الدين، ونهبُوا أموالَهم وضربوهم.

كان الفرق عظيماً لدرجةٍ حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُكرَهوا أو يُقْهرُوا.

لقد فرُّوا من إخوانهم في الدين الذين أساؤوا إليهم، فلَحِق ثلاثةُ آلافٍ بالجيشِ الإسلاميِّ بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه.

لقد كانت الرحمةُ أشدَّ قسوةً من الخيانةِ!

لقد أعطاهم المسلمون الخبزَ وسلبوهم الإيمانَ، واحسرتاهُ!

لقد ارتدُّوا عن المسيحية من غيرِ أن يُجْبَرَ واحدٌ منهم على ترك دينه».

ذلك ما يقوله الراهب!

ولقد بلغ تأثير الإعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله في الصليبيين، أن كثيراً من أمرائهم وعامَّتهم المُعجَبين به ذهب بهم هذا الإعجابُ إلى ترك دينهم، وأهلهم والدخول في الإسلام.

مثلُ ذلك ما فعل الزعيم الإنجليزيُّ (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين في معركة حِطّين الفاصلة التي وقع فيها ملكُ القدسِ (جاي) أسيراً.

ويقول بعضُ مؤرخي النصارى: إن ستةً من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطانُ ليلةَ المعركة، فأسلموا، وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يُقهروا من أحدٍ على ذلك.

وقد وصل الأمرُ (بريمون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه إلى الإسلام[١].

وحتى بعد صلاح الدين، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقاماً لسقوط بيت المقدس، وحاصروا عكا، وأصابتهم البأساءُ، وعضَّهم الجوع ـ فرّ كثير إلى صفوف المسلمين؛ فمنهم من آمن، ومنهم من رجع إلى قومه، ومنهم من استمر على نصرانيته، واختار البقاءَ وأن يقاتل في صفوف المسلمين.

وفي هذا المعنى يقول السير (جون ما ندفيل) أحدُ المعاصرين للصليبيين: «كان بعضُ المسيحيين يرتدُّون عن دينهم، ويصيرون عرباً؛ لفقرهم، أو غباوتهم، أو شقاوتهم».

ولا يُنتظر ـ بالطبع ـ من صليبيٍّ كالسير جون أن يفسِّرَ ما يسميه المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة.

والذي يعنينا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالين الذين ذكرهم السير ما ندفيل دخلوا في الإسلام الذي جاؤوا لمحوه مختارين، واجْتُذِبُوا إليه بالدعوة والإرشاد لا القهر والاضطهاد، بل إنَّ بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين للفتح الإسلامي واسترداد بيت المقدس، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دُوَل الفرنجة في الشام كلِّها يُشيرون إلى فرحِ النصارى بالتحرّر من حكم الصليبيين.

ويقول السير توماس في هذا المعنى: «لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين، كما استمر الحكامُ المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح، وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى».

يقول الأستاذ عبدالرحمن عزام رحمه الله: «وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشدِّ خصومها المحاربين، وفي أحلكِ أيام

---

١ ـ انظر الرسالة الخالدة لعبدالرحمن عزام ص٣١٣ـ٣١٥.

الدولة الإسلامية أيام غاراتِ الصليبيين والتتر ـ فإن لنا شاهداً آخرَ من بطريق خراسانَ في أعزِّ أيام الدولة الأموية العربية، نختتمُ به هذا الفصل، يقول البطرقُ (يوساب الثالث) اليعقوبيُّ في خطاب طويل بعث به لحَبْرٍ زميلٍ: «أين أبناؤك أيها الأب! أين هذا الشعب العظيمُ شعبُ مَرْو! لم تصبهم جائحة، ولا سقطوا للسيف، ولا عُذِّبوا بنار، وإنما أصابهم متاع الدنيا، فارتدّوا عن دينهم، وقذفوا بأنفسهم كما يَقْذِفُ المجانينُ في مهاوي الهلاك والكفر، فلم ينجُ من هذا السعير إلا قسِّيسان اثنان فرًّا بنفسيْهما من جحيم الكفر -أي الإسلام- واحسرتاه على الآلاف المؤلَّفة الذين حملوا اسمَ المسيحية وصفتَها، ولم يقعْ منهم شهيدٌ واحد، ولا ضحى واحد منهم لدينه!!

أين كذلك بِيَعُ كِرْمانَ، وكنائسُ فارس!

لم يكن قدومُ شيطانٍ، ولا ملَك، ولا أميرٍ، ولا أمرُ خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها.

لم يكن ساحراً موهوباً أُوتِيَ المنطقَ، وسلطةَ الشيطان على النفوس، ولكنه ساحرٌ هز رأسَه فقط، فخرّت كنائسُ فارسَ كله على الأرض!

أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم ـ فإنهم عندك كذلك ـ فلم يطعنوا في ديننا، ولا اعتدوا على بِيَعنا، بل بالعكس ضالعوا مع ديننا، وفضّلوه على غيره، وأكرموا رهباننا وقساوستنا، واحترموا أولياءنا، وأحسنوا الهباتِ إلى معابدنا، فلماذا -إذاً- هجر أهلُ مَرْو نصرانيتَهم زُلْفى لهؤلاء العرب، وهم يعلمون ويقولون: إن العربَ ما طلبوا منهم تغييرَ دينهم، بل أقرُّوهم عليه كاملاً، ولم يسألوهم إلا ضريبةً بسيطةً يؤدُّونها عن أنفسهم، ولكنهم اشترَوا خلودَ أرواحهم في دين المسيح بمتاعٍ قليلٍ ؟!»[1].

---

١ ـ انظر الرسالة الخالدة ص٣١٣ـ٣٢٠.

المبحث السادس: موقف الإسلام من الإرهاب

تمهيد

تبين من خلال إشاراتٍ كثيرة من الفصول والمباحث الماضية موقفُ الإسلام من الإرهاب، وتبين -كذلك- سماحة الإسلام، وتسامح المسلمين، وأن ذلك هو الأصل عندهم.

والحديث ههنا إتمام لما مضى، وتأكيد عليه، وذلك من خلال إيضاح مفهوم الإرهاب، وموقف الإسلام منه، ورد التلبيس الوارد في اتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب.

ولن يطول الحديث ههنا؛ لأن كثيراً مما يتعلق بالإرهاب، ويدور في فلكه قد مر في غضون كثيرٍ من مباحث وفصول هذا البحث.

وسيدور الحديث في هذا المبحث من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: مفهوم الإرهاب

أولاً- الإرهاب في اللغة: أصل هذا المادة (رَهِبَ) يرهب رَهبةً ورُهْباً، ورَهَبا: أي خاف.

وأرهبه، ورهَّبه، واسترهبه: أخافه، وفزَّعه.

واسترهبه استدعى رهبته حتى رَهِبه الناس.

وبذلك فسر قوله -عز وجل-: ﴿ **وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ الأعراف: ١١٦ .

أي أرهبوهم[١].

١- انظر لسان العرب ١/٤٣٦-٤٣٧ .

ثانياً- الإرهاب في الاصطلاح العام العالمي : الإرهاب لفظ يكتنفه الغموض؛ حيث إن كُلاًّ يفسره على ما يشاء.

كما أنه من الألفاظ التي صار لها دوي وشهرة وسيرورة في العصر الحاضر؛ فلا يكاد مصطلح من المصطلحات السياسية ينافسه ، أو يقترب منه في الحضور الإعلامي العالمي.

وإذا أراد باحث أن يضع تعريفاً جامعاً للإرهاب - فإنه سيجد صعوبة بالغة؛ لما يكتنف هذا المصطلح من غموض - كما مر -.

ولقد حاول مُؤَلفٌ قانوني أن يضع تعريفاً للإرهاب فوضع مائة وتسعة تعريفات للإرهاب من وضع علماء متنوعين في عدد من فروع العلوم [(١)].

ومهما يك من شيء فهذه تعريفات تُقَرِّب مفهوم مصطلح الإرهاب.

ومن خلال ذلك سيتبين الخلل الذي يعتري بعض هذه التعريفات ، ثم يعقب بتعريف المجمع الفقهي الإسلامي الذي جلى مفهوم الإرهاب بتعريف شامل واضح.

أ- عرفت النشرة الأمريكية الإرهاب بقولها : الإرهاب يعني عنفاً بدافع سياسي يُرتكب ضد غير المنازعين ، أو غير المخاصمين ، موجَّهٌ بواسطة مجموعات قومية ، أو وكلاء خائنين[(٢)].

ب- وعرفت الموسوعة الأكاديمية الأمريكية ، الإرهاب بقولها : هو الاستعمال المحسوب لأعمال العنف ، أو التهديد بها ، بما فيها من قتل ، وخطف ، وتفجيرات لتخويف الناس ، وإخضاعهم.

وعادة ما يكون بفرض تحقيق أهداف سياسية معينة[(٣)].

١- انظر : الإرهاب دوافعه وعلاجه د. محمد الشويعر ص ١٠١

٢- انظر الإرهاب دوافعه وعلاجه ص ١٠١

٣- انظر القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب د. محمد السلومي ص ١٠٩

ج ـ وعرفت الموسوعة العربية العالمية الإرهاب بقولها: هو استخدام العنف، أو التهديد به؛ لإثارة الخوف والذعر، ويعمل الإرهابيون على قتل الناس، أو اختطافهم، كما يقومون بتفجير القنابل، واختطاف الطائرات، وإشعال النيران، وارتكاب غير ذلك من الجرائم الخطيرة، كما أن معظم الإرهابيين يرتكبون جرائمهم لدعم أهداف سياسية معينة[١].

ولا يخفى ما في هذه التعريفات من الملحوظات والمآخذ[٢].

د ـ وأخيراً فإن إضافة تعريف للإرهاب من وجهة النظر الإسلامية يُعَدُّ من الأهمية بمكان؛ حيث إن الإرهاب بمفهوماته الحديثة تم ربطه ظلماً بالإسلام والمسلمين.

وقد صدر عن المجمع الفقهي الإسلامي تعريف للإرهاب يكاد يكون أحسن ما عرف به الإرهاب، حيث عَرَّف المجمع الإرهاب بقوله: «هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات، أو دول بغياً على الإنسان ـ دمه، وماله، وعقله، وعرضه ـ.

ويشمل صنوف التخويف، والأذى، والتهديد، والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة، وإخافة السبيل، وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف، أو التهديد يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي، أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم، أو حريتهم أو أموالهم للخطر؛ فكل هذا من صور الفساد في الأرض كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ القصص: ٧٧.

والإرهاب هو بغي بغير حق، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٣٣[٣].

---

١ ـ انظر القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب ص ١١٠

٢ ـ انظر القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب ص ١١٠ـ١١٤

٣ ـ أصدر المجمع الفقهي الإسلامي هذا البيان والتعريف للإرهاب قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وذلك بتاريخ ١٤٢١/١٠/١٥ هـ الموافق ٢٠٠١/١/١٠ م. انظر القطاع الخيري، ودعاوى الإرهاب ص ١١٤

المطلب الثاني: موقف الإسلام من الإرهاب

من خلال ما مضى من تعريف الإرهاب يمكن بيان شيء من موقف الإسلام من الإرهاب، وذلك من خلال ما يلي:

١ـ أن حماية الحوزة الإسلامية، والدفاع عنها لا يعد إرهاباً: فحوزة الإسلام هي حدود بلاده و نواحيها؛ لأنها في حوزة ملكه.

والدفاع عنها حفظ للأمة الإسلامية من اعتداء عدوها عليها.

ومن أعظم مقاصد الإسلام أن تكون الأمة مرهوبة الجانب، محترمة، منظوراً إليها في أعين الأمم الأخرى نظرة المهابة والوقار؛ فذلك مما يردع عن مناوشتها، وتكدير صفو الأمن فيها.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم ﴾ الحشر: ١٣[1].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ ﴾ الأنفال: ٦٠.

فإعداد القوة ـ إذاً ـ وحماية الأمة ليس من الإرهاب في شيء؛ فلا خير في أمة لا تستطيع حماية نفسها، ولا خير في حق لا تحوطه القوة.

٢ـ أن الإسلام ينهى أشد النهي عن الإرهاب الذي يعني الإفساد: فالإسلام ينهى عن كل فساد، أو إفساد قَلَّ أو كثر في أي شيء من الشؤون العامة أو الخاصة.

والأدلة من الكتاب والسنة على ذلك متكاثرة متظاهرة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة.

١ـ انظر أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص ٢٠٣

قال العلامة ابن عاشور مبيناً معنى الفساد وعمومه: «والحرث هنا: مرادٌ منه الزرع، والنسل: أطفال الحيوان مشتق من نسل الصوف نسولاً إذا سقط وانفصل.

وعندي أن إهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس.

وكانوا أهل حرث وماشية؛ فليس المرادُ خصوصَ هذين الأمرين، بل المراد ضياع مابه قوام الناس، وهذا جارٍ مجرى المثل»[1].

إلى أن قالرَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أجل ذلك نُهي عن إحراق الديار في الحرب، وعن قطع الأشجار، إلا إذا رجح في نظر أمير الجيش أن بقاء شيءٍ من ذلك يزيد قوة العدو، ويطيل مدة القتال»[2].

وقال في موضع آخر: «فالإفساد في الأرض تصيير الأشياء الصالحة مُضِرَّة، كالغش في الأطعمة، ومنه إزالة الأشياء النافعة كالحرق، والقتل للبرآء، ومن إفساد الأنظمة كالفتن والجور، ومن إفساد المساعي كتكثير الجهل، وتعليم الدعارة، وتحسين الكفر، ومناوأة الصالحين»[3].

فالإسلام -إذاً- بريء من الإرهاب، محارب له، مناوئ لجميع صوره -على نحو ما مضى-.

وإذا وجد من ينتسب إلى الإسلام من يقوم بالإرهاب، أو شيء من صوره فتبعة ذلك على من فعله لا على الإسلام - كما مر بيان ذلك- في مواطن متعددة من هذا الكتاب.

المطلب الثالث: تلبيس مردود في اتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب

إن تعجب بعد ما مضى بيانه في المباحث الماضية فاعجب من صنيع كثير من الظالمين البعيدين كل البعد عن العدل، وحقائق التاريخ، ممن يصفون دين

١- تفسير التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٠

٢- تفسير التحرير والتنوير ٢/ ٢٧٠

٣- تفسير التحرير والتنوير ١/ ٢٨٤-٢٨٥ .

الإسلام ونبيه وأهله بالقسوة والهمجية، والتطرف والإرهاب إلى غير ذلك مما هو محض افتراء، ومحاولة للصد عن دين الإسلام.

والحقيقة الماثلة للعيان تقول بأن الإسلام دين الرحمة، والرفق، والتسامح؛ فماذا فعل المسلمون حين انتصروا على خصومهم؟ هل تكبَّروا، وتسلطوا، واستبدوا؟ وهل انتهكوا الأعراض، وقتلوا الشيوخ، والنساء، والأطفال؟

ماذا فعل النبي ﷺ عندما انتصر على خصومه الذين كانوا يؤذونه أشد الأذى؟ ألم يكن يصفح عنهم؟ ويمنَّ عليهم بالسبي والأموال؟

وماذا فعل المسلمون عندما انتصروا على كسرى وقيصر؟ هل خانوا وغدروا؟ هل تعرَّضوا للنساء؟ وهل أساؤوا للرهبان في الأديرة؟ وهل عاثوا في الأرض فساداً؟ وهل هدموا المنازل، وقطعوا الأشجار؟

وماذا فعل صلاح الدين لما انتصر على الصليبيين الذين فعلوا بالمسلمين الأفاعيل، ونكَّلوا بهم أيَّما تنكيل؟ فماذا فعل بهم صلاح الدين لما انتصر عليهم؟ ألم يصفح عن قائدهم؟ ويعالجه؟ ويطلق سراحه؟

وماذا كانت أحوال أهل الذمة في بلاد المسلمين عبر العصور المتطاولة إلى يومنا هذا؟ ألم يكونوا ينعمون بالأمان، والعدل، والإحسان؟

ألم يجدوا من عدل المسلمين وإحسانهم ما لم يجدوه من بني جلدتهم؟

فهذه المواقف النبيلة وأمثالها كثير في تاريخ المسلمين، مما كان له أبلغ الأثر في محبة الناس للإسلام، والدخول فيه عن قناعة ويقين.

أفغير المسلمين يقوم بهذا؟ آلغرب يقدم مثل هذه النماذج؟

الجواب ما تراه، وتسمعه؛ فمن أين خرج هتلر، وموسوليني، ولينين، وستالين، ومجرمو الصرب؟ أليست أوربا هي التي أخرجت هؤلاء وأمثالهم من الشياطين الذين قتلوا الملايين من البشر، ولاقت منهم البشرية الويلات إثر

الويلات؟

ألا يعد أولئك هم طلائع حضارة أوربا؟ فَمَنِ الهمج القساة العتاة إذاً؟

ومَنِ المتطرفون الإرهابيون حقيقة؟

ثم مَنِ الذين صنعوا القنابل النووية، والعنقودية، والذرية، والجرثومية، وأسلحة الدمار الشامل؟

ومن الذين لوَّثوا الهواء بالعوادم، والأنهار بالمبيدات؟

ومن الذين يسلكون الطرق القذرة التي لا تمت إلى العدل، ولا إلى شرف الخصومة بشيء؟

من الذين يُعَقِّمون النساء؟ ويسرقون أموال الشعوب وحرياتهم؟ ومن الذين ينشرون الإيدز؟

أليس الغرب، ومن يسير في ركابهم؟

ومن الذي يدعم اليهود وهم في قمة التسلط والإرهاب؟

وماذا حصل في محاكم التفتيش، وما أدراك ما محاكم التفتيش؟

وماذا حصل في بعض السجون كأبي غريب وغيره مما يندى له الجبين؟

هذه هي الحقيقة الواضحة، وهذا هو الإرهاب والتسلط.

ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن يكون غير المسلمين على سُنَّة واحدة من الظلم والتسلط والجبروت، لا بل إن فيهم من هو قائم بالعدل، بعيد عن الظلم.

أما جهاد المسلمين لإحقاق الحق، وقمع الباطل، ودفاعهم عن دينهم، وأنفسهم وبلادهم فليس إرهاباً، وإنما هو العدل بعينه.

وما يحصل من بعض المسلمين من الخطأ في سلوك سبيل الحكمة فقليل لا يكاد يذكر بجانب وحشية الغرب، وتبعته تعود على من أخطأ السبيل، ولا تعود على الدين، ولا على المسلمين، ولا يُقَرُّ عليها من قام بها، بل إن أهل الإسلام

ينكرون مثل ذلك أشد الإنكار[١].

وهكذا ينبغي للعاقل المنصف؛ أن ينظر إلى الأمور كما هي بعيداً عن الظلم والتزوير والنظرة القاصرة.

وبعد هذا فإن كان للإنسان من عجبٍ فإنه من الأوربيين، والأمريكان؛ حيث لم يكتشفوا حقيقة الدين الإسلامي وعظمة نبيِّه فيما اكتشفوه، وهو أجلُّ من كل ما اكتشفوه، وأضمن للسعادة الحقيقية من كل ما وصلوا إليه؛ فهل هم جاهلون بحقيقة الإسلام حقًّا؟ أو أنهم يتعامون ويصدون عنه؟!

إن كانت الأولى، فهي مصيبة، وإن كانت الثانية فمصيبتان!

١ـ انظر الطريق إلى الإسلام ص٩٥ـ٩٦، والرحمة والعظمة في السيرة النبوية ص٦٦ـ٦٩.

الباب الثامن

الدلائل على حقيقة الإسلام

وتحته:

تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: الإعجاز في القرآن الكريم

الفصل الثاني: المعجزات في السنة النبوية

الفصل الثالث: الإسلام في الكتب السابقة

تمهيد

هذا الباب ـ وهو الدلائل على حقيقة الإسلام ـ يكاد يدخل في جميع أبواب هذا البحث، وفصوله، ومباحثه؛ إذ هي جميعاً دلائل على حقيقة الإسلام؛ فما الحديث عن مفهوم الإسلام، ولا الحديث عن مصادر التشريع، أو أركان الإسلام، والإيمان وعلم الغيب، ولا عن النبيﷺ ولا شهادات المنصفين عن دين الإسلام ونبيه، ولا الحديث عن نظام الإسلام السياسي، والاقتصادي، والقضائي، والاجتماعي، والأسري، ولا الحديث عن موقف الإسلام من العقل، والعمل، والسلام، والصحة العامة، والنظافة، وغيرها ـ إلا دلائل واضحة على حقيقة الإسلام وعظمته، وكونه صادراً من لدن حكيم عليم؛ إذ إن كل باب من أبواب هذا البحث، وما يندرج تحته يدل دلالة قاطعة على حقيقة الإسلام، وصدق الرسولﷺ.

والحديث في هذا الباب إكمال لما هو مبثوث في غضون هذا البحث من الإشارات الكثيرة على حقيقة هذا الدين.

وسيتناول هذا الباب بياناً لإعجاز القرآن والسنة النبوية، وورود الإسلام في الكتب السابقة؛ فإلى فصول هذا الباب، والله المستعان وعليه التكلان.

الفصل الأول

الإعجاز في القرآن الكريم

وتحته: تمهيد

المبحث الأول: في كون القرآن معجزاً

المبحث الثاني: في وجه الإعجاز القرآني

المبحث الثالث: مميزات الأسلوب القرآني المعجز

المبحث الأول: في كون القرآن معجزاً

كل رسول له معجزة تكون دليلاً من أدلة نبوته ورسالته، وأنه مرسل من قِبَلِ ربه؛ إذ بدون ذلك لا تقع حجة الله على الخلق بالإيمان برسله؛ فمهما سمت أخلاق الرسول، وعلت همته، وجادت قريحته، وتوقد ذهنه، وتبوأ المكانة العليا في قومه ـ فإن كل هذا لا يكفي دليلاً على أنه مرسل من قبل الله؛ فلا يمكن للعقل أن يصدق ويذعن ويعترف بأن هذا رسول إلا بما يظهره الله على يديه من معجزات، فيخرق له السنن الكونية: أسبابها ومسبباتها؛ إذ المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، وهي خارجة عن الأسباب المعروفة، هادمة للنتائج المبنية على المقدمات؛ فالنار مثلاً محرقة عادة، ولكنها أصبحت برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم ـعليه السلامـ فالذي جعلها محرقة على وَفْق السنن والقوانين التي نعرفها هو الذي جعلها برداً وسلاماً؛ فكانت بذلك معجزة لإبراهيم ـعليه السلامـ ودليلاً على نبوته[1].

والمقصود من المعجزة ليس هو إعجازَ الناس لذات الإعجاز ـ أي لمجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة ـ بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو الله ـتعالىـ.

لذا فإن الله ـتعالىـ قد بعث كل رسول إلى قومه، وأظهر على يديه المعجزات التي من شأنها أن تجعل قومه يدركون إدراكاً يرفع عنهم كل لبس وغموض أن هذا رسول من عند الله، وليس بِمُدَّعٍ عليه؛ لذا كانت معجزات كل نبي ورسول نابعة من بيئته، ملائمة لقومه؛ فتأتيهم على وَفْق ما برعوا فيه حتى يكون ذلك

١ ـ انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٢١ـ٣٢٣، والبيان في علوم القرآن ص٩.

أدعى لإيمانهم، ولإقامة الحجة على صدق رسولهم، وإلا وصفت بأنها سحر وخيال وضرب من المحال؛ لأن المعجزة لا تُحَقِّق الغايةَ منها إلا إذا حصل التحدي بها، ولا يتحقق التحدي لأمة من الأمم لا تعرف شيئاً عن المُتَحَدَّى به.

هذا وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم والمتدبر لآياته التي تتحدث عن المعجزات بصورة عامة لتتبين له كل هذه المعاني التي مَرَّ ذِكْرُها[1].

فهناك معجزة موسى ـعليه السلامـ التي كانت في عصاه، وهي تتلاءم مع قوم احترفوا السحر، وفاقوا غيرهم فيه.

ويدلنا على معرفة قومه بالسحر تلك الآيات القرآنية التي تحدثت عن فرعون، ودعوته للسحرة في زمنه، كما في قول الله ـتعالىـ: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾ يونس: ٧٩.

وقوله: ﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ الأعراف.

وقوله: ـعز وجلـ: ﴿ **وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ** ﴾ الشعراء.

وقوله ـجل ثناؤهـ: ﴿ **وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ** ﴾ الأعراف: ١١٣.

وقل مثل ذلك في معجزة عيسى ـعليه السلامـ حين برع قومه بالطب، فجعل الله معجزة عيسى من جنس ما عرف قومه، وبرعوا به؛ فجعل الله على يد عيسى إحياء الموتى قبل دفنهم أو بعده، وجعل مَسْحةً من يديه ترد الأعمى بصيراً، وتبرئ الأبرص فيعود سليماً.

وأَعْلَمُ الناس إدراكاً لهذه المعجزة هم أولئك الذي يعرفون الطب وعلومه، فهم أقدر الناس على التمييز بين إحياء حقيقي أو إحياء مزعوم، وعلى معرفة الفارق

---

١ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١/٩٣ـ٩٧.

بين حياة حقيقية بعد موت محقق، أو إغفاءة نتيجة سكرات المرض، ثم صحوة منه.

وقل مثل ذلك في معجزة النبيﷺ، فلقد بعث الله -تعالى- محمداًﷺ في قوم كان الكلام بضاعتهم، فكانوا فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، فالشعر الجزل، والخطب البليغة، والحكمة السائرة تبلغ من نفوسهم ما لا يبلغه السحر.

والقصيدة الشاردة تَعْلَقُها نفوسهم، ويضعونها في أعز مكان، وتكون من المعلقات.

وكانت أسواقهم تبادلاً وتداولاً، يتبادلون فيها بضائعهم، ويتداولون أشعارهم.

فجاءتهم معجزة النبي محمدﷺ من جنس ما عرفوا وأَلِفوا، فجاء التحدي لهم بالمعروف عندهم، والمألوف لديهم؛ فكان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى الله بها الناس قاطبة؛ فكان حجة الله البالغة التي لا يحيد عنها إلا مكابر معاند[1].

قال الباقلاني رحمه الله في فصل عقده في كتابه (إعجاز القرآن) قال فيه: «الفصل الأول: في أن نبوة النبيﷺ معجزتها القرآن».

ومما قال تحت هذا الباب: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا محمد -عليه السلام- بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيِّد بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة».

إلى أن قال رحمه الله: «فأما دلالة القرآن فهي معجزة عامة عَمَّت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد»[2].

---

١ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص٩ـ١١، وإعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٨ـ٣٦.

٢ ـ إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧ـ٢٨، وانظر تفسير التحرير والتنوير ١/١١١/١١٢، و ١١٩ـ١٢٠.

المبحث الثاني: في وجه الإعجاز القرآني

القرآن الكريم مُعْجز بلا ريب، وبعض الباحثين يرى أن إعجاز القرآن عام، فيرى من وجوه الإعجاز: الإعجازُ البياني، والإعجاز العلمي التجريبي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز الغيبي؛ فهذه هي أشهر وجوه الإعجاز التي يذكرها الباحثون في شأن الإعجاز القرآني.

ويذهب أولئك للتدليل على رأيهم بقوله -تعالى-: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ** ﴾ الأنعام: ٣٨.

ولا ينكر أن القرآن يتسع للكثير مما هدى الله إليه البشر في بعض المجالات؛ فلقد اتسعت مدارك علماء التفسير، فأبرزوا لنا هذه المعاني، وبينوا مدى مطابقتها للواقع، ومدى اجتماع الآيات القرآنية لمعانيها العلمية.

غير أن أعظمَ وجوه الإعجاز القرآني وأجلَّها هو الوجه الذي تحدى به القرآن سائر العرب، ألا وهو بلاغة القرآن، وحسن بيانه؛ فالتحدي الأكبر إنما هو بلفظ القرآن، ونظمه[1].

قال الله -عز وجل- في شأن القرآن الكريم وإعجازه: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ الإسراء: ٨٨.

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في شأن إعجاز القرآن الكريم: «القرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وفي علومه وحُكْمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وفي كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول،

---

١ - انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص٤٣، والبيان في علوم القرآن ص ١٣-١٤، ومباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم ص٩٢.

وفي كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول.

وقد تحدى محمدٌ رسولُ اللهِ النبيُّ العربيُّ الأميُّ العربَ بإعجازه، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله؛ فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته، واجتثاث نبتته.

ونقل جميعُ المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأمم، فظهر عجزهم -أيضاً-»[1].

إلى أن قال رحمه الله مبيناً عظمة القرآن، وشيئاً من سِرِّ إعجازه: «فالقرآن في البيان والهداية كالروح في الجسد، والأثير في المادة، والكهرباء في الكون تُعْرَفُ هذه الأشياء بمظاهرها وآثارها، ويعجز العارفون عن بيان كُنهها وحقيقتها، وفي وَصْف ما عُرِف منها، أو عنها لذة عقلية لا يستغنى عنها.

كذلك ما عرف من أسباب عجز العلماء والبلغاء على الإتيان بسورة مثل سور القرآن في الهداية، وحسن البيان.

فيه لذات عقلية وروحية، وطمأنينة ذوقية وجدانية تتضاءل دونها شبهات الملحدين، وتنهزم من طريقها تشكيكات الزنادقة والمرتابين»[2].

ومن هنا يتبين أن الآياتِ القرآنية التي جاءت متحدية للإنس والجن إنما تحدتهم -وما زالت- أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظماً وبياناً.

وهذا هو الوجه الذي أعجز سائر الناس سابقاً ولاحقاً.

وهم إذ عجزوا عن الإتيان بمثله فقد انتفى أن يكون القرآن كلامهم، أو من كلام محمد ﷺ لأنه واحد منهم؛ فتعيَّن أن يكون كلام رب البشر -جل وعلا-.

قال الباقلاني رحمه الله متحدثاً عن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن: «والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدقه ونبوته».

إلى أن قال: «فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم

١- من مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا لكتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ١٧-١٨.

٢- من مقدمة الشيخ محمد رشيد رضا ص ١٩-٢٠.

وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف في خطابهم.

وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسَّبي؛ فلما لم يحصل هناك معارضة منهم عُلِمَ أنهم عاجزون عنها»[1].

ثم إنه ثبت لنا أحاديث نبوية كثيرة، قالها الرسولﷺ قد بلغت أمداً قصياً في البلاغة، ولا يجاريها قول بشر، غير أن تلك الأحاديث لا تقارن بآيات الكتاب العزيز من ناحية البلاغة[2].

فإعجاز القرآن الأعظم -إذاً- هو بلفظ القرآن، وبلاغة نظمه[3].

وهذا ما سيتبين في المبحث التالي.

---

١ ـ إعجاز القرآن ص٤٣ .

٢ ـ انظر البيان في علوم القرآن ص١٤ .

٣ ـ انظر إعجاز القرآن ص ٥٨ـ٥٩ .

المبحث الثالث: مميزات الأسلوب القرآني المعجز

مقدمة في بلاغة القول

لقد تفرد الأسلوب القرآني بميزات عظيمة معجزة، وذلك من ناحية بلاغة وحسن بيانه.

وبلاغة القول: أن تكون ألفاظه فصيحة، ونَظْمه محكماً، ودلالته على المعنى منتظمة وافية.

أما فصاحة ألفاظه: فبأن يسهل جريانها على اللسان ويخفّ وقعها على السمع، ويألفها الذوق غير نابٍ عنها، وهي مع ذلك جارية على ما ينطق به العرب، أو يجري على قياس لغتهم.

وأما إحكام نظمه: فبأن تقع كل كلمة منه موقعها اللائق بها، بحيث تكون كلماته متناسبة يأخذ بعضها برقاب بعض، فلا يمكنك أن تضع يدك على كلمة وتقول: ليت هذه الكلمة تقدمت عن تلك الكلمة، أو تأخرت عنها.

وأما انتظام دلالته: فَبِأَنْ يَطْرُقَ اللفظُ سمعَك، فيخطر معناه في قلبك.

وحصولُ المعنى في القلب بسرعة أو بعد مهلة يرجع إلى حال السامع من الذكاء أو بطء الفهم، وحالُ المعنى من جهة ظهوره وقرب مأخذه، أو دقته وغرابته.

ويتحقق انتظام دلالة الكلام بإخراج المعاني في طرق تُريكَها في أقوم صورة، وأعلقها بالنفس، كالتشابيه، وضرب الأمثال، والاستعارات، والكنايات المصحوبة بقرائن تجعل قصد المتكلم قريباً من فهم السامعين.

وأما كون الدلالة على المعنى وافية: فبأن يؤديَ اللفظُ صورَ المعاني التي يقصد المتكلم البليغ إفادتها للمخاطبين على وجه أكمل، بحيث تكون العبارة بمفرداتها وأسلوبها كالمرآة الصافية تعرض عليك ما أودعت من المعاني لا يفوت ذهنك منها شيء.

ويُراد من المعاني التي يؤديها الكلام غير منقوصة ما يشمل المعاني التي يراعيها البليغ زائدة على المعنى الأصلي الذي يقصد كل متكلم إلى إفادته، وهي المعاني التي يبحث عنها في علم البيان، وتسمى: «مستتبعات التراكيب».

هذه الوجوه التي يَرْجِعُ إليها حسنُ البيان، يتنافس فيها البلغاء من الكتاب والشعراء، ويتفاضلون فيها درجات؛ فترى كلاماً في أدنى درجة، وآخر فيما هي أرفع منها، ولا تزال تُصَعِّد نظرَك في هذه الدرجات المتفاوتة إلى أن تصل إلى كلام يبهرك بفصاحة مفرداته، ومتانة تأليفه، وانتظام دلالته، وبهجة معانيه المالئة ما بين جوانبه[١].

مميزات بلاغة القرآن وحسن بيانه

وبعد هذه المقدمة عن معنى البلاغة وحسن البيان إليك شيئاً من مميزات بلاغة القرآن، وحسن بيانه المعجز:

١ـ فصاحة مفردات القرآن: فلا تكاد تمر بك كلمة إلا وجدتَها محكمة الوضع، خفيفة الوقع على السمع.

٢ـ متانة نظمه: التي بلغت الغاية التي ليس وراءها مطلع، فلا يمكن العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء بإمعان أن يشير إلى جملة من جمل القرآن فيقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع، أو يشير إلى كلمة من كلمه فيقول: لو استبدل بها كلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجاماً، وأصفى ديباجة.[٢]

٣ـ انتظام دلالته على ما يقصد إفادته وإحضاره في الأذهان: فإنك ترى فيه التشابيه الرائعة، والأمثال البارعة، والاستعارات الطريفة، والمجازات اللطيفة، والكنايات المنقطعة النظير، والتعريض الذي يقتضيه المقام، فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصريح.

---

١ ـ انظر إعجاز القرآن ص٥٠ـ٥١، و٦٥، وبلاغة القرآن للشيخ محمد الخضر حسين ص ٧ـ٨.

٢ ـ انظر إعجاز القرآن ٢٦٠ـ٢٦٥، وبلاغة القرآن ص٩٨.

٤ـ استيفاؤه للمعاني: التي يستدعي الحالُ الإفصاحَ عنها أو الإيماء إليها؛ فإنك تنظر في الآية، وتتدبر المعنى الذي سيقت من أجله، فتعود منها ويدك مملوءة من الفوائد التي تقع إليها؛ من حيث تُقَرِّر شريعة، أو تُقيم حجة، أو تلقي موعظة، أو تُرسل حكمة، إلى نحو هذا مما تستبين به سبيلُ الرشد، وتنظم به شؤون الحياة، وترتفع به النفوس إلى أعلى درجات الفلاح في دنياها وآخرتها.

٥ـ تناسبه في حسن بيانه دون تفاوت أو تباين: فأنت ترى البليغ من البشر يحسن البيان، ويأخذ لبَّكَ بالمنشآت الرائقة، حتى إذا طال به مجال القول، وقطع فيه أشواطاً واسعة ـ رأيت في جُمَله أو أبياته تفاوتاً في البراعة، وأمكنك أن تبصر فيها ضعفاً، وتستخرج بنقدك الصحيح من أواخر كلامه مآخذ أكثر مما تستخرج من أوائلها.

ولكن القرآن الكريم على طول أمده، وكثرة سوره نزل متناسباً في حسن بيانه، كما قال ـتعالىـ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ الزمر: ٢٣.

ثم قال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ النساء: ٨٢.

وترى البليغ من البشر يخوض في فنون من الكلام متعددة، فإذا هو يرتفع في فَنٍّ، وينحط في آخر.

ولكن القرآن الكريم يتصرف في فنون كثيرة، مثل الوعظ، وإقامة الحجج، وشرع الأحكام، والوصف، والوعد، والوعيد، والقصص، والإنذار، وغير ذلك من الوجوه التي تتصل بالهداية العامة؛ فلا تتفاوت فيها ألفاظه الرشيقة، وأساليبه البديعة[1].

٦ـ صوغ الأقوال على قدر الحقائق: فمن المعروف أن القرآن أتى بحقائق أَسَّسَ بها شريعة واسعة النطاق، وليس من شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلغاء كما تظهر فيما أَلَّفوه من نحو: المديح، والرثاء، والتهنئة، والغزل، وَوَصْفِ المشاهد، إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان، فتذهب مع الخيال كل مذهب، وترتكب

١ ـ انظر إعجاز القرآن ص ٦٦ـ٧٠، و٢٦٥، وبلاغة القرآن ص ٩ـ١٠.

من المبالغات ما استطاعت أن ترتكب.

والقرآن الكريم يعبر عن تلك المعاني التي تستدعي صدقَ اللهجة، وصوغَ الأقوال على أقدار تلك الحقائق، فترى الفصاحة ضاربة أطنابها، والبلاغة مرسلةً أَشِعَّتها[١].

٧ـ خلوه من التصنع: ففي بلغاء البشر من تحس من شعره أو خطبته أو رسالته أنه لم يكن يتصنع فيما يقوله؛ ذلك أنك تجد في كلامه الجيدَ، والوسط، والرديء، وفيهم من تحس فيما يقوله التصنع.

وهذا هو الذي يغلب على كلامه المنظوم أو المنثور الجودة في تصوير المعنى والتعبير عنه بكلام موزون، أو غير موزون.

ولكن القرآن الكريم بالغٌ الغايةَ من حسن البيان، فلا يجد فيه الراسخ في نقد المنشآت البليغة ما ينزل عن الدرجة العليا، بل يحس روح البلاغة التي لا يحوم عليها شيء من التصنع سارية في آياته وسوره، سواء في ذلك تصويره للمعاني، أو نظم الألفاظ الناطقة بها[٢].

٨ـ تكرار القصص في أكمل ما يكون من حسن البيان: فمن أعظم مظاهر بلاغة القرآن، أنه يورد القصة في أوفى درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه مقام الوعظ، حتى إذا عقدت موازنة بين حكايتها هنا وحكايتها هناك، وجدتهما في مرتبة واحدة من البلاغة لا تنزل إحداهما عن الأخرى بحال.

أما البليغ من البشر، فقد يسوق إليك القصة في عبارات أنيقة، ثم يريد أن يعيدها مرة أخرى، فإذا هي في درجة من البراعة منحطة عن درجتها الأولى[٣].

---

١ ـ انظر إعجاز القرآن ص٧٦، وبلاغة القرآن ص ١٠ .

٢ ـ انظر بلاغة القرآن ص١١، و تفسير التحرير والتنوير ١/٦٤ـ٦٥ .

٣ ـ انظر إعجاز القرآن ص ٨٢ـ٨٣، وبلاغة القرآن ص ١٠ـ١١ .

٩ـ أنه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير: وهي سنة جديدة في الكلام العربي؛ حيث أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف[١].

فهذا شيء من مميزات الإعجاز البياني القرآني.

١ ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١/١٢٠ .

المبحث الرابع: الإعجاز العلمي التجريبي

ويقصد بهذا النوع من الإعجاز القرآني ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التي تحدثت عن سنن الله في الكون ونظامه، وألوان العناية الربانية بالمخلوقات.

فهذا النوع من الإعجاز ميدان فسيح للنظر والتفكيرِ، والقرآنُ الكريم حافل به، مليء بذكر تفاصيله، والإرشاد إليه.

ويقدر بعض الباحثين في هذا النوع أن عدد الآيات التي تحدثت عن الكون الآفاق والأنفس ـ بما يزيد على تسعمائة آية مبثوثة في غضون آيات القرآن الكريم[1].

وهذا النوع من الإعجاز يحتاج إلى ضبط، وتَقَيُّدٍ بالمنهج القرآني، وبُعْدٍ عن تحميل النصوص ما لا تحتمل.

فإذا كان كذلك كان من أمضى الأسلحة لإقامة الحجة، وإثبات صحة الرسالة، وصدق الرسول، قال الله ـعز وجلـ: ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ** ﴾ فصلت: ٥٣ .

ولا ريب أن الغاية العظمى للقرآن الكريم هو تبصير الناس بطريق الهداية، ودعوته لسلوكها ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ الإسراء: ٩ .

وجاءت هذه الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري.

١ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١٥٩/٣، وكتاب القرآن والعلوم للدكتور جمال الدين الفندي، وانظر مباحث في إعجاز القرآن د.مصطفى مسلم ص١٣١ـ٢٠٣

ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية ـ جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال ما يعم الشرائح الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات؛ لأن المنطلقات الإنسانية محكومة بالفطرة والعقل والتجارب، وكل ذلك في دائرة المحدود الممكن؛ لذا كانت قواعد المخاطبات وأسسها العامة تعم كل من كان في عصر نزول الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف: ٥٤ .

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق منها بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضاً؛ لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم مَنْ يَنْصَبّ جلُّ اهتمامه على هذا الجانب من مخلوقات الله.

ولا بد من إقامة الحجة على هؤلاء، وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد ﷺ ليبشر به المؤمنين، وينذر به قوماً لُدًّا[1].

ومن العسير أن تتذوق هذه الطوائفُ الجمالَ البياني، وتدرك فصاحته وبلاغته؛ لتعترف أنه كلام الله المعجز.

ولكن أولئك يدركون أن هذه المعارف الإنسانية، وهذه الحقائق الكونية لا يتصور أن يدركها بشر من ذاته؛ لأن كثيراً منها لم تكتشف إلا في عصور متأخرة جدًّا بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية، وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها.

ولا ريب أن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم لدليل على أنه تلقَّاها ممن يعلم السر في السماوات والأرض

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص١٣١، وتفسير التحرير والتنوير ١/٩٣ـ٩٤، و ١٠١ـ١٠٢ .

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الفرقان: ٦[١].

ولقد مر بنا في غضون هذا البحث إشارات كثيرة إلى هذا النوع مما يغني عن إيراد كثير من الأمثلة عليه.

ولعل من أَجَلِّ ما في القرآن من الآيات التي تدور حول هذا المعنى تلك الآيات التي تتحدث عن النفس البشرية، وعن خلقها، وطبيعتها، وما يعتريها.

وكذلك الآيات التي تتحدث عن السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والجبل والبحر، والظواهر الجوية كالرياح، والسحب، والمطر، والبرق، والرعد.

وكذلك الآيات التي تتحدث عن الإنسان الذي حظي بالجانب الأكبر من ذلك.

وكذلك الحديث عن الرحم، والنشأة الجنينية إلى غير ذلك مما لا يتسع المقام لِذِكْرِه[٢].

ووجه دلالة الإعجاز العلمي التجريبي على مصدرية القرآن الكريم أن تلك الإشارات الكثيرة التي وردت في هذا الشأن قد بلغت مبلغاً لا تستطيع أجيال من العلماء الإحاطة بها مهما أوتوا من وسائل وإمكانات وجهود وطاقات؛ فهي من الشمول بحيث تمتد في البعد الزمني إلى أصل الكون بمجراته وأفلاكه ونجومه وكواكبه.

ومن الإحاطة بحيث تتعرض للأنظمة المرئية وغير المرئية التي تسير عليها الكائنات الحية والجمادات من رياح، وسحب، وبحار، ونبات، وحيوان، وإنسان.

وبلغت هذه الإشارات والتلميحات مبلغاً من الدقة بحيث تعجز أحدث الوسائل والمختبرات العلمية عن متابعة هذه الحقائق التي يقف العلم التجريبي الحديث إزاءها مبهوتاً.

١ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١/١٢٦ـ١٢٧، ومباحث في إعجاز القرآن ص ١٣١ـ١٣٢

٢ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ٣/٣٤٨، و ٣/٤٣٨، ومباحث في إعجاز القرآن ص ١٣٩ـ٢٠٣.

إن سَوْقَ القرآن الكريمِ هذه الحقائقَ بهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كلَّ صاحبِ عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً.

إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يعقل أن هذا القرآن من عند رجل أمي عاش في بيئة أمية لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدماً في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟.

قال الله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفرقان[1].

فهذا شيء مما يوحي به الإعجاز التجريبي في القرآن الكريم.

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٠٢ـ٢٠٣

المبحث الخامس : الإعجاز التشريعي

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون وما فيه ، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يُحصى ، وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم اختار لهذا المخلوق المعزز دستوراً في الحياة يُنَظِّم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه ـ سبحان الله ـ ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وَفْق هذا الدستور الإلهي الكريم؛ حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة في الدنيا ، فيشعر بإنسانيته الحقة ، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر المخلوقات.

كما ضمن الله له السعادة في الآخرة استمراراً لسعادته الدنيوية : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾ الأعراف : ٣٢ .

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعيشية ، ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة ، وتشريعه المستقل بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ المائدة : ٣ [١].

وينتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ آل عمران : ١١٠ .

١ـ انظر تفسير التحرير والتنوير ١/١٢٦ ، ومباحث في إعجاز القرآن ص ٢٠٥

إن الجانب التشريعي والخُلُقي في القرآن الكريم لآية ـ وأيما آية ـ على كون القرآن من عند الله، وليس من عند البشر.

فالأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطةً ودقةً وشمولاً.

إن تاريخ الإنسانية يدُلُّ على أنها لم تنجب مفكراً أو فيلسوفاً أو مصلحاً اجتماعياً استطاع أن يضع نظاماً كاملاً للعلاقات الداخلية والخارجية لدولة ما.

وكم من حكيم حاول ذلك، ولكن نظرياته يعتريها النقص أحياناً، والتناقض طوراً، ومجانبة الصواب كثيراً، فثار على بعضها أتباعه في حياته أو بعد مماته.

ولا تزال هذه الظاهرة تتكرر إلى يومنا هذا في الأمم والشعوب التي لا تدين دين الحق، علماً أن هذه النظريات لا تناول إلا جانباً واحداً، بل جانباً ضيقاً من جوانب الحياة الاجتماعية.

أما أن توضع نظرية متكاملة الجوانب للكون والمخلوقات والأفراد والجماعات في شتى صورها وحالاتها ـ فهذا مما يخرج من طاقة البشر مهما أوتوا من علم وحكمة؛ فما بالك إذا ورد مثل هذا النظام الكامل على لسان رجل أمي لم يشتهر في حياته بالاطلاع على كتب وفلسفات الأقدمين، ولم يعرف بالأسفار العلمية والتجوال في الآفاق بحثاً وراء الأنظمة والتشريعات[1].

ولقد بقيت تلك العلوم والمبادئ قروناً وأجيالاً كلما مر عليها دول وأزمان وتناولتها الأيدي والأفكار بالبحث والدراسة ظهر بريقها، وأدرك المنصفون من أهل كل عصر ربانية مصدرها، وجدارة تطبيقها وصلاحها دون غيرها لكل زمان ومكان.

---

١ ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٠٥ـ٢٠٦

إن المبادئ السامية التي وردت في الشريعة الإسلامية وتضمنها القرآن الكريم لبرهان ساطع على مصدر القرآن الكريم، ودليل صدق على نبوة محمدﷺ وأنه تلقاها من لدن الحكيم الخبير؛ ليكون رحمة للعالمين[1].

ولقد مر في تضاعيف هذا البحث بيان لعقائد الإسلام وشرائعه، وأخلاقه، وأنظمته وما تشتمل عليه من وضوح، وسلامة من التناقض، وملاءمة للفطرة، وصلاح لكل زمان ومكان وحال وأمة ـ ما يعد إعجازاً لا يمكن لأي عقل بشري أن يأتي بمثل ذلك النظام التشريعي.

ومما يؤكد وجه دلالة الإعجاز التشريعي في القرآن أن المتعمق في دراسة التشريعات الإسلامية في مختلف مناحي الحياة يدرك إدراكاً واضحاً أن هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإنسان إنسانيته، وتطلق طاقاته نحو الكمالات البشرية، وتحفظ له نظرته المستقيمة، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية، والروحية، والعقلية مما يثمر له الطمأنينة النفسية والسعادة في حياته الدنيا التي هي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة.

إن تاريخ البشرية لم يحدثنا عن مصلح اجتماعي أو فيلسوف عبقري أنه وضع نظام حياة لشعب من الشعوب بمختلف فئاته، وتنوع مجالاتها.

بل حاول كثير من المصلحين أن يضعوا قوانينَ تنظيميةً لدولة من الدول، ولكن محاولاتهم ـكما مرـ لم تسلم من كثرة الانتقاد عليها في حياتهم وبعد مماتهم؛ لأنها كانت متأثرةً بِبيئةِ واضعِها قاصرةً عن استيعاب المشكلات من جميع أطرافها.

وما قانون حمورابي وصولون وغيرهم، وما أخذ عليها وما نتج من تطبيقاتها قديماً إلا مظهر من المظاهر التي ابتلي بها الإنسان في مراحل شقائه، ولا زالت

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٠٦

هذه الظواهر تتكرر في المجتمعات التي لا تدين دين الحق، فالمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والوثنية تكتوي بمثل هذه التجارب المريرة إلى يومنا هذا.

إن التشريعات الإسلامية التي جمعت بين مطالب الروح والمادة فأشبعت كلاًّ منهما في الإنسان بما يناسبها، ووفرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة وتلاؤمها معها ـ لدليل على أن أحداً من البشر لا يستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها، وهي برهان ساطع على أنها مُنَزَّلَة من خالق الإنسان الذي أودع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات فأنزل ما ينظمها جميعاً ويوجهها لعبادة الخالق.

وتكون الدلالة أوضح، والبرهان أظهر عندما تعلم أن الذي نزلت عليه كان أميا لم يتلق العلم على يد أحد من البشر، ولم يُعرف بتجواله في الآفاق بحثاً عن النظريات والدساتير الإصلاحية[1].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله: «إن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية.

وإذا وازنَّا ما جاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان، وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت إنشاء مدينة روما إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل: إنهم ممتازون منهم: سولون الذي وضع قانون أثينا ومنهم ليكورغ الذي وضع نظام اسبرطة.

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣١ـ٢٣٢

فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحق عن الله ـسبحانه وتعالىـ من غير درس درسه، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدريس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني، لم يسبقه سابق، ولم يلحق به لاحق»[١].

إن الإعجاز التشريعي لآية بينة على أن القرآن الذي اشتمل عليه هو كلام الله أنزله على قلب عبده ورسوله محمدﷺ ليخرج الناس من ظلمات الانحراف والضلال والشقاء إلى نور الإيمان والهداية والتمسك بحبل الله المتين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣[٢].

١ـ المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٥٥

٢ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣٣

المبحث السادس : الإعجاز الغيبي

أولاً : مفهوم الإعجاز الغيبي

من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم التي ذكرها العلماء الإعجاز بما فيه من أنباء الغيب ويقصدون بذلك كل ما كان غائباً عن محمد ﷺ ولم يشهد حوادث الواقعة ، ولم يحضر وقتها ، فيدخل في الغيب بهذا المفهوم كلُّ ما ورد في القرآن الكريم عن بداية نشأة الكون ، وما وقع منذ خلق آدم ـ عليه السلام ـ إلى مبعث رسول الله ﷺ من عظيمات الأمور ومهمات السير.

وكذلك يشمل ما غاب عن محمد ﷺ في وقته من الحوادث التي كانت تَحْدُث ويُخْبر بها بطريق الوحي ، كإخبار الله ـعز وجل ـ له بما يكيده اليهود والمنافقون.

ويشمل ـأيضاًـ ما تضمنه من الإخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان[١].

فالإعجاز الغيبي ـإذاًـ يشمل غيب الماضي ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل.

ولقد مر في بعض أبواب هذا البحث ذكر لشيء من الإخبار عن المغيبات كالإخبار عن أحوال الأمم الماضية؛ كالإخبار عن أمور حاضرة في زمن النبي ﷺ وكالإخبار عن أمور مُستقبلة كأشراط الساعة ، وأحوال القيامة ونحو ذلك .

ثانياً : أهداف غيب الماضي

من خلال تتبع القصص القرآني وما ورد فيه من أنباء الأمم السابقة ندرك أن الهدف الأساس من هذا النوع من الغيب هو إثبات صدق رسول الله ﷺ وكثيراً ما يستدل القرآن الكريم على ذلك بالإشارة إلى مطابقة ما ورد في القرآن لما ورد في الكتب السابقة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ**

١ـ انظر إعجاز القرآن ص ٦٢ـ٦٥ ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ص ٣١٩/٥ـ٣٢٤ ، و مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣٥ ، والرسل والرسالات ص ١٧٤

ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يونس: ٣٧.

وهناك أهداف تبعية لغيب الماضي مثل:

أـ **تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ**، وإدخال الطمأنينة إلى قلبه أن منهجه هو منهج الأنبياء والرسل السابقين، وأن ما يلاقيه من عنت المشركين وعنادهم هو سنّة الله في جميع الأقوام، كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود: ١٢٠.

بـ **تربية الأمة** وتهذيبها من خلال العظات والعبر التي ترد في قصص السابقين كالإخلاص والتوكل في قصة إبراهيم ـعليه السلام ـ والبر والوفاء والطاعة في قصة إسماعيل ـعليه السلام ـ والصبر والتحمل في قصة سيدنا أيوب ـعليه السلام ـ.

جـ **تنمية المشاعر النبيلة**، كما في قوله تعالى في قصة يوسف ـعليه السلام ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف: ١١١.

وقوله ـتعالى ـ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ القصص: ٥٨.

دـ **إبراز وجه من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم**، فالقصة الواحدة تتكرر أحياناً عدة مرات، وتحس في كل مرة بقضايا وأمور جديدة مع الحفاظ على أصل القصة، ومن غير تناقض في وقائعها ويؤدى ذلك كله بأسلوب معجز، وهذا ليس في قدرة البشر [1].

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣٨ـ٢٣٩، والرسل والرسالات ص ١٧٤ـ١٧٨

ثالثاً: الغاية من غيب الحاضر

فالغاية الأساسية من غيب الحاضر هو تأييد الدعوة، والأخذ بيدها، والسير بها على بينة من أمرها، وتربية الأمة وتهذيبها.

وإن كان يؤخذ إلى جانب ذلك من هذا النوع من الغيب صدق رسول الله ﷺ فيما بلغ عن ربه؛ حيث لم يكن له علم بما دار في غيابه، وما خطط وما جرى تنفيذه، حتى أماط القرآن الكريم اللثام عن هذه الأمور[١].

رابعاً: الغاية من غيب المستقبل

الهدف الأساسي في إيراد هذا النوع من الغيب ترسيخ الإيمان في القلب، وحسن التوكل على الله خالق السماوات والأرض، الذي بيده مقاليد الأمر، الذي يقول للشيء كن فيكون.

والهدف التبعي لمثل هذا النوع من الغيب تصديق رسول الله ﷺ والإيمان بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى[٢].

خامساً: وجه دلالة الغيب على صدق القرآن

إن حالة محمد ﷺ عند إطلاق هذه الأنباء الموغلة في القدم، أو الحاضرة الخفية في صدور أهلها، أو الوعود المستقبلة التي كانت في مجاهل الغيب ـ هي حال الواثق المتيقن من الأمر، وهو بشر لم يطلع على كتب السابقين ولا يملك من تصرف أمور المستقبل شيئاً وكان بذاته ينفي عن نفسه علم الغيب قال الله ـتعالى ـ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ الأعراف: ١٨٨ .

---

١ ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٤١، والرسل والرسالات ص ١٧٤ـ١٧٨

٢ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٦٠، والرسل والرسالات ص ١٧٤

فلو لم يكن مستنداً إلى ركن قوي ما أطلق مثل هذا، ولما جازف بدعوته وهو الذي عرف عنه التعقل والحكمة، ولم يعهد منه تسرعٌ في أمر، أو قولٌ بلا رَويَّة، حتى قبل أن يكرمه الله بالرسالة.

فلا شك أن الوحي الإلهي كان ينطقه، كما أن الصدق المطلق الذي وافق القرآن الكريم من يوم نزوله إلى يوم انقطاع الوحي بالتحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، أمر يوجب التوقف والتدبر.

إن الصدق في أخبار القرآن الكريم ظاهرة لا يستطيع إنكارها أحد، حتى الذين عادوا الإسلام؛ فقد كان هؤلاء يضمرون في أنفسهم احترام صدق القرآن وحقيقته بالرغم من ركام الوثنية والشرك والتكذيب الذي لا قوه به، بل كان هذا الاحترام المنتزع منهم والمفروض عليهم ملازماً لشخص الرسول ﷺ الذي كان ينطق بالقرآن.

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله ﷺ والمؤمنين به، حيث صدَّقت الحوادث الكونية كثيراً مما أخبرهم به القرآن الكريم[١].

كما أدرك أهل الكتاب صدق القرآن فيما أخبرهم به من الحوادث الغابرة التي كانوا يعرفونها من بطون كتبهم، وكذلك أدركوا هذا الصدق المطلق من خلال كشف القرآن لمخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام وأهله[٢].

إن هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن الكريم لدليل ظاهر، وبرهان قاهر على أنه كلام رب العالمين، الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق، ولا تخفى عليه خافية.

١ـ انظر مباحث في إعجاز القرآن ص ٢٦١ .

٢ـ انظر الفصل الثالث من هذا الباب.

لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكل ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر، ولا زالت الأيام تكشف عن جوانب من هذه الأنباء، سواء في الكون أو الإنسان أو الحوادث الكونية العامة الشاملة.

إن ظاهرة الإخبار بالمغيبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلف الصدق عنها ولو في جزئية بسيطة ـ لدليل على أنه وحي ممن خلق الأرض والسماوات العلى، أنزله على رسوله ليكون دلالة على صدقه [1].

---

١ ـ انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣٢٤/٥ـ ٣٢٨، ومباحث في إعجاز القرآن ص٢٦١ـ٢٦٢

الفصل الثاني
الإعجاز في السنة النبوية

وتحته:

ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاز اللفظي في الحديث النبوي

المبحث الثاني: أقسام معجزات النبي محمد ﷺ وطرق ثبوتها

المبحث الثالث: نماذج من معجزات النبي محمد ﷺ

المبحث الأول: الإعجاز اللفظي في الحديث النبوي

ما يقال في شأن إعجاز القرآن من جهة علومه، وكشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، وعن ما فيه من علوم، وحكم، وأحكام، ونظم، وتشريعات، ونحو ذلك ـ يقال في شأن السنة تماماً؛ لأن الكتاب والسنة من عند الله ـعز وجلـ فالرسولﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى.

وقد تقرر ذلك في مباحث ماضية عند الحديث عن السنة النبوية، كما تقرر ـأيضاًـ في الفصل الماضي عند الحديث عن جوانب من الإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي التجريبي، والإعجاز الغيبي.

وتقرر كذلك عند الكلام عن الصحة والنظافة في الإسلام، وغيرها من المباحث.

وإنما الشأن ههنا في ألفاظ الحديث النبوي، ونظمه وأسلوبه.

فهل يبلغ الحديث النبوي في هذه الناحية مبلغ القرآن في الإعجاز؟.

والجواب عن ذلك أن يقال: إن النبيﷺ قد سمت ألفاظه إلى الذروة، وأحرز من خصلتي الفصاحةِ والبلاغةِ الغايةَ التي ليس وراءها لمخلوق غاية، فلا يستطيع بشر أن يجاريه في ذلك.

ولكن تلك البلاغة لم تصل إلى حد الإعجاز الذي هو خاص بالقرآن المجيد.

والفرق بين بلاغة الحديث وبلاغة القرآن لا يخفى على ذوي الفطر السليمة، لا سيما الذين دَرَبوا في فنون البلاغة، وقَلَّبوا أنظارهم في أساليبها المختلفة، وعرفوا كيف يَضَعون كُلَّ كلامٍ بليغ في مرتبته.

وهذا التفاوت الواضح بين القرآن والحديث من أصدق الشواهد على أن القرآن الكريم كتاب منزل من السماء، لا أنه من النبي محمد ﷺ كما يزعم من يجحدون بآيات الله[1].

ولقد أبان كثير من العلماء عن بلاغة النبيﷺ وأنها من أعظم دلائل نبوته، قال

---

١ ـ انظر إعجاز القرآن ص ٣٦٤ و ٣٦٦، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين ـالموسوعة الكاملةـ للشيخ محمد الخضر حسين ١٨٣/٣ .

القاضي عياض رحمه الله: «وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، وفصاحة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخصَّ ببدائع الحكم»[1].

وقال الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله متحدثاً عن البلاغة النبوية: «هذه هي البلاغة الإنسانية التي حسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، مُحكمةُ الفصول، حتى ليس فيها عُرْوةٌ مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة.

وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلب يتكلم، وإنما هي في سُمُوِّها وإجابتها مظهر من خواطره ﷺ.

إن خَرَجَتْ في الموعظة قُلْتَ: أنينٌ من فؤاد مقروح، وإن رَاعَتْ بالحكمة قلتَ: صورة بشرية من الروح، في مَنزع يلين، فينفر بالدموع، ويشتد، فينزو بالدماء»[2].

وقال رحمه الله موضحاً بعض مكامن الفصاحة والبلاغة في الحديث النبوي: «أما فصاحته ﷺ فهي من السمات الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق؛ فإن العرب ـ وإن هذبوا الكلام وحذقوه وبالغوا في إحكامه وتجويده ـ إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، ورويَّة مقصودة، وكان عن تكلف يُستعان له بأسباب الإجادة التي تسمو إليها الفطر اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعاً مقدَّراً على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب،

---

١ ـ الشفا ١/٩٥ـ٩٦، وانظر أعلام النبوة للماوردي ص٢٦٦.

٢ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٧٩، وانظر إعجاز القرآن ص٣٦٤.

ومن حذف في موضع إطناب، وإطناب في موضع حذف، ومن كلمةٍ غيرها أليقُ، ومعنىً غَيْرُهُ أردُّ، ثم هي في باب المعاني ليس لهم إلا حكمة التجربة، وإلا فَضْلُ ما يأخذ بعضهم عن بعض، قلّ ذلك أو كثر.

والمعاني هي التي تعمر الكلام وتستتبع ألفاظه، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه، وعلى مقدارها وعلى وجه تأديتها يكون مقدار الرأي فيه ووجه القطع به.

بَيْدَ أن رسول اللهﷺ كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستزلّه الفجاءة وما يَبْدَهُ من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً.

ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدارٌ إنسانيٌ من البلاغة والتسديد وبراعة القصد والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية»[1].

ويوضح العلامة الشيخ محمد الخضر حسين جوانب من البلاغة النبوية فيقول: «ومن ينظر فيما روي عنه من الخطب والرسائل والمحاورات والفتاوى، وما يلقيه في أثنائها من الحكم، وما يورده فيها من الأمثال والاستعارات ـ يرى في ذلك من وجوه البلاغة وحسن البيان ما لم يره، ولن يراه قد تَأَتّى لأحد البلغاء من غيره»[2].

وقال: «والحق أن فصاحة رسول اللهﷺ وروعة بيانه لا يدركها إلا من تردد بنظره على الحديث الشريف، ودخل في كل باب من أبوابه؛ إذ يرى الكلام الذي يصدر عفواً دون أن يكون للتصنع فيه أثر، ويمر فيما يقرأ على جمل تهتز لروعتها القلوب، ومن لم يسعده الحال أن يطالع كتب الحديث فلينظر في كتب غريب الحديث؛ فإنه

---

١ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٨١ـ٢٨٢ .

٢ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ص١٧٩ .

يَطّلع في أقرب وقت على جانب عظيم من الألفاظ النبوية البالغة منتهى الفصاحة، وحكمة الأسلوب.

وفي الناس من تسمو حكمته في بعض نواحي الحياة، وتُقَصِّر في بعض، أما رسول اللهﷺ فيلقي الحكمة في النواحي المختلفة من شؤون الحياة الفردية أو الاجتماعية، فترد في أعلى طبقة من سمو اللفظ وحسن التصوير»[١].

ثم ينتقل إلى مظاهر أخرى من بلاغتهﷺ فيقول: «وفي الناس من إذا خطب في الجمهور رأيته في درجة عالية من حسن البيان، فإن عرض له حديث مع بعض الأفراد، أو حديث في معان قريبة التناول رأيته قد انحط إلى درجة دون الدرجة الأولى.

أما حديث رسول اللهﷺ مع الأفراد، أو في المعاني السهلة الفهم ـ فإنه لاينزل عن مرتبة بلاغته العليا»[٢].

ومن مظاهر البلاغة في الحديث النبوي أن النبيﷺ كان ينوع في الأساليب، ويراعي مقتضيات الأحوال، ويستخدم أنواعاً من التأثير التي سبقت كثيراً من النظريات والدراسات الحديثة في فن الحوار، والإلقاء، والتأثير في الناس.

ولو انبرى دارس لجمع شيء من ذلك لظفر بما لا يخطر بالبال من تلك المادة، فترى في أحاديثه جمال العرض، وقوة التأثير، وحسن الاستفتاح، والتشويق لما يلقي، والترسل في الكلام، وإلقاؤه مفصلاً دون إبطاء أو تعجيل، فتأتي كلماته مفصلة متمايزة الحروف.

قالت أم المؤمنين عائشة ـرضي الله عنهاـ: «كان كلام رسول اللهﷺ كلاماً فصْلاً يفهمه كل من سمعه»[٣].

وجاء في سنن أبي داود عن جابر ﷺ قال: «كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل،

---

١ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٧٩ـ١٨٠ .

٢ ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ص ١٨١ .

٣ ـ أبو داود (٤٨٣٩) وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٦): «**حسن**».

أو ترسيل»[١].

وفي رواية للترمذي: «كان يتكلم بكلام بَيْنَهُ فصلٌ يحفظه من جلس إليه»[٢].

ومن أعظم مظاهر البلاغة في الحديث النبوي صوغ التشابيه، وضرب الأمثلة، واستعمال القياس، وقرن القول ببعض الإشارات المناسبة التي تناسب المعنى إلى غير ذلك من مظاهر البلاغة النبوية[٣].

---

١ ـ أبو داود (٤٨٣٨) وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٣): «**حسن**».

٢ـ الترمذي (٣٦٣٩) وقال: «هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث الزهري».

٣ ـ انظر تفصيل ذلك وأمثلته في كتاب الحوار في السيرة النبوية لمحمد الحمد ص١٢٧ـ١٦٠.

المبحث الثاني: أقسام معجزات النبي محمد ﷺ وطرق ثبوتها

المطلب الأول: أقسام معجزات النبي ﷺ

تنقسم معجزات النبي ﷺ إلى أقسام باعتبارات؛ حيث قسَّمها بعض العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: معجزات حسية: وهي ثلاثة أنواع:

١ـ معجزات خارجة عن ذات النبي ﷺ وهي المعجزات التي أجراها الله على يديه.

٢ـ معجزات في ذاته ﷺ كخاتم النبوة الذي بين كتفيه، وما شوهد من خلْقته، وصورته الدالة على نبوته.

٣ـ معجزات في صفاته، وكمالاته ﷺ كصدقه، وأمانته، وشجاعته، وسائر أخلاقه التي تبلغ حد الإعجاز.

القسم الثاني: معجزات عقلية: وهي ستة أنواع:

١ـ أنه من قبيلة وبيئة لا تُعْرف بالعلم، ولم يرحل إلى الشام إلا مرتين؛ ولا طلب العلم عند أحد؛ فلا يتهم ـ والحالة هذه ـ بأنه أدعى النبوة من تلقاء نفسه.

٢ـ أنه انقضى من عمره أربعون سنة دون أن يخوض في شيء من شأن النبوة. ولا ريب أن سن الشباب هو وقت الحماسة والتَدَفع لمثل تلك الدعوى.

٣ـ أنه تَحَمَّل في سبيل أداء الرسالة من أنواع المشاق، وصنوف المتاعب ما لا يتحمله بشر، وهو مع ذلك واثق مما جاء به، مستقبلٌ كلَّ ما يعترضه بكل ثقة، ويقين وراحة بال.

٤ـ أنه كان مجاب الدعوة؛ فما من دعوة دعا بها إلا وأجابها الله ـعز وجل ـ له.

٥ـ ما جاء به من المعجزة الكبرى، وهي القرآن الكريم، وقد مضى الحديث عنه.

٦ـ ما كان عليه من الفصاحة والبلاغة التي تصل إلى حد الإعجاز، وهو ما سبق الحديث عنه في المبحث الماضي.

٧ـ أن البشارة به جاءت في الكتب السابقة، والنصوص في ذلك كثيرة جدا، وسيأتي ذكر لشيء منها.

٨ـ إخباره عن الغيوب الماضية، والحاضرة، والمستقبلة بما يشهد أنه نبي من عند الله ـ عز وجل ـ[1].

وهناك تقسيمات أخرى للمعجزات باعتبارات أخرى، حيث قسم ابن تيمية رحمه الله معجزات النبي ﷺ المتعلقة بالقدرة، والفعل والتأثير إلى تسعة أنواع وهي كما يلي:

النوع الأول: ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث.

النوع الثاني: آيات الجو: كاستسقائه ﷺ أي طلبه السقيا والمطر، وكاستصحائه: أي طلبه الصحو، وانكشاف الغيم والسحب.

١ـانظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ١/٣٩٩ ، إيثار الحق لابن المرتضى اليماني ص٧٩ـ٨٥، وتنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كَمُّونة ص ١٣٠

النوع الثالث: تصرفه في الحيوان: الإنس، والجن، والبهائم.

النوع الرابع: آثارهﷺ في الأشجار والخشب.

النوع الخامس: آثاره في الماء، والطعام، والثمار الذي يكثر ببركتهﷺ فوق العادة.

النوع السادس: تأثيرهﷺ في الأحجار، وتصرفه فيها، وتسخيرها له؛ كما جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: صعد النبيﷺ أحداً -جبل أحد- ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم الجبل، فقال النبيﷺ: «**اسكن**» وضربه برجله «**فليس عليك إلا نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان**»[1].

النوع السابع: تأييد الله له بملائكته: قال الله -تعالى-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأنفال: ٩ .

النوع الثامن: في كفاية الله له أعداءه، وعصمته له من الناس.

النوع التاسع: في إجابة دعوته.

فهذه أنواع تسعة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيميةرحمه الله في كتابه الجواب الصحيح، وشرحها شرحاً مفصلاً، وذكر أمثلة، وأدلة كثيرة على كل واحدٍ منها[2].

هذا وقد مرَّ وسيمر ذكرٌ لشيء من تلك المعجزات.

المطلب الثاني: طرق ثبوت معجزات النبيﷺ

المعجزات التي جاءت عن النبيﷺ بأنواعها لم تثبت جزافاً، أو عن طريق روايات ضعيفة أو موضوعة، وإنما وردت من طرق يتبين بها أنها تفيد العلم القطعي اليقيني.

١-البخاري (٣٦٧٥).

٢-انظر الجواب الصحيح ٦/١٥٩-٣٢٣ .

ولقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ست طرق كبرى، وشرع في تفصيل كل واحدة منها على حِدَةٍ، وهذه الطرق على سبيل الإجمال هي:

١ـ التواتر العام. ٢ـ التواتر الخاص. ٣ـ التواتر المعنوي.

٤ـ حضور الخلق الكثير للآية، وتصديقها.

٥ـ تواتر أنواع من آيات النبوة عند كل من صنف العلماء.

٦ـ تصنيف العلماء في آيات النبوة[1].

١ـانظر تفصيل ذلك في الجواب الصحيح ٦/٣٢٤ـ٥٢٣.

المبحث الثالث: نماذج من معجزات النبي محمد ﷺ

لقد أجرى الله ـ عز وجل ـ على يد نبينا محمدﷺ معجزاتٍ باهراتٍ، وآيات مبصرات إذا نظر فيها مريد الحق دلته على أنها شهادة صادقة من الله لرسولهﷺ.

وقد عدَّها بعض العلماء فزادت على ألف معجزة، وقد أُلِّفت فيها مؤلفات، وتناولها العلماء بالشرح والبيان [١].

ولا ريب أن أعظم الآيات التي أعطيها رسولنا محمدﷺ بل أعظم آيات الرسل أجمعين ـ هو القرآن الكريم؛ فهو آية باقية إلى يوم الدين لا يطرأ عليها التغيير أو التبديل ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ فصلت [٢].

ولقد مر الحديث عن القرآن وإعجازه في الفصل الماضي.

وهناك معجزات أخرى كثيرة أجراها الله ـ عز وجل ـ على يد نبينا محمد ﷺ غير معجزة القرآن الكريم، والمقام لا يتسع إلا لذكر القليل من تلك المعجزات؛ فإلى بيان شيء من ذلك فيما يلي:

١ ـ معجزة انشقاق القمر: وهذا المعجزة من أعظم المعجزات الحسية الدالة على صدق نبوة النبي ﷺ.

وذلك أن المشركين من أهل مكة سألوا النبيﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر نصفين.

وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ عن هذه المعجزة بقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ القمر.

---

١ ـ انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣٩٩/١، والرسل والرسالات ص ١٣١.

٢ ـ انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧ـ٣٦.

قال ابن تيمية رحمه الله: « فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية في القمر دون سائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك؛ إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهوراً لا يتُمارى فيه »[١].

إلى أن قال رحمه الله: «وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة[٢] في المجامع الكبار، مثل صلاة الجمعة، والعيدين؛ ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة، ودلائلها، والاعتبار بما فيها.

وكل الناس يقر بذلك، ولا ينكره؛ فَعُلِم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة »[٣].

وقد جاء في صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟

قال: كان يقرأ فيهما بـ: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾، ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ »[٤].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على ذلك: « ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلاً عن أعدائه الكفار والمنافقين.

ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له، وإتباعه إياه؛ فلو لم يكن انشق لما كان يُخْبِرُ به، ويقرؤه على جميع الناس ويستدل به، ويجعله آية له »[٥].

---

١ ـ الجواب الصحيح ١٦٠/٦

٢ ـ يعني سورة القمر الذي ورد في أولها ذكر هذه المعجزة

٣ ـ الجواب الصحيح ١٦٠/٦

٤ ـ مسلم (٨٩١)

٥ ـ الجواب الصحيح ١٦٠/٦ـ١٦١

وجاء في صحيح البخاري عن أنسرضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية؛ فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما »[١].

وعن جبير بن مطعم قال: « انشق القمر ونحن بمكة حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقال الناس سَحَرنا محمدٌ.

قال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلَّهم »[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن كفار قريش ـ أهل مكةـ لما رأوا القمر منشقاً شقين قالوا: هذا سحر، انظروا السُّفار[٣]؛ فإن كانوا رأوا مثل ما رأيتم فهو صدق، وإلا لم يكونوا قد رأوا مثل ما رأيتم فهو سحر.

قال: فسُئل السُّفار، وقدموا من كل وجه؛ فقالوا: رأينا.[٤]

قال ابن كثيررحمه الله عن آية انشقاق القمر بعد أن أورد كثيراً من الأدلة على وقوعها قال: « وقد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض.

ويقال: إنه أُرِّخ ذلك ببعض بلاد الهند، وبني بناءٌ تلك الليلة، وأرِّخ بليلة انشقاق القمر »[٥].

ويعلل رحمه الله خفاء تلك الآية على بعض أهل الأرض بقوله:« ولعل ذلك في بعض ليالي الشتاء؛ حيث يكون أكثر الناس في البيوت، أو سترت غيم في كثير من الأرض »[٦].

فهذا شيء مما جاء في معجزة انشقاق القمر[٧].

---

١ ـ البخاري (٣٨٦٨)

٢ ـ أخرجه الترمذي (٣٢٨٩)

٣ ـ السُّفار: جمع مسافر

٤ـ رواه البيهقي في دلائل النبوة مفرقاً٢/ ٢٦٥و٢٦٦ـ٢٦٧، وأبو نعيم في الدلائل ٣٦٩/١ـ٣٧٠

٥ ـ البداية والنهاية ٢٩٩/٤

٦ ـ البداية والنهاية ٢٩٩/٤

٧ ـ انظر تفصيل ذلك في الجواب الصحيح ١٥٩/٦ـ١٦٤، والبداية والنهاية ٢٩٣/٤ـ٣٠٤ .

٢ـمعجزة الإسراء والمعراج: وهو إسراء الله بنبيه محمدﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ حيث جمع الله له الأنبياء فصلّى بهم إماماً.

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الإسراء: ١ .

ومن هناك عرج به إلى السموات العلا، وهناك رأى ما رأى من آيات ربه الكبرى؛ حيث رأى جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وصعد به إلى سدرة المنتهي، وجاوز السبع الطباق وكلّمه الرحمن، وقَرَّبه.

قال الله ـ عز وجل ـ مبيناً ذلك الشأن: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

وقد استعظمت قريش دعوى رسول اللهﷺ في الإسراء، والمعراج؛ فقد كانت القوافل تمضي الأسابيع في الذهاب إلى بيت المقدس والعودة منها؛ فكيف يتسنى لرجل أن يمضي، ويعود في جزء من ليلة! ذلك أمر عجيب، وهو حقًّا عجيب، ولكن العجب يتلاشي إذا علمنا أن الذي أسرى به هو الله ـ تعالى ـ والله على كل شيء قدير[١].

٣ـتكثيره ﷺ الطعام: وقد وقع هذا أكثر من مرة، فمن ذلك ما رواه أنسرضي الله عنه، قال: قال أبو طلحة لأم سليم، لقد سمعت صوت رسول اللهﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم، فَأَخْرَجَتْ أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خِمَاراً لها، فَلفَّت الخبز ببعضه، ثمَّ دَسَّته تحت ثوبي، وردتني ببعضه،

---

١ ـ انظر تفصيل الكلام عن الإسراء والمعراج في صحيح البخاري (٣٢٠٧) و (٣٨٨٦) و(٣٨٨٧) وصحيح مسلم (١٦٣) و (١٧٠) و (١٧٢) و(١٧٤) وانظر توجيه الآثار في الإسراء والمعراج إلى الجواب الصحيح ١٦٥/٦ـ١٨٢، والبداية والنهاية ٢٦٩/٤ـ٢٩٢، والرسل والرسالات ص١٣٤ .

ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ فذهبت به، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد والناس معه، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «**أرسلك أبو طلحة**»؟ قلت: نعم، قال: «**بطعام**» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «**قوموا**» فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أمَّ سليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «**هلمي يا أمَّ سليم، ما عندك**» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ، فَفُتَّ، وعَصَرت أم سليم عُكَّةً[1] لها، فَأَدَمَتْهُ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثمَّ قال: «**ائذن لعشرة**»، فَأَذِن لهم، فأكلوا، حتى شبعوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأذن لهم، فأكلوا، حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**» فأكل القوم كلهم، وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً».

وفي رواية: ثم أكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة، وأم سليم، وأنس، وفَضُل فضلةٌ، فأهديناها لجيراننا[2].

٤ـ **تكثير الماء ونبعه من بين أصابعه الشريفة:** وقد وقع من هذا شيء كثير من الرسول ﷺ، فمن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة[3] فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه،

١ ـ العُكَّة: إناء من جلد مستدير يُجْعَلُ فيه السمنُ غالباً والعسل. انظر فتح الباري ٦/٥٩٠.

٢ ـ أخرجه البخاري (٣٥٧٨) و(٥٣٨١) ومسلم (٢٠٤٠)

٣ ـ الركوة: دلو صغير. انظر المصباح المنير ص٢٣٨.

قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ونشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبيﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا، وتوضأنا.

قيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[١].

٥ـإبراؤه المرض ـ بإذن الله ـ: فمن ذلك إبراؤه من كسرت رجله فعن البراء بن عازب قال: بعث النبيﷺ رهطاً إلى أبي رافع فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله عبد الله بن عتيك: فوضعت السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفتُ أني قتلته، فرجعت أفتح الأبواب حتى انتهيت إلى درجة، فوضعت رجلي، فوقعت في ليلة مقمرةٍ، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة فانطلقتُ إلى أصحابي فانتهيت إلى النبيﷺ فحدثتهُ فقال: «**ابسط رجلك**».

فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنما لم أشتِكها قط[٢].

ومن ذلك إبراؤه عين علي بن أبي طالب ـ بإذن الله ـ: فعن سهل بن سعد أن رسول اللهﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللهﷺ كلُّهم يرجو أن يعطاها فقال: «**أين علي بن طالب؟**» فقالوا: هو يا رسول يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**» فأتي به فبصق رسول الله في عينه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاهُ الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «**انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمرُ النعم**»[٣].

---

١ ـأخرجه البخاري (٤٥١٢).

٢ ـأخرجه البخاري (٤٠٣١).

٣ ـأخرجه البخاري (٤٢١٠) ومسلم (٢٤٠٦).

وحمر النعم: لون من ألوان الإبل المحمودة، وكانت مما تفاخر به العرب.

٦ـ تسليم الحجر على النبيﷺ: في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن النبيﷺ أنه قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»[١].

٧ـ تسليم الشجر والجبال على النبيﷺ: فعن علي بن أبي طالبرضي الله عنه قال: «كنت مع النبيﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر، ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله»[٢].

فهذه أمثلة يسيرة جدًّا من معجزات النبيﷺ ومن أراد المزيد فليرجع إلى الكتب التي اعتنت بمعجزاته ـعليه الصلاة والسلامـ ككتاب دلائل النبوة لأبي زرعة الرازي، ودلائل النبوة لأبي الشيخ الأصبهاني، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، ودلائل النبوة لابن أبي الدنيا، وغيرها كثيرة من الكتب التي اعتنت بمعجزات النبيﷺ.

هذا غير الكتب التي تكلمت على المعجزات ضمن سيرة النبيﷺ أو كتب الصحاح والمسانيد[٣].

---

١ ـأخرجه مسلم (٢٢٧٧).

٢ ـأخرجه الترمذي (٣٦٢٦) وقال: «هذا حديث غريب»، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٦٢٠/٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

٣ ـانظر الجواب الصحيح ١٥٩/٦ـ٥٢٣.

الفصل الثالث

الإسلام في الكتب السابقة

وتحته: تمهيد:

وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مهتدو أهل الكتاب، وشهادتهم على صحة الإسلام

المبحث الثاني: تصريح الكتب السابقة بنبي الإسلام، وتبشيرها به

المبحث الثالث: في ذكر مكة والكعبة في الكتب السابقة

المبحث الرابع: وصف أمة الإسلام في الكتب السماوية

تمهيد

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: في كون الإسلام دين جميع الأنبياء

أولاً: الإسلام العام: هو الاستسلام لله وحده، و هو بهذا الاعتبار دين جميع الأنبياء.

فدين الإسلام واحد، وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم بذلك، من لدن نوح ـعليه السلامـ إلى حواري عيسىـ عليه السلامـ.

قال الله ـتعالىـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ سورة يونس.

وقال ـتعالىـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة.

وقال الله ـتعالىـ عن يوسف الصديق ـعليه السلامـ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سورة يوسف: ١٠١ .

وقال عن بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة النمل: ٤٤ .

وقال عن موسى -عليه السلام- : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ سورة يونس: ٨٤ .

وقال عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ سورة المائدة: ٤٤ .

وقال- عز وجل- عن المسيح عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ سورة آل عمران: ٥٢ .

فالإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته -تعالى- في كل زمان ومكان بطاعة رسله -عليهم السلام-[١].

فهذا هو الإسلام العام.

ثانياً: الإسلام الخاص: وهو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وهو شريعة القرآن الكريم [٢].

وقد تقرر ذلك عند الحديث عن حقيقة الدين الإسلامي.

والحديث في المباحث التالية سيتناول شيئاً مما جاء في الكتب السابقة بشأن دين الإسلام الذي جاء به محمدﷺ حيث إن الكتب السماوية أشارت إلى دين محمدﷺ وبشرت بنبوتهﷺ ، وذكرت وَصْفَ مبعثه، ومكان مبعثِه، وَوَصْفَ أمتِه إلى غير ذلك مما ورد عن الإسلام في الكتب السابقة.

---

١ - انظر الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح لابن تيمية /٨١-٨٤

٢ - انظر الرسالة التدمرية ص١٧٣ .

وقد مر شيء من ذلك عند الحديث عن بشارات موسى وعيسى بمحمد -عليهم الصلاة والسلام-.

المطلب الثاني: شهادة القرآن على ذكر الإسلام في الكتب السابقة

لقد شهد القرآن الكريم في آيات كثيرة على أن الإسلام هو الدين الخاتم، وأثبت أن الكتب السابقة بشرت بذلك الدين، ووصف نبيه محمدﷺ ووصف أمته، وفضلها، وبينت أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، ولكن أكثرهم يردونه كبراً، وحسداً.

وإليك شيئاً من آيات الكتاب العزيز التي بينت ما جاء في هذا الشأن.

١- قال الله- تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦.

٢- قال الله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف: ١٥٧.

٣- قال الله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ الفتح: ٢٩.

٤- قال الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ

ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام.

٥ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ البقرة.

٦ـ قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩ .

٧ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الأنعام: ١١٤ .

٨ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الشعراء: ١٩٧ .

٩ـ قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الرعد: ٤٣ .

١٠ـ قال الله ـعز وجل ـ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ ﴾ المائدة: ٨٣ .

١١ـ قال الله ـعز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الإسراء.

١٢ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ القصص.

١٣ـ قال الله ـتعالى ـ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ يونس: ٩٤.

فهذه الآيات وغيرها دالة على شهادة القرآن لما ورد في الكتب السابقة من ذِكْرٍ للإسلام ونبيه، ووصف أمته[١].

كما أنها دالة على أن أكثر علماء أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ، ويعلمون صدق رسالته، وأنه مكمل لرسالة إخوانه الأنبياء.

ولكن أكثر علماء أهل الكتاب يجحدون ذلك.

وهذا ما سيتبين ـبإذن الله ـ في المباحث التالية التي ستدور حول بعض ما ورد في الكتب السابقة في ذلك الشأن.

وقبل ذكر ذلك يحسن الحديث عن شهادة بعض المهتدين من علماء أهل الكتاب على صحة دين الإسلام، وعلى تصريحهم بتفسير ما وردت به البشارات بدين الإسلام، ووصف نبيه، وأمته.

---

١ ـ انظر الجواب الصحيح ٥/١٤٧ـ١٥١

المبحث الأول: مهتدو أهل الكتاب، وشهادتهم على صحة الإسلام

لعل من أعظم الدلائل على حقيقة الإسلام، وصحة ما جاء به هدايةَ كثيرٍ من علماء أهل الكتاب إلى الإسلام ، وتسجيلهم شهاداتهم بأنه الدين الخاتم الحق، وتنزيلهم ما ورد في كتبهم السابقة من البشارات بظهور دين جديد، ونبي جديد، وأمة مصطفاة على دين الإسلام، ونبيه، وأمته.

ومن خلال ما يلي من مطالب سيتبين شيء من ذلك.

المطلب الأول: هداية علماء أهل الكتاب إلى الإسلام

لقد أرسل الله نبيه محمداًﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وجعل -سبحانه وتعالى- في هذا الدين بيناتِ الهدى، ودلائل الرشاد ظاهرة واضحة لمن نظر إليها بعين البصيرة.

وقد اهتدى بتلك الدلائل أمم من ورائها أمم؛ حيث فتح الله بصائرها على النور والهدى، فتركوا الغواية والضلالة، وسلكوا سبيل الفلاح والسعادة.

والمهتدون للحق طوائف وأصناف شتى من الناس، ففيهم الرئيس والمرؤوس، والعالم وغير العالم، والذكر والأنثى، حتى عم هذا النورُ والهدى أرجاء الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجاً تلو أفواج.

وكان من أولئك المهتدين مَنْ هو رأسٌ في أهل ملته، وخاصة من اليهود والنصارى، ممن سلموا من الحسد والكبر، وممن كتب الله لهم الهداية، فإذا اهتدوا إلى الإسلام شعروا بعظيم الضلالة التي كانوا عليها، وبعظم المنة والنعمة التي اهتدوا إليها، فيجتهدون في نصرة دين الإسلام، ودعوة بني جنسهم إليه، فيصدق فيهم قول رسول اللهﷺ : «**تجدون الناس معادن؛ فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» [1]

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣٢٠٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

فيصبح هؤلاء المهتدون خيار الذين أسلموا من اليهود والنصارى، ويبذلون في نصرة الإسلام مثل أو أكثر ما كانوا يبذلونه في نصرة أديانهم.

ولاشك أن من أوسع المجالات أمام أهل العلم منهم هو بيان الحق بدليله، والتحذير من الباطل، وسلوكِ سبيله؛ فيكون أولئك المهتدون من خير من يدعو إلى الإسلام، ويحذر من الأديان الباطلة بتلك الوسيلة؛ لأن أهل الدار أعرف بما فيها، فقد كانوا يهوداً أو نصارى فيعرفون ما لا يعرفه غيرهم بحكم علمهم العميق في الديانة، واتصالهم المباشر بأهل ملتهم، وخاصة في ديانة يدَّعي أصحابها بأنها ذات أسرار مثل النصرانية، فيكون لدعوتهم وَقْعٌ مؤثر يستجيب له العديد من أصحاب الملل الباطلة.

كما أن تحول بعض أهل العلم من الأديان الباطلة إلى الإسلام ودخولهم فيه، ونصرتهم له من الأدلة الظاهرة على أن الإسلام حق لا ريب فيه، وأن التحول لم يتم إلا بعد القناعة التامة بصحة الإسلام، فيكون هذا المهتدي شاهداً على قومه وحجة عليهم[1]

المطلب الثاني: نماذج ممن أسلم من علماء أهل الكتاب

من المعلوم أن الاهتداء للإسلام من قبل بعض علماء اليهود والنصارى قد واكب وقت ظهور الإسلام، واستمر وسيستمر إلى يوم القيامة ما دام في الأرض عقلاء يريدون الحق، ويبحثون عنه.

وفيما يلي ذكرٌ لبعض من اهتدى لدين الإسلام من علماء اليهود والنصارى.

١ ـ **عبد الله بن سلام**رضي الله عنه فقد كان من أوائل المهتدين لدين الإسلام، وقد كان سيد اليهود وكبيرهم وابن كبيرهم في المدينة، وإسلامه حجة على جميع اليهود إلى يوم القيامة.

---

١ ـ انظر البحث الصريح في أيّما الدين الصحيح ص ٧ـ٩

٢ـ **النجاشي ملك الحبشة**، فهو ممن أسلم من كبار النصارى وملوكهم، وذلك في العهد الملكي وبعد أن اتصل بالإسلام عن طريق مهاجرة الحبشة من الصحابة ـرضي الله عنهمـ.

٣ـ **علي بن ربن الطبري**، الذي اهتدى للإسلام في عهد أبي جعفر المنصور، وكان قبل إسلامه نصرانيًّا ذا علم بالفلسفة والطب، وكتب في الدعوة إلى الإسلام كتابه «الدين والدولة» و «الرد على أصناف النصارى».

٤ـ **السموأل بن يحيي المغربي المهتدي**، كان من أحبار اليهود، عالماً بالطب، توفي سنة ٥٧٠هـ وله كتاب «إفحام اليهود».

٥ـ **اللورد هدلي الفاروق**، الذي كان عضواً في مجلس اللوردات البريطاني، وقد أعلن إسلامه عام ١٩١٣هـ، وتسمى بالفاروق، وكتب كتاباً في الإسلام عنوانه «رجل من الغرب يعتنق الإسلام».

٦ـ**ناصر الدين دينيه الفرنسي** الذي كان نصرانيًّا رساماً مبرزاً، أسلم عام ١٩٢٧م، وكتب كتاباً سماه «أشعة خاصة بنور الإسلام» وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٢٩م.

٧ـ**عبد الأحد داود**، الذي كان كاهناً كلدانياً قد حصل على درجة أستاذ في علم اللاهوت، وكان زعيمَ طائفة الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانين وكتب كتابه «الإنجيل والصليب» و «محمدﷺ في الكتاب المقدس».

٨ـ**القس إبراهيم خليل** الذي كان قساً في كنيسة «بافور» الإنجيلية بأسيوط مصر، وكان له نشاط تنصيري كبير، وأعلن إسلامه سنه ١٩٥٩م، وله كتب عديدة في الدعوة إلى الإسلام، منها: «محمدﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» و «المستشرقون والمبشرون في العالم الإسلامي» و «محاضرات في مقارنة الأديان» و«المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن» وغيرها من الكتب.

ولقد أسلم غير هؤلاء كثير ممن لا يحصي عددهم إلا اللهُ ـ عز وجل ـ.[١]

ومن الملاحظ أن من ذُكروا وغيرهم كثير لم يكونوا من عوام الناس، وإنما هم رؤوس أهل ملتهم السابقة، فلم تكن تَنْقُصهم دنيا، ولا مكانة اجتماعية، كما لا ينقصهم الذكاء والفهم، وربما فقدوا بإسلامهم كثيراً من الأمور الدنيوية، التي كانت مُحَقِّقَةً لهم أوضاعاً اجتماعية عالية، بل قد يُعرِّضون أنفسهم للقتل.

ومع كل هذا لم يطيقوا الاستمرار على تلك الحال؛ فَيَغُشُّوا أنفسهم ببقائهم على الباطل، ويعيشوا عيشة الشقاء والزيف بعد أن تبين لهم الهدى ودين الحق؛ فأعلنوا إسلامهم متحملين في سبيل ذلك الضرر الجسدي والمادي الذي قد يتعرضون له، بل إنهم قاموا بالدفاع عن الإسلام والدعوة إليه حتى يؤدوا بعض الواجب الملقى على عواتقهم بدخولهم في الإسلام.

وهذا كله دليل واضح على أن الإسلام هو الدين الحق، وأن براهين صحته وشرفه وكماله متوافرة[٢].

المطلب الثالث: نبذة عن أحد علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، وجهوده في نشر الإسلام

لقد كان من هذه الطائفة المباركة، التي اهتدت إلى الإسلام عن قناعة ويقين بعد تمحيص وتدقيق ـ الشيخ زيادة بن يحي النصب الراسِي الذي كان من رجال الدين النصارى، ومن ذوي العلم فيهم؛ فبعد أن تبين له الهدى ودين الحق أعلن إسلامه، وبدأ رحمه الله يدعو إلى هذا الدين بالقَدْر والطاقة التي مكنه الله منها، ووصل إلى علمنا من جهده في ذلك كتابان وهما: «البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح» وكتاب «الأجوبة الجلية في دحض الدعوات النصرانية».[٣]

---

١ ـ انظر في ذلك: جهود من أسلم من النصارى في كشف فضائح النصرانية رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية ص ٢ـ٢٧

٢ـ انظر البحث الصريح ص ١١

٣ ـ انظر البحث الصريح ص ١١ـ١٢

والشيخ زيادة عاش خلال القرن الحادي عشر، وينسب إلى مدينة رأس العين في الشام من مدن الجزيرة تقع بين حران ونصيبين، وهي ضمن سوريا الآن.

أما كتابه: «الأجوبة الجلية في دحض الدعوات النصرانية» فلم يطبع، وإنما عُلِمَ من تلخيص له للشيخ محمد بن عبد الرحمن الطيبي الدمشقي.

وأما كتابه (البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح) فقد طُبع مؤخراً بتحقيق ودراسة الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف.

ويتضح من كتاب «البحث الصريح» أن الشيخ زيادة بن يحيى كان نصرانياً، ثم هداه الله ـ تعالى ـ للإسلام، حيث يقول في مقدمة كتابه: «أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى ربه الغني الشيخ زيادة بن يحيى النصب الراسي، المتشرف في الدين المحمدي: إنني لما كنت متفرغاً للبحث والمطالعة عن أيما هو الدين الصحيح بكل جهد، وبغاية التنقيح، وغِبَّ الفحص والتفتيش في ذلك ـ قَصَدْتُ أن أحرر ما قد حَصَّلْتُه من المقابلة في تلك المسالك، وأبينه لذوي البصائر القادحة»[١].

ويتضح ـأيضاًـ أن سبب دخوله في الإسلام هو مما تولد في نفسه من الشكوك في ديانته الأولى النصرانية، مما جعله ينظر في الإسلام، ويبحث ويقابل، ويطالع، حتى تبين له أن الإسلام هو الحق؛ فهداه الله له، فدخل فيه، ثم بدأ يحرر ما تبين له به بطلان ديانة النصارى، وصحة الإسلام، وجعل ما حرره وسيلة لدعوة النصارى[٢].

ويتضح من النظر في كتاب الشيخ زيادة «البحث الصريح» أن معلومات مؤلفه عن النصرانية معلومات جيدة مركزة؛ فاستدلالاته من العهد القديم والجديد متنوعة عميقة؛ حيث يطالع ويقابل بين النسخ المتعددة والترجمات المتعددة من عربية ويونانية وعبرية وسريانية.

---

١ ـ انظر البحث الصريح ص ٢٣ـ٢٤

٢ ـ انظر البحث الصريح ص ٢٥

ويظهر من هذا أنه يجيد اللغة اليونانية، والعبرية، والسريانية، ويترجم منها إلى العربية، بل يطالع قواعد اللغتين اليونانية والعبرية، ويصحح، ويرجح بعض الترجمات على بعض.

وهذا ما يؤكِّد أنه كان قبل إسلامه من علماء النصارى ورجال دينهم؛ لأن العلم بهذه الأمور من اختصاص رجال الدين، ولأن هذه اللغات: اليونانية والعبرية والسريانية هي لغات دينية؛ فقد يكون في الأصل نصرانياً سريانياً، فهو يجيد السريانية، وهي لغة نصارى سورية باعتباره من أهلها.

أما اللغة اليونانية فإنها لغة العهد الجديد واللغة الدينية للنصارى الكاثوليك.

وأما اللغة العبرية فهي لغة العهد القديم بالنسبة للنصارى البروتستانت، ولا يستغني عنها رجال الدين النصارى.

فهذا مما يوحي بأن الرجل كان من علمائهم، خاصة إذا علمنا أن عوام النصارى من أبعد الناس عن العلم الديني النصراني.

بل هم في كثير من الأحيان -خاصة في زمن المؤلف- لا يستطيعون أن يقفوا على شيء من كتب النصارى الدينية سوى ما تأذن به الكنيسة من مقاطع مخصوصة يمكن تداولها بين العوام [1].

أما مباحث الكتاب المذكور -البحث الصريح- فقد اهتم المؤلف رحمه الله فيه بإبراز المسائل الأساسية التي تدل على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ من كتبهم، مما تقوم به الحجة عليهم من كلامهم، فكانت مباحث الكتاب كما أفاد رحمه الله في مقدمة كتابه تشمل الحديث عما يلي:

أولاً: بطلان دعوى النصارى ألوهية المسيح -عليه السلام- وإثبات أنه نبي كسائر الأنبياء قبله من بني إسرائيل.

---

١ - انظر البحث الصريح ص ٢٥-٢٦

ثانياً: بطلان استدلال النصارى على ألوهية المسيح -عليه السلام- بالآيات التي كانت تظهر على يدي المسيح - عليه السلام- وإثبات أن آياته ومعجزاته من جنس الآيات والمعجزات التي أجراها الله على أيدي الأنبياء قبله، بل أجرى الله على أيديهم آياتٍ تَفُوقُ آياتِ المسيح، ولم تدلَّ عند تلك الأمم على ألوهية أولئك الأنبياء الذين ظهرت على أيديهم المعجزات؛ فكذلك عيسى بن مريم -عليه السلام-.

ثالثاً: في رد مطاعن النصارى في نبينا محمدﷺ وبيان بطلان كلامهم، وبيان أن الأنبياء قبل محمدﷺ وقعت منهم أمور من جنس ما نسب للنبيﷺ وأشد منها، ولم يطعن في أولئك الأنبياء بسببها؛ فكذلك نبينا محمدﷺ.

رابعاً: في الأدلة على نبوة نبيناً محمدﷺ من التوراة والإنجيل، وأنه المقصود بكثير من الوعود والبشارات المذكورة في كتابي اليهود والنصارى.

خامساً: في الأدلة الدالة على تحريف التوراة والإنجيل من نصوص الكتابين مما يكون أصرح دليل على تحريفها.

بعد ذلك ذكر المصنف رحمه الله خاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها من خلال بحثه[1].

أما منهج المؤلف رحمه الله فقد سلك منهجاً اسقرائياً، استعرض فيه الأدلة الدالة على بطلان دعاوى النصارى، سواء في دعوى إلوهية المسيح - عليه السلام- أو دعوى صحة التوراة والإنجيل، وأبان عن بطلانها بما يقابلها وينقضها من المعلومات الواردة في التوراة والإنجيل.

كما استعرض شُبَهَ القوم ودعاويهم في نبينا محمد ﷺ وأبان عن بطلانها بنصوص من كتبهم، كما استعرض العديد من الأدلة الدالة على نبوة نبينا محمدﷺ من التوراة والإنجيل.

١- انظر كتاب البحث الصريح ص ٣٥-٣٦

وكان من أهم مصادر المؤلف الإسلامية: القرآن الكريم، واعتمد في الأمور التاريخية على كتاب «السيرة الحلبية» وفي إثبات أسماء النبي ﷺ على كتاب «دلائل الخيرات».

أما مصادره النصرانية، فكان من أهمها: كتاب العهد القديم والجديد، كما رجع في كتاب الكنيسة إلى كتاب «سعد بن البطريق»، ورجع أيضاً إلى تاريخ «يوسيوس» وهو مؤرخ يهودي، ومؤرخ آخر أسماه «لافجانيوس» كما أشار إلى أنه طالع بعض المختصرات في رد بعض أصحاب الملل بعضهم على بعض، وأفاد منها غير أنه لم يُسَمِّ شيئاً منها.

كما رجع إلى قواميسَ وكتبٍ يونانيةٍ وعبريةٍ، مما يشعر بمعرفته بكل من اللغتين اليونانية والعبرية -كما سبق بيانه-[1].

هذا وسيرد في المبحث التالي شيء من تعليقاته على البشارات الواردة في الكتب السابقة التي نزَّلها على نبينا محمد ﷺ وأمته.

---

١ -انظر كتاب البحث الصريح ص ٢٦-٢٧

المبحث الثاني: تصريح الكتب السابقة بنبي الإسلام، وتبشيرها به

لقد بشرت الكتب السابقة بدين الإسلام، وظهور نبيه في مواضع كثيرة، والشواهد على ذلك لا تكاد تحصى.

وهذه الشهادات الموجودة في الكتب المتقدمة تُعُّد من الآيات البينات على نبوة محمدﷺ ونبوة من قبله[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميةرحمه الله: «دلائل نبوة المسيح ومحمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن؛ فإن الظن لا يدفع اليقين لا سِيَّما مع الآثار الكثيرة المُخْبرة بأن محمداً كان مكتوباً باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء»[٢].

وقد جاء في صحيح البخاري عن عطاء بن يسار أنه قال: «لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللهﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥) وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولاسَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقْبِضَهُ الله حتى يقيم به المِلَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عُمياً، وقُلُوباً غُلْفاً»[٣].

---

١ ـ انظر الجواب الصحيح ١٩٧/٥، وانظر الكتب الأخرى التي تكلمت على البشارات الواردة في الكتاب السابقة الدالة على نبوة محمدﷺ ومنها: كتاب الدين والدولة لابن ربن الطبري، وإقحام اليهود للمهتدي السموأل، وتخجيل من حرف الإنجيل للجعفري، وابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح وابن القيم في هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ومحمدﷺ في الكتاب المقدس لعبدالأحد داود، وإظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، والبحث الصريح في إيِّما الدين الصحيح، والبشارة بنبي الإسلام لأحمد حجازي السقا، وغيرهم كثير ممن عُنوا بإبراز البشارات بالنبي محمد ﷺ في الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة والإنجيل.

٢ ـ الجواب الصحيح ١٥٥/٥

٣ ـ صحيح البخاري (٢١٢٥و٢٨٣٨)

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذا الأثر: «ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور قد يراد به الكتب المُعَيَّنَةُ، ويراد به الجنس، فَيُعَبَّر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره كما في الحديث الصحيح عن النبيﷺ خُفِّفَ على داود القرآن، فكان ما بين أن تُسْرَج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن»[1].

والمراد به قرآنه، وهو الزبور، ليس المراد به القرآن الذي لم ينزل إلا على محمدﷺ.

كذلك ما جاء في صفة أمة محمد أناجيلهم في صدورهم، فَسَمَّى الكتب التي يقرؤونها -وهي القرآن- أناجيل.

وكذلك في التوراة «إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى» فسمى الكتاب الثاني توراة.

فقوله: «**أخبرني بصفة رسول الله في التوراة**» قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلِّها، وكلُّها تسمى توراة، ويكون هذا في بعضها.

وقد يراد به التوراة المعينة.

وعلى هذا فيكون هذا في نسخة لم ينسخ منها هذه النسخ؛ فإن النسخ الموجودة بالتوراة التي وقفنا عليها ليس فيها هذا»[2].

وقال الشيخ زيادة بن يحيى الراسي[3] كما في مقدمة الباب الرابع في كتابه (البحث الصريح في إيِّما هو الدين الصحيح) قال: «الباب الرابع: البشارات بالنبيﷺ في التوراة والإنجيل».

نورد فيه بينات من كتب العهدين؛ أعني من التوراة والإنجيل على أن نبينا الأعظم محمداًﷺ هو النبي الموعود به -أيضاً- والمشار إليه، والمنبأ عنه من الأنبياء كعيسى -عليه السلام- بالأدلة الواضحة، والبراهين المتينة كما قد تراها صحيحة»[4].

---

١ ـ أخرجه البخاري (٣٤١٧).

٢ ـ الجواب الصحيح ٥/١٥٦ـ١٥٧، وانظر هداية الحيارى ص ١٦٥ـ١٦٦، وقول ابن تيمية: (ليس فيها هذا) يعني أثر ابن عمر، ولكن سيروا في نبوءة أشعياء -كما سيأتي-.

٣ ـ هذا هو أحد علماء النصارى الذين اهتدوا للإسلام، وقد مضى ذكره في المبحث الماضي.

٤ ـ البحث الصريح ص ١٣٩.

ثم شرع رحمه الله بإيراد تلك الشهادات؛ حيث أورد إحدى عشرة شهادة، وأتبع كل شهادة بالشرح، والتحليل، والربط، مثبتاً أنها منطبقة تماماً على نبينا محمد ﷺ.

وفيما يلي ذكر لبعض ما جاء في الكتب السابقة عن نبي الإسلام محمد ﷺ مع شيء من التعليق عليها.

١ـ **جاء في نبوة أشعياء قوله:** «عبدي الذي سُرَّت به نفسي، أنزل عليه وحيي، فَيُظْهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق يفتح العيون العور والآذان الصم، ويحيي القلوب الغُلْف، وما أعطيه لا أعطي أحداً، يحمد الله حمداً جديداً، يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرية، وسكانها يهللون الله على كل شَرَف ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى، مشقح[1]، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة بل يُقَوِّي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يُطْفَأ، أثر سلطانه على كتفيه»[2].

وهذه البشارة من أشعياء قريبة مما جاء في أثر عبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهماـ قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على نبوءة أشعياء ـ عليه السلامـ: «وهذه صفات منطبقة على محمد وأمته، وهي من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به، ولفظ التوراة قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب، فيدخل في ذلك الزبور، ونبوة أشعياء، وسائر النبوات غير الإنجيل»[3].

---

١ ـ مِشْقَح: يميل إلى لون الحمرة. انظر لسان العرب ٤٩٩/٢.

٢ـ انظر سفر أشعياء الإصحاح ٣٥ فقرة ١ـ١٠، العهد القديم ٨١٥، وانظر الجواب الصحيح ١٥٧/٥ـ١٥٨.

٣ ـ الجواب الصحيح ١٥٨/٥.

٢ـوجاء في سفر التثنية ما نصه: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء[١] وأشرق لهم من سعير[٢] وتلألأ من جبال فاران[٣]»[٤].

وقد أورده ابن تيمية بلفظ قريب فقال: «وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية: «جاء الله من طور سينا، وبعضهم يقول تجلى الله من طور سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران» [٥].

قال ابن تيمية معلقاً على هذه البشارة: «قال كثير من العلماء واللفظ لأبي محمد ابن قتيبة: ليس بهذا خفاء على من تدبره، ولا غموض؛ لأن مجيءَ الله من طور سينا إنزالُه التوراةَ على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا.

وكذلك يجب أن يكون إشراقُه من ساعير إنزالَه الإنجيلَ على المسيح، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة، وباسمها يسمى من اتبعه نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقُه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانُه من جبال فاران إنزالَه القرآنَ على محمد، وجبالُ فارانَ هي جبال مكة.

قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة؛ فإن ادعوا أنها غير مكة ـ فليس يُنْكَر ذلك من تحريفهم وإفكهم ـ قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟»[٦].

---

١ ـ سيناء، أو طور سينا: اسم جبل بقرب آيلة، أنظر معجم البلدان لياقوت ٢٩٢/١، ٤و٤٨

٢ ـ سعير، أو ساعير: اسم لجبال فلسطين، وهي قرية من الناصرة بين طبرية وعكا، انظر معجم البلدان ١٧١/٣

٣ ـ جبال فاران: هي جبال مكة. انظر الجواب الصحيح ٢٠٠/٥

٤ ـ سفر التثنية الإصحاح الثالث والثلاثون ١ـ٣، العهد القديم.

٥ ـ الجواب الصحيح ١٩٩/٥

٦ ـ الجواب الصحيح ١٩٩/٥ـ٢٠٠

إلى أن قال ابن تيميةرَحِمَهُ اللَّهُ: «وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتابا بعد المسيح أو ليس (استعلن) و(علن).

وهما بمعنى واحد وهو ما ظهر وانكشف؛ فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فُشُوَّه؟.

وقال ابن ظفر: ساعير جبل بالشام منه ظهرت نبوة المسيح.

قلت: وبجانب بيت لحم القرية التي ولد فيها المسيح قرية تسمى إلى اليوم ساعير، ولها جبل تسمى ساعير، وفي التوراة أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم.

وعلى هذا فيكون ذكرُ الجبال الثلاثة حقًّا جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه، ومنه كان نزول أول الوحي على النبيﷺ وحوله من الجبال جبال كثيرة حتى قد قيل: إن بمكة اثني عشر ألف جبل، وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم، وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبَرِّيَّةُ التي بين مكة وطور سينا تسمى بَرِّية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض، ولا بُعِث نبيٌّ؛ فَعلِمَ أنه ليس بالمراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد.

وهو ـ سبحانه ـ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني؛ فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن.

وهذه الكتب نُوْرُ الله وهداه، وقال في الأول: جاء أو ظهر، وفي الثاني أشرق، وفي الثالث استعلن.

وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى.

وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء؛ ولهذا قال «واستعلن من جبال فاران» فإن النبيﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها؛ أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها؛ ولهذا سماه الله سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً، والخَلْقُ يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج؛ فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وكما قيل: قد ينضرون به بعض الأوقات.

وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً سراً وعلانية وقد قال النبيﷺ: «**زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها؛ وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**»[1].

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ**﴾ التين.

فأقسم بالتين والزيتون وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل.

وأقسم بطور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة.

وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة، وهو البلد الذي أسكن فيه إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم

---

١ ـ أخرجه مسلم (٢٨٨٩)

خلقاً وأمراً قدراً وشرعاً؛ فإن إبراهيم حَرَّمه، ودعا لأهله، فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ » إبراهيم: ٣٧[١].

وقال ابن تيمية رحمه الله فقوله ـتعالى ـ: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾ إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها الثلاثة التوراة، والإنجيل، والقرآن.

كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله: « جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران » [٢].

وقال ابن القيم رحمه الله عن هذه البشارة: « وشَبَّه ـسبحانه ـ نبوة موسى بمجيء الصباح، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهورها في الآفاق.

ووقع الأمر كما أخبر به سواء؛ فإن الله ـ سبحانه ـ صدع بنبوة موسى لَيْلَ الكفر؛ فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء، واستعلن، وطبَّق الأرض بنبوة محمد ـصلوات الله وسلامه عليهم » [٣].

٣ـ وقال شمعون النبي ـعليه السلام ـ: « الله جاء من تيمان[٤]، والقدوس من جبل فاران، سلاه جلاله غطى السموات والأرض، امتلأت من تسبيحه، وكان لمعانٌ كالنور من يده شعاع، وهناك استتار قدرته » [٥].

---

١ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٠٠ـ٢٠٥.

٢ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٠٧

٣ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١١٩

٤ ـ تيمان أو التيمن: اسم عبرى معناه: اليمين، أو الجنوبي، أو الصحراء الجنوبية، انظر حاشية الجواب الصحيح ٥/٢٢٢.

٥ ـ انظر سفر حبقوق، الإصحاح الثالث ص٣ـ٤، العهد القديم ١٠٤٦، و انظر الجواب الصحيح ٥/٢٢١ـ٢٢٢.

وقد أورد الإمام ابن تيمية هذه البشارة بما هو موجود من كتب أهل الكتاب في وقته، فقال في سياق حديثه عن بشارات الأنبياء السابقين بنبوة محمدﷺ: «ومثل هذا بشارة أخرى بمحمدﷺ من كلام شمعون بما رضوه[١] من ترجمتهم وهو: «جاء الله بالبينات من جبال فاران، وامتلأت السماء والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته»[٢].

ثم علق ابن تيمية على هذه البشارة بقوله: «فهذا تصريح بنبوة محمدﷺ الذي جاء بالنبوة من جبال فاران، وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته[٣].

ولم يخرج أحد قط وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته مما يسمى فاران سوى محمدٍﷺ.

والمسيح لم يكن في أرض فاران ألبتة، وموسى إنما كُلِّم من الطور، والطورُ ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين الطور وأرض الحجاز من فاران، فلم يُنْزِلِ اللهُ فيها التوراة.

وبشارات النبوة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجبل ساعير»[٤].

٤ـ ونُقِلَ في نبوة حبقوق أنه قال: «جاء الله من التيمن، وظهر القُدُس على جبال فاران، وامتلأت الأرض لنوره، وحملت خيله في البحر»[٥].

٥ـ وقال داود في مزاميره ـوهي الزبورـ[٦]: «من أجل هذا بارك الله عليه إلى الأبد، فتقلَّدْ[٧] أيها الجبار بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك،

---

١ ـ يعني أهل الكتاب.
٢ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٢١.
٣ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٢٢.
٤ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٢٢
٥ ـ انظر سفر حبقوق الإصحاح الثالث ٣ـ٨، العهد القديم ١٠٤٦، وانظر الجواب الصحيح ٥/٢٢٣.و هداية الحيارى ص ١٤٧
٦ ـ انظر الجواب الصحيح ٥/٢٣٧.
٧ ـ تَقَلَّد السيف: وضع سيفه في علبته، ووضعها على أحد منكبيه.

اركب كلمة الحق، وسِمَةَ التألُّه[١]؛ فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، و الأمم يخرون تحتك».

وقد أورد ابن تيمية هذه البشارة في كتابه الجواب الصحيح[٢] عن كتب أهل الكتاب، ثم علق عليها بقوله: «فليس متقلِّد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمدﷺ وهو الذي خرَّت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، كما قالﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[٣][٤].

٦ـ وقال داود ـ عليه السلام ـ في مزمور له ـ مبشراً بمحمد ﷺ: «ويملك من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، ويخر أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب، ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلّص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويُصَلَّى عليه، ويُبارك في كل حين»[٥]

وهذا النص موجود في الترجمة الحالية للعهد القديم[٦].

قال ابن تيمية معلقاً على هذه البشارة: «وهذه الصفات منطبقة على محمدﷺ وأمته لا على المسيح؛ فإنه[٧] حاز من البحر الرومي إلى البحر الفارسي، ومن لدن الأنهار بجيحون وسيحون إلى منقطع الأرض بالمغرب.

كما قال:« **زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**»[٨].

---

١ ـ سمة التأله: أي طريق التعبد والتنسك.

٢ ـ الجواب الصحيح ٢٣٧/٥، وانظر هداية الحيارى ص ١٥١، وانظر كلاماً قريباً من ذلك في الترجمة الحالية للكتاب المقدس: سفر المزامير، المزمور الخامس والأربعون ١ـ٥، العهد القديم ٦٧٢.

٣ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٥).

٤ ـ الجواب الصحيح ٢٣٧/٥ـ٢٣٨.

٥ ـ الجواب الصحيح ٤٤٦/٥

٦ ـ انظر سفر المزامير المزمور الثاني والسبعون ٨ـ١٥ العهد القديم ص ٦٨٨

٧ـ يعني محمداً ﷺ

٨ ـ أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وهو يُصَلَّى عليه، ويبارك في كل حين في كل صلاة في الصلوات الخمس وغيرها يقول كل من أمته: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد، فيصلي عليه ويبارك »[١].

وقال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «ولا يشك عاقل تدبر أمور الممالك والنبوات، وعرف سيرة محمد ﷺ وسيرة أمته من بعده أن هذه الأوصاف لا تنطبق إلا عليه وعلى أمته، لا على المسيح ولا على نبي غيره»[٢]

٧ـ وقال دانيال ـعليه السلام ـ وذكر محمداً ﷺ باسمه فقال: «ستنزِعُ من قِسِيِّك إغراقاً ونزعاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءًا»[٣].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «فهذا تصريح بغير تعريض، وتصحيح بغير تمريض؛ فإن نَازَع في ذلك منازِعٌ فَلْيُوجِدْنا آخر اسمه محمد ﷺ له سهام تنزع، وأمر مطاع لا يدفع»[٤].

٨ـ وقال أشعياء النبي ـونص على خاتم النبوة ـ: «ولد لنا غلام يكون عجباً، وبشراً، والشامة[٥] على كتفيه، أركون السلام إله جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عالمه يجلس على كرسي داود»[٦].

قال ابن تيمية معلقا على هذه البشارة:« والأركون: هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة: المُعَظَّمون»[٧].

---

١ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٤٧ـ٢٤٨

٢ ـ هداية الحيارى ص ١٢٥

٣ ـ انظر الجواب الصحيح ٥/٢٧٥، وسفر دانيال الإصحاح السابع ١٣ـ١٤، والعهد القديم ١٠٠٠

٤ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٧٧

٥ ـ يعني بالشامة: خاتم النبوة الذى كان بين كتفي النبي محمد ﷺ

٦ ـ الجواب الصحيح ص ٥/٢٦٠، وانظر هذه البشارة في سفر أشعياء الإصحاح التاسع ٦ـ٧ العهد القديم ص ٧٩٠

٧ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٦٠

وقال: «فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمدﷺ ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري لم تكن الشامة لسليمان، ولا للمسيح.

وقد وصفه بالجلوس على كرسي داود يعني أنه سيرث بني إسرائيل نبوتهم، وملكهم، ويبتزهم[١] رياستهم»[٢].

٩- وجاء في سفر الاشتراع في الإصحاح الثامن عشر، والعدد الخامس من قول سيدنا موسى -عليه السلام- أنه قال لقومه بني إسرائيل: «إن نبياً من بينك ومن إخوتك مثلي يقيمه الرب».

ووردت هذه البشارة بلفظ: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون»[٣].

قال الشيخ زيادة الراسي معلقاً على هذه البشارة: «إن هذه الشهادة هي بلا ريب منطبقة على نبينا محمدﷺ من حيث إن إسماعيل وخَلَفه الذين منهم نبينا كانوا يسمون إخوة لبني إبراهيم -أعني إسحاق وخَلَفه عليهما السلام-؛ لأن الله -تعالى- قال لهاجر -رضي الله عنها- امرأةِ سيدنا إبراهيم عن إسماعيل ابنها: بأن قبالة إخوته ينصب المضارب.

ومن حيث إن إسحاق أبا يعقوب وذريته بني إسرائيل دُعوا إخوةَ إسماعيل؛ فإسماعيل هو أخوهم بلا شك؛ فمن هنا ألغز النبي موسى -عليه السلام- بكلامه، وأشار إشارة خفيةً غير صريحة في النسق حسب عادة الأنبياء؛ لإخفاء بعض مقاصدهم، وتكلمهم بالرموز عن أن الله -تعالى- سيقيم لهم نبياً من بني إخوتهم، أي من بني إسماعيل المباينين لهم، وهو محمدﷺ لكونه نبياً، ومن ولد إسماعيل؛ لأن من عادة الكتب المنزلة أن تسمي أولاد الأعمام من بعْدٍ بَعيدٍ إخوةً.

---

١ - يبتزهم: يسلبهم

٢ - الجواب الصحيح ٢٦١/٥

٣ - أورد هذه البشارة الشيخ زيادة الراسي في كتابه البحث الصريح ص١٤٠ .

ومثل ذلك ورد في القرآن الشريف؛ إذ إنه دعى النبيين اللذين هما هود وصالح إخوة لعاد وثمود[١] ، وهما على بعدٍ بعيدٍ من أولاد الأعمام -أيضاً- »[٢].

وبعد أن ساق الشيخ زيادة رحمه الله عدداً من البراهين الدالة على قوله، قال: « فينتج -إذاً- أن نبينا ﷺ هو المشار إليه من موسى دون شك »[٣].

١٠- وفي إنجيل يوحنا: « وإذا جاء البارقليط[٤] الذي أَرسله إليكم الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق هو يشهد لي، وأنتم أيضاً شاهدون »[٥].

قال الشيخ زيادة بن يحيى الراسي رحمه الله تعليقاً على هذه البشارة: أقول: « إن هذه الشهادة والمقصود بها نبينا محمد ﷺ :

أولاً: من اسم « **بارقليط** »

ثانياً: من قوله: « **هو يشهد لي** »

ثالثاً: من تسميته له : « **روح الحق** »

رابعاً: من قوله عنه إنه: « **من الأب ينبثق** »

أما عن قوله: « **إنه ينبثق من الأب** »؛ فهو بمعنى يخرُج، ويرسل، كما هو مصرح به في قواميس اللغة اليونانية، والكنائس الغربية هكذا تفسرها أيضاً.

وهذا الإرسال جاء مصرحاً به عن النبي محمد ﷺ بقوله- تعالى-: ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ الأعراف: ١٥٨، و قوله: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ** ﴾ الصف: ٩ .

---

١ - يشير إلى مثل قوله -تعالى- : ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ الشعراء، وقوله: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ الشعراء.

٢ - البحث الصريح ص ١٤١-١٤٢ .

٣ - البحث الصريح ص١٤٨ .

٤- البارقليط، ويقال - أيضاً- : الفارقليط.

٥ - البحث الصريح ١٥١

وأما تسميته له ﷺ بأنه «**روح الحق**» فنرى هذا الاسم من جملة أسمائه الشريفة»[١].

إلى أن قال الشيخ زيادة رحمه الله : «أما اسم «**بارقليط**» فهي لفظة يونانية، من معانيها في القواميس: المعزي، والناصر، والمنذر، والداعي، والاسم المطابق هو الداعي.

فالنصارى الذين آمنوا وأسلموا في العصور القديمة قد فهموا أن معنى هذه اللفظة منصرف إلى القرآن الشريف، وإلى سيد المرسلين الأعظم ﷺ.

فأما انصرافها إلى النبي الأعظم ﷺ فمن كونه قد وُصفَ بمثل هذه الأوصاف في الكتاب المنزل، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ النساء: ٧٥.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ** ﴾ الأحزاب: ٤٥ـ٤٦.

أما النصارى الذين في الدهور المتأخرة، المتناسلين من أولئك، فلم يفهموها إلا عن الروح الذي حل على الحواريين، مع أن الروح الذي يدعون أنه حَلَّ عليهم لم يسم «**بارقليطاً**» من الذين حل عليهم، ولا سُمِّي روح الحق، ولا دعي المنبثق من الأب مثلما سماه عيسى لما وعد به، بل إنه سمي من الحواريين: روح، وقوة، وألسنة كالنار.

وأما قوله: «**إن البارقليط يشهد لي**»:

فأقول: إنه يظهر من معناه بأن سيدنا عيسى يقصد شخصاً آخر غير شخصه، يشهد له بالحق، وغير الحواريين، وإثباتاً لهذا الدليل هو تعمد إشارته في نسق هذه الجملة الواحدة، القائلة عن البارقليط: هو يشهد لي وأنتم ـ أيضاً ـ شاهدون.

---

١ ـ البحث الصريح ص ١٥١ـ١٥٢.

فبقوله هذا يظهر أن المُزمْع والعتيد أن يأتي ويشهد له، هو غير الشاهدين الحاليين، ولو كان واحداً لما قال: هو يشهد لي، بصيغة الزمان المستقبل البعيد كما في اليوناني، وأنتم أيضاً شاهدون بصيغة الزمان الحال»[1].

ويواصل الشيخ زيادة بن يحيى تعليقه على البشارة السابقة قائلاً: «وأما اسم بارقليط: فيُحمل معناه -أيضاً- على القرآن الشريف؛ لأنه أي القرآن قد ورد من الله -تعالى- منبثقاً وخارجاً من لدن عنايته، مُعزِّياً بلفظه المحكم لرسوله المصطفى ﷺ ولخواصه -أيضاً-.

فأما ما أورده -تعالى- من التعزية لرسوله، فمثل قوله ﴿**وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**﴾ آل عمران: ١٧٦، وقوله -تعالى-: ﴿**وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ المزمل: ١٠، وقوله: ﴿**وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ**﴾ المدثر: ٧.

وأما ما قاله - تعالى- من التعزية لأصحابه قوله ﴿**وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾ آل عمران: ١٨٦، وقوله -تعالى-: ﴿**لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ آل عمران: ١٥٣.

وبالإجمال أقول: إذا أمعنت النظر في القرآن الشريف ترى أكثر معانيه منصرفه على التعزية وأجناسها[2].

وإن قيل: إن البارقيط كان الوعد فيه للحواريين لأن سيدنا عيسى قال لهم إنه «**يرسله إليهم**»، والقرآن جاء بعد الحواريين بستمائة سنة - فأجيب: إن قوله: أرسله إليكم قوله لهم: «**وها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر**».

---

١ - البحث الصريح ١٥٢-١٥٥

٢- ومن ذلك أن القرآن الكريم تضمن كثيراً من قصص السابقين، وفي قصصهم عبرة للرسول ﷺ والمؤمنين، وتعزية لما يصيبهم من جهد وبلاء في الدعوة إلى دين الله -عز وجل-.

فالحواريون لم يبقوا إلى انقضاء الدهر، بل خَلَفَهُمُ الذين بقوا إلى انقضاء عالم عيسى -عليه السلام-.

والحال أن قوله: «**سيقيم لكم**» مثل قول عيسى - عليه السلام- ههنا: «**إنه يرسله إليكم**» فالضمير في اللفظين متساوٍ للمخاطبين»[1].

١١- وقال إشعياء النبي -عليه السلام- رامزاً إلى نبينا محمد ﷺ : «ويرفع علامة للأمم من بعيد ويُصْفر به من أقصى الأرض، وهو ذا يأتي سريعاً بخفة ليس فيهم تاعب ولا عائي، لا ينعس ولا ينام، ولا تَنْحَلُّ منطقة حِقْويه، ولا ينقطع سير حذائه، سهامه حادة، وجميع قِسِيِّه موتورة، حوافر خيله مثل الصوان، وبكراته - أي نوقه - مثل العاصف، زئيرة كالأسد، وبِنَهم يدرك الفريسة ويحوزها، وليس من ينجي، ويهر عليه في ذلك اليوم كهدير البحر، وينظر إلى الأرض وإذا هي مظلمة ضيقة، والنور أعتم لضبابها» [2].

قال الشيخ زيادة بن يحي الراسي رحمه الله معلقاً على هذه الشهادة: «وبالحق إن هذه الشهادة منطبقة على نبينا محمد ﷺ كما قلنا، ومن كل جهاتها؛ لأن قوله: «**ويرفع علامة للأمم**»؛ يعني أنه هو العلامة المرفوعة للأمم، والدليل الهادي ليقودها إلى نور دين الله الحق، وهو الذي رفع للأمم أولاً كما عيسى رفع لليهود أولاً، وبعده عمموا نبوته.

وقوله: « **من بعيد**» مشيراً على أن هذه العلامة ليست هي من أرض إسرائيل التي تكلم فيها إشعيا هذه الإشارة، أي قوله: « **ويرفع علامة للأمم**» بل من أرض بعيدة.

---

١ - البحث الصريح ص ١٥٦-١٥٧

٢ - البحث الصريح ص ١٦٨-١٦٩

وإيضاح ذلك قد يظهر من العدد الذي يتلوه، حيث يكشف هذا الرمز بقوله: «**ويصفر به من أقصى الأرض**»، فقوله: «**من أقصى الأرض**»، يكشف أنه ليس من أرض إسرائيل ترفع العلامة، بل إنها ترفع من بعيد من أقصى الأرض، حيث رمز عنها بهذا الكلام، فكأنه يقول: إن نهاية وأقصى أرض إسرائيل هي الأرض التي خرج منها نبيناﷺ أعني: مكة المشرفة، التي هي عند أقصى أرض إسرائيل؛ لأن إقليم العرب لا فاصل بينه وبين أرض الموعد.

ثم إن هذه الجملة قد تضمنت دليلاً رمزياً آخر؛ لئلا تجهل العلامة، وأنه عربي بقوله: «**ويُصْفر به**» يعنى ينادى به، لأن في اللغة العبرانية يقول: ويصفر به، أي أن الله ـ تعالى ـ نادى به الناس كالصفير، كعادة العرب لكونهﷺ عربياً؛ لأن العرب ينادون بالصفير عند كمائنهم وأغراضهم الخفية»[١].

ثم يواصل الشيخ زيادة رحمه الله شرحه لشهادة أشعياء وقوله: «يأتي سريعاً بخفة، ليس فيهم تاعب ولا عائي، لا ينعس ولا ينام، ولا تَنْحَل حِقويه، ولا ينقطع سير حذائه، سهامه حادة، وجميع قسيِّه موتورة».

قال الشيخ زيادة: «فالحق أنهﷺ أتى بجيوشة بخفة، وما كان في أعوانه تاعب، ولا كان ينعس، بل إنه سهران في عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونشر دينه الشريف كما ورد عنه ﷺ أنه كان يقوم الليل كله حتى ترم قدماه الشريفتان، فأمره الله ـ تعالى ـ في القرآن العظيم شفقة عليه وحباً وتعظيماً له بقوله له: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا** ﴾ المزمل.

١ ـ البحث الصريح ١٦٩ـ١٧١

و«**لا انحلت منطقة حقويه**» يعنى أن عزيمته نشيطة، «**غير منقطع سير حذائه**» يعنى أن قدميه الكريمتين غير فاترة عن السعي بالخير والعبادة و «**سهامه حادة**» يعني بما أنه لا يوجد من يساويه ممكن كان يضرب بالسهام من قبل الله لأعدائه المعاندين بتلك القسي الموتورة.

ويؤكد هذه المعاني غلاقة القول بأن «**حوافر خيله مثل الصوان**» كما وصفت تلك الخيول في القرآن الكريم في قوله -تعالى-: ﴿ **وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا** ﴾ العاديات[1].

ثم إن ههنا إشعيا قد أظهر بنبوءته أن نبينا ﷺ هو المقول عنه هذه الأقوال وليس سواه؛ لأن عيسى لم تكن عنده خيل، وإنما نبينا محمد المصطفى ﷺ هو الذي كانت تقدح حوافر خيله، مثل الصوان المطابق لقوله -تعالى-: ﴿ **فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا** ﴾ العاديات.

إلى أن قال الشيخ زيادة رحمه الله: «ثم قال إشعيا «**وبكراته**» أي نوقه، مثل العاصفة، فلفظة: «**نوقه**» هي أعظم دليل على المصطفى ﷺ من حيث إن عيسى ما كان عنده نوق ولا جمال.

«**وزئيره كالأسد، وكان يدرك الفريسة ويحوزها، وما كان أحد تخلص منه**» ههنا سمى إشعيا «**زئيره كالأسد**» وفي الإصحاح الحادي والعشرين قال: «**فصرخ الأسد**» ونعم هذا التشبيه؛ لأنه ﷺ كان سلطان البشر، كما أن الأسد سلطان الحيوانات بالفروسية والشجاعة.

وآخر الأدلة من إشعيا على نبينا ﷺ: «**يدوي عليه في ذلك اليوم دَويَّ البحر، وينظر إلى الأرض وإذا هي مظلمة ضيقة، والنور اعتم بضبابها**».

---

١ ـ البحث الصريح ص ١٧٣ .

وقد صدق الدليل الأخير أن نبينا الأعظمﷺ هو الذي كان ينادي؛ كان يزعق على الكفر كدوي البحر، وانتهره وزجره ورَوَّعه: أي الكفر، وهو الذي نظر إلى الأرض وإذا هي مظلمة بالكفر ضيقة، وبالحقيقة كانت الأرض مظلمة بالكفر عابدة للمخلوقات.

وقوله: «**والنور أظلم بضبابها**» يعني أن نور الاعتقاد بالله الذي كان موجوداً على الأرض عند النصارى واليهود القدماء قد غطّاه ضباب الإلحاد والجحود حينما ضلّوا عما تسلموه من موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وهذا بالحقيقة هو النور الذي أظلم بضبابها ـ أعني بالأمكنة المشرفة مثل مكة والقدس وغيرهما وهؤلاء أركان القُدُس»[1].

فهذا نزرٌ يسير من البشارات بمحمد ﷺ في الكتب السابقة.

١ ـ البحث الصريح ص ١٧٣ـ١٧٤

المبحث الثالث: في ذكر مكة والكعبة في الكتب السابقة

لقد صرحت الكتب السابقة الموجودة بأيدي أهل الكتاب باسم مكة المكرمة، والكعبة المشرفة، وَوَصْفِها بما لا يدع للشك مجالاً بصدق نبوة محمدﷺ وبكونه بعث من مكة، ودعا إلى تعظيمِ الكعبة، وحَجِّ البيت الحرام، وما إلى ذلك من الأوصاف.

وإذا جادل أهل الكتاب في الآيات الباهرات الواضحات التي جاءت في القرآن الكريم فلن يستطيعوا أن يكابروا فيما هو مسطور في كتابهم المقدس عن مكة، والكعبة.

وفيما يلي ذكر لبعض صفات بيت الله الكعبة، وبلده الحرام.

وأكثر هذه الصفات بالنص الحرفي، وبعضها بالمعنى، وبعد ذلك تُذكر بعض النبوآت، والبشارات.

المطلب الأول: صفات مكة والكعبة في الكتاب المقدس

لقد جاء في الكتاب المقدس ذكر كثير لصفات مكة المكرمة والكعبة المشرفة، ومن ذلك -على سبيل الإجمال- ما يلي:

١- أورشليم الجديدة - أورشليم المشيحية - بالشين: أي الخلاصية التي في عهد المشيح، أي المخلّص الموعود.

٢- في بريّة أوجبال فاران التي عاش فيها إسماعيل وأمه، وأنبع الله لهم الماء فيها.

٣ - المدينة التي كان إبراهيم يتطلع إليها بشوق.

٤ - سكانها بنو قيدار -ذرية إسماعيل -.

٥ - هي بلد الأمين الصادق رئيس الخليقة.

٦- ليس فيها هيكل.

٧ـ هيكل سليمان في كل عظمته لا يعتبر شيئاً بالنسبة للبيت الجديد.

٨ ـ البيت الجديد شكله مكعب.

٩ـ المكعَّبة فيها حجر كريم.

١٠ـ تتزين بالإكليل والحلي كالعروس.

١١ـ يهابها كل من يناوؤها، ولا يدنو منها الرعب.

١٢ ـ عند الكعبة نبع ماَء الحياة مجاناً فيه شفاء (زمزم).

١٣ـ تفتح أبوابها ليلاً ونهاراً لا تغلق.

١٤ـ تجثو عندها كل ركبة في الكون.

١٥ ـ تكون هناك سكة وطريق يقال لها: الطريق المقدسة، لا يعبر فيها نجس.

١٦ ـ لا يدخلها شيء نجس.

١٧ ـ أبناؤها أكثر من أبناء القدس.

١٨ـ تضيق بسكانها والداعين فيها.

١٩ ـ يسجد الملوك أمامها، ويلحسون غبارها.

٢٠ ـ تزول الجبال والآكام، ولا يزول إحسان الله وسلامه عنها.

٢١ ـ تتحول إليها ثروة البحر، ويأتي إليها غنى الأمم.

٢٢ ـ يجتمع إليها الناس، ويأتون من بعيد.

٢٣ ـ تضيق أرضها عن الإبل والغنم القادمة من الغرب والشرق ـسبأ ومدين وفاران وقيدارـ ويخدمها رجال مأرب.

٢٤ـ لها جبل مبارك تسير إليه الأمم؛ ليعبدوا الله فيه ـعرفاتـ.

٢٥ ـ الكل عند البيت سواء في حرية التقرب إلى الله.

٢٦ ـ مكتوب اسم الله على جباه أهلها ـسيماهم في وجوههم من أثر السجودـ.

٢٧ ـ يمتنع العباد حول البيت عن ما يصدر عن الطبيعة ـالبول والغائطـ .

٢٨ـ يكون رأس الرجل عارياً، والمرأة تغطي رأسها ويلبسون من الحقوين إلى الفخذين ويجزون شعر رأسهم جزًا (الإحرام والتحلل).

هذه بعض صفات مكة التي حيرت مُفَسِّري التوراة بشأن هذه المدينة؛ لأنهم لا يريدون الإقرار بالحقيقة، صفاتٌ جليةٌ كالشمس، ولكن مفسري التوراة تعاموا عنها، وتخبطوا في تفسيرات متناقضة؛ فتارة يزعمون أن هذه الأوصاف لمدينة سماوية، وتارة يزعمون أنها أورشليم رمزية وتارة يزعمون أنها أورشليم الكاملة المشيحية؛ أي التي ستكون في العهد الألفي السعيد.

ولم يعلموا أنهم بهذه التفسيرات قد شهدوا على أنفسهم أنها ليست هي أورشليم القدس المعروفة، وأن أهلها ليسوا بني إسرائيل هؤلاء.

وهكذا أشرق الصبح لذي عينين، ولله الحمد وأظهر الله الحقيقة.

ومن شك في هذا من مثقفي الغرب فما عليه إلا أن يشاهد النقل الحي لشعائر التراويح، أو الحج على الفضائيات، ويقارن بين ما يقرأ من الصفات وما يرى بأم عينه؛ ليعلم لماذا خاطب الله علماء ملته؟ بقوله: ﴿ **يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ آل عمران: ٧١.

ويتذكر قول المسيح للمرأة السامرية حين سألته أي قبْلَتَيْ بني إسرائيل أفضل؟: «صدقيني أيتها المرأة تأتي ساعة فيها تعبدون الرب لا في هذا الجبل في السامرة ولا في أورشليم» يوحنا٤: ٢١

وإذا ثبت هذا فالأمانة العلمية وحرية البحث توجب للعاقل أن يعيد النظر في كل النبوءات، ويشك في كل التفسيرات، ولن يجد حينئذٍ أي صعوبة في تمييز بيت الأمة المصطفاة الموعودة بنصر الله؛ فهذه مفاتيح لحل رموز النبوءات كلها من خلال

هذه الهدية التي نرجو ـ نحن المسلمين ـ أن يطلع عليها أولئك القوم؛ ليهدي الله من يشاء هدايته [(١)].

وفي المطلب التالي ذكر لبعض تلك النبوآت المؤكدة الشاهدة على ما ذكر في هذه الفقرة.

المطلب الثاني: بشارات الكتب السابقة بشأن مكة والكعبة

مر في الفقرة الماضية ذكر لبعض ما جاء من أوصاف مكة والكعبة في الكتب المقدسة، والحديث ههنا سيكون حول إيراد بعض تلك البشارات بنصها؛ تلك البشارات التي تؤكد تلك الأوصاف، وتقيم الحجة على من له أدنى بصيرة

١ ـ قال أشعياء النبي ـ عليه السلام ـ مثنياً على مكة : «ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين، وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحر، وتحج إليك عساكر الأمم حتى يعم بك قطر الإبل الموبَّلة[(٢)]، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، وتساق إليك كباش مدين ويأتيك أهل سبأ [(٣)]، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب» [(٤)] [(٥)].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقا على هذه البشارة: «فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران ـ الهدايا والأضاحي ـ وفاران هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبَّلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن» [(٦)].

---

١ ـ انظر يوم الغضب ـ قراءة تفسيرية لنبوآت التوراة عن نهاية دولة إسرائيل د. سفر الحوالي ص٥١ـ٥٤، وانظر شواهد ذلك في المبحث الماضي، والمطلب الآتي.

٢ ـ الموبَّلة: المثقلة

٣ ـ سبأ: أرض باليمن

٤ ـ رجال مأرب: هم سدنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن إسماعيل

٥ ـ انظر الجواب الصحيح ٥/٢٥٥، ونحو ذلك في سفر أشعياء الإصحاح الستون ٤ـ٧ والعهد القديم ٨٤٠

٦ ـ الجواب الصحيح ٥/ ٢٥٦، وانظر هداية الحيارى ص ١٥٥

٢ـ وقال أشعياء النبي ـعليه السلام ـ في مكة: «سيري واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي؛ فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي»[١].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «ويعني بأهله: بيت المقدس، ويعني بالعاقر: مكة ـ شرفها الله ـ لأنها لم تلد قبل نبينا ﷺ.

ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس؛ لأنه بيت للأنبياء، ومعدن الوحي؛ فلم تزل تلك البقعة ولادة»[٢].

٣ـ وقال أشعياء ـوالمراد مكةـ: «أنا رسمتك على كفي، وسيأتيك أولادك سراعاً، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخونك؛ فارفعي بصرك إلى ما حولك؛ فإنهم سيأتونك، ويجتمعون إليك؛ فتسمي باسمي، إني أنا الحي؛ لتلبسي الحُلل وتزيني بالإكليل[٣] مثل العروس، ولتضيقن خراباتك[٤] من كثرة سكانك والداعين فيك، وليهابن كل من يناوؤك، وليكثرن أولادك حتى تقولي من رزقني هؤلاء كلهم وأنا وحيدة فريدة؛ يرون رقوب[٥] فمن ربَّى لي هؤلاء ومن تكفل لي بهم؟»[٦].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وذلك إيضاح من أشعياء بشأن الكعبة؛ فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة، ووكل بخدمتها الخلفاء، والملوك، ومكة هي التي ربَّى الله لها الأولاد من حجاجها، والقاطنين بها.

١ـ لجواب الصحيح ٢٥٩/٥، وانظر نحو ذلك في الترجمة الحالية لهذه البشارة في سفر أشعياء الإصحاح الرابع والخمسون١ـ٣ والعهد القديم ٨٣٥

٢ـ الجواب الصحيح ٢٥٩/٥، وانظر هداية الحيارى ص ١٥٦

٣ـ الأكاليل: شبه عصابة للرأس تزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً. انظر مختار الصحاح ٥٧٧

٤ ـ الخرابات: المواضع. انظر مختار الصحاح ١٧١

٥ ـ الرقوب: الذي لا ولد له. انظر المصباح المنير ص ٢٣٤

٦ ـ انظر الجواب الصحيح ٢٦٣/٥

وذلك أن مكة هي التي أخرج عنها كل من أن أراد أن يخيفها ،ويخربها ، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة ، لم يهنها أحد من البشر قط ، بل أصحاب الفيل لما قصدوها عذبهم الله العذاب المشهور ، ولم تزل عامرة محجوجة من لدن إبراهيم الخليل.

بخلاف بيت المقدس؛ فإنه قد أُخْربَ مرة بعد مرة ، وخلا من السكان ، واستولى العدو عليه وعلى أهله.

وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها : هو للكعبة دون بيت المقدس ، قال -تعالى- : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج : ٢٥ .

إلى أن قال: «وأما كثرة أولادها ، وهم الذين يحجون إليها ، ويستقبلونها في صلاتهم ، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس»[١].

٤- وقال أشعياء -عليه السلام- في كتابه عن الحرم: «إن الذئب والجمل يرتعان فيه معاً»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذه البشارة : «إشارة إلى أمنه[٣] الذي خصه الله به دون بقاع الأرض؛ ولذلك سماه البلد الأمين ، وقال :﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ العنكبوت : ٦٧ .

وقال يعدد نعمه على أهله :﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ قريش[٤].

فهذا شيء يسير مما ورد بشأن مكة ، والحرم ، والكعبة في الكتب السابقة.

١- الجواب الصحيح ٥/ ٢٦٣-٢٦٥

٢ - هداية الحيارى ص ١٥٧ ، وانظر الإصحاح الحادي والستين من سفر أشعياء

٣ - يعني أمن الحرم المكي.

٤ - هداية الحيارى ص ١٥٧

المبحث الرابع: وصف أمة الإسلام في الكتب السابقة

لقد جاء وصف أمة الإسلام أمة محمدﷺ في الكتب السابقة بما لا يدع مجالاً للشك في أنها الأمة المصطفاة التي وردت أوصافها في بشارات الأنبياء السابقين ـعليهم السلامـ.

ولقد ورد شيء من تلك الأوصاف في مباحث، وفقرات ماضية، وفيما يلي مزيد بيان لذلك، وتأكيد عليه من خلال إيراد بعض ما جاء من تلك الأوصاف في ما هو موجود في الكتب التي هي بين أيدي أهل الكتاب.

١ـ قال داود ـعليه السلامـ في بشارة له في مزموره: «لترتاح البوادي وقراها، ولْتصِرْ أرض (قيدار) مروجاً، وليُسَبِّحْ سكانُ الكهوف، ويهتفوا من قُلَلِ[1] الجبال بحمد الرب ويذيعوا تسابيحه في الجزائر»[2].

قال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «فَلِمَنْ البوادي من الأمم سوى أمة محمد؟ ومن(قيدار) سوى ابن إسماعيل جد رسول اللهﷺ ومن سكان الكهوف، وتلك الجبال سوى العرب؟»[3].

٢ـ وقال داود ـ عليه السلامـ في الزبور في وصف أمة الإسلام : «سبحوا الله تسبيحاً جديداً، وليفرح بالخالق مَن اصطفى الله له أمته، وأعطاه النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحونه على مضاجعهم، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة»[4].

---

١ ـ القُلل: أعالي الجبال، مفردها قُلَّة. انظر مختار الصحاح ص ٥٤٩

٢ ـ الجواب الصحيح ٢٤٥/٥، وأنظره بالمعنى في سفر أشعياء ، الإصحاح الخامس: ٢٦ـ٢٨، والإصحاح الرابع والخمسون:١ـ١٧، والعهد القديم ٧٨٧و ٨٢٥ـ٨٢٦ .

٣ ـ الجواب الصحيح ٢٤٥/٥

٤ ـ الجواب الصحيح ٢٢٦/٥، وانظر المزمور التاسع والأربعين بعد المائة من سفر المزامير. العهد القديم ٧٣٦

ولا ريب أن هذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمدﷺ وأمته؛ فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية، وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم: عيد الفطر، وعيد النحر في الصلاة، والخطبة، وفي ذهابهم إلى الصلاة، وفي أيام منى الحجاج،وسائر أهل الأمصار يكبرون عَقيب الصلوات، ويكبرون إذا رموا الجمار، ويكبرون على الصفا والمروة، ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن.

وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير؛ فتكبير الله بأصوات مرتفعة إنما هو من شعائر المسلمين.

فهذا التكبير بالأصوات المرتفعة غير ما يُسِرُّه المسلمون من ذكر الله تكبيراً، وحمداً، وتسبيحاً، وتهليلاً، ونحو ذلك من الأذكار الواردة في الشرع؛ فهم لا يَدَعون ذكر الله في حال، بل يذكرونه في جميع الأحوال.

ثم إن الصلاة أعظم تسبيح؛ فهذا معنى قول داود ـعليه السلامـ: «سبحوا الله تسبيحاً جديداً».

والتسابيح التي شرعها الله جديداً كالصلوات الخمس التي شرعها الله للمسلمين جديداً.

ولا يمكن أن تنطبق هذه الأوصاف على غير أمة محمدﷺ[1].

٣ـ وقال حبقوق ـعليه السلامـ: «لقد أضاء السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده»[2].

قال ابن تيميةرحمه الله معلقا على هذه الجملة من بشارة حبقوق ـعليه السلامـ: «وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد بأنوار الإيمان، والقرآن التي ظهرت منه، ومن أمته، وامتلاء الأرض من حمده، وحمد أمته في صلواتهم ـ فأمر ظاهر؛ فإن أمته هم

---

١ ـ انظر الجواب الصحيح٥/٢٦٦ـ٢٣٥، وهداية الحيارى ص ١٤٩ـ١٥٠

٢ ـ الجواب الصحيح ٥/٢٦٧، وانظر هداية الحيارى ص ١٤٧ وانظر سفر حبقوق الإصحاح الثالث ٣ـ٧ والعهد القديم ١٠٤٦

الحمادون؛ لا بُدَّ لهم من حمد الله في كل صلاة وخطبة، ولا بد لكل مصلٍّ في كل ركعة من أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: «**حمدني عبدي**» فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: «**أثنى عليَّ عبدي**» فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: «**مجدني عبدي**»[١].

فهم -أي أمة محمد- يفتحون القيام في الصلاة بالتحميد، ويختمونها بالتحميد، وإذا رفعوا رؤوسهم من الركوع يقول إمامهم: سمع الله لمن حمده، ويقولون جميعاً: ربنا ولك الحمد، ويختمون صلاتهم بتحميدٍ يجعل التحيات له، والصلوات والطيبات.

وأنواع تحميدهم لله مما يطول وصفه»[٢].

٤- وقال أشعياء -عليه السلام- شاهداً لأمة محمدﷺ بالصلاح والديانة: «سأرفع علماً لأهل الأرض بعيداً، فيصفر لهم من أقاصي الأرض؛ فيأتون سراعاً»[٣].

قال ابن تيميهرحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «والنداء هو ما جاء به النبيﷺ من التلبية في الحج، وهم الذين جعلوا لله الكرامة، فوحَّدوه، وعبدوه، وأفردوه بالربوبية، وكسروا الأصنام، وعطلوا الأوثان.

والعلم المرفوع: هو النبوة.

وصَفيرُه: دعاؤهم إلى بيته ومشاعره، فيأتونه سامعين مطيعين»[٤].

---

١ - انظر صحيح مسلم (٣٩٥)

٢ - الجواب الصحيح ٥/٢٧٠-٢٧١

٣ - الجواب الصحيح ٥/٢٥٨، وانظر النص بكامله في سفر أشعياء الإصحاح الخامس ٢٦-٣٠ والعهد القديم ٧٨٧

٤ - الجواب الصحيح ٥/٢٥٨

٥ـ وقال أشعياء ـعليه السلام ـ في وصف أمة محمد ﷺ : «ستمتلىء البادية، والمدن من أولاد قيدار، يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر»[١].

وقال ابن تيمية رحمه الله معلقاً على هذه البشارة: «وقيدار هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعةُ ومُضَرُ من ولده، ومحمدٌ ﷺ من مُضَر.

وهذا الامتلاء والتسبيح لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد ﷺ »[٢].

٦ـ وقال حزقيال ـعليه السلام ـ وهو يهدد اليهود، ويصف لهم أمة محمد ﷺ : «وإن الله مظهرهم عليكم وباعث فيكم نبياً، ومنزل عليهم كتاباً، ومملكهم رقابكم، فيقهرونكم، ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني قيدار في جماعات الشعوب، معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين، محيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار، نعوذ بالله من النار»[٣].

فهذه بعض البشارات، والشهادات الموجودة في كتب أهل الكتاب، وهي ـكما ترى ـ شاهدة على خيرية أمة محمد ﷺ .

---

١ ـ الجواب الصحيح ٢٦٢/٥، وانظر قريباً من هذا النص في الترجمة الحالية لسفر أشعياء الإصحاح الثاني والأربعون ١٠ـ١٣ والعهد القديم ٨٢٣

٢ ـ الجواب الصحيح ٢٦٢/٤

٣ ـ الجواب الصحيح ٢٧٢/٢، وانظر سفر حزقيال الإصحاح العشرون ٤٥ـ٤٩، والعهد القديم ٩٤٩ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ففي خاتمة البحث هذا ملخص لأهم ما ورد فيه.

١- **قصة البشرية بدأت بخلق آدم -عليه السلام-** وأمرِ اللهِ الملائكةَ أن يسجدوا له، واستكبار إبليس عن ذلك، وطرد إبليس، وإهباطه إلى الأرض، وإسكان آدم وزوجه الجنة، وإغواء إبليس لآدم بالأكل من الشجرة، وأكل آدم منها، وإهباطه إلى الأرض، وقيام العداوة بين إبليس وذريته من جهة، وآدم وذريته من جهة.

٢- **الإسلام في اللغة يطلق على معان أشهرها**، الانقياد، والاستسلام، والطاعة، والإخلاص، والقبول، وإظهار الخضوع.

والإسلام العام: هو استسلام العبد، وخضوعه لله، والتزام ما جاء به نبي من الأنبياء، وإظهار ذلك.

والإسلام الخاص: هو الاستسلام، والانقياد لله، والالتزام بما جاء به النبي محمدﷺ.

٣- **الفطرة في اللغة**: هي ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به.

وفي الشرع: هي دين الإسلام، ومعنى فطر الناس عليه: أن الله خلقهم قابلين لأحكام دين الإسلام، وجعل تعاليمه مناسبة لِخِلقتهم.

٤- **البر** من الألفاظ الشرعية العظيمة التي ترد كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وهو لفظ يحمل في طياته معاني جامعة، وآثاراً عميقة تدور حول كل خير وفلاح.

٥ـ **للأخلاق** منزلة سامية في الإسلام، وقد ورد في البحث بيان لمعنى الأخلاق، ومعنى الخلق الحسن، والخلق العظيم، وأسباب اكتساب ذلك.

٦ـ **الله ـجل جلالهـ**: هو رب كل شيء ومليكه، الخالق وحده، المدبر للكون كله، العالم بكل شيء، المحيي، المميت، الرزاق، القادر، المتصف بكل كمال، المتنزه من كل نقص وعيب، المستحق للعبادة وحده.

٧ـ **قدرة الله ـعز وجلـ** صفة من صفات الله الثابتة له، وهي القدرة التامة الكاملة.

٨ـ **الكتاب والسنة** هما مصدرا التشريع الإسلامي؛ فمنهما تُستمد عقائد الإسلام، وشرائعه، وأحكامه، وآدابه، وما جرى مجرى ذلك.

٩ـ **القرآن الكريم** هو كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ المنقول تواتراً، المتعبد به تلاوةً.

١٠ـ **القرآن** محفوظ من الزيادة، والنقص، والتحريف؛ فلقد تكفل الله ـعز وجلـ بحفظه.

١١ـ **السنة النبوية هي**: كل ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خَلْقيَّة أو خُلُقية، أو سيرة سواء كانت قبل البعثة، أو بعدها.

١٢ـ ورد في البحث بيان لحجية السنة، وعظيم عناية الأمة بها.

١٣ـ أركان الإسلام أسسه التي يُبنى عليها، وهي خمسة أركان:

شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً، وقد ورد في البحث تفصيل لتلك الأركان.

١٤ـ **أسس العقيدة** هي أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، و الإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان

بالقدر خيره وشره.

وقد ورد في البحث بيان وتفصيل لتلك الأركان.

١٥ـ ورد في البحث بيان لمهيئات نبوة محمدﷺ وسيرته، وبشارة موسى وعيسى بمحمد ـعليهم السلامـ.

كما ورد في البحث ذكر لجملة من أقوال المنصفين من غير المسلمين في النبي محمدﷺ.

١٦ـ ورد في البحث ذكر لعلم الغيب، وما يندرج تحته من المباحث كعالم الجن والشياطين، والموت، والبرزخ، وأشراط الساعة.

١٧ـ ورد في البحث تعرض لمسائل في الذنوب، والتوبة، والدعاء.

١٨ـ ورد في البحث بيان لنظام الإسلام السياسي، من حيث مفهومه، والحديث عن القضاء والشورى في الإسلام.

١٩ـ ورد في البحث بيان للنظام الاقتصادي في الإسلام، وما يندرج تحته من المباحث.

٢٠ـ اشتمل البحث على تعرض للنظام الاجتماعي في الإسلام، وما يدخل تحته من المباحث كمفهوم الاجتماع، والحياة الاجتماعية، ومكانة الجار في الإسلام، وصلة الرحم، وكرامة الإنسان، ومعيار العدل والتكريم في الإسلام، وأصول الأخلاق في الإسلام، وكالصداقة والصحبة، ونظام الأسرة.

٢١ـ تضمن البحث بياناً لموقف الإسلام من بعض القضايا المعاصرة كموقف الإسلام من العقل، والعلم، والعمل، والصحة، والنظافة.

٢٢ـ ذُكر في البحث قضايا يكثر حولها الجدل، مع ذكر موقف الإسلام منها، كقضايا السلام، والتعايش، والتسامح، والإكراه، والعنف، والإرهاب، والجهاد.

٢٣ـ ورد في البحث بيان للدلائل على حقيقة دين الإسلام، وذلك من خلال

البحث في إعجاز القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعن الإسلام في الكتب السماوية السابقة التي أوردت الكثير من البشارات، والتنويه بدين الإسلام، ونبيه، وأمته.

فهذا هو ملخص لأهم ما ورد ذكره في هذا البحث؛ فأسأل الله -جلَّت قدرته- أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الآيات

آيات سورة آل عمران

آيات سورة النساء

آيات سورة المائدة

آيات سورة الأنعام

آيات سورة الأنفال

آيات سورة التوبة

آيات سورة يونس

آيات سورة هود

آيات سورة يوسف

آيات سورة الرعد

آيات سورة الإسراء

آيات سورة الكهف

آيات سورة مريم

آيات سورة طه

آيات سورة الأنبياء

آيات سورة الفرقان

آيات سورة الشعراء

آيات سورة سبأ

آيات سورة فاطر

آيات سورة يس

آيات سورة الصافات

آيات سورة فصلت

آيات سورة الشورى

آيات سورة الزخرف

آيات سورة الدخان

آيات سورة محمد

آيات سورة الفتح

آيات سورة الحجرات

آيات سورة ق

آيات سورة الحديد

آيات سورة المجادلة

آيات سورة الحشر

آيات سورة الممتحنة

آيات سورة الصف

آيات سورة المنافقون

فهرس الأحاديث

فهرس المصادر والمراجع

«أ»

١ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة العكبري، تحقيق ودراسة رضا بن نعسان معطي، ط٢، ١٤٠٩هـ.

٢ ـ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الغربية، لأحمد علي الملا، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٣ ـ الإجماع، لابن المنذر، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد.

٤ ـ أحكام الجان لبدر الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله الشبلي، تحقيق ودراسة الدكتور السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، ط١.

٥ ـ أحكام الجراحة الطبية والآثار المترتبة عليها، د. محمد المختار الشنقيطي، مكتبة الصحابة، ط٢، جدة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٦ ـ أحكام الزواج في ضوء الكتاب والسنة، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧ ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار الريان للتراث.

٨ ـ أخبار الآحاد في الحديث النبوي حجيتها ـ مفادها ـ العمل بموجبها، د. عبدالله بن جبرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٩ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تصنيف الإمام محمد بن إسحاق الفاكهي، دراسة وتحقيق عبدالله بن عبدالله بن دهيش، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٠ـ أخلاقنا الاجتماعية،د : مصطفى السباعي،المكتب الإسلامي،ط ٢ ،١٣٩٢هـ

١١ـ أخلاق النبي ﷺ، لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق عصام الدين الصبابطي.

١٢ـ الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣ ـ أداب الحرب في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين، إعداد وضبط علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ط٣، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٤ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة (ب.ت).

١٥ـ أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق د. محمد الصباح، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٧م.

١٦ـ أدب المسلم في العادات والعبادات والمعاملات ،محمد مبيض ،دار ابن كثير ط٢ ،١٤١٣ هـ.

١٧ـ الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ لمحيي الدين أبي زكريا بن

شرف النووي، مكتبة الرياض الحديثة.

١٨ـ الإرهاب دوافعه وعلاجه، د. محمد الشويعر، ط٢، الرياض، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٩ـ أسباب الشفاء من الأسقام والأهواء، لأبي إسحاق العراقي، المكتبة الجامعة، مطبعة البغدادي العراقي، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٠ـ الاستذكار، لابن عبد البر ، دار قتيبة، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢١ـ الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، مكتبة السنة ،تحقيق د : محمد رشاد سالم .

٢٢ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب، للأستاذ حسين عبدالله باسلامة، تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٣ ـ الإسلام وبناء المجتمع د. حسن أبو غدة وآخرون، مكتبة الرشد، ط٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٤ـ أصول الدين، لعبدالقاهر البغدادي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م.

٢٥ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام ـ دار سحنون، تونس ـ القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.»

٢٦ـ إعجاز القرآن ، لأبي بكر الباقلاني ، دار إحياء العلوم، بيروت، قدم له، وشرحه، وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م..

٢٧ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب

العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
٢٨ـ أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، أو ٢٠٠ سؤال في العقيدة الإسلامية، تأليف الشيخ: حافظ الحكمي، خرَّج أحاديثه وعلَّق عليه مصطفى أبو النصر الشلبي، ط٣، ١٤١٠هـ، مكتبة السوادي جدة.
٢٩ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٠ـ أعلام النبوة، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، قدَّم له وشرحه وعلَّق عليه محمد شريف سُكَّر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٣١ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي.
٣٢ـ أفول شمس الحضارة الغربية، تأليف مصطفى فوزي غزال، دار السلام للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.
٣٣ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق د.ناصر العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٣٤ـ اقتصاديات الغنى في الإسلام، د. عمر المرزوقي، جامعة الملك سعود، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٣هـ.
٣٥ـ الإقناع، للحجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، تحقيق عبداللطيف

محمد موسى السبكي.
٣٦ـ الأمراض الجنسية أسبابها وعلاجها، د. محمد علي البار ، دار المنارة، جدة، ط٢، ١٤٠٦هـ.
٣٧ـ الأمراض الجنسية، سيف الدين شاهين، ط٤، ١٤٠٩هـ.
٣٨ـ الأمراض الجنسية عقوبة إلهية، د. عبد الحميد القضاة، دار النشر الطبية، لندن، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥.
٣٩ـ الأمراض الجنسية، د. نبيل الطويل، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ.
٤٠ـ الأم، للشافعي ، دار المعرفة ، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.
٤١ـ الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٤٢ـ الانحرافات الجنسية وأمراضها، د. فايز الحاج، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ.
٤٣ـ الأنوار في شمائل النبي المختار، للبغوي، تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي.
٤٤ـ أهل الذمة في الحضارة الإسلامية، حسن الممي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٨م.
٤٥ـ أهل الذمة والولايات العامة في الفقه الإسلامي، إعداد نمر محمد خليل النمر، المكتبة الإسلامية، عمَّان، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ.
٤٦ـ إيقاظ الفكرة بمراجعة الفطرة، تأليف محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد صبحي بن حسن

حلاق، دار ابن حزم، ط١ ، ١٤٠٢هـ ـ١٩٩٩م.

٤٧ـ الإيمان بالقضاء والقدر، د. محمد الحمد، ط٣، دار ابن خزيمة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٨ـ الإيمان باليوم الآخر، د. محمد الحمد، ط٢ ، دار ابن خزيمة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

«ب»

٤٩ـ البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح، للشيخ زيادة بن يحيى الراسي، تحقيق د. سعود بن عبدالعزيز الخلف، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عمادة البحث العلمي، ط١ ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

٥٠ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، للكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥١ـ بدائع الفوائد لابن القيم، مكتبة الرياض.

٥٢ـ بداية المجتهد و نهاية المقتصد، لابن رشد، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٥٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق أحمد عبدالوهاب فتيح، دار زمزم، الرياض ١٤١٤هـ، وط دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٧هـ، تحقيق أحمد أبو ملحم وزملائه.

٥٤ـ البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق أ.د عبدالله التركي، دار هجر، ط١ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٥ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٥٦ـ بلاغة القرآن، للشيخ محمد الخضر حسين، إعداد وضبط: علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٥٧ـ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، خرج أحاديثه الشيخ بدر البدر، مكتبة السندس، ط٣، ١٤٠٨هـ.

٥٨ـ البيان في علوم القرآن، د. محمد بن علي الحسن، و د. سليمان القرعاوي، مؤسسة بيسان والبدر، دبي.

٥٩ـ البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

«ت»

٦٠ـ تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، دار الكتب العلمية.

٦١ـ تاريخ الكنيسة الشرقية، للمطران ميشيل يتيم، والارشمندريت أغناطيوس ديك، المكتبة البوليسية، لبنان، ط٤، ١٩٩٩م.

٦٢ـ تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي، حققه وضبط نصه، وعلق عليه د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٦٣ـ تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت.

٦٤ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، تحقيق محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

٦٥ـ التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٦٦ـ تحفة المودود في أحكام المولود لابن القيم، تحقيق بشير عيون، الناشر مكتبة دار البيان، التوزيع: مكتبة المؤيد، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٦٧ـ التدمرية، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لابن تيمية، تحقيق د.محمد بن عودة السعوي، ط١، ١٤٠٥هـ.

٦٨ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكناني، وعلق عليه السيد محمد محمد هاشم الندوي، رمادي للنشر، المؤتمن للتوزيع، ط٢، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٩ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، دار الفكر، لبنان، بيروت.

٧٠ـ تربية الأولاد في الإسلام ،عبد الله ناصح علوان ،دار السلام ،ط ٩ .

٧١ـ تعريف عام بدين الإسلام للشيخ علي الطنطاوي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٧٢ـ تعريف عام بدين الإسلام المسمى: رسائل السلام ورسل الإسلام

للشيخ يوسف الدجوي، دار ابن كثير ـ دار القادري، دمشق ـ بيروت.

٧٣ـ التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٧٤ـ تفسير ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، المكتبة العصرية، صيدا، تحقيق أسعد محمد الطيب.

٧٥ـ تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم، لأبي السعود محمد بن محمد العماد ، دار الإحياء والتراث العربي، بيروت.

٧٦ـ تفسير البغوي، معالم التنزيل، للإمام البغوي، تحقيق محمد بن عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان الحرش، دار طيبة، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧٧ـ تفسير التحرير والتنوير، تأليف العلامة محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٧٨ ـ تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٧٩ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٨٠ـ التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، للعلامة عبدالرحمن ابن سعدي، مع تعليق سماحة الشيخ

عبدالعزيز ابن باز، تخريج الشيخ علي بن حسن بن عبدالحميد الحلبي، ط١، ١٤٠٩هـ، دار ابن القيم.

٨١ـ تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل، للإمام الشوكاني، علق عليها وخرَّجها الشيخ مشهور بن حسن سلمان، ط١، ١٤١٠هـ، دار ابن حزم، بيروت.

٨٢ـ تهذيب الأخلاق، للجاحظ، قرأه وعلق عليه أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٨٣ـ توضيح الأحكام من بلوغ المرام، للشيخ عبدالله البسام، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط٥، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٨٤ـ التوبة وظيفة العمر، د. محمد الحمد، ط١، دار ابن خزيمة، ١١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٨٥ـ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان ابن عبدالله ابن محمد بن عبدالوهاب، الطبعة الثامنة ١٤٠٩هـ، المكتب الإسلامي.

٨٦ـ تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، للشيخ عبدالله البسام، مكتبة جدة، ط٧، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٧ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن السعدي، اعتنى به سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٢، ١٤٢٦هـ.

٨٨ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لابن سعدي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، مكتبة الأقصى عنيزة.

٨٩ـ تيسير الوصول إلى علم الأصول، د. عبدالرحيم يعقوب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ

«ج»

٩٠ـ جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، دار الفكر.

٩١ـ جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط١، ١٤١٠٥هـ.

٩٢ـ جامع الرسائل، لابن تيمية، د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط١، ١٤٠٥هـ.

٩٣ـ الجامع الصحيح في القدر، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٩٤ـ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٩٥ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، للإمام محمد بن فتوح الأزدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سنة ١٩٦٦هـ.

٩٦ـ الجراحة الصغرى، د. رضوان با بولي، و د. أنطوان دولي، منشورات جامعة حلب، كلية حلب، ١٤٠٧هـ.

٩٧ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٩٨ـ الجنة والنار، د.عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٢، ١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٢م.

٩٩ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ، تحقيق د.علي حسن ناصر وزميليه.

١٠٠ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق عامر بن علي ياسن، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١.

١٠١ ـ جوامع السيرة النبوية، لابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٠٢ ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب، للشيخ جمال الدين القاسمي، مؤسسة قرطبة.

١٠٣ ـ جواهر الإكليل شرح مختصر خليل مذهب مالك، لصالح بن عبدالسميع الأبي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

«ح»

١٠٤ ـ حاشية رد المحتار، لخاتمة المحققين محمد أمين الشهير بابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، دار الفكر، ط٢، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١٠٥ ـ حاشية السندي على النسائي، أبو الحسن السندي، مكتب المطبوعات الإسلامية ـحلب، ط٢، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة.

١٠٦ ـ الحبائك في أخبار الملائك، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٠٧ ـ الحج، د. عبدالله الطيار، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٠٨ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، لابن الدّيبع الشيباني الشافعي، حقَّقه عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، طُبع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر.

١٠٩ ـ الحرية في الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين، دار الاعتصام.

١١٠ ـ حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والإسلام مقارنة بالقانون الدولي، د. خالد بن محمد الشنيبر، كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١١١ ـ حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، د. علي بن عبدالرحمن الطيار، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١١٢ ـ الحكمة والتعليل في أفعال الله، تأليف: د. محمد بن ربيع المدخلي، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتبة لينة للنشر والتوزيع، دمنهور.

١١٣ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٤ ـ الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد بن محمد المغامسي، مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني، الرياض، ط٣، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١١٥ ـ الحوار في السيرة النبوية، د. محمد الحمد، إدارة الثقافة الإسلامية، الكويت، ٢٠١٠م.

«خ»

١١٦ ـ الخصائص الكبرى، أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق د. محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، شارع الجمهورية بعابدين.

١١٧ ـ خطوات في فقه التعايش والتجديد، تأليف د. هانئ أحمد فقيه، دار الفتح للدراسات والفتح، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١١٨ ـ خلاصة السيرة النبوية، وحقيقة الدعوة الإسلامية، للشيخ محمد رشيد رضا، صححها وعلَّق عليها عبدالله السيد أحمد حجاج، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

«د»

١١٩ ـ دائرة المعارف الكتابية، إعداد جماعة من اللاهوتيين، دار الثقافة، مصر، مختلفة الطبعات بحسب أجزائها السبعة.

١٢٠ ـ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٢١ ـ دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية، أ.د. سعود بن عبدالعزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٢٢ ـ دروس وعبر من سيرة خير البشر محمدﷺ، د. زهير محمد عفانة، دار النقاش، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٢٣ ـ الدعاء مفهومه ـ أحكامه ـ أخطاء تقع فيه، د. محمد الحمد، دار ابن

خزيمة، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٢٤ ـ دع القلق، وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، تعريب عبدالمنعم محمد الزيادي، ١٩٨٠م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

١٢٥ ـ الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٧٠م.

١٢٦ ـ الدعوة إلى الإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، تحقيق علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٢٧ ـ دعوة التوحيد ـ أصولها ـ الأدوار التي مرت بها ـ مشاهير دعاتها، د.محمد خليل هراس، مكتبة الصحابة، طنطا.

١٢٨ ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطابع الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.

١٢٩ ـ الدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة داخلة في الدين الإسلامي، للشيخ عبدالرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٣٠ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثَّق أصوله وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣١ ـ الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، للشيخ عبدالرحمن السعدي، مكتبة دار الأقصى، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٢ ـ ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتحقيق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية.

«ذ»

١٣٣ ـ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق محمد حامد الفقي، ١٣٧٢هـ.

«ر»

١٣٤ ـ الرحمة والعظمة في السيرة النبوية، محمد الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٣٥ ـ الرد على البكري ، ابن تيمية ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ.، تحقيق محمد علي عجال.

١٣٦ ـ الرد على من قال بفناء الجنة والنار، وبيان الأقوال في ذلك، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق د. محمد بن عبدالله السمهري، دار بلنسية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٣٧ ـ رسائل الإصلاح، للشيخ محمد الخضر حسين، دار الإصلاح، السعودية، الدمام.

١٣٨ ـ رسائل في العقيدة، د. محمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٣٩ ـ رسائل في العقيدة، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٤٠ ـ الرسالة، للشافعي، دار الكتب العلمية، تحقيق أحمد محمد شاكر.

١٤١ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، لابن القيم، تحقيق عبدالله ابن محمد المديفر، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٤٢ ـ الرسالة المحمدية، للسيد سليمان الندوي، مكتبة دار الفتح، دمشق، ط٢، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

١٤٣ ـ الرسل والرسالات، د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤٤ ـ رمضان دروس وعبر تربية وأسرار، د. محمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٣هـ.

١٤٥ ـ روائع الطب الإسلامي د. محمد نزار الدقر، موجود في الشبكة العنكبوتية.

١٤٦ ـ الروح، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

١٤٧ ـ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، ومعه السيرة النبوية للمعافري، علّق عليه ووضع حواشيه مجدي بن منصور بن سيد الشورى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٤٨ ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي، المكتب الإسلامي،

بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٤٩ ـ رياض الصالحين، لأبي زكريا يحيى النووي، حققه حسان عبدالمنان، دار طيبة، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٤١٢هـ.

١٥٠ ـ الرياض الناضرة، والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مؤسسة قرطبة، صححه واعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم.

«ز»

١٥١ ـ زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٥٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١٥، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

«س»

١٥٣ ـ سبل السلام، للصنعاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

١٥٤ ـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، توزيع مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٥٥ ـ السنة لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥٦ ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، مكتبة دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

١٥٧ ـ سنن الترمذي، أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٨ ـ سنن الترمذي، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢.

١٥٩ ـ سنن الدارمي، للإمام الدارمي، دار المغني، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ ـ٢٠٠٠م.

١٦٠ ـ سنن أبي داود، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢.

١٦١ ـ سنن أبي داود، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.

١٦٢ ـ سنن ابن ماجة، دار الدعوة، دار سحنون، ترقيم محمد عبدالباقي، ط٢.

١٦٣ ـ سنن ابن ماجة، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر.

١٦٤ ـ سنن النسائي، تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ، ط٢.

١٦٥ ـ سوء الخلق ـ مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه، د. محمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٦٦ ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه، تأليف أبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد، ط٦، ١٤٠٤هـ، عالم الكتب.

١٦٧ ـ السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، د. أكرم العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

«ش»

١٦٨ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق د. أحمد ابن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض.

١٦٩ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

١٧٠ ـ شرح الزركشي على مختصر الخرقي، د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٧١ ـ شرح السنة للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

١٧٢ ـ شرح السنة للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٧٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية، حققها وراجعها: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٨، ١٤٠٤هـ.

١٧٤ ـ شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف الشيخ محمد خليل الهراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: الشيخ علوي

السقاف، ط١، ١٤١١هـ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، الثقبة.

١٧٥ ـ شرح فتح القدير لابن الهمام مع تكملة نتائج الأفكار في كشف رموز الأسرار، للقاضي زاده، ط١، ١٣١٥هـ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

١٧٦ ـ الشرح الكبير، للإمام ابن قدامة، المكتبة السلفية، مكتبة المؤيد.

١٧٧ ـ شرح الكوكب المنير، لابن النجار، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، تحقيق محمد الزحيلي و نزيه حماد.

١٧٨ ـ شرح منتهى الإرادات، للشيخ منصور البهوتي، دار عالم الكتب، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٧٩ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، تحرير الحساني حسن عبدالله، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٨٠ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، تحقيق علي محمد البجاوي، طُبِعَ بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة.

١٨١ ـ شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، لابن كثير، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، المكتبة الأدبية العربية، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٨٢ ـ الشمائل المحمدية للإمام الترمذي، إخراج وتعليق محمد عفيف الزعبي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨٣ ـ شمس الغرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون، دار صادر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨.

١٨٤ ـ الشورى فريضة إسلامية، د. علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٨٥ ـ الشورى، د. محمود الخالدي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٨٦ ـ الشورى وأثرها في الديموقراطية دراسة مقارنة د. عبدالحميد الأنصاري، ط٣، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٨٧ ـ الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، د.عبدالرزاق العباد، ط١، ١٤١١هـ، مكتبة الرشد.

«ص»

١٨٨ ـ صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، بقلم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٨٩ ـ صحيح البخاري، للإمام البخاري، بيت الأفكار الدولية، عناية أبي صهيب الكرمي، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩٠ ـ صحيح البخاري، للإمام البخاري، دار سحنون، دار الدعوة، ط٢.

١٩١ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٩٢ ـ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة

الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، ط٢.

١٩٣ ـ صحيح سنن الترمذي، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٩٤ ـ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر.

١٩٥ ـ صحيح مسلم، عناية أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩٦ ـ صحيح مسلم، للإمام مسلم، من منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، وطبعة دار الدعوة ودار سحنون، بترقيم عبدالباقي.

«ط»

١٩٧ ـ الطريق إلى الإسلام، محمد الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٩٨ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، ضبط نصه وخرج أحاديثه عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٩هـ.

«ع»

١٩٩ ـ عالم الجن والشياطين، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٥، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٠٠ ـ عالم الملائكة الأبرار، د. عمر الأشقر، دار النفائس، ط١٣، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٠١ ـ العبودية، لا بن تيمية، تحقيق الشيخ : علي بن حسن بن عبد الحميد، دار

الأصالة للنشر والتوزيع، ط ١٤١٢، ١هـ.

٢٠٢ ـ عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، مكتبة الضياء، جدة، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٠٣ ـ العقل والنقل عند ابن رشد، د.محمد أمان الجامي، ط٣، ١٤٠٤هـ، الجامعة الإسلامية.

٢٠٤ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة، محمد بن إبراهيم الحمد، تقديم: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار ابن خزيمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠٥ ـ عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. أحمد بن سعد الغامدي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٠٦ ـ العقيدة في الله، د. عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط٥، ١٩٨٤م.

٢٠٧ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام، جولدرزيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرين، دار الكتب الحديثة، مصر، ط٢.

٢٠٨ ـ العلم يدعو للإيمان، تأليف: كريسي موريسون، ترجمة محمد صالح الفلكي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢٠٩ ـ العمل عند المسلمين رؤية حضارية، د إبراهيم المزيني، وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢١٠ ـ العمل في الإسلام: أخلاقه، مفاهيمه، قيمه، أحكامه، لعز الدين

الخطيب التميمي، عمان، الأردن، دار الفيحاء.

٢١١ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة الدِّينَوري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

«غ»

٢١٢ ـ غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للشيخ محمد السفاريني، مؤسسة قرطبة، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

«ف»

٢١٣ ـ الفاحشة عمل قوم لوط الأضرار الأسباب سبل الوقاية العلاج، د. محمد الحمد، ط١، دار ابن خزيمة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢١٤ ـ الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق وتعليق وتقديم محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢١٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٠٧هـ.

٢١٦ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد بن صالح العثيمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط٤، ١٤١٠هـ.

٢١٧ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، للإمام محمد ابن علي الشوكاني، عالم الكتب، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، تحقيق عبدالرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢١٨ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث، للسخاوي،دار الكتب العلمية ،لبنان، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

٢١٩ ـ الفروق ، لشهاب الدين القرافي، عالم الكتب، بيروت.

٢٢٠ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ ، للحافظ ابن كثير، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢١ ـ فقه الأسماء الحسنى، د. عبدالرزاق البدر، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢٢٢ ـ فقه السنة، للشيخ سيد سابق، دار الكتب العربية، بيروت، ط٨، ١٤٠٧هـ.

٢٢٣ ـ فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي، خرَّج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط٧، ١٩٧٦م، دار إحياء التراث العربي.

٢٢٤ ـ فقه الشورى دراسة تأصيلة نقدية، د. علي بن سعيد الغامدي، ط١ ، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٢٢٥ ـ الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ ، ١٤٠٦هـ.

«ق»

٢٢٦ ـ القاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٢٢٧ ـ القدر لأبي بكر جعفر بن محمد الفريابي، تحقيق عمرو عبدالمنعم سليم، دار ابن حزم، ط١ ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٢٨ ـ القضاء والقدر في الإسلام، د. فاروق أحمد الدسوقي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الخاني، ط٢، ١٤٠٦هـ، الرياض.

٢٢٩ ـ القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه، للشيخ د.عبدالرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٣٠ ـ القضاء والقدر، د. عمر الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٣١ ـ القطاع الخيري ودعاوى الإرهاب د. محمد السلومي، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٣٢ ـ قواعد الحرب في الشريعة الإسلامية دراسة مقارنة للشيخ عواض الوذيناني، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٣٣ ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه أشرف بن عبدالمقصود، أضواء السلف، أصداء المجتمع، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٣٤ ـ القيامة الصغرى، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ١٤٢٣ ـ ٢٠٠م.

٢٣٥ ـ القيامة الكبرى، د. عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط١٣، ١٤٢٣ ـ ٢٠٠م.

«ك»

٢٣٦ ـ الكافي في فقه أهل المدينة، لا بن عبد البر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٣٧ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، تأليف الحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٣٨ ـ كفاية الأخيار، لمحمد الحسيني، الشؤون الدينية، دولة قطر.

٢٣٩ ـ الكليات لأبي البقاء الكفوي، قابله على نسخ وأعده للطبع، د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨.

٢٤٠ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق محمود الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

«ل»

٢٤١ ـ لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٤٢ ـ الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، أشرف على تحريره: جون كلوفرمونسيما، ترجمة د.الدمرداش عبدالمجيد سرحان، راجعه وعلق عليه. د. محمد جمال الدين الفندي، دار القلم، بيروت.

٢٤٣ ـ لماذا انتحر هؤلاء، إعداد وتوثيق هاني الخيِّر، دار دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

٢٤٤ ـ لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لابن قدامة، شرح الشيخ محمد ابن عثيمين، ط٢، ١٤١٢هـ، مكتبة الإمام البخاري، الدار السلفية، حققه وخرَّج أحاديثه: أشرف بن عبدالمقصود ابن عبدالرحيم.

٢٤٥ ـ لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، تأليف العلامة محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ.

«م»

٢٤٦ ـ مباحث في إعجاز القرآن، أ.د. مصطفى مسلم، دار التدمرية، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٢٤٧ ـ مباحث في العقل أ.د. محمد نعيم ياسين، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ط١، ١٤٣٢ـ٢٠١١م.

٢٤٨ ـ المبسوط، للسرخسي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م، دراسة وتحقيق خليل محي الدين الميس

٢٤٩ ـ مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، للهيثمي، ط٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٥٠ ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، مركز صالح ابن صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ.

٢٥١ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن

بن قاسم وابنه محمد.

٢٥٢ ـ مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب الشيخ فهد السليمان، دار الوطن، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٥٣ ـ محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، تأليف عبدالرؤوف محمد عثمان، مكتبة الضياء، جدة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٥٤ ـ المحلى، لابن حزم، المكتب التجاري، بيروت، تحقيق أحمد شاكر

٢٥٥ ـ محمد رسول الله ﷺ، تأليف محمد رضا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٥٦ ـ محمد رسول الله ـ خلاصة سيرته ـ ومقالات نادرة فيها، محمد الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٥٧ ـ محمد رسول الله ﷺ، للعلامة أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٥٨ ـ محمد ﷺ المثل الكامل، لمحمد أحمد جاد المولى بك، ط٦، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح.

٢٥٩ ـ مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، للشيخ عبدالعزيز السلمان، ط١٠، ١٤٠٣هـ.

٢٦٠ ـ مختصر المزني ـ حاشية كتاب الأم ـ طبعة كتاب الشعب، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٦١ ـ مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، تحقيق زهير الشاويش،

المكتب الإسلامي، ط٨، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٦٢ ـ المختصر الوجيز في علوم الحديث، تأليف د. محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٦٣ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق وتعليق المعتصم بالله البغدادي، توزيع دار النفائس، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٦٤ ـ المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د.عبدالرحمن عميرة، دار اللواء الرياض، ط٥، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٦٥ ـ مذكرة في التوحيد للشيخ محمد بن قاسم، مخطوط.

٢٦٦ ـ المذكرات لمحمد كرد علي، دار أضواء السلف، الرياض.

٢٦٧ ـ مرض الإيدز الطاعون الجديد، د. خالص جلبي، دار الهداية، ط١، ١٤٠٧٨هـ.

٢٦٨ ـ مزيل الداء عن أصول القضاء، تأليف الشيخ عبدالله بن مطلق الفهيد، ط١، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

٢٦٩ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

٢٧٠ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، دار سحنون، ط٢.

٢٧١ ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه الشيخ أحمد محمد شاكر، مكتبة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، ط٢.

٢٧٢ ـ مسند الجعد، للحافظ أبي الحسين علي بن الجعد بن عبيد الجوهري، تحقيق د. عبدالمهدي بن عبدالقادر بن عبدالهادي، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، مكتبة الفلاح، الكويت.

٢٧٣ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٨م، دار المأمون للتراث، دمشق.

٢٧٤ ـ مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، د. عدنان باحارث، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٧٥ ـ المسؤولية في الإسلام، د. عبدالله قادري الأهدل، دار العمير للثقافة والنشر، ط ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٧٦ ـ مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٧٧ ـ معارج القبول لشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، للشيخ حافظ الحكمي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٧٨ ـ معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق وضبط عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٧٩ ـ معجم الطبراني الكبير، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٢٨٠ ـ مع الرعيل الأول، للشيخ محب الدين الخطيب، ط٢، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٢٨١ ـ المغني، ابن قدامة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، ط٣،

١٤١٧هـ ـ١٩٩٧م.

٢٨٢ ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لمحمد الخطيب الشربيني، مكتبة مصطفى البابي الحلب، القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

٢٨٣ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨٤ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٨٥ ـ مقامات الحريري، دار صادر، بيروت.

٢٨٦ ـ مقدمة ابن خلدون، تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي، طبع لجنة البيان العربي، القاهرة، ط١، ١٣٧٦هـ.

٢٨٧ ـ مكارم الأخلاق، للخرائطي، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري، دار الآفاق العربية ـ مصر، ١٤١٩ هـ.

٢٨٨ ـ من أخطاء الأزواج، د. محمد الحمد، ط١، دار ابن خزيمة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٨٩ ـ مناهل العرفان ، للشيخ محمد الزرقاني ، دار إحياء الكتب العلمية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

٢٩٠ ـ من صفات الداعية اللين والرفق، د. فضل إلهي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢٩١ ـ من صفات الداعية مراعاة أصول المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير

الصالحين، د. فضل إلهي، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، إدارة ترجمان الإسلام باكستان.

٢٩٢ ـ منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٩٣ ـ المهدي حقيقة لا خرافة، للشيخ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٩٤ ـ المواهب الربانية من الآيات القرآنية للشيخ عبدالرحمن السعدي، اعتنى بها سمير الماضي، رمادي للنشر، المؤتمن للتوزيع، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٩٥ ـ موسوعة الأعمال الكاملة، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها المحامي علي الرضا الحسيني، دار النبوة، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٢٩٦ ـ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف معالي الشيخ د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن محمد مَلُّوح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٩٧ ـ موقف ابن تيمية من الإشاعرة د. عبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد، الرياض ط٢، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

«ن»

٢٩٨ ـ النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.، وأضواء السلف، تحقيق د.عبدالعزيز الطويان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ٢٠٠٠م.
٢٩٩ ـ النظام السياسي في الإسلام ـالنظرية السياسية نظام الحكم ـ د. عبدالعزيز الخياط، دار السلام، مصر، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
٣٠٠ ـ النظام السياسي في الإسلام د.سعود آل سعود وآخرون ، مدار الوطن، ط٥، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
٣٠١ ـ نظام الشورى في الإسلام ونظم الديموقراطية، د. زكريا الخطيب، مطبعة السعادة، ١٤٠٥هـ.
٣٠٢ ـ النظام الاقتصادي في الإسلام د. عمر المرزوقي وزملاؤه، مكتبة الرشد، ط٤، ١٤٣٠ه ـ ٢٠٠٩م.
٣٠٣ ـ النظام المالي والاقتصادي في الإسلام د. محمود الخطيب، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
٣٠٤ ـ نظرات الأسرة المسلمة، د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٣٠٥ ـ نقض المنطق، لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه الشيخ محمد ابن عبدالرزاق حمزة والشيخ سليمان الصنيع، وصححه الشيخ محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.

٣٠٦ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٠٧ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، للعلامة محمد بن علي الشوكاني، تقديم وتقريظ د. وهبة الزحيلي، توزيع دار الصميعي، الرياض، ودار الخير، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

«هـ»

٣٠٨ ـ الهداية الإسلامية، للشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي، ط١، ١٣٩٤هـ.

٣٠٩ ـ الهمة ا لعالية معوقاتها ومقوماتها، د. محمد الحمد، دار ابن خزيمة، ط٧، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٥م.

«و»

٣١٠ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب، للإمام ابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣١١ ـ وجوب التعاون بين المسلمين، للشيخ عبدالرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣١٢ ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة وموازنة د.سليمان ابن صالح القرعاوي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٣١٣ ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للدامغاني، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه، عبدالعزيز سيد الأهل.

٣١٤ ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لهارون بن موسى، كلية التربية جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٣١٥ ـ وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣١٦ ـ ومضات فكر، للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، الدار العربية للكتاب.

«ي»

٣١٧ ـ ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، لأبي عُمَر محمد ابن عبدالواحد البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له د.محمد ابن يعقوب التركستاني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢.

فهرس الموضوعات